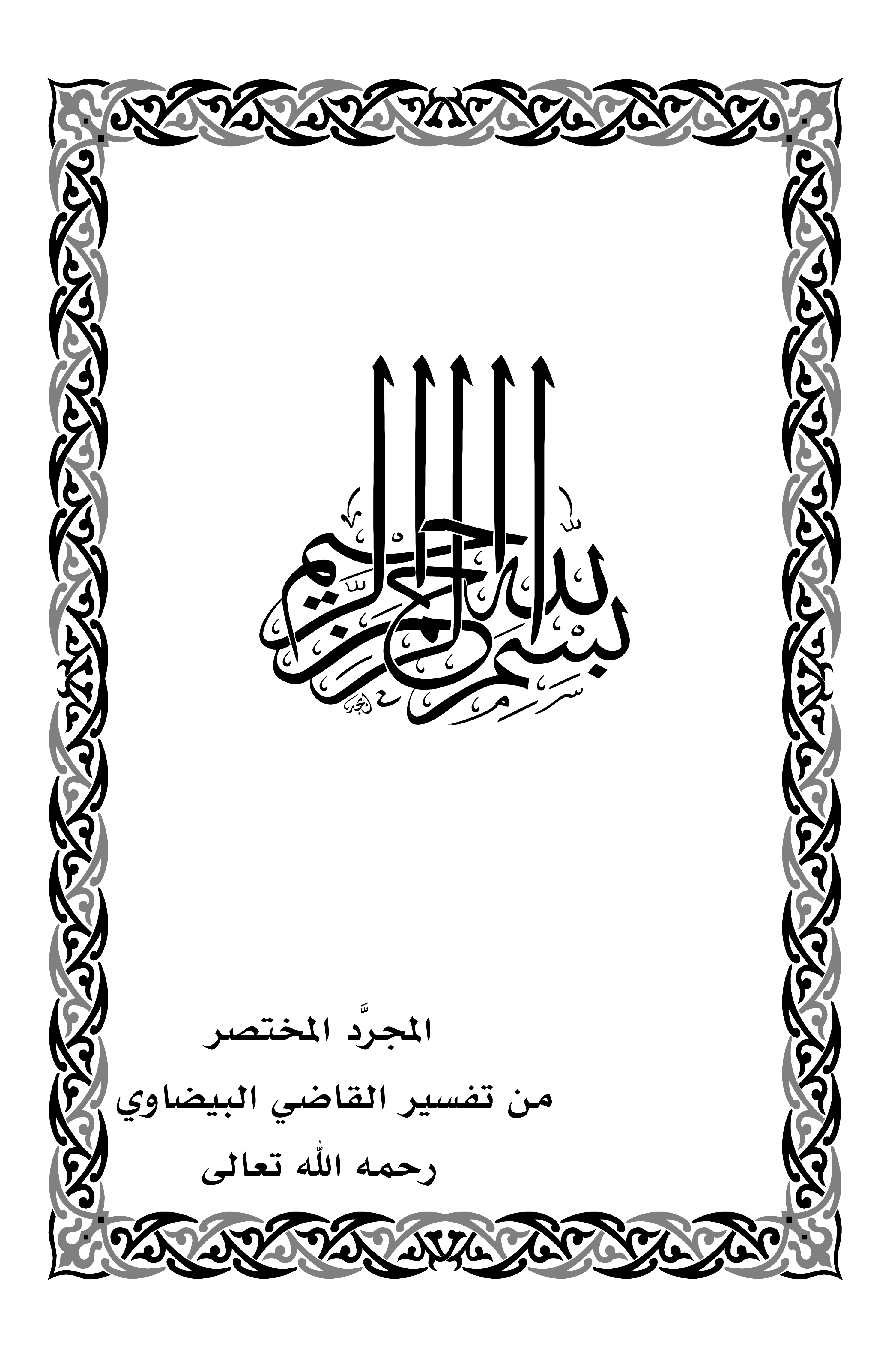


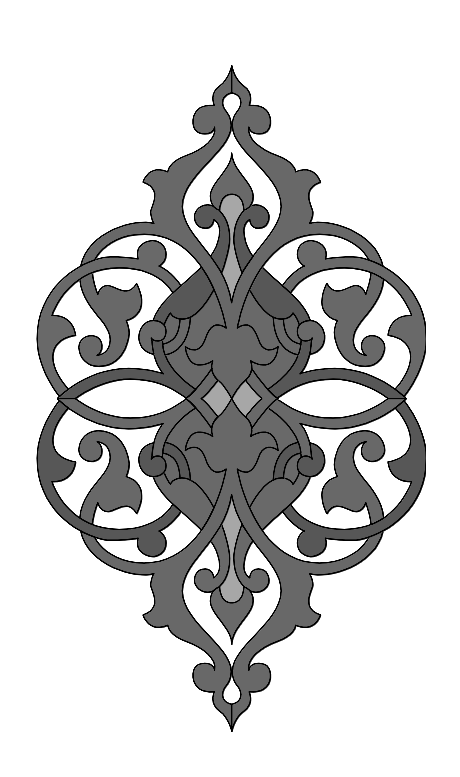
المجرَّد المختصر

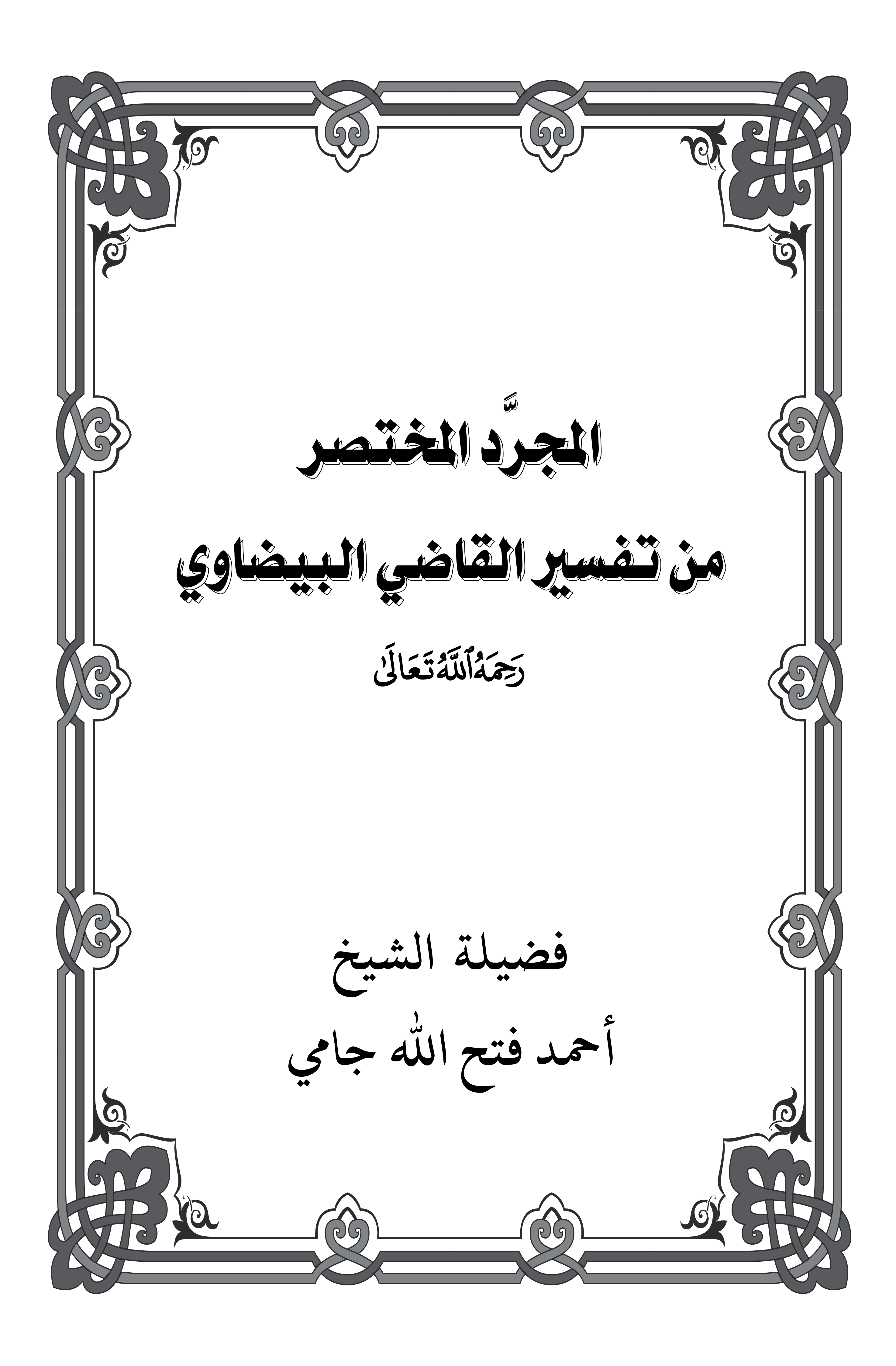
من تفسير القاضي البيضاوي

رحمه الله تعالى

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٤م





المجرَّد المختصر

من تفسير القاضي البيضاوي

رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ

فضيلة الشيخ

أحمد فتح الله جامي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَرْجَمَة

فضيلة الشيخ أحمد فتح الله جامي حفظه الله تعالى

هو الإمام العارف بالله تعالى، المجدِّد المربِّي سيدي الشيخ أحمد بن فتح الله جامي، شيخ الطريقة الشاذلية القادرية، الموشيُّ مولداً، الخالديُّ نسباً، الشافعي مذهباً. نشأ في أسرة شريفة، اشتهرت بالتقوى والصلاح والعلم، إضافة إلى الشجاعة وإغاثة الملهوف. وكان جدُّه الشيخ عبد الله جامي رحمه الله تعالى من العلماء البارزين في وقته، وهكذا أجداده من الشيخ إسماعيل إلى الشيخ ملا جامي رحمهم الله تعالى.

أما والد شيخنا ـ فتح الله جامي ـ رحمه الله تعالى فكان معروفاً بشجاعته وإقدامه، وكان حريصاً على أن يكون ولدُه طالبَ علم ويسلك طريق العلماء، فجعله عند من يعلِّمه العلم الشريف، وهو الشيخ حق شوناس رحمه الله تعالى. توفي والد شيخنا حفظه الله تعالى وشيخنا لم يتجاوز من العمر ثماني سنوات، فكان هو القائم بتربية أخيه محمد وأخواته، ولما تمَّ له من العمر عشرون عاماً بدأ بتحصيل العلم بشكل جدِّي دائم، وفي نفس الوقت بدأ بالسير والسلوك في مجاهدة النفس في الطريقة النقشبندية، وتابع سيره وسلوكه وتحصيله في طلب العلم، وطلبُهُ الوحيد البحثُ عن الأستاذ التقيِّ النقيِّ لتحصيل العلم على يديه، وأكرمه الله تعالى بذلك، فجميع أساتذته من أهل التصوُّف الخالص.

فأخذ علم الفقه واللغة العربية عن الشيخ عبد الهادي العمري البوطي رحمه الله تعالى، وهو مأذون في الطريقة النقشبندية، وتابع ذلك على يد الشيخ عبد الرحمن العمري البوطي رحمه الله تعالى، وأخذ منه الكثير من العلوم الأخرى، وكذلك أخذ العلوم عن الشيخ محمد ظاهر الملاذكردي، فهو أستاذ أستاذه الشيخ عبد الرحمن العمري رحمهما الله تعالى.

وكان حفظه الله تعالى متوكِّلًا على الله تعالى معتمداً عليه، لم يتعلق بأسباب العيش، وإنما همُّه الاجتماع بالعلماء الأتقياء الصادقين.

قال حفظه الله تعالى عن هذا الجانب:

(أخذت علومي من المتقين، وتأدَّبتُ بآدابهم، حتى أجازوني بالإجازات العلمية، وهذا من فضل الله تعالى. لقد عشت مع المتقين، وأخذت الطريق من الصادقين)، ولقد بلغ من محبَّته للشرع الشريف الدرجات العالية ، فكان غيوراً على شرع الله تعالى.

وقال أيضاً: (الشريعة حبل الله تعالى النازل من السماء إلى الأرض، وهو الطريق الوحيد للخلاص من الغرق في بحر الدنيا، ومن ادَّعى طريقاً آخر لذلك ضلَّ وأضلَّ)، وسلوك هذا الطريق هو اتِّباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتِّباع من اتَّبع رسولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هو اتِّباع لشرع الله عز وجل، كما يؤكِّد على أهمية الالتزام بعقيدة أهل السنة والجماعة، واتِّباع المذاهب الأربعة، ويوجِّه المسلمينَ عامة وأهلَ الطريق خاصة لكثرة الذكر، وقراءة القرآن الكريم بالتدبُّر، والإخلاص في العبادة.

أخذ الطريقة النقشبندية عن سيدي إبراهيم حقي رحمه الله تعالى، ولازمه فترة طويلة من حياته، ويقول حفظه الله تعالى: (رُبِّيت على يد الشيخ إبراهيم حقي رحمه الله تعالى، وبقيت معه حتى آخر لحظة من حياته، حيث غسَّلته وكفَّنته بيدي رحمه الله تعالى)، وبعد وفاته أخذ يبحث عن مرشد له، وبقي سبعة عشر عاماً على هذا الحال.

وخلال هذه الأعوام كان مجاهداً لنفسه على طريقة الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، وكان يكثر من خلواته، حتى تعرَّف على شيخه في الطريقة الشاذلية القادرية سيدي الشيخ عبد القادر عيسى الحلبي رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَىٰ، ودخل الطريقة، وأدخله خلوة لمدة عشرة أيام، ثم أذن له بالورد العام، وبعد أعوام أعطاه الإذن بالورد العام والخاص، وهو الخليفة للشيخ عبد القادر عيسى رحمه الله تعالى.

يقول حفظه الله تعالى: طوال هذه الأعوام بعد وفاة شيخي الأول وأنا أبحث عن المرشد، كنت في معية سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى بروحانيَّته، وكنت أرى الذي أراه، ولكن ليس طلبي كشفاً ولا كرامة، طلبي غير هذا، حتى أكرمني الله تعالى بسيدنا الشيخ عبد القادر عيسى رحمه الله تعالى.

وكان له اهتمام بمسلك الأستاذ بديع الزمان النورسي رحمه الله تعالى ورسائله (رسائل النور).

ويقول كذلك: طريقة الإمام الغزالي رحمه الله تعالى سلوكي، وطريقة الإمام الشاذلي رحمه الله تعالى مشربي، فالأولى في الرياضات، والثانية في الذكر.

وهو حفظه الله تعالى كثير الشفقة على خلق الله تعالى، فكلُّ من خالطه عرف مدى رحمته بالخلق، وكثيراً ما سمعنا منه حفظه الله تعالى: (سعادة المرء في شيئين: التعظيم لأوامر الله تعالى، والشفقة على خلق الله تعالى)، وخصوصاً على الأيتام والمساكين، وكذلك على المهاجرين الذين تركوا أوطانهم، وتأثُّره الشديد بأحوال المسلمين وما يصيبهم، وكثرة دعائه لهم، وتحذيره من إهراق دماء المسلمين المعصومين، والانجراف وراء الفتن والقتل، وتحذيره من أهل العقائد المنحرفة والمذاهب الباطنية وأفكار الخوارج وأعمالهم.

أما عن تعلُّقه بالقرآن الكريم وعشقه لكلام ربِّنا جلَّ وعلا فكان يقول حفظه الله تعالى: (القرآن روحنا، القرآن شرفنا، القرآن عزُّنا)، ودائماً يوجِّه أحبابه ومريديه إلى كثرة قراءة القرآن بالتدبُّر، مع الرجوع للتفاسير

المختصرة لفهم معاني القرآن الكريم، وكان توجُّهه إلى القرآن منذ بداية حياته، فكان من ثمار ذلك كتاب: «نداء المؤمنين في القرآن المبين»، و«صفات المؤمنين في القرآن المبين»، وكتاب «تنزيه القلوب»، و«منتخبات من آيات القرآن الكريم»، وتوَّج هذا الاشتغال بالقرآن وتفاسيره باختصار الكتاب الذي بين أيدينا، وهو تفسير الإمام القاضي البيضاوي رحمه الله تعالى، مجرداً عن النحو والصرف واللغة ليستفيد منه الناس، ويكون تسهيلاً على القارئ ليفهم ويتدبَّر معاني القرآن العظيم، فجزاه الله تعالى عنا وعن المسلمين خيراً، وجعل عمله هذا في ميزان حسناته، وأدخل به السرور على قلب سيدنا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد انتشر الطريق بفضل الله تعالى وبركة أهل السلسلة، وصدقِ شيخنا وتجرُّده الكامل عن نفسه، في أرجاء الأرض شرقاً وغرباً، فقد وصلت آثار توجيهاته ووصاياه وحكمه إلى دول شتى وبلدان عدة، من ماليزيا إلى مصر وتونس والجزائر، حتى وصلت إلى المسلمين في كندا وأمريكا وأوربا، وكذلك إلى غير المسلمين حتى دخل بعضهم في الإسلام، وتأتيه الأسئلة من كلِّ بقاع الأرض من عامة المسلمين وعلمائهم، فيجيبهم بقدر الإمكان، ويبيِّن لهم وجوب اتباع الشريعة، وأن الشريعة أصلٌ، والطريقة فرعٌ، ويبيِّن لهم اعتقاد أهل السنة والجماعة وآداب الطريق.

ونختم بوصية كان لها أثر بالغ بين المؤمنين، وهي من الوصايا المهمَّة التي كثيراً ما يوصي بها سيدنا الشيخ حفظه الله تعالى: (لا بدَّ عليكم أن تتفكَّروا بالمعبود قبل العبادة، أي: تتفكَّروا في عظمته وربوبيَّته ووحدانيَّته جلَّ وعلا، وهو بعلمه جلَّ وعلا معنا، ينظر إلينا ومطَّلع على خفايا صدورنا، يعني لا بد من التعلُّق بالمعبود قبل الدخول في العبادة، لا تتفكَّروا في ذاته جلَّ وعلا، نحن بين يديه ولكن بدون تشبيه، فهو جلَّ وعلا كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١]).

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.

** ** **

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَرْجَمَة

الإمام المفسِّر القاضي البيضاوي رحمه الله تعالى

هو العلَّامة المفسر قاضي القضاة، ناصر الدين، أبو سعيد، عبد الله بن عمر بن علي البيضاوي الشيرازي، الشافعي، والبيضاوي نسبة إلى بيضاء، وهي بلدة من بلاد فارس، ولم تذكر المصادر سنة ولادته.

قال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى في «بغية الوعاة»: كان إماماً علَّامة، عارفاً بالفقه والأصلين والعربية والمنطق، نظاراً صالحاً، متعبِّداً، شافعيّاً.

وقال ابن قاضي شهبة رحمه الله تعالى في «طبقاته»: صاحب المصنَّفات، وعالم أذربيجان، وشيخ تلك الناحية.

وقال الإمام السبكي رحمه الله تعالى في «طبقاته الكبرى»: ولي القضاء بشيراز، ودخل تبريز، وناظر بها، وقال عنه رحمه الله تعالى: كان إماماً مبرزاً نظاراً خيراً، صالحاً متعبداً .

تتلمذ الإمام البيضاوي رحمه الله تعالى على جملة كبيرة من الشيوخ، منهم: والده الإمام أبو القاسم عمر بن محمد بن علي البيضاوي، والشيخ شرف الدين عمر البوشكاني الزكي، كان من أكابر العلماء العاملين، وكذلك تتلمذ على الشيخ محمد بن محمد الكحتائي، صحبه البيضاوي واقتدى به في الزهد والعبادة، رحمهم الله تعالى.

له مؤلفات كثيرة، من أشهرها هذا التفسير المسمى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، تلقَّاه العلماء بالقبول، وذاع ذكره في سائر الأقطار، وسار مسير الشمس في رابعة النهار، واشتغل به العلماء إقراءً وتدريساً وشرحاً حتى بلغت شروحه وحواشيه زهاء مئة وثلاثين حاشية، وظلَّ يُدرَّس بالأزهر وغيره من معاهد العلم قروناً عديدة، وهو كتاب عظيم الشأن غنيٌّ عن البيان، يحتوي فنوناً من العلم وَعْرة المسالك، وأنواعاً من القواعد مختلفة الطرائق.

وله أيضاً كتاب «المنهاج» مختصر من الحاصل والمصباح و«شرحه» (في أصول الفقه) وهو «منهاج الوصول إلى علم الأصول»، وكتاب «الطوالع» وهو «طوالع الأنوار» (في أصول الدين والتوحيد)، قال السبكي رحمه الله تعالى: وهو أجلُّ مختصر أُلِّف في علم الكلام، وغيره الكثير من المؤلفات.

ولي القضاء بشيراز، وتوفي رحمه الله تعالى بمدينة تبريز سنة (٦٩١ هـ) إحدى وتسعين وستمائة.

** ** **

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقـدّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، الذي منَّ علينا بنعمة القرآن العظيم، الذي هو كلام ربِّنا عزَّ وجلَّ صدقاً وحقّاً.

والصلاة والسلام على سيِّدنا محمَّد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، الذي أُنزل القرآنُ العظيم على قلبه الشريف، ليُخرج به العبادَ من الظلمات إلى النور، ويجعلهم يفرِّقون به بين الحقِّ والباطل، والحسن والقبيح، والرشد من الغيِّ.

ورضي الله تبارك وتعالى عن أصحابه الكرام الذين خصَّهم ربُّنا عزَّ وجلَّ بتلقِّي القرآن من فمه الشريف صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وعن التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

أقول مستعيناً بالله تعالى: أما بعد، فإنَّ أعظم نعمة مَنَّ الله عزَّ وجلَّ بها على البشر هي نعمة القرآن، لذلك وجب عليهم الحمد على هذه النعمة، قال الله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١﴾ [الكهف: ١].

فالقرآن العظيم كلام ربِّ العالمين، وتفسيره هو من أرفع العلوم قدراً، ومن أجلِّها خطراً، ومن أعظمها أجراً، ومن أشرفها ذكراً، لأن القرآن العظيم مصدر الهداية والنور، يهدي به جلَّ وعلا من يشاء من عباده.

ومن فضل الله عزَّ وجل علينا أن شغلنا بخدمة القرآن، وتفهُّم معانيه وتحصيل علومه؛ ولما كان تفسير القرآن العظيم للقاضي البيضاوي رحمه الله تعالى، المسمى بـ«أنوار التنزيل وأسرار التأويل» من التفاسير المشهورة، حيث جمع فيه المفسِّر رحمه الله تعالى بين التفسير والتأويل على مقتضى قواعد اللغة العربية، وذلك أخذاً من تفسير الكشاف للزمخشري رحمه الله تعالى؛ وقرَّر فيه الأدلَّة على أصول أهل السنة، وذلك أخذاً من التفسير الكبير للفخر الرازي رحمه الله تعالى؛ ومن تفسير الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى ما يتعلَّق بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات؛ وضمَّ لتفسيره بعضَ الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، واهتمَّ بذكر القراءات، وتعرَّض في تفسيره للنحو والصرف واللغة، كما تعرَّض لبعض المسائل الفقهية، وخاض في مباحث الكون والطبيعة، وبذلك قمَّص تفسيره باللغة والبيان والنحو والصرف والبلاغة والإعراب والقراءات.

لذلك عمدنا إلى تفسيره رحمه الله تعالى، واختصرناه تيسيراً على الأمة، فطرحنا هذه الأمور كلَّها، وأبقينا على معاني القرآن العظيم المجرَّدة من هذه الأمور، حرصاً منَّا على قارئ القرآن أن يقرأه بتدبُّرٍ وإمعان وتفكُّر، حتى لا تغيب معاني القرآن، فأبعدنا في هذا المختصر ما أثبته البيضاوي رحمه الله تعالى من المسائل اللغوية من نحو وصرف وما شابه ذلك، وأبعدنا القراءات التي كثيراً ما يذكرها رحمه الله تعالى، كما أبعدنا المسائل الاعتزاليَّة، والقضايا الفقهيَّة، إلا ما كان ضروريّاً من المسائل الفقهيَّة، وهو رحمه الله تعالى كان معتمَداً في التفسير والشريعة والاعتقاد؛ ومن أراد الرجوع للُّغة والنحو والصرف والبلاغة والإعراب وعلوم اللغة العربية فليرجع إلى مصادرها، كالمتون التالية وشروحها: ألفية ابن مالك، وكتاب قطر الندى، وكتاب شرح المغني للشيخ محمد العمري الميلاني، وكتاب الآجرومية، وكتاب حلِّ معاقد القواعد للإمام التفتازاني، وكتاب عقود الجمان للسيوطي، وغيرها من المتون والشروح.

وإذا لم يذكر المفسِّر رحمه الله تعالى تفسير بعض الآيات بسبب استغراقه في اللغة والقراءات، قمنا بإثبات تفسيرها من كتب التفاسير الأخرى، وعزونا كلَّ كلام لمصدره؛ كما بيَّنَّا معاني الكلمات المغلقة بالرجوع إلى الحواشي ومعاجم اللغة إيضاحاً للمعنى.

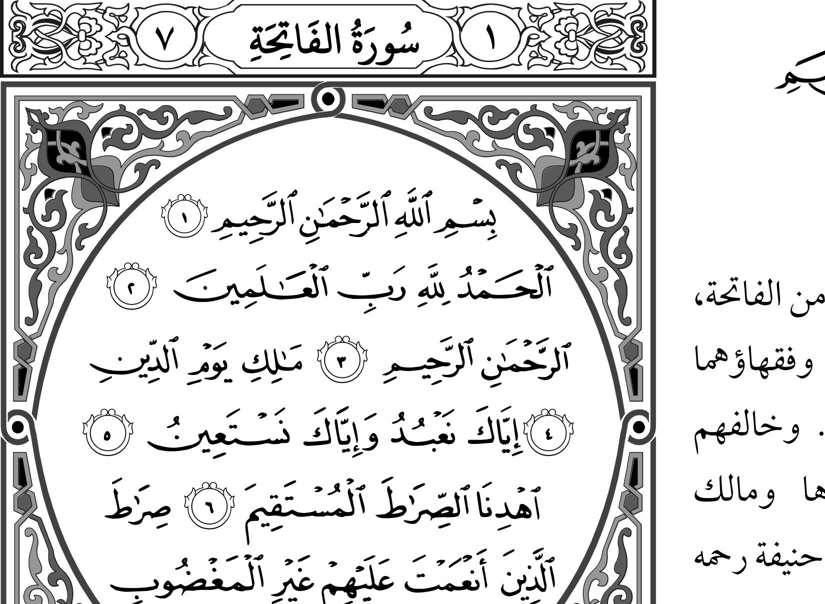
وإذا أردنا بيان أمر من الأمور التي تتعلَّق بالعقيدة أو العبادة أو الأخلاق أو نصيحة للمؤمنين من خلال بعض الآيات الكريمة، صدَّرنا لذلك بـ(أقول).

ولا ننسى دعاءنا ودعاء المسلمين لمن أعاننا على القراءة والترتيب من إخواننا جزاهم الله خيراً. اكتفينا بعدم ذكر أسمائهم بـ«إخواننا» جزاهم الله خيراً، وخصوصاً السيد الشريف خالد الأزهري.

نسأل الله عزَّ وجلَّ أن ينوِّر بصائرنا بكتابه العظيم، وأن يجعله قائداً لنا إلى جنات النعيم، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين آمين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

خادم الطريقة الشاذلية القادرية

أحمد فتح الله جامي



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الفاتحة

مكيَّة، وآيُها سبع آيات

(١) ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١﴾ من الفاتحة، ومن كل سورة، وعليه قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما وابن المبارك والشافعي رحمهم الله تعالى. وخالفهم قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها ومالك والأوزاعي رحمهم الله تعالى، ولم ينصَّ أبو حنيفة رحمه الله تعالى فيه بشيء، فظُنَّ أنها ليست من السورة عنده. وسئل محمد بن الحسن عنها فقال: ما بين الدفتين كلام الله تعالى. وروى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «فاتحة الكتاب سبع آيات، أولاهن بسم الله الرحمن الرحيم» [رواه الإمام الدارقطني رحمه الله تعالى]. والإجماع على أن ما بين الدفَّتين كلام الله سبحانه وتعالى. والاسم إن أريد به اللفظ فغير المسمى، وإن أريد به ذات الشيء فهو المسمى (أقول: وفي الحقيقة ثبت عندي أن الاسم عين المسمى [أحمد فتح الله جامي]، إن شئت ارجع إلى المقصد الأسنى لشرح أسماء الله الحسنى للإمام الغزالي رحمه الله تعالى) ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اسمان بُنيا للمبالغة من رَحِمَ، و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أبلغ من ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، لأن زيادة البناء تدلُّ على زيادة المعنى.

(٢) ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ (الحمد: هو الثناء على الجميل من جهة التعظيم من نعمة وغيرها) ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ الربُّ في الأصل: مصدر بمعنى التربية؛ وهي: تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً. والعالَم: اسم لما يعلم به، غلب فيما يُعلَم به الصانع تعالى، وهو كلُّ ما سواه من الجواهر والأعراض (أقول: وكلُّ شيء يدلُّ على الخالق سبحانه وتعالى على الإطلاق)، فإنها لإمكانها وافتقارها إلى مؤثر واجب لذاته تدل على وجوده وهو الله جل وعلا، وإنما جمعه ليشمل ما تحته من الأجناس المختلفة، وغلَّب العقلاءَ منهم فجمعه بالياء والنون كسائر أوصافهم.

(٣) ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ كرره للتعليل (أقول: الرحمن عام يشمل المؤمنين وغير المؤمنين، والرحيم خاصٌ بالمؤمنين).

(٤) ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ المالك: هو المتصرِّف في الأعيان المملوكة كيف يشاء. والمَلِك: هو المتصرِّف بالأمر والنهي في المأمورين. ويوم الدين يوم الجزاء. وقيل: الدِّينُ الشريعة. وقيل: الطاعة، والمعنى: يوم جزاء الدين.

(٥) ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ ثم إنه لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميَّز بها عن سائر الذوات، وتعلق العلم بمعلوم معين، خوطب بذلك، أي: يا من هذا شأنه نخصُّك بالعبادة والاستعانة، ليكون أدلَّ على الاختصاص، وللترقي من البرهان (أي: الدلائل) إلى العيان، والانتقال من الغيبة إلى الشهود،

فكأن المعلوم صار عياناً والمعقول مشاهداً والغيبة حضوراً؛ بنى أول الكلام على ما هو مبادي حال العارف من الذكر والفكر والتأمل في أسمائه جل وعلا، والنظر في آلائه، والاستدلال بصنائعه على عظيم شأنه وباهر سلطانه، ثم قفَّى (أي: أتبع) بما هو منتهى أمره، وهو أن يخوض لجة الوصول، ويصير من أهل المشاهدة فيراه عياناً ويناجيه شفاهاً (أقول: لا تتفكَّروا بذاته جلَّ وعلا، وتعلَّقوا بصفاته، وتفكَّروا بمصنوعاته، الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]) اللهم اجعلنا من الواصلين للعين دون السامعين للأثر (أقول: الواصلين إلى العين لا يدل على أن يصل لعين الخالق ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وكلُّ ما خطر على البال فالله تعالى بخلافه). والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل، والاستعانة طلب المعونة. وقدَّم المفعول للتعظيمِ، والاهتمامِ به، والدلالةِ على الحصر، ولذلك قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: معناه نعبدكَ ولا نعبد غيرك، وتقديمِ ما هو مقدَّم في الوجود، والتنبيهِ على أنَّ العابد ينبغي أن يكون نظره إلى المعبود أولًا وبالذات، ومنه إلى العبادة، لا من حيث أنها عبادة صدرت عنه، بل من حيث إنها نسبة شريفة إليه ووصلة بينه وبين الحق (أقول: وألا يغترَّ بعبادته)، فإن العارف إنما يحقُّ وصوله إذا استغرق في ملاحظة جناب القدس وغاب عما عداه، حتى أنه لا يلاحظ نفسه ولا حالًا من أحوالها إلا من حيث أنها ملاحظة له ومنتسبة إليه (أقول: على المؤمن أن لا ينظر إلى عبادته، بل ينظر إلى خالقه جلَّ وعلا، وأنه تعالى ناظر إليه، لا يتعلق بالذكر بل يتعلق بالمذكور، يعني التعلق بالمعبود قبل العبادة، هذا مهم، أكثر الناس تعلَّقوا بالعبادة لا بالمعبود، هذا لا يحصل إلا بكثرة الدوام على ذكر الله تعالى، فيصل بالكثرة إلى المعبود، ولذا قيَّد الله تعالى الذكر في القرآن الكريم بالكثرة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، حتى يصلوا إلى الحقيقة، حينذاك ينسى عبادته ويتعلق بمعبوده، أي: بخالقه، ولذا قال: يناجيه شفاهاً).

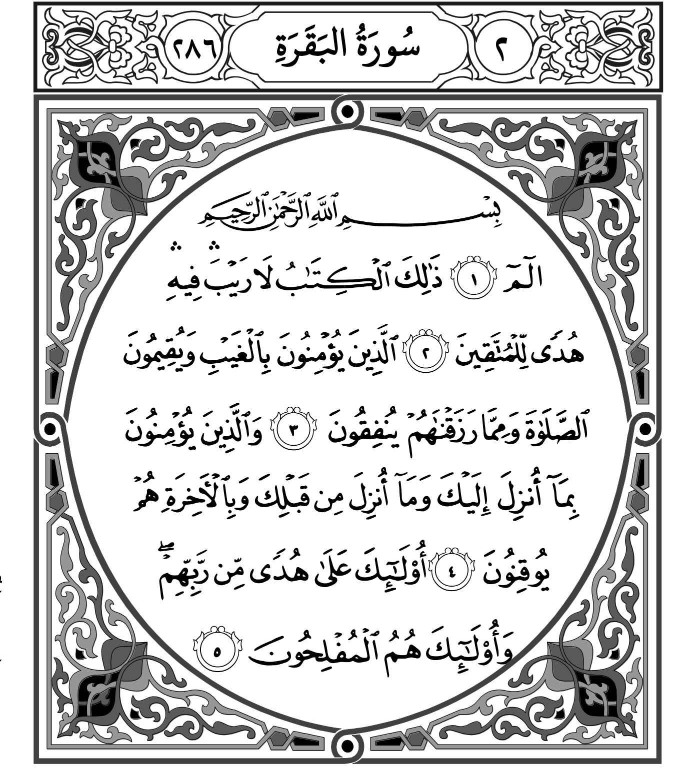
(٦) ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ بيان للمعونة المطلوبة فكأنه قال: كيف أعينكم؟ فقالوا: ﴿ٱهْدِنَا﴾. أو إفراد لما هو المقصود الأعظم. والهداية دلالة بلطف، ولذلك تستعمل في الخير، وقوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِراطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣] وارد على التهكُّم. وهداية الله تعالى تتنوَّع أنواعاً لا يحصيها عدٌّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨] ولكنها تنحصر في أجناس مترتبة: **الأول**: إفاضة القوى التي بها يتمكَّن المرء من الاهتداء إلى مصالحه، كالقوة العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة. **الثاني**: نصب الدلائل الفارقة بين الحقِّ والباطل والصلاح والفساد (أقول: وهي الشريعة والسنة النبوية، ثم ينتقل هذا إلى القلب، فلا بدَّ للمؤمن أن يستعمل قلبه بمقتضى رضا الله جل وعلا)، وإليه أشار حيث قال تعالى: ﴿وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] (أقول: الحمد لله على دين الإسلام، وعلى هداية الله تعالى لنا لهذا الدين القويم). **الثالث**: الهداية بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وإياها عَنَى بقوله: ﴿وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣] وقوله: ﴿إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. **الرابع**: أن يكشف على قلوبهم السرائر (أقول: القلوب المنغمسة مغلقة، أيُّ شي متعلق بها يكون مانعاً لنزول الأسرار الإلهية، وآكدها حبُّ الدنيا وحبُّ المنصب؛ حبُّ المنصب كحبِّ الدنيا بل أشدُّ،

قال عليه الصلاة والسلام: «إنا والله لا نولِّي على هذا العمل أحداً سأله، ولا أحداً حرص عليه» [رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]، وهو طبيب القلوب عليه الصلاة والسلام لا يعطي لمن يريد، وهو أشفق على العبد من والديه، لئلا يخسر في دينه) ويريهم الأشياء كما هي بالوحي أو الإلهام والمنامات الصادقة، (أقول: ولذا بالجلوس مع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يستفاد من الوحي، وهو للأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ وبالجلوس مع الأولياء يستفاد من الإلهامات، وهذا لعامة المؤمنين الصادقين الذين غسلوا قلوبهم من حبِّ الدنيا) وهذا قسم يختصُّ بنيله الأنبياء والأولياء، وإياه عنى بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. فالمطلوب إما زيادة ما منحوه من الهدى، أو الثبات عليه، أو حصول المراتب المرتبة عليه. فإذا قاله العارف بالله الواصل عنى به: أرشدنا طريق السير فيك لتمحو عنا ظلمات أحوالنا (البشرية)، وتميط (أي: تزيل) غواشي أبداننا، لنستضيء بنور قدسك فنراك بنورك (لا بعيوننا) (أقول: من هو العارف بالله تعالى؟ هو الذي آمن بالله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، وتمسَّك بكتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام، هذا هو العارف المؤمن، والدرجات عند الله تعالى لا تُحصى). والصراط المستقيم: المستوي، والمراد به طريق الحق، وهو ملَّة الإسلام.

(٧) ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ توكيد وتنصيص على أن طريق المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة على آكد وجه وأبلغه؛ لأنه جعل كالتفسير والبيان له (يقول تعالى: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]). والإنعام: إيصال النعمة، وهي الحالة التي يستلذها الإنسان. ونعم الله تعالى وإن كانت لا تُحصى فإنها تنحصر في جنسين: دنيوي وأخروي. والأول (أي: الدنيوي) قسمان: موهبي وكسبي، والموهبي قسمان: روحاني: كنفخ الروح فيه وإشراقه بالعقل وما يتبعه من القوى كالفهم والفكر والنطق. وجسماني: كتخليق البدن والقوى الحالَّة فيه والهيئات العارضة له من الصحة وكمال الأعضاء. والكسبي: تزكية النفس عن الرذائل، وتحليتها بالأخلاق السنيَّة والملكات الفاضلة، وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة والحلى المستحسنة وحصول الجاه والمال. والثاني (وهو الأخروي): أن يغفر له ما فرط منه ويرضى عنه، ويبوِّئه في أعلى عليين مع الملائكة المقربين أبد الآبدين. والمراد هو القسم الأخير، وما يكون وصلة إلى نيله من القسم الآخر، فإن ما عدا ذلك يشترك فيه المؤمن والكافر ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ والمعنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من الغضب والضلال. والغضب: ثوران النفس وإرادة الانتقام، فإذا أسند إلى الله تعالى أريد به المنتهى والغاية، والضلال: العدول عن الطريق السوي عمداً أو خطأً.

قيل: ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ اليهود، لقوله تعالى فيهم: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]. و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ النصارى، لقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً﴾ [المائدة: ٧٧]. وقد روي مرفوعاً. ويتجه أن يقال: ﴿المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ العصاة، و﴿الضَّالِّينَ﴾ الجاهلون بالله، لأن المنعَم عليه من وفِّق للجمع بين معرفة الحقِّ لذاته والخير للعمل به، والمخلُّ بالعمل فاسق مغضوب عليه، لقوله تعالى في القاتل عمداً: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [النساء: ٩٣]. والمخلُّ بالعلم جاهل ضالٌّ، لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

«آمين» اسم للفعل الذي هو استجبْ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة البقرة

مدنيَّة وآيها مئتان وست وثمانون آية

(١) ﴿الٓمٓ ١﴾ (وسائر حروف الهجاء في أوائل السور من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وهي سرُّ القرآن، فنحن نؤمن بظاهرها، ونَكِلُ العلم فيها إلى الله سبحانه وتعالى [السراج المنير للخطيب الشربيني رحمه الله تعالى]).

(٢) ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ ذلك إشارة إلى ﴿الٓمٓ﴾ إنْ أُوِّل بالمؤلَّف من هذه الحروف أو فُسِّر بالسورة أو القرآن. والمراد بالكتابِ الكتابُ الموعود إنزاله بنحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] ﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾ معناه أنه لوضوحه وسطوع برهانه بحيث لا يرتاب العاقل بعد النظر الصحيح في كونه وحياً بالغاً حد الإعجاز. والريبة هي قلق النفس واضطرابها، سمي به الشك لأنه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة. وفي الحديث: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» [رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى] فإن الشك ريبة والصدق طمأنينة.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢﴾ يهديهم إلى الحق. واختصاصه بالمتقين لأنهم المهتدون به والمنتفعون بنصه، وإن كانت دلالته عامة لكل ناظر من مسلم أو كافر، وبهذا الاعتبار قال تعالى: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. أو لأنه لا ينتفع بالتأمل فيه إلا من صقل العقل واستعمله في تدبر الآيات والدلائل والنظر في المعجزات، وتعرف النبوات، لأنه كالغذاء الصالح لحفظ الصحة فإنه لا يجلب نفعاً ما لم تكن الصحة حاصلة، وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾ [الإسراء: ٨٢].

والمتقي في عرف الشرع اسم لمن يقي نفسه مما يضرُّه في الآخرة، وله ثلاث مراتب:

الأولى: التوقي من العذاب المخلد بالتبري من الشرك، وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [الفتح: ٢٦].

الثانية: التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم وهو المتعارف باسم التقوى في الشرع، وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [الأعراف: ٩٦].

الثالثة: أن يتنزَّه عما يشغل سرَّه عن الحقِّ ويتبتل إليه بشراشره (أي: بكليَّته) وهو التقوى الحقيقي المطلوب بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ إما موصول بالمتقين إن فسر التقوى بترك ما لا ينبغي مترتبة عليه ترتيب التحلية على التخلية. أو موضحة إن فسر بما يعمُّ فعل الحسنات وترك السيئات لاشتماله على ما هو أصل

الأعمال وأساس الحسنات من الإيمان والصلاة والصدقة، فإنها أمهات الأعمال النفسانية والعبادات البدنية والمالية المستتبعة لسائر الطاعات والتجنب عن المعاصي غالباً (أقول: وإن لم تدخل في مفهوم الإيمان)، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «الصلاة عماد الدين، والزكاة قنطرة الإسلام» [رواه البيهقي رحمه الله تعالى في شعب الإيمان] (أقول: الحديث في فضائل الأعمال ولو كان ضعيفاً يجوز الأخذ به، بل مستحبٌّ كما قال الإمام النووي رحمه الله تعالى).

والإيمان في اللغة: عبارة عن التصديق؛ وأما في الشرع: فالتصديق بما علم بالضرورة أنه من دين سيدنا محمد ﷺ كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء.

أو مجموع ثلاثة أمور: اعتقاد الحق، والإقرار به، والعمل بمقتضاه عند جمهور المحدثين.

فمن أخلَّ بالاعتقاد وحده فهو منافق، ومن أخلَّ بالإقرار فكافر، ومن أخلَّ بالعمل ففاسق وفاقاً.

والذي يدلُّ على أنه التصديق وحده أنه سبحانه وتعالى أضاف الإيمان إلى القلب، فقال جل وعلا: ﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، ﴿وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، وعطف عليه العمل الصالح في مواضع لا تحصى وقرنه بالمعاصي فقال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]. قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: والذي لا إله غيره ما آمن أحد أفضلَ من إيمانٍ بغيبٍ، ثم قرأ هذه الآية.

﴿**وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ**﴾ أي: يعدِّلون أركانها ويحفظونها من أن يقع زيغ في أفعالها (أقول: هذا صعب حتى على المتقين؛ لأنهم يدخلون الصلاة ولم يتعلَّقوا بالمعبود، وإذا لم يتفكروا في المعبود يشرد القلب، أما من تعلق بالمعبود فإن المعبود يمنعه عن الوساوس والخطرات، بشرط أن يدوم بقلبه على الحضور مع المعبود، أكثر المؤمنين مع وجود إيمانهم يدخلون في العبادة بدون تعلُّق بالمعبود، حينذاك يفتح باب الوساوس والخطرات للشيطان).

فإنه إذا حوفظ عليها كانت كالنافق (أي: الرائج) الذي يُرغَب فيه، وإذا ضيعت كانت كالكاسد المرغوب عنه؛ أو يتشمَّرون لأدائها من غير فتور ولا توان. والحقيق بالمدح من راعى حدودها الظاهرة من الفرائض والسنن، وحقوقها الباطنة من الخشوع والإقبال بقلبه على الله تعالى.

﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ③**﴾ الظاهر من هذا الإنفاق صرف المال في سبيل الخير فرضاً كان أو نفلاً.

(٤) ﴿**وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ**﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه وأضرابه، معطوفون على ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، داخلون معهم في جملة المتقين دخول أخصين تحت أعم، إذ المراد بأولئك الذين آمنوا عن شرك وإنكار، وبهؤلاء مقابلوهم، فكانت الآيتان تفصيلاً للمتَّقين، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما. أو معطوفون على المتقين وكأنه قال: هدًى للمتقين عن الشرك والذين آمنوا من أهل الكتاب.

والإنزال نقل الشيء من الأعلى إلى الأسفل، ولعل نزول الكتب الإلهية على الرسل بأن يتلقفه الملك من الله تعالى تلقفاً روحانياً (أقول: الملائكة ليسوا عند ربهم جل وعلا وإنما يلهمهم إلهاماً يتلقفونه من الله جل وعلا)، أو يحفظه من اللوح المحفوظ فينزل به فيبلغه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام. والمراد بما أُنزل إليك القرآن بأسره والشريعة عن آخرها (أقول: والشريعة مقيدة بنزول القرآن لأن أصحاب المذاهب الأربعة اجتهدوا واستنبطوا الأحكام من القرآن)، وبما أُنزل من قبلك التوراة والإنجيل وسائر الكتب السابقة، والإيمان بها جملةً فرض عين (عند أهل السنة والجماعة)، وبالأول دون الثاني تفصيلاً من حيث إنا متعبدون بتفاصيله فرض ولكن على الكفاية، لأن وجوبه على كل أحد يوجب الحرج وفساد المعاش.

﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ أي: يوقنون إيقاناً زال معه ما كانوا عليه من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى. واليقين: إتقان العلم بنفي الشك والشبهة عنه نظراً واستدلالاً، ولذلك لا يوصف به علم البارئ تعالى.

(٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ كأنه لما قيل: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ قيل: ما بالهم خُصُّوا بذلك؟ فأجيب بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ إلى آخر الآيات.

تنبيه: تأمل كيف نبه سبحانه وتعالى على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله كل أحد، وذلك لإظهار قدرهم والترغيب في اقتفاء أثرهم.

وقد تشبَّث به الوعيديَّة (وهم فرقة من الخوارج) في خلود الفساق من أهل القبلة في العذاب (أقول: وهذا يدلُّ على فساد اعتقادهم كالمعتزلة)، وردَّ بأن المراد بالمفلحين الكاملون في الفلاح، ويلزمه عدم كمال الفلاح لمن ليس على صفتهم، لا عدم الفلاح له رأساً (قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم: إن الله تعالى المتعزِّز برداء العظمة والكبرياء، المتفرِّد بالمجد والبهاء، لا يغفر أن يشرك به، أي: لا يستر ولا يعفو عن انتقام الشرك به بإثبات الوجود لغيره، ويغفر مادون ذلك من الكبائر والصغائر لمن يشاء من التائبين وغيرهم).

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾

(٦) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾**﴾ لما ذكر خاصة عباده وخلاصة أوليائه بصفاتهم التي أهَّلتهم للهدى والفلاح عقَّبهم بأضدادهم العتاة المردة الذين لا ينفع فيهم الهدى ولا تغني عنهم الآيات والنذر.

(٧) ﴿**خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ**﴾ تعليل للحكمِ السابق وبيان لما يقتضيه. ولا ختم ولا تغشية على الحقيقة، وإنما المراد بها أن يحدث في نفوسهم هيئة تمرنهم على استحباب الكفر والمعاصي، واستقباح الإيمان والطاعات بسبب غيهم، وانهماكهم في التقليد، وإعراضهم عن النظر الصحيح، فتجعل قلوبهم بحيث لا ينفذ فيها الحق، وأسماعهم تَعافُ استماعه، فتصير كأنها مستوثق منها بالختم، وأبصارهم لا تجتلي الآيات المنصوبة لهم في الأنفس والآفاق كما تجتليها أعين المستبصرين، فتصير كأنها غُطي عليها وحيل بينها وبين الإبصار.

﴿**وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾**﴾ وعيد وبيان لما يستحقونه.

(٨) ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ**﴾ لما افتتح سبحانه وتعالى بشرح حال الكتاب وساق لبيانه ذكر المؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله تعالى وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم، وثنَّى بأضدادهم الذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً ولم يلتفتوا لفتة رأساً، ثلَّث بالقسم الثالث المذبذب بين القسمين، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم تكميلاً للتقسيم، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله تعالى، لأنهم موَّهوا الكفر وخلطوا به خداعاً واستهزاءً، ولذلك طوَّل في بيان خبثهم وجهلهم واستهزأ بهم وتهكم بأفعالهم وسجل على عمههم (أي: ضلالهم) وطغيانهم، وضرب لهم الأمثال وأنزل فيهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] ﴿**وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾**﴾ إنكار ما ادَّعوه ونفي ما انتحلوا (أي: ادَّعوا) إثباته. والآية تدلُّ على أنَّ من ادَّعى الإيمان وخالف قلبُه لسانَه بالاعتقاد لم يكن مؤمناً.

(٩) ﴿**يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ وخداعهم مع الله سبحانه ليس على ظاهره لأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية، ولأنهم لم يقصدوا خديعته، بل المراد إما مخادعة رسوله ﷺ، أو على أن معاملة الرسول عليه الصلاة

والسلام معاملة الله سبحانه وتعالى من حيث إنه خليفته، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]. وإما أن صورة صنيعهم مع الله تعالى من إظهار الإيمان واستبطان الكفر، وصنع الله تعالى معهم بإجراء أحكام المسلمين عليهم، وهم عنده جل وعلا أخبث الكفار وأهل الدرك الأسفل من النار، استدراجاً لهم، وامتثال الرسول ﷺ والمؤمنين أمرَ الله تعالى في إخفاء حالهم، وإجراء حكم الإسلام عليهم، مجاراةً لهم بمثل صنيعهم، صورةُ صنيع المتخادعين.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ المعنى: أن دائرة الخداع راجعةٌ إليهم وضررها يحيق بهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ لا يحسون بذلك لتمادي غفلتهم.

(١٠) ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ (فائدة: وحيث أطلق القلب في لسان الشرع فليس المراد به الجسم الصنوبري الشكل، فإنه للبهائم والأموات، بل المراد به معنى آخر يسمى بالقلب أيضاً، وهو جسم لطيف قائم بالقلب اللحماني قيام العرض بمحلِّه، أو قيام الحرارة بالفحم، وهذا القلب الذي يحصل منه الإدراك وترتسم فيه العلوم والمعارف [حاشية الجمل على الجلالين]).

والمرض حقيقةٌ فيما يعرض للبدن فيخرجه عن حدِّ الاعتدال الخاص به، ويوجب الخلل في أفعاله؛ ومجازٌ في الأعراض النفسانية التي تخلُّ بكمالها، كالجهل وسوء العقيدة والحسد والضغينة وحبِّ المعاصي، لأنها مانعة من نيل الفضائل، أو مؤدية إلى زوال الحقيقية الأبدية؛ والآية الكريمة تحتملهما، فإن قلوبهم كانت متألمة تحرُّقاً على ما فات عنهم من الرياسة، وحسداً على ما يرون من ثبات أمر الرسول ﷺ واستعلاء شأنه يوماً فيوماً، وزاد الله سبحانه وتعالى غمَّهم بما زاد في إعلاء أمره وإشادة ذكره عليه الصلاة والسلام؛ ونفوسهم كانت موصوفة بالكفر وسوء الاعتقاد ومعاداة النبي ﷺ ونحوها، فزاد الله سبحانه وتعالى ذلك بالطبع، أو بازدياد التكاليف وتكرير الوحي وتضاعف النصر ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾ أي: بسبب كذبهم. والكذب: هو الخبر عن الشيء على خلاف ما هو به؛ وهو حرام كله لأنه عُلل به استحقاق العذاب حيث رُتب عليه.

(١١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ فإن الإخلال بالشرائع والإعراض عنها مما يوجب الهرج والمرج ويخلُّ بنظام العالم؛ والقائل هو الله تعالى، أو الرسول ﷺ، أو بعض المؤمنين ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١﴾ وإنما قالوا ذلك: لأنهم تصوروا الفساد بصورة الصلاح لما في قلوبهم من المرض كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾ [فاطر: ٨].

(١٢) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾ ردٌّ لِما ادَّعوه أبلغَ ردٍّ.

(١٣) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا﴾ من تمام النصح والإرشاد فإن كمال الإيمان بمجموع الأمرين: الإعراض عما لا ينبغي، وهو المقصود بقوله: ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾، والإتيان بما ينبغي، وهو المطلوب بقوله: ﴿آمِنُوا﴾ ﴿كَمَآ

﴿ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ والمراد به الكاملون في الإنسانية العاملون بقضية العقل. والمعنى: آمِنوا إيماناً مقروناً بالإخلاص، متمحِّضاً عن شوائب النفاق، مماثلًا لإيمانهم. واستُدل به على قبول توبة الزنديق، وأن الإقرار باللسان إيمان (أقول: بشرط أن يوافق القلب) ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ﴾ وإنما سَفَّهُوهُم لاعتقادهم فساد رأيهم، أو لتحقير شأنهم، فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موالي: كصهيب وبلال؛ أو للتجلد وعدم المبالاة بمن آمن منهم إن فسر الناس بعبد الله بن سلام وأشياعه. والسفه: خفة وسخافة رأي يقتضيهما نقصان العقل، والحلم يقابله ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾ رَدٌّ ومبالغة في تجهيلهم.

(١٤) ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ بيان لمعاملتهم مع المؤمنين والكفار ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ﴾ المراد بشياطينهم الذين ماثلوا الشيطان في تمردهم، وهم المظهرون كفرهم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ أي: في الدين والاعتقاد ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾ لأن المستهزئ بالشيء المستخف به مُصِرٌّ على خلافه.

(١٥) ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ يجازيهم على استهزائهم؛ سُمِّي جزاء الاستهزاء باسمه كما سمي جزاء السيئة سيئةً، إما لمقابلة اللفظ باللفظ، أو لكونه مماثلاً له في القدر؛ أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم فيكون كالمستهزئ بهم، أو ينزل بهم الحقارة والهوان الذي هو لازم الاستهزاء ﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ الطغيان تجاوز الحدِّ في الكفر ﴿يَعۡمَهُونَ ١٥﴾ يتردَّدون تحيُّراً.

(أقول: الله سبحانه وتعالى يجازيهم على استهزائهم بالمؤمنين ويمدهم بالقوى والطاقات ضمن سننه الثابتة لاستكمال ابتلائهم في الحياة الدنيا).

(١٦) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾ المعنى أنهم أخلُّوا بالهدى الذي جعله الله تعالى لهم بالفطرة التي فَطَرَ الناس عَلَيۡهَا محصلين الضلالة التي ذهبوا إليها، أو اختاروا الضلالة واستحبُّوها على الهدى.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ
ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ
بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ
ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ
حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ
أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ
وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ
بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟
ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

(١٧) ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾**﴾ وظلماتهم: ظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلمة يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢]. أو ظلمة الضلال، وظلمة سخط الله تعالى، وظلمة العقاب السرمدي، أو ظلمة شديدة كأنها ظلمات متراكمة.

(١٨) ﴿**صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ**﴾ لَمَّا سدُّوا مسامعهم عن الإصاخة إلى الحقِّ، وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم ويتبصَّروا الآيات بأبصارهم، جُعِلُوا كأنما أُيفت مشاعرهم (أي: أصابتها آفة) وانتفت قواهم ﴿**فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾**﴾ لا يعودون إلى الهدى الذي باعوه وضيعوه، أو عن الضلالة التي اشتروها.

(١٩-٢٠) ﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾**﴾ شبه في الأول ذوات المنافقين بالمستوقدين، وإظهارهم الإيمان باستيقاد النار وما انتفعوا به من حقن الدماء وسلامة الأموال والأولاد وغير ذلك بإضاءة النار ما حول المستوقدين، وزوال ذلك عنهم على القرب بإهلاكهم وبإفشاء حالهم وإبقائهم في الخسار الدائم والعذاب السرمد بإطفاء نارهم والذهاب بنورهم. وفي الثاني أنفسهم بأصحاب الصيب، وإيمانهم المخالط بالكفر والخداع بصيِّب (أي: سحاب كثيف) فيه ظلمات ورعد وبرق، من حيث إنه وإن كان نافعاً في نفسه لكنه لما وجد في هذه الصورة عاد نفعه ضراً، ونفاقهم حذراً عن نكايات المؤمنين وما يطرقون به من سواهم من الكفرة بجعل الأصابع في الآذان من الصواعق حذر الموت، من حيث إنه لا يرد من قدر الله تعالى شيئاً، ولا يخلص مما يريد بهم من المضارِّ، وتحيُّرهم لشدة الأمر وجهلهم بما يأتون ويذرون بأنهم كلما صادفوا من البرق خفقة (أي: لمعة) انتهزوها فرصة مع خوف أن تخطف أبصارهم، فخطوا خطًى يسيرة، ثم إذا خفي وفتر لَمَعانُهُ بقوا متقيدين لا حراك بهم.

وقيل: شبه الإيمان والقرآن وسائر ما أوتي الإنسان من المعارف التي هي سبب الحياة الأبدية بالصَيِّب الذي به حياة الأرض. وما ارتكبت بها من الشبه المبطلة واعترضت دونها من الاعتراضات المشككة

بالظلمات. وشبه ما فيها من الوعد والوعيد بالرعد، وما فيها من الآيات الباهرة بالبرق، وتصامِّهم عما يسمعون من الوعيد بحال من يهوله الرعد فيخاف صواعقه فيسد أذنيه عنها، مع أنه لا خلاص لهم منها وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾. واهتزازَهم لما يلمع لهم من رشد يدركونه أو رفد (أي: نصيب) تطمح إليه أبصارهم، بمشيهم في مطرح ضوء البرق كلما أضاء لهم، وتحيرهم وتوقفهم في الأمر حين تعرض لهم شبهة أو تعِنُّ (أي: تعرض) لهم مصيبة، بتوقُّفهم إذا أظلم عليهم.

ونبَّه سبحانه بقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ على أنه تعالى جعل لهم السمع والأبصار ليتوصلوا بها إلى الهدى والفلاح، ثم إنهم صرفوها إلى الحظوظ العاجلة، وسدُّوها عن الفوائد الآجلة، ولو شاء الله تعالى لجعلهم بالحالة التي يجعلونها لأنفسهم، فإنه على ما يشاء قدير.

(٢١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ لما عدَّد فِرَق المكلَّفين وذكر خواصهم ومصارف أمورهم، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات هَزّاً للسامع وتنشيطاً له، واهتماماً بأمر العبادة وتفخيماً لشأنها، وجبراً لكلفة العبادة بلذة المخاطبة. و«يا» حرف وضع لنداء البعيد، وقد ينادَى به القريب تنزيلاً له منزلة البعيد. إما لعظمته كقول الداعي: يا رب، ويا الله، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، أو للاعتناء بالموعود له وزيادة الحثِّ عليه. وكلُّ ما نادى الله تعالى له عباده من حيث إنها أمور عظام من حقها أن يتفطنوا إليها ويقبلوا بقلوبهم عليها، وأكثرهم عنها غافلون (أقول: بلاؤنا مصيبتنا الغفلة عن ربِّنا جل وعلا، وهو معنا بعلمه سبحانه وتعالى) ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ كأنه قال: اعبدوا ربكم راجين أن تنخرطوا في سلك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح، المستوجبين جوار الله سبحانه وتعالى. نبَّه به على أن التقوى منتهى درجات السالكين، وهو التبري من كلِّ شيء سوى الله تعالى، إلى الله تعالى، وأن العابد ينبغي أن لا يغترَّ بعبادته، ويكون ذا خوف ورجاء، قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ [السجدة: ١٦]، ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧] (أقول: وهذا يحصل بطريق الطريق، وصحبةِ أهل الحق، اللهم ارزقنا اتِّباع نبيِّك وسننه عليه أفضل الصلاة والسلام). والآية تدلُّ على أن الطريق إلى معرفة الله تعالى والعلم بوحدانيته واستحقاقه للعبادة، النظر في صنعه والاستدلال بأفعاله، وأن العبد لا يستحق بعبادته عليه ثواباً، فإنها لما وجبت عليه شكراً لما عدده عليه من النعم السابقة فهو كأجير أخذ الأجر قبل العمل.

(٢٢) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ المعنى: إن تتقوا لا تجعلوا لله تعالى أنداداً. واعلم أنَّ مضمون الآيتين هو الأمر بعبادة الله سبحانه وتعالى، والنهي عن الإشراك به تعالى، والإشارة إلى ما هو العلة والمقتضى. وبيانه أنه رتب الأمر بالعبادة على صفة الربوبية إشعاراً بأنها العلة لوجوبها، ثم بين ربوبيته بأنه سبحانه وتعالى خالقهم وخالق أصولهم وما يحتاجون إليه في معاشهم من المُقِلَّة (أي: الأرض، لأنها تُقِلُّ ما عليها أي: ترفعه وتحمله) والمُظِلَّة (أي: السماء، لأنها تُلقي ظِلَّها على ما تحتها) والمطاعم والملابس، فإن الثمرة أعمُّ من المطعوم، والرزق

أعم من المأكول والمشروب. ثم لما كانت هذه الأمور التي لا يقدر عليها غيره شاهدة على وحدانيته سبحانه وتعالى، رتب تعالى عليها النهي عن الإشراك به؛ ولعله سبحانه أراد من الآية الأخيرة ـ مع ما دل عليه الظاهر وسيق فيه الكلام ـ الإشارةَ إلى تفصيل خلق الإنسان وما أفاض عليه من المعاني والصفات على طريقة التمثيل، فمثَّل البدن بالأرض، والنفس بالسماء، والعقل بالماء، وما أفاض عليه من الفضائل العملية والنظرية المحصَّلة بواسطة استعمال العقل للحواس وازدواج القوى النفسانية والبدنية بالثمرات المتولِّدة من ازدواج القوى السماوية الفاعلة والأرضية المنفعلة بقدرة الفاعل المختار، فإن لكلِّ آية ظهراً وبطناً، ولكل حدٍّ مطلعاً.

(٢٣) ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ لما قرَّر وحدانيته تعالى، وبيَّن الطريق الموصل إلى العلم بها، ذكر عقيبه ما هو الحجة على نبوَّة محمد ﷺ، وهو القرآن المعجز بفصاحته التي غلبت فصاحة كلِّ بليغ، مع كثرتهم وإفراطهم في المضادَّة وتهالكهم في المغالبة. والحكمة في تقطيع القرآن سوراً: تنشيط القارئ، وتسهيل الحفظ، والترغيب فيه ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي: بسورة كائنة من مثله (أي: مثل سور القرآن الكريم) ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ المعنى: وَادْعُوا للمعارضة من حضركم، أو رجوتم معونته من إنسكم وجنِّكم وآلهتكم غير الله سبحانه وتعالى، فإنه لا يقدر على أن يأتي بمثله إلا الله سبحانه.

فائدة: إذا تجاوزت وقاية الله تعالى فلا يقيك غيرُه (آمنت بالله تعالى).

(٢٤) ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ الحجارة: وهي جمع حجر، والمراد بها الأصنام التي نحتوها وقرنوا بها أنفسهم وعبدوها طمعاً في شفاعتها والانتفاع بها واستدفاع المضار لمكانتهم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. عذبوا بما هو منشأ جرمهم كما عذب الكانزون بما كنزوه. أو بنقيض ما كانوا يتوقعون زيادة في تحسرهم. وقيل: الذهب والفضة التي كانوا يكنزونها ويغترون بها.

وفي الآيتين ما يدلُّ على النبوَّة من وجوه:

الأول: ما فيهما من التحدي والتحريض على الجد وبذل الوسع في المعارضة بالتقريع والتهديد، وتعليق الوعيد على عدم الإتيان بما يعارض أقصر سورة من سور القرآن، ثم إنهم مع كثرتهم واشتهارهم بالفصاحة وتهالكهم على المضادة لم يتصدوا لمعارضته، والتجؤوا إلى جلاء الوطن وبذل المهج.

الثاني: أنهما يتضمنان الإخبار عن الغيب على ما هو به، فإنهم لو عارضوه بشيء لامتنع خفاؤه عادة، سيما والطاعنون فيه أكثر من الذابِّين عنه في كلِّ عصر.

الثالث: أنه ﷺ لو شك في أمره لما دعاهم إلى المعارضة بهذه المبالغة، مخافة أن يعارض فتدحض حجته.

وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ دلَّ على أنَّ النار مخلوقة معدَّة الآن لهم (لمن مات على الكفر).

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٖ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

(٢٥) ﴿**وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ**﴾ عطف على الجملة السابقة، والمقصود عطف حال من آمن بالقرآن العظيم ووصف ثوابه، على حال من كفر به وكيفية عقابه، على ما جرت به العادة الإلهية من أن يشفع الترغيب بالترهيب، تنشيطاً لاكتساب ما ينجي، وتثبيطاً عن اقتراف ما يردي. وإذا ظهر ذلك فمن كفر به استوجب العقاب، ومن آمن به استحق الثواب، وذلك يستدعي أن يخوف هؤلاء ويبشر هؤلاء. وإنما أمرَ الرسولَ ﷺ، أو عالم كل عصر، أو كل أحد يقدر على البشارة بأن يبشرهم؛ ولم يخاطبهم بالبشارة كما خاطب الكفرة تفخيماً لشأنهم وإيذاناً بأنهم أحقاء بأن يبشَّروا ويهنَّؤوا بما أعد لهم.

وعطف العمل على الإيمان مرتباً للحكم عليهما إشعاراً بأن السبب في استحقاق هذه البشارة مجموع الأمرين والجمع بين الوصفين، فإن الإيمان الذي هو عبارة عن التحقيق والتصديق أُسٌّ (أي: أساس)، والعمل الصالح كالبناء عليه، ولا غناءَ بأُسٍّ لا بناء عليه، ولذلك قلما ذكرا منفردين. وفيه دليل على أنها خارجة عن مسمى الإيمان، إذ الأصل أن الشيء لا يعطفُ على نفسه ولا على ما هو داخل فيه.

ومقتضى وعده تعالى لا على الإطلاق، بل بشرط أن يستمر عليه حتى يموت وهو مؤمن، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧].

﴿**كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ**﴾ وإن للآية الكريمة محملاً وهو أن مستلذات أهل الجنة في مقابلة ما رزقوا في الدنيا من المعارف والطاعات متفاوتة في اللذة بحسب تفاوتها، فيحتمل أن يكون المراد من ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا﴾ أنه ثوابه، ومن تشابهها تماثلها في الشرف والمزية وعلو الطبقة. (أقول: والله تعالى إذا عفا وأدخل عبده الجنة لا يكون نعيمه جل وعلا بقدر عمل العبد في الدنيا) ﴿**وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ**﴾ مما يستقذر من النساء ويذمُّ من أحوالهنَّ، كالحيض والدرن (أي: الوسخ) ودنس الطبع وسوء الخلق، فإن التطهير يستعمل في الأجسام والأخلاق والأفعال ﴿**وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾**﴾ دائمون.

واعلم أنه لما كان معظم اللذات الحسية مقصوراً على المساكن والمطاعم والمناكح، على ما دل عليه الاستقراء، كان ملاك ذلك كله الدوام والثبات، فإن كل نعمة جليلة إذا قارنها خوف الزوال كانت منغصة غير صافية من شوائب الألم؛ بَشَّرَ المؤمنين بها، ومثَّل ما أعدَّ لهم في الآخرة بأبهى ما يستلذُّ به منها، وأزال عنهم خوف الفوات بوعد الخلود، ليدلَّ على كمالهم في التنعُّم والسرور.

(٢٦) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي: لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي أن يمثل بها لحقارتها. والحياء: انقباض النفس عن القبيح مخافة الذم. وإذا وصف به الباري تعالى كما في الحديث: «إن الله حييٌّ كريم، يستحيي إذا رفع العبد يديه أن يردَّهما صفراً حتى يضع فيهما خيراً» [رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى]. فالمراد به الترك اللازم للانقباض، كما أن المراد من رحمته وغضبه إصابة المعروف والمكروه اللازمين لمعنييهما ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ إحمادٌ لأمر المؤمنين واعتداد بعلمهم، وذم بليغ للكافرين على قولهم؛ والحَقُّ الثابت الذي لا يسوغ إنكاره يعمُّ الأعيان الثابتة والأفعال الصائبة والأقوال الصادقة ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ﴾ الإرادة: نزوع النفس وميلها إلى الفعل بحيث يحملها عليه، وتقال للقوة التي هي مبدأ النزوع، والأول مع الفعل والثاني قبله، وكلا المعنيين غير متصور اتصاف الباري تعالى به. ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾ جواب ماذا، أي: إضلال كثير وإهداء كثير ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ والفاسق في الشرع: الخارج عن أمر الله تعالى بارتكاب الكبيرة، وله درجات ثلاث:

الأولى: التغابي وهو أن يرتكبها أحياناً مستقبحاً إياها.

الثانية: الانهماك وهو أن يعتاد ارتكابها غير مبالٍ بها.

الثالثة: الجحود وهو أن يرتكبها مستصوباً إياها، فإذا شارف هذا المقام وتخطى خططه خلع ربقة الإيمان (أي: عقد الإيمان) من عنقه، ولابس الكفر (أقول: إن لم يتب؛ وإذا تاب إن شاء الله تعالى يرجع إلى الإيمان ويعفو عنه ربُّنا تبارك وتعالى بكرمه). وما دام هو في درجة التغابي أو الانهماك فلا يسلب عنه اسم المؤمن لاتصافه بالتصديق الذي هو مسمى الإيمان، ولقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩].

(٢٧) ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ صفة للفاسقين. وهذا العهد: إما العهد المأخوذ بالعقل، وهو الحجة القائمة على عباده الدالة على توحيده ووجوب وجوده وصدق رسوله ﷺ، وعليه أُوِّلَ قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِم﴾ [الأعراف: ١٧٢] (أقول: أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى، منهم إذا خلقوا يتذكرون هذا العهد، ومنهم ينسون هذا العهد، وإذا نسوا هذا العهد يقعون في المخالفات. كلهم كافرهم ومؤمنهم قالوا: بلى، ومنهم نسوا ذاك العهد بإرادة الله تعالى، ومنهم لم ينسوا). أو: المأخوذ بالرسل على الأمم، بأنهم إذا بعث إليهم رسول مصدق بالمعجزات صدقوه واتبعوه، ولم يكتموا أمره ولم يخالفوا

حكمه، وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ونظائره.

وقيل: عهود الله تعالى ثلاثة: **عهد** أخذه على جميع ذرية آدم بأن يقروا بربوبيته، **وعهد** أخذه على النبيين بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، **وعهد** أخذه على العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتموه (أقول: سواء أخذوا به أو لم يأخذوا به لأنه يؤدي التبليغ، نحن أُمرنا بالتبليغ).

﴿**وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ**﴾ يحتمل كلَّ قطيعة لا يرضاها الله تعالى، كقطع الرحم، والإعراض عن موالاة المؤمنين، والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام والكتب في التصديق، وترك الجماعات المفروضة (بدون عذر)، وسائر ما فيه رفض خير أو تعاطي شرٍّ، فإنه يقطع الوصلة بين الله تعالى وبين العبد المقصودة بالذات من كل وصل وفصل ﴿**وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ بالمنع عن الإيمان والاستهزاء بالحق، وقطع الوصل التي بها نظام العالم وصلاحه ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ** ﴿٢٧﴾﴾ الذين خسروا بإهمال العقل عن النظر واقتناص ما يفيدهم الحياة الأبدية، واستبدال الإنكار والطعن في الآيات بالإيمان بها، والنظر في حقائقها والاقتباس من أنوارها، واشتراء النقض بالوفاء، والفساد بالصلاح، والعقاب بالثواب.

(٢٨) ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ**﴾ والمعنى أخبروني على أي حال تكفرون ﴿**وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا**﴾ أي: أجساماً لا حياة لها، عناصر وأغذية، وأخلاطاً ونطفاً، ومضغاً مخلقة وغير مخلقة ﴿**فَأَحْيَٰكُمْ**﴾ بخلق الأرواح ونفخها فيكم (وكل ما فارق الجسد من نطفة أو شعر فهو موات، وقوله فأحياكم في الأرحام بأن جعل فيكم الأرواح [تفسير الوسيط للواحدي]) ﴿**ثُمَّ يُمِيتُكُمْ**﴾ عندما تُقضى آجالكم ﴿**ثُمَّ يُحْيِيكُمْ**﴾ بالنشور يوم ينفخ في الصور، أو للسؤال في القبور ﴿**ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴿٢٨﴾﴾ بعد الحشر، فيجازيكم بأعمالكم. أو تنشرون إليه من قبوركم للحساب؛ فما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه! أو الخطاب مع القبيلين، فإنه سبحانه وتعالى لما بين دلائل التوحيد والنبوة، ووعدهم على الإيمان، وأوعدهم على الكفر، أكَّد ذلك بأن عدد عليهم النعم العامة والخاصة، واستقبح صدور الكفر منهم واستبعده عنهم مع تلك النعم الجليلة، فإن عظم النعم يوجب عظم معصية المنعم. أو مع المؤمنين خاصة لتقرير المنة عليهم، وتبعيد الكفر عنهم على معنى: كيف يتصور منكم الكفر وكنتم أمواتاً جهالًا فأحياكم بما أفادكم من العلم والإيمان، ثم يميتكم الموت المعروف، ثم يحييكم الحياة الحقيقية، ثم إليه ترجعون، فيثيبكم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

والحياة حقيقة في القوة الحساسة أو ما يقتضيها، وفيها يخص الإنسان من الفضائل، كالعقل والعلم والإيمان من حيث إنها كمالها وغايتها، والموت بإزائها يقال على ما يقابلها في كل مرتبة، قال تعالى: ﴿قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [الجاثية: ٢٦]، وقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧]، وقال: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وإذا وُصف به الباري تعالى أريد بها صحة اتصافه بالعلم والقدرة اللازمة لهذه القوة فينا، أو معنى قائم بذاته يقتضي ذلك على الاستعارة.

(٢٩) ﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا**﴾ بيان نعمة أخرى مرتبة على الأولى، فإنه خلقهم أحياء

قادرين مرة بعد أخرى، وهذه خلق ما يتوقف عليه بقاؤهم ويتم به معاشهم. ومعنى ﴿لَكُم﴾ لأجلكم وانتفاعكم في دنياكم باستنفاعكم بها في مصالح أبدانكم بوسط (أي: بواسطة) أو بغير وسط، ودينكم بالاستدلال والاعتبار والتعرف لما يلائمها من لذات الآخرة وآلامها ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ قصد إليها بإرادته ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٩﴾ فيه تعليلٌ، كأنه قال: ولكونه عالماً بكنه الأشياء كلها، خلق ما خلق على هذا النمط الأكمل والوجه الأنفع؛ واستدلالٌ بأن من كان فعله على هذا النسق العجيب والترتيب الأنيق كان عليماً، فإن إتقان الأفعال وإحكامها وتخصيصها بالوجه الأحسن الأنفع لا يتصور إلا من عالم حكيم رحيم؛ وإزاحةٌ لما يختلج في صدورهم من أن الأبدان بعد ما تبددت وتفتتت أجزاؤها واتصلت بما يشاكلها، كيف تُجمع أجزاءُ كلِّ بدن مرة ثانية بحيث لا يشذُّ شيء منها ولا ينضمُّ إليها ما لم يكن معها فيعاد منها كما كان، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

واعلم أن صحة الحشر مبنيَّة على ثلاث مقدِّمات، وقد برهن عليها في هاتين الآيتين: أما الأولى: فهي أن موادَّ الأبدان قابلة للجمع والحياة، وأشار إلى البرهان عليها بقوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾، فإن تعاقب الافتراق والاجتماع والموت والحياة عليها يدل على أنها قابلة لها بذاتها، وما بالذات يأبى أن يزول ويتغير. وأما الثانية والثالثة: فإنه عز وجل عالم بها وبمواقعها، قادر على جمعها وإحيائها، وأشار إلى وجه إثباتها بأنه تعالى قادر على إبدائها وإبداء ما هو أعظم خلقاً وأعجب صنعاً، فكان أقدر على إعادتهم وإحيائهم، وأنه تعالى خلق ما خلق خلقاً مستوياً محكماً من غير تفاوت واختلال، مراعياً فيه مصالحهم وسد حاجاتهم. وذلك دليل على تناهي علمه وكمال حكمته جلَّت قدرته ودقَّت حكمته سبحانه وتعالى.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً
قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ
نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ
(٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُواْ
سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ
(٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ
أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا
تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ
لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ
(٣٤) وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٥)
فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦)
فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٣٧)

(٣٠) ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ تعداد لنعمة ثالثة تعم الناس كلهم، فإن خلق آدم وإكرامه وتفضيله على ملائكته بأن أمرهم بالسجود له إنعام يعم ذريته. والملائكة كما وصفهم في محكم تنزيله فقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وهم العليون والملائكة المقربون. وقسم يدبر الأمر من السماء إلى الأرض على ما سبق به القضاء وجرى به القلم الإلهي ﴿لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون﴾ [التحريم: ٦]. والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه، والمراد به آدم عليه الصلاة والسلام لأنه كان خليفة الله تعالى في أرضه، وكذلك كل نبي استخلفه الله تعالى في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم، لا لحاجة به تعالى إلى من ينوبه، بل لقصور المستخلف عليه عن قبول فيضه، وتلقي أمره بغير وسط (أقول: أما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلهم قابلية لأخذ الفيض من الله تعالى، ولذا خص الله تعالى الوحي بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أما سائر البشر فيأخذون من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهم من جنسهم)، ولذلك لم يستنبئ ملكاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ [الأنعام: ٩]، ألا ترى أن الأنبياء لما فاقت قوتهم واشتعلت قريحتهم (والقريحة: ملكة يستطيع الإنسان بها ابتداع الكلام وإبداء الرأي) بحيث يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار أرسل إليهم الملائكة، ومن كان منهم أعلى رتبة كلّمه بلا واسطة، كما كلَّم موسى عليه السلام في الميقات، ومحمداً ﷺ ليلة المعراج. وفائدة قوله تعالى هذا للملائكة تعليم المشاورة (أقول: بهذا يعلّمنا ربُّنا جلَّ وعلا المشاورة، ولذا قال جلَّ وعلا: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩])، وتعظيم شأن المجعول، بأن بشَّر عزَّ وجل بوجوده سكان ملكوته، ولقَّبه بالخليفة قبل خلقه، وإظهارُ فضله الراجح على ما فيه من المفاسد بسؤالهم وجوابه، وبيانُ أن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره، فإن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير.

﴿**قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ**﴾ تعجُّبٌ من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها، أو يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية، واستكشاف عما خفي عليهم من الحكمة التي

بهرت تلك المفاسد وألغتها، واستخبار عما يرشدهم ويزيح شبهتهم، كسؤال المتعلم معلمه عما يختلج في صدره، وليس باعتراض على الله تعالى جلت قدرته، ولا طعن في بني آدم على وجه الغيبة، فإنهم أعلى من أن يظن بهم ذلك لقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُون * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُون﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧] وإنما عرفوا ذلك بإخبار من الله تعالى، أو تلقٍّ من اللوح، أو استنباط عما ركز في عقولهم أن العصمة من خواصهم، أو قياس لأحد الثقلين (الإنس والجن) على الآخر ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ والمعنى: أتستخلف عصاة ونحن معصومون أحقاء بذلك! وكأنهم علموا أن المجعول خليفة ذو ثلاث قوى عليها مدار أمره: شهوية وغضبية تؤديان به إلى الفساد وسفك الدماء، وعقلية تدعوه إلى المعرفة والطاعة. ونظروا إليها مفردة وقالوا: ما الحكمة في استخلافه، وهو باعتبار تينك القوتين لا تقتضي الحكمة إيجاده فضلًا عن استخلافه، وأما باعتبار القوة العقلية فنحن نقيم ما يتوقع منها سليماً عن معارضة تلك المفاسد؟ وغفلوا عن فضيلة كل واحدة من القوتين إذا صارت مهذبة مطواعة للعقل متمرِّنة على الخير، كالعفة والشجاعة ومجاهدة الهوى والإنصاف، واستخراج منافع الكائنات من القوة إلى الفعل الذي هو المقصود من الاستخلاف، وإليه أشار تعالى إجمالًا بقوله: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ والتسبيح تبعيد الله تعالى عن السوء والنقصان، وكذلك التقديس، و﴿بِحَمْدِكَ﴾ أي: متلبسين بحمدك على ما ألهمتنا معرفتك ووفَّقتنا لتسبيحك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ نطهِّر نفوسنا عن الذنوب لأجلك.

(٣١) ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ إما بخلقِ علم ضروريٍّ بها فيه، أو إلقاءٍ في روعه؛ والمعنى أنه تعالى خلقه من أجزاء مختلفة وقوى متباينة، مستعدّاً لإدراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات، والمتخيلات والموهومات، وألهمه معرفة ذوات الأشياء وخواصها وأسمائها وأصول العلوم وقوانين الصناعات وكيفية آلاتها ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تبكيت (أي: توبيخ) لهم وتنبيه على عجزهم عن أمر الخلافة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ في زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة لعصمتكم.

(٣٢) ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ اعتراف بالعجز والقصور، وإشعار بأن سؤالهم كان استفساراً ولم يكن اعتراضاً، وأنه قد بان لهم ما خفي عليهم من فضل الإنسان والحكمة في خلقه، وإظهار لشكر نعمته بما عرفهم، ومراعاة للأدب بتفويض العلم كله إليه سبحانه وتعالى ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه خافية ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ المحكم لمُبدَعاته، الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمة بالغة.

(٣٣) ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ أي: أعلِمْهم ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فإنه تعالى لما علم ما خفي عليهم من أمور السموات والأرض، وما ظهر لهم من أحوالهم الظاهرة والباطنة، علم ما لا يعلمون. وفيه تعريض بمعاتبتهم على ترك الأَولى، وهو أن يتوقَّفوا مترصِّدين لأن يبين لهم. وقيل: ﴿مَا تُبْدُونَ﴾ قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ استبطانهم أنهم أحقَّاء بالخلافة، وأنه تعالى لا يخلق خلقاً أفضل منهم. واعلم أن هذه الآيات تدل على شرف الإنسان، ومزية العلم وفضله على العبادة، وأنه شرط في الخلافة بل العمدة فيها.

(٣٤) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ لمَّا أنبأهم بأسمائهم وعلمهم ما لم يعلموا أمرهم بالسجود له، اعترافاً بفضله وأداء لحقِّه، واعتذاراً عما قالوا فيه. والسجود في الأصل تذلُّل مع تَطامُن (أي: انخفاض)، وفي الشرع: وضع الجبهة على قصد العبادة؛ والمأمور به إما المعنى الشرعي فالمسجود له بالحقيقة هو الله تعالى، وجُعل آدم قبلة لسجودهم تفخيماً لشأنه، وإما المعنى اللغوي وهو التواضع لادم تحيةً وتعظيماً له كسجود إخوة يوسف له ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ امتنع عما أمر به استكباراً ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: في علم الله تعالى.

(أقول: وكان من الكافرين لاستكباره على الأمر الوجوبي، مع أنه في علمه تعالى كان كافراً).

(٣٥) ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ الجنة دار الثواب ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ واسعاً رافهاً ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أيَّ مكان من الجنة شئتما ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ فينبغي أن لا يحوما حول ما حرَّم الله تعالى عليهما مخافة أن يقعا فيه، وجعله سبباً لأن يكونا من الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي، أو بنقص حظهما بالإتيان بما يخلُّ بالكرامة والنعيم.

(٣٦) ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي: من الكرامة والنعيم ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ والمعنى: متعادين يبغي بعضكم على بعض بتضليله ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع استقرار ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ تمتع ﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ يريد به وقت الموت أو القيامة.

(٣٧) ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها، وهي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ الآية [الأعراف: ٢٣]، وقيل: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة. ومعنى التوبة: هو الاعتراف بالذنب والندم عليه والعزم على أن لا يعود إليه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ الرجاع على عباده بالمغفرة، أو الذي يكثر إعانتهم على التوبة. وأصل التوبة: الرجوع، فإذا وصف بها العبد كان رجوعا عن المعصية، وإذا وصف بها الباري تعالى أريد بها الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ المبالغ في الرحمة. وفي الجمع بين الوصفين وعدٌ للتائب بالإحسان مع العفو.

قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ
هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾
يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ
أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ
مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۢ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي
ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ
وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ
وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾
وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ
﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾
يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ
عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا
يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

(٣٨) ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾ أي: اهبطوا للتكليف (أقول: أي اهبطوا من الجنة إلى الأرض)، فمن اهتدى الهدى نجا ومن ضلَّه هلك ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ والمعنى: إن يأتينكم مني هدى بإنزال أو إرسال فمن تبعه منكم نجا وفاز.

(٣٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ كفروا بالآيات جَناناً، وكذبوا بها لساناً. والآية تقال للمصنوعات من حيث إنها تدل على وجود الصانع وعلمه وقدرته. والمراد ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الآيات المنزلة. وفيها دلالة على أن الجنة مخلوقة وأنها في جهة عالية، وأن التوبة مقبولة، وأن متبع الهدى مأمون العاقبة، وأن عذاب النار دائم، وأن الكافر فيه مخلد، وأن غيره لا يخلد فيه بمفهوم قوله تعالى: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

واعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر دلائل التوحيد والنبوة والمعاد، وعقبها تعداد النعم العامة تقريراً لها وتأكيداً، فإنها من حيث إنها حوادث محكمة تدلُّ على محدث حكيم له الخلق والأمر وحده لا شريك له، ومن حيث اشتمالها على خلق الإنسان وأصوله وما هو أعظم من ذلك تدل على أنه قادر على الإعادة كما كان قادراً على الإبداء، خاطب أهل العلم والكتاب منهم، وأمرهم أن يذكروا نعم الله تعالى عليهم، ويوفوا بعهده في اتباع الحق واقتفاء الحجج، ليكونوا أول من آمن بسيدنا بمحمد ﷺ وما أنزل عليه فقال:

(٤٠) ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أولاد يعقوب ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: بالتفكر فيها والقيام بشكرها. وتقييد النعمة بهم لأن الإنسان غيور حسود بالطبع، فإذا نظر إلى ما أنعم الله تعالى على غيره حمله الغيرة والحسد على الكفران والسخط، وإن نظر إلى ما أنعم الله تعالى به عليه حمله حبُّ النعمة على الرضى والشكر.

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ بحسن الإثابة والعهد؛ فإنه تعالى عهد إليهم بالإيمان والعمل الصالح بنصب الدلائل وإنزال الكتب، ووعد لهم بالثواب على حسناتهم، وللوفاء بهما عرض عريض، فأول مراتب الوفاء منَّا هو الإتيان بكلمتي الشهادة، ومن الله تعالى حقن الدم والمال، وآخرها منَّا الاستغراق في بحر التوحيد بحيث يغفل عن نفسه فضلاً عن غيره (أقول: هذا حقيقة التصوف وحقيقة المؤمن وحقيقة عباد الله المخلَصين) ومن الله تعالى الفوز باللقاء الدائم. وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أوفوا بعهدي في

اتباع محمد ﷺ أوفِ بعهدكم في رفع الآصار والأغلال. وعن غيره: أوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر أوفِ بالمغفرة والثواب. أو أوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم أوفِ بالكرامة والنعيم المقيم (أقول: الطريق المستقيم هو طريق الشريعة والسنة النبوية). والمعنى: أوفوا بما عاهدتموني من الإيمان والتزام الطاعة أوفِ بما عاهدتكم من حسن الإثابة ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ فيما تأتون وتذرون، وخصوصاً في نقض العهد. والآية متضمِّنة للوعد والوعيد، دالَّة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد، وأن المؤمن ينبغي أن لا يخاف أحداً إلا الله تعالى.

(٤١) ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ إفراد للإيمان بالأمر به والحث عليه لأنه المقصود والعمدة للوفاء بالعهود، وتقييد المنزل بأنه مصدق لما معهم من الكتب الإلهية من حيث إنه نازل حسبما نعت فيها، أو مطابق لها في القصص والمواعيد والدعاء إلى التوحيد والأمر بالعبادة والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش، وفيما يخالفها من جزئيات الأحكام بسبب تفاوت الأعصار في المصالح من حيث إن كل واحدة منها حق بالإضافة إلى زمانها، مراعى فيها صلاح من خوطب بها، حتى لو نزل المتقدم في أيام المتأخر لنزل على وفقه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «لو كان موسى حيّاً لما وسعه إلا اتِّباعي» [أخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى بلفظ قريب] تنبيهٌ على أن اتباعها لا ينافي الإيمان به، بل يوجبه، ولذلك عرَّض بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ بأن الواجب أن يكونوا أول من آمن به، ولأنهم كانوا أهل النظر في معجزاته والعلم بشأنه والمستفتحين به والمبشِّرين بزمانه ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ ولا تستبدلوا بالإيمان بها والاتباع لها حظوظ الدنيا، فإنها وإن جلت قليلة مسترذلة بالإضافة إلى ما يفوت عنكم من حظوظ الآخرة بترك الإيمان. قيل: كان لهم رئاسة في قومهم ورسوم وهدايا منهم، فخافوا عليها لو اتبعوا رسول الله ﷺ فاختاروها عليه ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ بالإيمان واتباع الحق والإعراض عن الدنيا.

(٤٢) ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ والمعنى: لا تخلطوا الحقَّ المنزل عليكم بالباطل الذي تخترعونه وتكتمونه حتى لا يميز بينهما، أو ولا تجعلوا الحق ملتبساً بسبب خلط الباطل الذي تكتبونه في خلاله، أو تذكرونه في تأويله ﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ كأنهم أمروا بالإيمان وترك الضلال، ونهوا عن الإضلال بالتلبيس على من سمع الحق والإخفاء على من لم يسمعه، أو لا تجمعوا لبس الحق بالباطل وكتمانه ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ عالمين بأنكم لابسون كاتمون، فإنه أقبح، إذ الجاهل قد يُعذر.

(٤٣) ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يعني صلاة المسلمين وزكاتهم. وإخراج الزكاة يستجلب بركة في المال ويثمر للنفس فضيلة الكرم، و يطهر المال من الخبث والنفسَ من البخل ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أي في جماعتهم.

(٤٤) ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ﴾ تقرير مع توبيخ وتعجيب. والبر: التوسع في الخير، ولذلك قيل: البرُّ ثلاثة: بِرٌّ في عبادة الله تعالى، وبِرٌّ في مراعاة الأقارب، وبِرٌّ في معاملة الأجانب ﴿وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ وتتركونها من البر كالمنسيات ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ أي: تتلون التوراة؛ وفيها الوعيد على العناد وترك البر ومخالفة القول العمل ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ قُبحَ صنيعكم فيصدكم عنه، أو أفلا عقل لكم يمنعكم عما تعلمون وخامة عاقبته. والآية

ناعية على من يعظ غيره ولا يتَّعظ بنفسه سوءَ صنيعه وخبثَ نفسه، وأن فعله فعل الجاهل بالشرع أو الأحمق الخالي عن العقل، فإن الجامع بينهما تأبى عنه شكيمته (أي: عزته)، والمراد بها حثُّ الواعظ على تزكية النفس والإقبال عليها بالتكميل لتقوَّم فيقيِّم غيره، لا منع الفاسق عن الوعظ (أقول: لأن منعه مخالف للاستفادة).

(٤٥) ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ والمعنى: استعينوا على حوائجكم بانتظار النجح والفرج توكُّلاً على الله تعالى، أو بالصوم الذي هو صبر عن المفطرات لما فيه من كسر الشهوة وتصفية النفس، والتوسُّل بالصلاة والالتجاء إليها، فإنها جامعة لأنواع العبادات النفسانية والبدنية، من الطهارة وستر العورة وصرف المال فيهما، والتوجه إلى الكعبة والعكوف للعبادة، وإظهار الخشوع بالجوارح، وإخلاص النية بالقلب، ومجاهدة الشيطان، ومناجاة الحق، وقراءة القرآن، والتكلم بالشهادتين وكف النفس عن الأطيبين، حتى تجابوا إلى تحصيل المآرب وجبر المصائب (أقول: لا بد للعبد قبل أن يتلبس بالعبادة أن يتفكر في قرب علم الله تعالى إياه ونظر الله جل وعلا له) روي أنه عليه الصلاة والسلام «كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة» [الحديث رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى].

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: وإن الاستعانة بهما، أو الصلاة؛ وتخصيصها بردِّ الضمير إليها لعظم شأنها واستجماعها ضروبا من الصبر، أو جملة ما أمروا به ونهوا عنه ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ لثقيلة شاقة، كقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٢] ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ المخبتين (أي: المتواضعين).

(٤٦) ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (أقول: كلُّ ظنٍّ يأتي في القرآن من المؤمنين بمعنى اليقين، ومن الكافرين بمعنى الشك) أي: يتوقَّعون لقاء الله تعالى ونيل ما عنده، أو يتيقنون أنهم يحشرون إلى الله تعالى فيجازيهم. وإنما لم تثقل عليهم ثقلها على غيرهم فإن نفوسهم مرتاضة بأمثالها، متوقعة في مقابلتها ما يستحقر لأجله مشاقُّها ويستلذُّ بسببه متاعبُها، ومن ثمة قال عليه الصلاة والسلام: «وجعلت قرة عيني في الصلاة» [الحديث رواه الإمام النسائي رحمه الله تعالى].

(٤٧) ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ كرَّره للتأكيد وتذكير التفضيل الذي هو أجل النعم خصوصاً، وربطه بالوعيد الشديد تخويفاً لمن غفل عنها وأخلَّ بحقوقها ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: عالمي زمانهم، يريد به تفضيل آبائهم الذين كانوا في عصر موسى عليه الصلاة والسلام وبعده، قبل أن يغيروا بما منحهم الله تعالى من العلم والإيمان والعمل الصالح، وجعلهم أنبياء وملوكاً مقسطين. واستدل به على تفضيل البشر على الملك.

(٤٨) ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾ أي: اتقوا ما فيه من الحساب والعذاب ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ لا تقضي عنها شيئاً من الحقوق، أو شيئاً من الجزاء (وفي المدارك للنسفي رحمه الله تعالى: لا تجزي نفس مؤمنة عن نفس كافرة شيئاً) ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: من النفس العاصية (أي: الكافرة) (أقول: يوم القيامة، النفس المؤمنة لا تفيد النفس الكافرة لا شفاعةً ولا فداءً ولا عدلاً ولا هم ينصرون، ولكن هذا لا يدلُّ على نفي شفاعة المؤمنين الصادقين للمخالفين، فإن شفاعة المؤمنين للعاصين ثابتة، وفي الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي رحمهما الله تعالى: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»، نرجو الله تعالى أن يشفِّع فينا نبيَّنا عليه الصلاة والسلام) ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ يُمنعون من عذاب الله تعالى.

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

(٤٩) ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ﴾ محنةٌ إن أشير بذلكم إلى صنيعهم، ونعمةٌ إن أشير به إلى الإنجاء، وأصله الاختبار، لكن لما كان اختبار الله تعالى عباده تارة بالمحنة (أي: الشدة) وتارة بالمنحة (أي: العطاء) أطلق عليهما ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بتسليطهم عليكم، أو ببعث موسى عليه السلام وتوفيقه لتخليصكم ﴿عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ صفة بلاء. وفي الآية تنبيه على أن ما يصيب العبد من خير أو شر اختبار من الله تعالى، فعليه أن يشكر على مسارِّه ويصبر على مضارِّه ليكون من خير المختبَرين.

(٥٠) ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ روي أنه تعالى أمر موسى عليه السلام أن يسري ببني إسرائيل، فخرج بهم، فصبَّحهم فرعون وجنوده، وصادفوهم على شاطئ البحر، فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر، فضربه فظهر فيه اثنا عشر طريقاً يابساً فسلكوها، فقالوا: يا موسى نخاف أن يغرق بعضنا ولا نعلم، ففتح الله تعالى فيها كوى فتراءَوا وتسامعوا حتى عبروا البحر، ثم لما وصل إليه فرعون ورآه منفلقاً اقتحم فيه هو وجنوده، فالتطم عليهم وأغرقهم أجمعين. واعلم أن هذه الواقعة من أعظم ما أنعم الله تعالى به على بني إسرائيل، ومن الآيات الملجئة إلى العلم بوجود الصانع الحكيم وتصديق موسى عليه الصلاة والسلام، ثم إنهم بعد ذلك اتخذوا العجل وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] ونحو ذلك، فهم بمعزل في الفطنة والذكاء وسلامة النفس وحسن الاتباع عن أمة محمد ﷺ، مع أن ما تواتر من معجزاته أمور نظرية دقيقة تدركها الأذكياء، وإخبارُه عليه الصلاة والسلام عنها من جملة معجزاته على ما مرَّ تقريره.

(٥١) ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ لما عادوا إلى مصر بعد هلاك فرعون وعد الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام أن يعطيه التوراة، وضرب له ميقاتاً ذا القعدة وعشر ذي الحجة، وعبَّر عنها بالليالي لأنها غرر الشهور ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً أو معبوداً ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد موسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾ بإشراككم.

(٥٢) ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ حين تبتم، والعفو محو الجريمة ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: الاتخاذ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢﴾ أي: لكي تشكروا عفوه.

(٥٣) ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ يعني التوراة الجامع بين كونه كتاباً منزلًا وحجة تفرق بين الحق والباطل. وقيل: أراد بالفرقان الشرع الفارق بين الحلال والحرام، أو النصر الذي فرَّق بينه وبين عدوه كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] يريد به يوم بدر ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣﴾ لكي تهتدوا بتدبُّر الكتاب والتفكُّر في الآيات.

(٥٤) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ فاعزموا على التوبة والرجوع إلى من خلقكم بُرآء من التفاوت، ومميَّزاً بعضكم عن بعض بصور وهيئات مختلفة ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ إتماماً لتوبتكم بالبخع (وهو قتل الإنسان نفسه)، أو قطع الشهوات كما قيل: من لم يعذب نفسه لم ينعِّمها ومن لم يقتلها لم يحيها ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ من حيث إنه طهرة من الشرك، ووصلة إلى الحياة الأبدية والبهجة السرمدية ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ كأنه قال: ففعلتم ما أُمرتم به فتاب عليكم بارئكم. وذكر البارئ جلَّ وعلا وترتيب الأمر عليه إشعار بأنهم بلغوا غاية الجهالة والغباوة، حتى تركوا عبادة خالقهم الحكيم إلى عبادة البقر التي هي مثل في الغباوة، وأن من لم يعرف حقَّ منعمه حقيق بأن يستردَّ منه، ولذلك أُمروا بالقتل ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٤﴾ الذي يُكثر توفيق التوبة أو قبولها من المذنبين، ويبالغ في الإنعام عليهم.

(٥٥) ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ أي: لن نقرَّ لك ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥﴾ لفرط العناد والتعنت وطلب المستحيل؛ فإنهم ظنوا أنه تعالى يشبه الأجسام فطلبوا رؤيته رؤية الأجسام في الجهات والأحياز المقابلة للرائي، وهي محال، بل الممكن أن يرى رؤية منزهة عن الكيفية، وذلك للمؤمنين في الآخرة ولأفراد من الأنبياء في بعض الأحوال في الدنيا.

(أقول: أو كما يحصل لبعض الأولياء، يرون عظمة الله تعالى مثل الخيمة، استولت عظمته جلَّ وعلا على الكونين، هذا الوصف لأهل الطريق، ولكن أكثر أهل الطريق بعدوا عنه وتمسَّكوا بالمشيخة).

(٥٦) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ بسبب الصاعقة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦﴾ نعمة البعث.

(٥٧) ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ سخَّر الله تعالى لهم السحاب يظلهم من الشمس حين كانوا في التيه ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ المنُّ: (شيء كالصمغ كان يقع على الأشجار، طعمه كالشهد)، والسلوى: (طائر السماني) قيل: كان ينزل عليهم المنُّ مثل الثلج ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧﴾ بالكفران لأنه لا يتخطَّاهم ضرره.

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

(٥٨) ﴿**وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ**﴾ يعني بيت المقدس ﴿**فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا**﴾ واسعاً ﴿**وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا**﴾ مخبتين (أي: متواضعين)، أو ساجدين لله تعالى شكراً على إخراجهم من التيه ﴿**وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ**﴾ (أي: مسألتنا أن تحط عنا خطايانا) ﴿**نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ**﴾ بسجودكم ودعائكم ﴿**وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾**﴾ ثواباً. جعل الامتثال توبة للمسيء وسبب زيادة الثواب للمحسن، وأخرجه عن صورة الجواب إلى الوعد إيهاماً بأن المحسن بصدد ذلك وإن لم يفعله، فكيف إذا فعله؟ وأنه تعالى يفعل لا محالة.

(٥٩) ﴿ **فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ**﴾ بدَّلوا بما أمروا به من التوبة والاستغفار طلب ما يشتهون من أعراض الدنيا ﴿**فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾**﴾ عذاباً مقدراً من السماء بسبب فسقهم، والمراد به الطاعون. روي أنه مات في ساعة أربعة وعشرون ألفاً.

(٦٠) ﴿**وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ**﴾ لما عطشوا في التيه ﴿**فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ**﴾ اللام فيه للعهد على ما روي أنه كان حجراً طورياً مكعَّباً حمله معه، وكانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين، تسيل كل عين في جدول إلى سبط (أي: قبيلة)، وكانوا ست مئة ألف، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً؛ أو حجراً أهبطه آدم عليه السلام من الجنة، ووقع إلى شعيب عليه السلام، فأعطاه لموسى عليه السلام مع العصا؛ أو الحجر الذي فرَّ بثوبه لما وضعه عليه ليغتسل، وبرَّأه الله تعالى به عما رموه به من الأدرة (وهي نفخة تكون في الخصية)، فأشار إليه جبريل عليه السلام بحمله؛ أو للجنس، وهذا أظهر في الحجة ﴿**فَٱنفَجَرَتْ**﴾ (أي: سالت بكثرة) ﴿**مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ**﴾ أي: عينهم التي يشربون منها ﴿**كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ**﴾ يريد به ما رزقهم الله تعالى من المنِّ والسلوى وماء العيون ﴿**وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾**﴾ أي: لا تعتدوا بالإفساد.

(٦١) ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ**﴾ سله لنا بدعائك إياه ﴿**يُخْرِجْ لَنَا**﴾ يظهر ويوجد ﴿**مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ**﴾ من الإسناد المجازي ﴿**مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ**﴾ أقرب منزلة وأدون قدراً ﴿**بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ**﴾ يريد به المن والسلوى فإنه خير

في اللذة والنفع وعدم الحاجة إلى السعي (والسلوى هو السُّمانَى، كانت تحشره عليهم الريح الجنوب، وكانت الريح تقطع حلوقها وتشق بطونها وتمعط شعورها، وكانت الشمس تنضجها، فكانوا يأكلونها مع المنِّ، وأكثر المفسرين على أنهم يأخذونها فيذبحونها [روح البيان: ١/١٤٢]) ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ انحدروا إليه من التيه ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ أحيطت بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليه ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ رجعوا به.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ بسبب كفرهم بالمعجزات التي من جملتها ما عد عليهم من فلق البحر وإظلال الغمام وإنزال المن والسلوى وانفجار العيون من الحجر. أو بالكتب المنزلة: كالإنجيل والفرقان وآية الرجم، والتي فيها نعت محمد ﷺ من التوراة. وقتلهم الأنبياء، فإنهم قتلوا شعياء وزكريا ويحيى عليهم السلام وغيرهم بغير الحق عندهم، إذ لم يروا منهم ما يعتقدون به جواز قتلهم، وإنما حملهم على ذلك اتباع الهوى وحب الدنيا، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾ أي: جرَّهم العصيان والتمادي والاعتداء فيه إلى الكفر بالآيات وقتل النبيين. فإن صغار الذنوب سبب يؤدي إلى ارتكاب كبارها، كما أن صغار الطاعات أسباب مؤدية إلى تحري كبارها. وكرر الإشارة للدلالة على أن ما لحقهم كما هو بسبب الكفر والقتل فهو بسبب ارتكابهم المعاصي واعتدائهم حدود الله تعالى.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

(٦٢) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ بألسنتهم، يريد به المتديِّنين بدين محمد ﷺ، المخلصين منهم والمنافقين ﴿**وَٱلَّذِينَ هَادُواْ**﴾ أي: اليهود ﴿**وَٱلنَّصَٰرَىٰ**﴾ سمُّوا بذلك لأنهم نصروا المسيح عليه السلام، أو لأنهم كانوا معه في قرية يقال لها: ناصرة ﴿**وَٱلصَّٰبِـِٔينَ**﴾ قوم بين النصارى والمجوس ﴿**مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا**﴾ من كان منهم في دينه قبل أن ينسخ مصدِّقاً بقلبه بالمبدأ والمعاد، عاملاً بمقتضى شرعه. وقيل: من آمن من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً، ودخل في الإسلام دخولاً صادقاً ﴿**فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ الذي وعد لهم على إيمانهم وعملهم ﴿**وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾**﴾ حين يخاف الكفار من العقاب، ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب.

(٦٣) ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ**﴾ باتباع موسى عليه السلام والعمل بالتوراة ﴿**وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ**﴾ حتى أعطيتم الميثاق. روي أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاءهم بالتوراة فرأوا ما فيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم وأبوا قبولها، فأمر جبريل عليه السلام فقلع الطور فظلله فوقهم حتى قبلوا ﴿**خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ**﴾ ما آتيناكم من الكتاب بجد وعزيمة ﴿**وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ**﴾ ادرسوه ولا تنسوه، أو تفكروا فيه فإنه ذكر بالقلب، أو اعملوا به ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾**﴾ لكي تتقوا المعاصي، أو رجاء منكم أن تكونوا متقين.

(٦٤) ﴿**ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ**﴾ أعرضتم عن الوفاء بالميثاق بعد أخذه ﴿**فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ**﴾ بتوفيقكم للتوبة، أو بمحمد ﷺ يدعوكم إلى الحق ويهديكم إليه ﴿**لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾**﴾ المغبونين بالانهماك في المعاصي، أو بالخبط (أي: التخبط) والضلال في فترة من الرسل.

(٦٥) ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ**﴾ بصيد السمك ﴿**فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾**﴾ جامعين بين صورة القردة والخسوء: وهو الصغار والطرد. وقوله: ﴿كُونُواْ﴾ ليس بأمر، إذ لا قدرة لهم عليه، وإنما المراد به سرعة التكوين، وأنهم صاروا كذلك كما أراد بهم.

(٦٦) ﴿ فَجَعَلۡنَٰهَا﴾ أي: المسخة، أو العقوبة ﴿نَكَٰلٗا ﴾ عبرة تنكل المعتبر بها، أي: تمنعه ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا ﴾ لما قبلها وما بعدها من الأمم إذ ذكرت حالهم في زبر الأولين، واشتهرت قصتهم في الآخرين ﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٦٦﴾ من قومهم، أو لكلِّ متَّقٍ سمعها.

(٦٧) ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧﴾ لأن الهزء في مثل ذلك جهل وسفه؛ نفى عن نفسه ما رمي به، وأخرج ذلك في صورة الاستعاذة استفظاعاً له.

(٦٨) ﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ﴾ أي: ما حالها وصفتها ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ﴾ لا مسنة ولا فتية ﴿عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: بين ما ذكر من الفارض والبكر ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨﴾ أي: ما تؤمرونه.

(٦٩) ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا ﴾ الفقوع: نصوع الصفرة ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩﴾ أي تعجبهم.

قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٧٦﴾

(٧٠) ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ اعتذار عنه، أي: إن البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير فاشتبه علينا ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ إلى المراد ذبحها، أو إلى القاتل. واحتج به أصحابنا على أن الحوادث بإرادة الله سبحانه وتعالى، وأنَّ الأمر قد ينفكُّ عن الإرادة، وإلا لم يكن للشرط بعد الأمر معنًى (قال شيخ زاده رحمه الله في الحاشية: وقوله: «وأن الأمر قد ينفكُّ عن الإرادة» لا كما زعمت المعتزلة من أنَّ الأمر عين الإرادة، وأن كلَّ ما أمر الله تعالى به فقد أراده). (أقول: ولذا فإن الحوادث كلَّها تنسب إلى الله جلَّ وعلا، الحوادث الحاضرة الآن في سوريا نراها بأم عيوننا، هذا بإرادته جل وعلا، إذا لم تنسب الحوادث إلى إرادة الله تعالى يكون شركاً، لأن إسناد الحوادث إلى الأسباب شرك، كما قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم).

(٧١) ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾ أي: لم تُذلَّل لكراب الأرض (أي: لحرث الأرض) وسقي الحرث، و﴿لَّا ذَلُولٞ﴾ صفة لبقرة، بمعنى: غير ذلول ﴿مُسَلَّمَةٞ﴾ سلَّمها الله تعالى من العيوب ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا لون فيها يخالف لون جلدها ﴿قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بحقيقة وصف البقرة وحققتها لنا ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ لتطويلهم وكثرة مراجعاتهم، أو لخوف الفضيحة في ظهور القاتل، أو لغلاء ثمنها؛ إذ روي: أن شيخاً صالحاً منهم كان له عِجلة، فأتى بها الغيضة (الموضع الذي يكثر فيه الشجر ويلتفُّ) وقال: اللهم إني استودعتكها لابني حتى يكبر، فشبت وكانت وحيدة بتلك الصفات، فساوموها من اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء جلدها ذهباً.

(٧٢) ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا﴾ خطاب للجميع لوجود القتل فيهم ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ﴾ اختصمتم في شأنها ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ مظهره لا محالة.

(٧٣) ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ﴾ أيَّ بعض كان ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائله على كمال قدرته ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ لكي يكمل عقلكم وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس قدر على إحياء

الأنفس كلها. ولعله سبحانه وتعالى إنما لم يحيه ابتداء وشرط فيه ما شرط لما فيه من التقرب وأداء الواجب ونفع اليتيم والتنبيه على بركة التوكل والشفقة على الأولاد، وأن من حق الطالب أن يقدم قربة (أقول: أي طالب الحق وطالب رضا الله تعالى وطالب خلاصه يوم القيامة)، والمتقرب أن يتحرى الأحسن ويغالي بثمنه، كما روي عن عمر رضي الله تعالى عنه: أنه ضحَّى بنجيبة اشتراها بثلاث مئة دينار (ونجائب الإبل خيارها) (أقول: وهذا مقيَّد بالإخلاص)؛ وأن المؤثِّر في الحقيقة هو الله تعالى، والأسباب أمارات لا أثر لها، وأن من أراد أن يعرف أعدى عدوه الساعي في إماتته الموت الحقيقي، فطريقه أن يذبح بقرة نفسه التي هي القوة الشهوية حين زال عنها شره الصبا ولم يلحقها ضعف الكبر، وكانت معجبة رائقة المنظر غير مذللة في طلب الدنيا، مسلمة عن دنسها لا سمة بها من مقابحها بحيث يصل أثره إلى نفسه، فتحيا حياة طيبة، وتعرب عما به ينكشف الحال، ويرتفع ما بين العقل والوهم من التدارؤ (أي: التدافع) والنزاع. (قال شيخ زاده في حاشيته على القاضي: «قال بعض أهل المعرفة عند قوله تعالى: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ تنبيه على أن أمدح الأحوال للعبد أن يكون في معاملته مع الله تعالى على لون واحد (أي: على الإخلاص)، لا يتطرق إليه هموم الدنيا، ولا يطرأ عليه اتباع الهوى». اللهم بفضلك أزل عنا الهوى، وضع مكانه التقوى).

(٧٤) ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**﴾ والمعنى: أنها في القساوة مثل الحجارة أو أزيد عليها، أو أنها مثلها، أو مثل ما هو أشد منها قسوة كالحديد ﴿**وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ**﴾ والمعنى: أن الحجارة تتأثر وتنفعل فإن منها ما يتشقق فينبع منه الماء، وتنفجر منه الأنهار، ومنها ما يتردَّى من أعلى الجبل انقياداً لما أراد الله تعالى به، وقلوب هؤلاء لا تتأثر ولا تنفعل عن أمره تعالى ﴿**وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾**﴾ وعيد على ذلك.

(٧٥) ﴿**أَفَتَطْمَعُونَ**﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿**أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ**﴾ أن يصدقوكم، أو يؤمنوا لأجل دعوتكم، يعني اليهود ﴿**وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ**﴾ طائفة من أسلافهم ﴿**يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ**﴾ كنعت محمد ﷺ، وآية الرجم. أو تأويله، فيفسرونه بما يشتهون ﴿**مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ**﴾ أي فهموه بعقولهم ولم يبق لهم فيه ريبة ﴿**وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾**﴾ أنهم مفترون مبطلون.

(٧٦) ﴿**وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا**﴾ بأنكم على الحق، وأن رسولكم هو المبشَّر به في التوراة ﴿**وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟**﴾ أي: الذين لم ينافقوا منهم عاتبين على من نافق ﴿**أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ**﴾ بما بين لكم في التوراة من نعت محمد ﷺ ﴿**لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ**﴾ ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه. ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾**﴾ والمعنى: أفلا تعقلون حالهم وأن لا مطمع لكم في إيمانهم.

أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٧﴾
وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ
إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ
فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ
﴿٧٩﴾ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ
أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ
عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ
وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذۡ
أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ
إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ
لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ
تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾

(٧٧) ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ﴾ يعني هؤلاء المنافقين، أو اللائمين ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ ومن جملتها إسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان، وإخفاء ما فتح الله تعالى عليهم، وإظهار غيره، وتحريف الكلم عن مواضعه ومعانيه.

(٧٨) ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ والمعنى: لكن يعتقدون أكاذيب أخذوها تقليداً من المحرِّفين، أو مواعيد فارغة سمعوها منهم، من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ ما هم إلا قوم يظنون لا علم لهم (أقول: الظنُّ إذا جاء من المؤمنين فهو بمعنى اليقين، وإذا جاء من أمثال هؤلاء فهو بمعنى الشك).

(٧٩) ﴿فَوَيۡلٞ﴾ أي: تحسَّر وهلك. وقيل: إنه واد أو جبل في جهنم ﴿لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ يعني المحرِّفين ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ كي يحصِّلوا به عرضاً من أعراض الدنيا، فإنه وإنْ جَلَّ قليل بالنسبة إلى ما استوجبوه من العقاب الدائم ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ يعني المحرَّف ﴿وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ يريد به الرِّشا.

(٨٠) ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ المسُّ: اتصال الشيء بالبشرة بحيث تتأثر الحاسَّة به ﴿إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا﴾ خبراً أو وعداً بما تزعمون ﴿فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ﴾ أي: إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله تعالى عهده؛ وفيه دليل على أنَّ الخُلفَ في خبره سبحانه وتعالى مُحالٌ ﴿أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

(٨١) ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه من مساس النار لهم زماناً مديداً ودهراً طويلاً على وجه أعم، ليكون كالبرهان على بطلان قولهم ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ﴾ قبيحة ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أي استولت عليه، وشملت جملة أحواله حتى صار كالمحاط بها لا يخلو عنها شيء من جوانبه؛ وهذا إنما يصح في شأن الكافر، لأن غيره وإن لم يكن له سوى تصديق قلبه وإقرار لسانه فلم تحط الخطيئة به، ولذلك فسَّرها السلف بالكفر.

وتحقيق ذلك: أن من أذنب ذنباً ولم يقلع عنه استجره إلى معاودة مثله والانهماك فيه وارتكاب ما هو أكبر منه، حتى تستولي عليه الذنوب وتأخذ بمجامع قلبه، فيصير بطبعه مائلاً إلى المعاصي مستحسناً إياها معتقداً أن لا لذة سواها، مبغضاً لمن يمنعه عنها، مكذِّباً لمن ينصحه فيها، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ [الروم: ١٠] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ ملازموها في الآخرة كما أنهم ملازمون أسبابها في الدنيا ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾ دائمون (أقول: إن لم يتب ولم يرجع ومات على هذا الكفر)، أو لابثون لبثاً طويلاً (أقول: هذا لمن كان له إيمان مع هذه الأخلاق المخالفة). والآية كما ترى لا حجة فيها على خلود صاحب الكبيرة (من المؤمنين أهل القبلة) وكذا التي قبلها.

(٨٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾ جرت عادته سبحانه وتعالى على أن يشفع وعده بوعيده، لترجى رحمته ويخشى عذابه؛ وعطفُ العمل على الإيمان يدل على خروجه عن مسماه.

(٨٣) ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ (يعني في التوراة) ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إخبار في معنى النهي ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ أي: قولًا حسناً ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يريد بهما ما فرض عليهم في ملتهم ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ ولعل الخطاب مع الموجودين منهم في عهد رسول الله ﷺ ومن قبلهم على التغليب، أي: أعرضتم عن الميثاق ورفضتموه ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ﴾ يريد به من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ، ومن أسلم منهم ﴿وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣﴾ قوم عادتكم الإعراض عن الوفاء والطاعة.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾
ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا
مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ
وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ
إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ
بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ
وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ
بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ
بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ
ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟
قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

(٨٤) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾ والمراد به أن لا يتعرَّض بعضهم بعضاً بالقتل والإجلاء عن الوطن. وإنما جعل قتل الرجل غيره قتل نفسه لاتصاله به نسباً أو ديناً، أو لأنه يوجبه قصاصاً.

وقيل: لا تفعلوا ما يرديكم ويصرفكم عن الحياة الأبدية فإنه القتل في الحقيقة، ولا تقترفوا ما تمنعون به عن الجنة التي هي داركم، فإنه الجلاء الحقيقي ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بالميثاق واعترفتم بلزومه ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ توكيد، (أي: وأنتم تشهدون على أنفسكم شهادةَ من يشهد على غيره).

(٨٥) ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ استبعاد لما ارتكبوه بعد الميثاق والإقرار به والشهادة عليه ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ والتظاهر: التعاون ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ﴾ روي أن قريظة كانوا حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج، فإذا اقتتلا عاون كل فريق حلفاءه في القتل وتخريب الديار وإجلاء أهلها، وإذا أسر أحد من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه. وقيل معناه إن يأتوكم أسارى في أيدي الشياطين تتصدوا لإنقاذهم بالإرشاد والوعظ مع تضييعكم أنفسكم، كقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ يعني الفداء ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ﴾ يعني حرمة المقاتلة والإجلاء ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كقتل قريظة وسبيهم وإجلاء بني النضير، وضرب الجزية على غيرهم ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾ لأنَّ عصيانهم أشدُّ ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ تأكيد للوعيد، أي: الله سبحانه وتعالى بالمرصاد لا يغفل عن أفعالهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

(وما الله تعالى المستوي على عروش الذرات الكائنة في العالم، رطبها ويابسها، شهادتها وغيبها بغافل ـ أي: مشغول بشيء يشغله ـ عما تعملون أنتم، بل شأنكم وحالكم وأعمالكم كلها عنده مكشوف معلوم له سبحانه وتعالى، بالعلم الحضوري بحيث لا يشذُّ عن حيطة علمه شيء فيها أصلًا، كما قال أولياؤنا رضي الله عنهم).

(٨٦) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ بنقص الجزية في الدنيا، أو التعذيب في الآخرة ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾ بدفعهما عنهم (أقول: قال أحد الأولياء رحمهم الله تعالى: إن أفراداً قلائل من كلِّ أربعين شخصاً هم الذين يخرجون من الدنيا مع الإيمان، والباقون يخرجون بدون إيمان، سبب هذا طاعون المادة، نعوذ بالله تعالى).

(٨٧) ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة ﴿وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ﴾ أي: أرسلنا على أثره الرسل، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤].

﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات الواضحات، كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات، أو الإنجيل. وعيسى بالعبرية أيشوع (أي: المبارك) ومريم (أي: العابدة) ﴿وَأَيَّدۡنَٰهُ﴾ قويناه ﴿بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ بالروح المقدسة وأراد به جبريل عليه السلام.

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ بما لا تحبُّه ﴿ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ عن الإيمان واتباع الرسل ﴿فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ﴾ كموسى وعيسى عليهما السلام ﴿وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام. وإنما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها في النفوس، فإن الأمر فظيع، أو للدلالة على أنكم بعد فيه فإنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ، لولا أني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة.

(٨٨) ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ مغشاة بأغطية خلقية لا يصل إليها ما جئت به ولا تفقهه. والمعنى أنها أوعية للعلم لا تسمع علماً إلا وعته، ولا تعي ما تقول ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾ ردٌّ لما قالوه، والمعنى أنها خلقت على الفطرة والتمكُّن من قبول الحق، ولكنَّ الله تعالى خذلهم بكفرهم فأبطل استعدادهم ﴿فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ فإيماناً قليلاً يؤمنون (وقيل: أي لم يؤمن منهم إلا قليل).

وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩٣﴾

(٨٩) ﴿**وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ**﴾ يعني القرآن ﴿**مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ**﴾ من كتابهم (كالتوراة) ﴿**وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾ أي: يستنصرون على المشركين ويقولون: اللهم انصرنا بنبي آخر الزمان المنعوت في التوراة. أو يفتحون عليهم ويعرِّفونهم أن نبياً يبعث منهم وقد قرب زمانه ﴿**فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ**﴾ من الحق ﴿**كَفَرُواْ بِهِۦ**﴾ حسداً وخوفاً على الرياسة ﴿**فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾**﴾ أي: عليهم، على أنهم لُعنوا لكفرهم.

(٩٠) ﴿**بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ**﴾ معناه باعوا، أو اشتروا بحسب ظنهم، فإنهم ظنوا أنهم خلَّصوا أنفسهم من العقاب بما فعلوا ﴿**أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ**﴾ هو المخصوص بالذم ﴿**بَغۡيًا**﴾ طلباً لما ليس لهم وحسداً ﴿**أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ**﴾ أي: حسدوه على أن ينزل الله تعالى ﴿**مِن فَضۡلِهِۦ**﴾ يعني الوحي ﴿**عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ**﴾ على من اختاره للرسالة ﴿**فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ**﴾ للكفر والحسد على من هو أفضل الخلق. وقيل: لكفرهم بمحمد ﷺ بعد عيسى عليه السلام، أو بعد قولهم عزير ابن الله ﴿**وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾**﴾ يراد به إذلالهم، بخلاف عذاب العاصي (المؤمن) فإنه طهرة لذنوبه.

(٩١) ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ**﴾ يعم الكتب المنزلة بأسرها ﴿**قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا**﴾ أي بالتوراة ﴿**وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ**﴾ والمراد به القرآن ﴿**مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ**﴾ فإنهم لما كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها ﴿**قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾**﴾ اعتراض عليهم بقتل الأنبياء مع ادعاء الإيمان بالتوراة والتوراةُ لا تسوغه. وإنما أسنده إليهم لأنه فعل آبائهم، وأنهم راضون به عازمون عليه.

(٩٢) ﴿**وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ**﴾ يعني الآيات التسع المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] ﴿**ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ**﴾ أي: إلهاً ﴿**مِنۢ بَعۡدِهِۦ**﴾ من بعد مجيء موسى عليه

السلام، أو بعد ذهابه إلى الطور ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ بمعنى اتخذتم العجل ظالمين بعبادته، أو بالإخلال بآيات الله تعالى.

(٩٣) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾ أي: قلنا لهم: خذوا ما أمرتم به في التوراة بجدٍّ واسمعوا سماع طاعة ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ تداخلهم حبُّه ورسخ في قلوبهم صورته، لفرط شغفهم به، كما يتداخل الصبغُ الثوبَ، والشرابُ أعماقَ البدن ﴿فِى قُلُوبِهِمُ﴾: بيان لمكان الإشراب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠] ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بسبب كفرهم وذلك لأنهم كانوا مجسِّمة أو حلولية، ولم يروا جسماً أعجب منه، فتمكَّن في قلوبهم ما سوَّل لهم السامريُّ (أقول: الذي تمكَّن حبُّ الدنيا في قلبه يعمى عن جميع الخيرات) ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ أي: بالتوراة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ تقرير للقدح في دعواهم الإيمان بالتوراة، أو إن كنتم مؤمنين بها فبئسما يأمركم به إيمانكم بها، لأن المؤمن ينبغي أن لا يتعاطى إلا ما يقتضيه إيمانه، لكن الإيمان بها لا يأمر به، فإذاً لستم بمؤمنين.

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

(٩٤) ﴿**قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً**﴾ خاصة بكم كما قلتم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا﴾ [البقرة: ١١١] ﴿**مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ**﴾ سائرهم، أو المسلمين ﴿**فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾**﴾ لأنَّ من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاقها وأحبَّ التخلُّص إليها من الدار ذات الشوائب (أي: الدنيا)، كما قال علي رضي الله تعالى عنه: «لا أبالي سقطت على الموت أو سقط الموت عليَّ». وقال عمار رضي الله تعالى عنه بصفِّين: «الآن ألاقي الأحبة محمداً وحزبه». وقال حذيفة رضي الله عنه حين احتضر: «جاء حبيب على فاقة، لا أفلح اليوم من قد ندم».

(٩٥) ﴿**وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ من موجبات النار، كالكفر بمحمد ﷺ والقرآن، وتحريف التوراة. وهذه الجملة إخبار بالغيب، وكان كما أخبر، لأنهم لو تمنوا لنُقل واشتهر، فإن التمني ليس من عمل القلب ليخفى، بل هو أن يقول: ليت لي كذا، ولو كان بالقلب لقالوا: تمنينا. وعن النبي ﷺ: «لو تمنوا الموت لغصَّ كلُّ إنسان بريقه فمات مكانه، وما بقي على وجه الأرض يهودي» [رواه الإمام أحمد بلفظ قريب] ﴿**وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾**﴾ تهديد لهم وتنبيه على أنهم ظالمون في دعوى ما ليس لهم، ونفيه عمن هو لهم.

(٩٦) ﴿**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ**﴾ فإن حرصهم شديد، إذ لم يعرفوا إلا الحياة العاجلة ﴿**وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟**﴾ محمول على المعنى، وكأنه قال: أحرص من الناس على الحياة ومن الذين أشركوا ﴿**يَوَدُّ أَحَدُهُمْ**﴾ على أنه أريد بالذين أشركوا اليهود، لأنهم قالوا: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾ [التوبة: ٣٠] ﴿**لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ حكاية لودادتهم ﴿**وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ**﴾ أي: وما أحدهم بمن يزحزحه من العذاب تعميره، والزحزحة التبعيد ﴿**وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾**﴾ فيجازيهم.

(٩٧) ﴿**قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ**﴾ دخل عمر رضي الله تعالى عنه مدارس اليهود يوماً، فسألهم عن جبريل فقالوا: ذاك عدونا، يطلع محمداً على أسرارنا، وإنه صاحب كل خسف وعذاب، وميكائيل صاحب الخصب والسلام، فقال: وما منزلتهما من الله؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وبينهما عداوة،

فقال: لئن كانا كما تقولون فليسا بعدوين ولأنتم أكفر من الحمير، ومن كان عدو أحدهما فهو عدو الله. ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فقال عليه الصلاة والسلام: «لقد وافقك ربك يا عمر» [رواه الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره] ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فإنه القابل الأول للوحي، ومحلُّ الفهم والحفظ ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بأمره وتيسيره ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ والمعنى: من عادى منهم جبريل عليه السلام فقد خلع ربقة الإنصاف، أو كفر بما معه من الكتاب بمعاداته إياه لنزوله عليك بالوحي، لأنه نزل كتاباً مصدقاً للكتب المتقدمة.

(٩٨) ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أراد بعداوة الله تعالى مخالفته عناداً أو معاداة المقربين من عباده، وصدَّر الكلام بذكره تفخيماً لشأنهم كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]. وأفرد الملكين بالذكر لفضلهما كأنهما من جنس آخر، والتنبيه على أن معاداة الواحد والكل سواء في الكفر واستجلاب العداوة من الله تعالى، وأن من عادى أحدهم فكأنه عادى الجميع، إذ الموجب لعداوتهم ومحبتهم على الحقيقة واحد، ولأن المحاجة كانت فيهما، وأن عداوة الملائكة والرسل كفر.

(٩٩) ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: المتمرِّدون من الكفرة، (والأحسن أن تكون إشارة إلى أهل الكتاب [النسفي]).

(١٠٠) ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ نَقَضَهُ، وإنما قال: ﴿فَرِيقٌ﴾ لأن بعضهم لم ينقض ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ ردٌّ لما يتوهم من أن الفريق هم الأقلون، أو أن من لم ينبذ جهاراً فهم مؤمنون به خفاء.

(١٠١) ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ كعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يعني التوراة، لأن كفرهم بالرسول المصدق لها كفرٌ بها فيما يصدقه، ونبذٌ لما فيها من وجوب الإيمان بالرسل المؤيدين بالآيات ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مثَّل لإعراضهم عنه رأساً بالإعراض عما يرمى به وراء الظهر لعدم الالتفات إليه ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ أنه كتاب الله تعالى، يعني أن علمهم به رصين ويقين ولكن يتجاهلون عناداً. واعلم أنه تعالى دل بالآيتين على أن جُلَّ اليهود أربع فرق: فرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمني أهل الكتاب وهم الأقلون المدلول عليهم بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وفرقة جاهروا بنبذ عهودها وتخطي حدودها تمرداً وفسوقاً، وهم المعنيون بقوله: ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾، وفرقة لم يجاهروا بنبذها ولكن نبذوا لجهلهم بها وهم الأكثرون، وفرقة تمسكوا بها ظاهراً ونبذوها خفية عالمين بالحال بغياً وعناداً وهم المتجاهلون.

وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۖ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

(١٠٢) ﴿**وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ**﴾ أي: نبذوا كتاب الله تعالى واتبعوا كتب السحر التي تقرؤها أو تتبعها الشياطين من الجن والإنس أو منهما ﴿**عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ**﴾ أي: عهده ﴿**وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ**﴾ تكذيب لمن زعم ذلك. وعبَّر عن السحر بالكفر ليدلَّ على أنه كفر، وأن من كان نبياً كان معصوماً منه ﴿**وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ**﴾ باستعماله (أي: باستعمال السحر) ﴿**يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ**﴾ إغواءً وإضلالًا؛ والمراد بالسحر ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الإنسان، وذلك لا يستتب إلا لمن يناسبه في الشرارة وخبث النفس، فإن التناسب شرط في التضامِّ (أي: الجمع) والتعاون، وبهذا تميَّز الساحر عن النبيِّ والوليِّ ﴿**وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ**﴾ عطف على السحر وهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله تعالى للناس، وتمييزاً بينه وبين المعجزة ﴿**بِبَابِلَ**﴾ بلد من سواد الكوفة ﴿**هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ**﴾ عطف بيان للملكين ﴿**وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ**﴾ أي: ما يعلمان أحداً حتى ينصحاه ويقولا له: إنما نحن ابتلاء من الله تعالى، فمن تعلَّم منا وعمل به كفر، ومن تعلم وتوقى عمله ثبت على الإيمان، فلا تكفر باعتقاد جوازه والعمل به. وفيه دليل على أن تعلم السحر وما لا يجوز اتباعه غير محظور، وإنما المنع من اتباعه والعمل به ﴿**فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ**﴾ أي: من السحر ما يكون سبب تفريقهما ﴿**وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ**﴾ لأنه وغيره من الأسباب غير مؤثر بالذات، بل بأمره تعالى وبجعله ﴿**وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ**﴾ لأنهم يقصدون به العمل، أو لأن العلم يجر إلى العمل غالباً ﴿**وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ**﴾ إذ مجرد العلم به غير مقصود ولا نافع في الدارين. وفيه أن التحرز عنه أولى.

﴿**وَلَقَدۡ عَلِمُواْ**﴾ أي اليهود ﴿**لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ**﴾ أي: استبدل ما تتلوا الشياطين بكتاب الله تعالى ﴿**مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ**﴾ نصيب ﴿**وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٢﴾**﴾ يتفكرون

فيه، أو يعلمون قبحه على اليقين، أو حقية ما يتبعه من العذاب؛ والمثبت لهم هو العقل الغريزي أو العلم الإجمالي بقبح الفعل، أو ترتب العقاب من غير تحقيق. وقيل: لو كانوا يعملون بعلمهم، فإن من لم يعمل بما علم فهو كمن لم يعلم.

(١٠٣) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾ بالرسول والكتاب ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ بترك المعاصي، كنبذ كتاب الله تعالى واتباع السحر ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ أي: لأثيبوا مثوبة من عند الله تعالى خيراً مما شروا به أنفسهم ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ أن ثواب الله تعالى خير مما هم فيه، وقد علموا لكنه جَهَّلَهُم لترك التدبر، أو العمل بالعلم.

(١٠٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ الرعي: حفظ الغير لمصلحته، وكان المسلمون يقولون للرسول عليه الصلاة والسلام: راعنا، أي: راقبنا وتأنَّ بنا فيما تلقِّننا حتى نفهمه، وسمع اليهود فافترصوه (أي: وجدوا الفرصة) وخاطبوه به مريدين نسبته إلى الرعن، أو سبَّه بالكلمة العبرانية التي كانوا يتسابُّون بها، وهي راعينا، فنُهي المؤمنون عنها، وأُمروا بما يفيد تلك الفائدة ولا يقبل التلبيس، وهو ﴿ٱنظُرْنَا﴾ بمعنى انظر إلينا أو انتظرنا ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ وأحسنوا الاستماع حتى لا تفتقروا إلى طلب المراعاة، أو واسمعوا سماع قبول، لا كسماع اليهود ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ يعني الذين تهاونوا بالرسول عليه الصلاة والسلام وسبُّوه.

(قال سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرْعِها سمعَك، فإنه خير يؤمر به أو شر ينهى عنه).

(أقول: هذا الخطاب من الله تعالى لك، ومعلوم أنك مؤمن بحمد الله تعالى، فلا بدَّ أيها الأخ المؤمن أن تعمل بمقتضى إيمانك، ولا تتبع خطوات الشيطان، ولا يركبنَّك الهوى، واتبع سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام حتى تكون من الفائزين).

(١٠٥) ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ نزلت تكذيباً لجمع من اليهود يظهرون مودة المؤمنين، ويزعمون أنهم يودون لهم الخير ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وفُسِّر الخير بالوحي. والمعنى أنهم يحسدونكم به وما يحبون أن ينزل عليكم شيء منه، وفُسِّر بالعلم وبالنصرة. ولعل المراد به ما يعمُّ ذلك ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يستنبئه ويعلِّمه الحكمة وينصره، لا يجب عليه شيء، وليس لأحد عليه حقٌّ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ إشعار بأنَّ النبوَّة من الفضل، وأن حرمان بعض عباده ليس لضيق فضله جلَّ وعلا، بل لمشيئته وحكمته سبحانه وتعالى.

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

(١٠٦) ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا**﴾ نزلت لما قال المشركون أو اليهود: ألا ترون إلى محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه. ونسخ الآية بيان انتهاء التعبُّد بقراءتها، أو الحكم المستفاد منها، أو بهما جميعاً؛ وإنساؤها إذهابها عن القلوب ﴿**نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ**﴾ أي: بما هو خير للعباد في النفع والثواب، أو مثلها في الثواب ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾**﴾ فيقدر على النسخ والإتيان بمثل المنسوخ أو بما هو خير منه. وذلك لأن الأحكام شرعت والآيات نزلت لمصالح العباد وتكميل نفوسهم فضلاً من الله تعالى ورحمة، وذلك يختلف باختلاف الأعصار والأشخاص، كأسباب المعاش فإن النافع في عصر قد يضر في عصر غيره (أقول: وهو جلَّ وعلا يدبِّر شؤون عباده بما تقتضيه الحكمة).

(١٠٧) ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ**﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمراد هو وأمته، وإنما أفرده لأنه عليه الصلاة والسلام أعلمُهم ومبدأ علمهم ﴿**أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿**وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾**﴾ وإنما هو الذي يملك أموركم ويجريها على ما يصلحكم.

(١٠٨) ﴿**أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ**﴾ والمراد أن يوصيهم بالثقة به وترك الاقتراح عليه ﴿**وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾**﴾ ومَنْ ترك الثقة بالآيات البينات وشك فيها واقترح غيرها فقد ضل الطريق المستقيم حتى وقع في الكفر بعد الإيمان. ومعنى الآية: لا تقترحوا فتضلوا وسط السبيل، ويؤدي بكم الضلال إلى البعد عن المقصد وتبديل الكفر بالإيمان.

(١٠٩) ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ**﴾ يعني أحبارهم ﴿**لَوْ يَرُدُّونَكُم**﴾ أن يردوكم ﴿**مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا**﴾ مرتدين ﴿**حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم**﴾ أي: تمنوا ذلك من عند أنفسهم وتشهّيهم ﴿**مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ**﴾ بالمعجزات والنعوت المذكورة في التوراة.

﴿**فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟**﴾ العفو: ترك عقوبة المذنب، والصفح: ترك تثريبه (أي: لومه) ﴿**حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ**

﴿بِأَمْرِهِۦٓۗ﴾ الذي هو الإذن في قتالهم وضرب الجزية عليهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩﴾ فيقدر على الانتقام منهم.

(١١٠) ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ أمرهم بالصبر والمخالقة (أي: المعاشرة بالخلق الحسن) واللجأ إلى الله تعالى بالعبادة والبر ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ كصلاة وصدقة ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: ثوابه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠﴾ لا يضيع عنده عمل.

(١١١) ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ﴾ إشارة إلى الأماني المذكورة، وهي أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم، وأن يردوهم كفاراً، وأن لا يدخل الجنة غيرهم ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ على اختصاصكم بدخول الجنة ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١﴾ في دعواكم.

(١١٢) ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة ﴿مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أخلص له نفسه، أو قصده ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ في عمله ﴿فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ﴾ الذي وعد له على عمله ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ ثابتاً عنده لا يضيع ولا ينقص ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢﴾ في الآخرة.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

(١١٣) ﴿**وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ**﴾ أي: على أمر يصحُّ ويعتدُّ به ﴿**وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ**﴾ أي: قالوا ذلك وهم من أهل العلم والكتاب ﴿**كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ**﴾ كعبَدَة الأصنام والمعطِّلة؛ وبَّخهم على المكابرة والتشبه بالجهال ﴿**فَٱللَّهُ يَحْكُمُ**﴾ يفصل ﴿**بَيْنَهُمْ**﴾ بين الفريقين ﴿**يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾**﴾ بما يقسم لكل فريق ما يليق به من العقاب.

(١١٤) ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ**﴾ عام لكلِّ من خرب مسجداً، أو سعى في تعطيل مكان مرشح للصلاة ﴿**أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ**﴾ بالهدم أو التعطيل (أقول: إني رأيت هذا في مسجد قريتنا في زمان أتاتورك، المسجد كبير قسموه أقساماً، قسم يقعد فيه رئيس الشرطة، وقسم للجندرما، أي: الجيش، وقسم يربطون فيه أفراسهم؛ هذا ممن منع مساجد الله تعالى أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها، عليه من الله تعالى ما يستحقُّ، ليس بيدنا شيء؛ وهو لم يكن مستقلًّا، فهو مخلوق للخالق جلَّ وعلا، وهو كذلك مثل الشيطان) ﴿**أُو۟لَـٰٓئِكَ**﴾ أي: المانعون ﴿**مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ**﴾ ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخشوع، فضلاً عن أن يجترئوا على تخريبها، أو ما كان الحقُّ أن يدخلوها إلا خائفين من المؤمنين ﴿**لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ**﴾ قتل وسبي، أو ذلة بضرب الجزية ﴿**وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾**﴾ بكفرهم وظلمهم.

(١١٥) ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ**﴾ يريد بهما ناحيتي الأرض، أي: له الأرض كلها، لا يختص به مكان دون مكان، فإن منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أو الأقصى فقد جعلت لكم الأرض مسجداً ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟**﴾ ففي أي مكان فعلتم التولية شطر القبلة ﴿**فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ**﴾ أي: جهته التي أمر بها، فإن إمكان التولية لا يختص بمسجد أو مكان ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ**﴾ بإحاطته بالأشياء. أو برحمته، يريد التوسعة على عباده ﴿**عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾**﴾ بمصالحهم وأعمالهم في الأماكن كلها. وفي الآية تنزيه للمعبود جلَّ وعلا أن يكون في حيز وجهة.

(١١٦) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ نزلت لما قال اليهود: عزير ابن الله، والنصارى: المسيح ابن الله، ومشركو العرب: الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له عن ذلك، فإنه يقتضي التشبيه والحاجة وسرعة الفناء ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ردٌّ لما قالوه، واستدلال على فساده. والمعنى أنه تعالى خالق ما في السموات والأرض، الذي من جملته الملائكة وعزير والمسيح ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ منقادون لا يمتنعون عن مشيئته وتكوينه (أقول: فكلُّهم مخلوقه جلَّ وعلا).

(١١٧) ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أي: أراد شيئاً ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ أي: احدُثْ فيحدث؛ وليس المراد به حقيقة أمر وامتثال، بل تمثيل حصول ما تعلقت به إرادته جلَّ وعلا بلا مهلة بطاعة المأمور المطيع بلا توقف (أقول: أمره جلَّ جلاله ليس متعلّقاً باللفظ، إنما هو بإرادته جلَّ وعلا، والفاء للتعقيب، وذكر اللفظ لضيق العبارة، ولإيصال المعنى لعقولنا، وإذا أراد الله تعالى شيئاً فإن وجود ذلك الشيء متعلّق بخلقه وإيجاده وتكوينه سبحانه، وإرادته متعلِّقة بذاته جل وعلا، وهي صفة أزلية، وهذا الكلام عبارة عن سرعة حصول المخلوق بإيجاده وكمال قدرته جلَّ وعلا على ذلك، فإذا توجَّهت إرادته جلَّ وعلا لشيء يكون. وهذه الألفاظ المباركة تأتي في القرآن في ثمانية مواضع: في سورة البقرة الآية / ١١٧/ ، وفي سورة آل عمران / ٤٧/ و/ ٥٩/ ، وفي سورة الأنعام / ٧٣/ ، وفي سورة النحل / ٤٠/ ، وفي سورة مريم / ٣٥/ ، وفي سورة ياسين / ٨٢/ ، وفي سورة غافر / ٦٨/).

(١١٨) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: جهلة المشركين، أو المتجاهلون من أهل الكتاب ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ هلا يكلمنا الله كما يكلم الملائكة، أو يوحي إلينا بأنك رسوله ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ حجة على صدقك ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ من الأمم الماضية ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ فقالوا: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، وقالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ﴾ [المائدة: ١١٢] ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى والعناد ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ أي يطلبون اليقين، أو يوقنون الحقائق لا يعتريهم شبهة ولا عناد.

(١١٩) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ متلبِّساً مؤيداً به ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فلا عليك إن أصرُّوا أو كابروا (أقول: دعوى بدون دليل) ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ (أقول: أي: ولا تسأل أنت عن إعراض أصحاب الجحيم) ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلَّغت (والجحيم: المتأجِّج من النار، نعوذ بالله تعالى منها).

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

(١٢٠) ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾ مبالغةٌ في إقناط الرسول ﷺ من إسلامهم، فإنهم إذا لم يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم، فكيف يتبعون ملته. والمِلَّةُ: ما شرعه الله تعالى لعباده على لسان أنبيائه ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ﴾ أي: هدى الله تعالى الذي هو الإسلام هو الهدى إلى الحق، لا ما تدعون إليه ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ آراءهم الزائفة ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ﴾ أي: الوحي، أو الدين المعلوم صحته ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ يدفع عنك عقابه.

(١٢١) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد به مؤمني أهل الكتاب ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ بمراعاة اللفظ عن التحريف، والتدبُّر في معناه، والعمل بمقتضاه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ﴾ بكتابهم دون المحرِّفين ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ بالتحريف والكفر بما يصدقه ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ حيث اشتروا الكفر بالإيمان.

(١٢٢-١٢٣) ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ لمَّا صدَّر قصتهم بالأمر بذكر النعم، والقيام بحقوقها، والحذر من إضاعتها، والخوف من الساعة وأهوالها، كرر ذلك وختم به الكلام معهم مبالغة في النصح، وإيذاناً بأنه فذلكة القضية (أي: ملخَّصها ومحصولها) والمقصود من القصة.

(١٢٤) ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ كلَّفه بأوامر ونواهٍ ﴿فَأَتَمَّهُنَّ ۖ﴾ فأداهنَّ كَمَلًا (أي: كاملًا) وقام بهنَّ حقَّ القيام، لقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ بيان لقوله: ﴿ابْتَلَى﴾ فتكون الكلمات ما ذكره من الإمامة، وتطهير البيت، ورفع قواعده، والإسلام ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ﴾ أي: وبعض ذريتي (وسمي بنو آدم ذرية من حيث إن الله تعالى فرقهم على الأرض وبثهم فيها [حاشية شيخ زاده]).

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ إجابة إلى ملتمسه، وتنبيه على أنه قد يكون من ذريته ظلَمة، وأنهم لا ينالون الإمامة لأنها أمانة من الله تعالى وعهد، والظالم لا يصلح لها، وإنما ينالها البررة الأتقياء منهم. وفيه دليل على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الكبائر قبل البعثة، وأن الفاسق لا يصلح للإمامة.

(١٢٥) ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾ أي: الكعبة ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مرجعاً يثوب إليه أعيان الزوار، أو موضع ثواب يثابون بحجه واعتماره ﴿وَأَمْنًا﴾ وموضع أمن لا يُتعرض لأهله، كقوله تعالى: ﴿حَرَماً آمِناً﴾ [القصص: ٥٧]. أولا يؤاخذ الجاني الملتجئ إليه حتى يخرج، وهو مذهب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه.

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ الخطاب لأمة محمد ﷺ، وهو أمر استحباب. ومقام إبراهيم عليه السلام هو الحِجر الذي فيه أثر قدمه، أو الموضع الذي كان فيه الحجر حين قام عليه ودعا الناس إلى الحج. روي أنه عليه الصلاة والسلام أخذ بيد عمر رضي الله تعالى عنه وقال: «هذا مقام إبراهيم، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: أفلا نتخذه مصلى، فقال: لم أومر بذلك، فلم تغب الشمس حتى نزلت» [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى]. وقيل: المراد به الأمر بركعتي الطواف، لما روى جابر رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام: لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ عليه الصلاة والسلام: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى].

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ أمرناهما ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ بأن طهِّرا بيتي، يريد طهِّراه من الأوثان والأنجاس وما لا يليق به، أو أخلصاه ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ حوله ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ المقيمين عنده، أو المعتكفين فيه ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ أي: المصلين.

(١٢٦) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا﴾ يريد به البلد، أو المكان ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ ذا أمن ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ والمعنى: وأَرْزُقُ من كفر، قاس إبراهيم عليه الصلاة والسلام الرزق على الإمامة، فنبه سبحانه على أن الرزق رحمة دنيوية تعمُّ المؤمن والكافر، بخلاف الإمامة والتقدم في الدين ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ والكفر وإن لم يكن سبباً للتمتيع لكنه سبب لتقليله، بأن يجعله مقصوراً بحظوظ الدنيا، غير متوسَّل به إلى نيل الثواب، ولذلك عطف عليه ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ أي: ألزُّه (أُلجئه) إليه لزَّ المضطر لكفره وتضييعه ما متعته به من النعم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ وهو العذاب.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

(١٢٧) ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ**﴾ والقَواعِد جمع قاعدة، وهي الأساس، ورفعُها البناءُ عليها ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ**﴾ أي: يقولان: ربَّنا تقبَّلْ منا ﴿**إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ**﴾ لدعائنا ﴿**ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾**﴾ بنياتنا.

(١٢٨) ﴿**رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ**﴾ مخلصين لك، والمراد طلب الزيادة في الإخلاص والإذعان، أو الثبات عليه ﴿**وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ**﴾ أي: واجعل بعض ذريتنا؛ وإنما خصا الذرية بالدعاء لأنهم أحقُّ بالشفقة، ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع، وخصا بعضهم لما أعلما أن في ذريتهما ظلمة، وعَلِما أن الحكمة الإلهية لا تقتضي الاتفاق على الإخلاص والإقبال الكلي على الله تعالى، فإنه مما يشوش المعاش، ولذلك قيل: لولا الحمقى لخربت الدنيا (أقول: إلا من طهَّر الله تعالى قلبه من حبِّ الدنيا، وغلب على قلبه حبُّ الله تعالى، وحبُّ الرسول عليه الصلاة والسلام، هذا للخواصِّ) وقال بعضهم: أراد بالأمة أمةَ محمد ﷺ ﴿**وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا**﴾ متعبداتنا في الحج ﴿**وَتُبْ عَلَيْنَآ**﴾ استتابة لذريتهما، أو عما فرط منهما سهواً؛ ولعلهما قالا هضماً لأنفسهما وإرشاداً لذريتهما ﴿**إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾**﴾ لمن تاب (اللهم ارزقنا التوبة الصحيحة).

(١٢٩) ﴿**رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ**﴾ في الأمة المسلمة ﴿**رَسُولًا مِّنْهُمْ**﴾ ولم يبعث من ذريتهما غير محمد ﷺ، فهو المجاب به دعوتهما، كما قال عليه الصلاة والسلام: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي» [أخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى] ﴿**يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ**﴾ يقرأ عليهم ويبلغهم ما يوحى إليه من دلائل التوحيد والنبوة ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ**﴾ القرآن ﴿**وَٱلْحِكْمَةَ**﴾ ما تكمل به نفوسهم من المعارف والأحكام ﴿**وَيُزَكِّيهِمْ**﴾ عن الشرك والمعاصي ﴿**إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ**﴾ الذي لا يقهر ولا يغلب على ما يريد ﴿**ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾**﴾ المحكِم له.

(١٣٠) ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ**﴾ استبعاد وإنكار لأن يكون أحد يرغب عن ملته الواضحة الغراء، أي: لا يرغب أحد من ملته ﴿**إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ**﴾ إلا من استمهنها (أي: جعلها مَهينة حقيرة) وأذلَّها

واستخفَّ بها ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ حجة وبيان لذلك، فإن من كان صفوة العباد في الدنيا مشهوداً له بالاستقامة والصلاح يوم القيامة، كان حقيقاً بالاتباع له لا يرغب عنه إلا سفيه أو متسفِّه أذلَّ نفسه بالجهل والإعراض عن النظر.

(١٣١) ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ كأنه قيل: اذكر ذلك الوقت لتعلم أنه المصطفى الصالح المستحق للإمامة والتقدم، وأنه نال ما نال بالمبادرة إلى الإذعان وإخلاص السر حين دعاه ربه وأخطر بباله دلائله المؤدية إلى المعرفة الداعية إلى الإسلام.

(١٣٢) ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ التوصية هي التقدم إلى الغير بفعل فيه صلاح وقربة ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ أي ووصى هو أيضاً بها بنيه ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ دين الإسلام الذي هو صفوة الأديان، لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ والمقصود هو النهي عن أن يكونوا على خلاف تلك الحال إذا ماتوا، والأمر بالثبات على الإسلام.

(١٣٣) ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أي: ما كنتم حاضرين إذ حضر يعقوب الموت وقال لبنيه ما قال، فلم تدَّعون اليهودية عليه؟ وقيل: الخطاب للمؤمنين، والمعنى: ما شاهدتم ذلك وإنما علمتموه بالوحي ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ أي: أيّ شيء تعبدونه؟ أراد به تقريرهم على التوحيد والإسلام، وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما.

﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ المتفق على وجوده وألوهيته ووجوب عبادته. وعدّ إسماعيل من آبائه تغليباً للأب والجد، أو لأنه كالأب لقوله عليه الصلاة والسلام: «عمُّ الرجل صِنْوُ أبيه» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]. كما قال عليه الصلاة والسلام في العباس رضي الله عنه: «هذا بقية آبائي» [أخرجه الإمام الطبراني رحمه الله تعالى] ﴿إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾.

(١٣٤) ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ يعني إبراهيم ويعقوب عليهما السلام وبنيهما ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ لكلٍّ أجرُ عملِه. والمعنى: أن انتسابكم إليهم لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم، وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ أي: لا تؤاخذون بسيئاتهم كما لا تثابون بحسناتهم (أقول: هذه الوصايا من القاضي البيضاوي رحمه الله تعالى نصيحة جيدة).

وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ
حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ
مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾
فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا
هُمْ فِي شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ
عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ
تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

(١٣٥) ﴿**وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ**﴾ المعنى: مقالتهم أحد هذين القولين، قالت اليهود: كونوا هوداً. وقالت النصارى: كونوا نصارى ﴿**تَهْتَدُواْۗ**﴾ جواب الأمر.

﴿**قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ**﴾ أي: بل نتبع ملة إبراهيم ﴿**حَنِيفًاۖ**﴾ مائلاً عن الباطل إلى الحق ﴿**وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾**﴾ تعريض بأهل الكتاب وغيرهم، فإنهم يدَّعون اتباعه وهم مشركون.

(١٣٦) ﴿**قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ**﴾ الخطاب للمؤمنين، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ١٣٧] ﴿**وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا**﴾ القرآن ﴿**وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ**﴾ الصحف، وهي وإن نزلت إلى إبراهيم عليه السلام، لكنهم لما كانوا متعبدين بتفاصيلها داخلين تحت أحكامها فهي أيضاً منزلة إليهم، كما أن القرآن منزل إلينا، والأسباط حفدة يعقوب ﴿**وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ**﴾ التوراة والإنجيل ﴿**وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ**﴾ منزلاً عليهم من ربهم ﴿**لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ**﴾ كاليهود، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض ﴿**وَنَحْنُ لَهُۥ**﴾ أي: لله تعالى ﴿**مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾**﴾ مذعنون مخلصون.

(١٣٧) ﴿**فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ**﴾ من باب التعجيز والتبكيت، كقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] إذ لا مثل لما آمن به المسلمون، ولا دين كدين الإسلام. والمعنى: إن تحروا الإيمان بطريق يهدي إلى الحق مثل طريقكم، فإن وحدة المقصد لا تأبى تعدد الطرق ﴿**وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ**﴾ أي: إن أعرضوا عن الإيمان أو عما تقولون لهم فما هم إلا في شقاق الحق، وهو المناوأة (أي: المعاندة) والمخالفة ﴿**فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ**﴾ تسلية وتسكين للمؤمنين (الخطاب لرسول الله ﷺ ويدخل فيه المؤمنون)، ووعد لهم بالحفظ والنصرة على من ناوأهم (أي: عاندهم) ﴿**وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾**﴾ إما من تمام الوعد، بمعنى أنه يسمع أقوالكم ويعلم إخلاصكم وهو مجازيكم لا محالة، أو وعيد للمعرضين، بمعنى أنه يسمع ما يبدون ويعلم ما يخفون وهو معاقبهم عليه (أقول: بحسب علمه جلَّ وعلا).

(١٣٨) ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: صبغنا الله تعالى صبغته، وهي فطرة الله تعالى التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا، فإنها حلية الإنسان، كما أن الصبغة حلية المصبوغ، وقد هدانا الله تعالى هدايته وأرشدنا حجته، وطهر قلوبنا بالإِيمان تطهيره. وسماه صبغة لأنه ظهر أثره عليهم ظهور الصبغ على المصبوغ، وتداخل في قلوبهم تداخل الصبغ الثوب ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ﴾ لا صبغة أحسن من صبغته جلَّ وعلا ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ١٣٨﴾ أي: لا نشرك به كشرككم.

(١٣٩) ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا﴾ أتجادلوننا ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ في شأنه واصطفائه نبيّاً من العرب دونكم. روي أن أهل الكتاب قالوا: الأنبياء كلُّهم منَّا، فلو كنت نبيّاً لكنت منَّا، فنزلت. ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ لا اختصاص له بقوم دون قوم، يصيب برحمته من يشاء من عباده (أقول: لأن النبوَّة من رحمته جلَّ وعلا) ﴿وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ فلا يبعد أن يكرمنا بأعمالنا؛ كأنه ألزمهم على كل مذهب ينتحلونه (يدَّعونه) إفحاماً وتبكيتاً (توبيخاً وتعنيفاً)، فإن كرامة النبوة تفضُّل من الله تعالى على من يشاء والكل فيه سواء. وكما أن لكم أعمالاً ربما يعتبرها الله تعالى في إعطائها، فلنا أيضاً أعمال ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ١٣٩﴾ موحِّدون، نخصُّه بالإيمان والطاعة دونكم.

(١٤٠) ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾ وقد نفى الأمرين عن إبراهيم ـ على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام ـ بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرانِيًّا﴾ [آل عمران: ٦٧]، واحتج عليه بقوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ٦٥]. وهؤلاء المعطوفون عليه أتباعه في الدين وفاقاً.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ﴾ يعني شهادة الله تعالى لإبراهيم عليه السلام بالحنيفيَّة والبراءة عن اليهودية والنصرانية. والمعنى: لا أحد أظلم من أهل الكتاب، لأنهم كتموا هذه الشهادة. أو منا لو كتمنا هذه الشهادة، وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله تعالى لمحمد عليه الصلاة والسلام بالنبوَّة في كتبهم وغيرها ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٤٠﴾ وعيدٌ لهم.

(١٤١) ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٤١﴾ تكرير للمبالغة في التحذير والزجر عما استحكم في الطباع من الافتخار بالآباء والاتكال عليهم. قيل: الخطاب فيما سبق لهم، وفي هذه الآية لنا تحذيراً عن الاقتداء بهم.

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ
عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ
مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ
شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا
جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ
مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ
هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ
لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ
فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ
ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ
عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ
ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم
بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ
مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾

(١٤٢) ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الذين خفت أحلامهم (أي: عقولهم)، واستمهنوها (أي: جعلوها مَهينة) بالتقليد والإعراض عن النظر. يريد به المنكرين لتغيير القبلة من المنافقين واليهود والمشركين ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ﴾ ما صرفهم ﴿عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾ يعني بيت المقدس ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ﴾ لا يختص به مكان دون مكان بخاصية ذاتية تمنع إقامة غيره مقامه، وإنما العبرة بارتسام (أي: بالتزام) أمره لا بخصوص المكان ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾ وهو ما ترتضيه الحكمة وتقتضيه المصلحة، من التوجه إلى بيت المقدس تارة والكعبةِ أخرى.

(١٤٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما جعلناكم مهديين إلى الصراط المستقيم ﴿جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ أي: خياراً، أو عدولاً مزكين بالعلم والعمل. وسطاً: استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط، كالجود بين الإسراف والبخل، والشجاعة بين التهوُّر والجبن (أقول: في الإسلام لا إفراط ولا تفريط). واستُدل به على أن الإجماع حجة، إذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لانثلمت (أي: اختلت) به عدالتهم (أقول: فعلينا جميعاً أن لا نتعلَّق بعقلنا ولا بعلمنا، لا بدَّ أن نأخذ بإجماع المسلمين).

﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ أي: لتعلموا بالتأمل فيما نصب لكم من الحجج وأنزل عليكم من الكتاب أنه تعالى ما بخل على أحد وما ظلم، بل أوضح السبل وأرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام، فبلغوا ونصحوا، ولكن الذين كفروا حملهم الشقاء على اتباع الشهوات والإعراض عن الآيات، فتشهدون بذلك على معاصريكم وعلى الذين من قبلكم أو بعدكم. روي «أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالبهم الله تعالى ببينة التبليغ ـ وهو أعلم بهم ـ إقامة للحجة على المنكرين، فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم من أين عرفتم؟ فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق عليه الصلاة والسلام، فيؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمته، فيشهد بعدالتهم» [وأصل الحديث في صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى].

﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ﴾ أي: الجهة التي كنت عليها ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ

﴿عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾ إلا لنمتحن به الناس ونعلم من يتبع الرسول ﷺ ممن لا يتبعه (أقول: قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ﴾: هو جلَّ وعلا عالم، ولكن ليظهر لنا).

﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ إلى حكمة الأحكام ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ أي: ثباتكم على الإيمان، أو صلاتكم إلى القبلة المنسوخة، لما روي: أنه عليه السلام لما وجه إلى الكعبة قالوا: كيف بمن مات يا رسول الله قبل التحويل من إخواننا؟ فنزلت. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ فلا يضيع أجورهم ولا يدع صلاحهم.

(١٤٤) ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ تردُّدَ وجهك في جهة السماء تطلُّعاً للوحي، وكان رسول الله ﷺ يقع في روعه (أي: خاطره) ويتوقع من ربه أن يحوِّله إلى الكعبة، لأنها قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام، وأقدم القبلتين، وأدعى للعرب إلى الإيمان، ولمخالفة اليهود، وذلك يدلُّ على كمال أدبه ﷺ حيث انتظر ولم يسأل ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ﴾ فلنمكِّننَّك من استقبالها ﴿تَرۡضَىٰهَاۚ﴾ تحبُّها وتتشوَّق إليها، لمقاصد دينية وافقت مشيئة الله تعالى وحكمته ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ﴾ اصرف وجهك ﴿شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ نحوه. والحرام: المحرَّم، أي: محرم فيه القتال ﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ﴾ خصَّ الرسول ﷺ بالخطاب تعظيماً له وإيجاباً لرغبته، ثم عمَّم تصريحاً بعموم الحكم وتأكيداً لأمر القبلة وتحضيضاً للأمة على المتابعة ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ﴾ جملةً، لعلمهم بأن عادته تعالى تخصيص كل شريعة بقبلة، وتفصيلاً: لتضمن كتبهم أنه ﷺ يصلي إلى القبلتين ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤﴾ وعد ووعيد للفريقين.

(١٤٥) ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ﴾ برهان وحجة على أن الكعبة قبلة ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ﴾ المعنى: ما تركوا قبلتك لشبهة تزيلها الحجة، وإنما خالفوك مكابرة وعناداً ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾ قطعٌ لأطماعهم ﴿وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ﴾ فإن اليهود تستقبل الصخرة (بيت المقدس)، والنصارى مطلع الشمس. لا يرجى توافقهم كما لا يرجى موافقتهم لك، لتصلب كل حزب فيما هو فيه.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ على سبيل الفرَض والتقدير، أي: ولئن اتَّبعتهم مثلًا بعدما بان لك الحقُّ وجاءك فيه الوحي ﴿إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ (أقول: والآية وردت على سبيل الفرض والتقدير، وحاشاه ﷺ أن يتبع أهواء الكفرة المجرمين، والخطاب في الظاهر لرسول الله ﷺ والمراد أمته).

ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾

(١٤٦) ﴿**ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ**﴾ يعني علماءهم ﴿**يَعۡرِفُونَهُۥ**﴾ الضمير لرسول الله ﷺ، وإن لم يسبق ذكره لدلالة الكلام عليه ﴿**كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ**﴾ أي: يعرفونه بأوصافه كمعرفتهم أبناءهم لا يلتبسون عليهم بغيرهم ﴿**وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾**﴾ تخصيص لمن عاند، واستثناء لمن آمن.

(١٤٧) ﴿**ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ**﴾ والمعنى أن الحقَّ ما ثبت أنه من الله تعالى كالذي أنت عليه، لا ما لم يثبت كالذي عليه أهل الكتاب ﴿**فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١٤٧﴾**﴾ الشاكّين في أنه من ربك، أو في كتمانهم الحق عالمين به، وليس المراد به نهي الرسول ﷺ عن الشكِّ فيه، لأنه غير متوقَّع منه (أقول: والخطاب له ﷺ والمراد أمته).

(١٤٨) ﴿**وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ**﴾ ولكل أمة قبلة ﴿**هُوَ مُوَلِّيهَاۖ**﴾ أي: هو موليها وجهه، أو الله تعالى موليها إياه ﴿**فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ**﴾ من أمر القبلة وغيره مما ينال به سعادة الدارين ﴿**أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ**﴾ أي: في أي موضع تكونوا من موافق ومخالف مجتمع الأجزاء ومفترقها يحشركم الله تعالى إلى المحشر للجزاء (أقول: لو أن عشرين ذئباً أكلوا جسد شخص واحد، وصارت كلُّ قطعة منه في معدة ذئب، يأت به الله تعالى جميعاً للحشر، هذه عقيدة أهل السنة والجماعة). أو أينما تكونوا من أعماق الأرض وقِلل الجبال (أي: أعالي الجبال) يقبض أرواحكم، أو أينما تكونوا من الجهات المتقابلة يأت بكم الله تعالى جميعاً ويجعل صلواتكم كأنها إلى جهة واحدة ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾**﴾ فيقدر على الإماتة والإحياء والجمع.

(١٤٩) ﴿**وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ**﴾ ومن أيِّ مكان خرجت للسفر ﴿**فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ**﴾ إذا صليت ﴿**وَإِنَّهُۥ**﴾ وإن هذا الأمر ﴿**لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٩﴾**﴾.

(١٥٠) ﴿**وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ**﴾ كرر هذا الحكم لتعدد علله، فإنه تعالى ذكر للتحويل ثلاث علل: تعظيم الرسول ﷺ بابتغاء مرضاته، وجري العادة الإلهية على أن يولي أهل كل ملة وصاحب دعوة وجهة يستقبلها ويتميز بها، ودفع حجج المخالفين على ما نبينه.

﴿**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ**﴾ المعنى أن التولية عن الصخرة إلى الكعبة تدفع احتجاج اليهود بأن المنعوت في التوراة قبلته الكعبة، وأن محمداً ﷺ يجحد ديننا ويتبعنا في قبلتنا؛ والمشركين بأنه يدَّعي ملة إبراهيم

عليه السلام ويخالف قبلته ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ استثناء من الناس، أي: لئلا يكون لأحد من الناس حجة إلا المعاندين منهم فإنهم يقولون: ما تحول إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه وحباً لبلده، أو بدا له فرجع إلى قبلة آبائه ويوشك أن يرجع إلى دينهم ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فلا تخافوهم، فإن مَطَاعِنَهم لا تضركم ﴿وَٱخْشَوْنِى﴾ فلا تخالفوا ما أمرتكم به ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ أي: وأمرتكم لإِتمامي النعمة عليكم وإرادتي اهتداءكم. وفي الحديث: «تمام النعمة دخول الجنة» [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في الأدب المفرد] وعن علي رضي الله تعالى عنه: «تمام النعمة الموت على الإسلام».

(١٥١) ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ أي: ولأتم نعمتي عليكم في أمر القبلة، أو في الآخرة كما أتممتها بإرسال رسول منكم ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ﴾ يحملكم على ما تصيرون به أزكياء ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ بالفكر والنظر، إذ لا طريق إلى معرفته سوى الوحي.

(١٥٢) ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ بالطاعة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالثواب ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى﴾ ما أنعمت به عليكم ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ بجحد النعم وعصيان الأمر (أقول: على المؤمن أن يتذكر ما أنعمه الله تعالى عليه من دين الإسلام واتباع الشريعة واتباع السنة، وأن يقدِّم ذلك على مطلوباته الحاصلة بحساسية النفس، وإذا لم يفعل المؤمن الأوامر الإلهية ولم يقدِّمها على حظوظه فإنه يخسر، فعليه أن يتنبَّه إلى هذه الأمور، وإذا طلبت نفسه شيئاً لا بد أن يزنه بميزان الشريعة، فإذا كان موافقاً للشريعة فإنه موافق لرضا الله تعالى، وإذا كان موافقاً للسنة معناه موافقٌ لمحبة الله تعالى، حتى يميِّز حصة النفس من أوامر الله تعالى. والآية فيها تهديد من ربِّ العالمين للمؤمن كذلك، لا للكافر فقط، لأن المؤمن أعطاه ربه الإيمان والإسلام، وليس في الدنيا ولا في الآخرة أفضل من هذه النعم، فنعمة الإسلام سبب نجاته في الآخرة من عذاب الله تعالى).

(١٥٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ عن المعاصي وحظوظ النفس (أقول: يدخل في ضمنه مخالفة الشريعة والسنة النبوية، بعدم الصدقة على الفقراء وعدم إخراج زكاة المال الذي أعطاكم إياه ربكم من فضله، وعدم الإنفاق على الأقارب والأرحام وغيرهم، والذي يبخل فيما آتاه الله تعالى فإنما يبخل بحظوظ نفسه وليس بإيمانه، فإيمانه يشجعه على الدفع ونفسه تمنعه عنه) ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ التي هي أمُّ العبادات ومعراج المؤمنين ومناجاة رب العالمين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ بالنصر وإجابة الدعوة (أقول: فإذا أردنا أن نمتثل ما أمرنا به ربنا فإنه جل وعلا يعيننا بالنصر وإجابة الدعوة، وإذا خالفنا لا بدَّ أن نرجع ونستغفر ونثبت على ما أمرنا الله تعالى به، هذا الخطاب من الله تعالى لك، ومعلوم أنك مؤمن بحمد الله تعالى، محال عندك أن تنفي صفة الإيمان عن نفسك، فأنت مؤمن ألبتة، وعلى هذا فأنت داخل في جملة المشمولين بهذا النداء الإلهي، فلا بدَّ لك أن تجتهد لنيل هذا الربح العظيم، ولا تضيِّعه بمتابعة النفس وإغواء الشيطان وبالحرص على الدنيا الدنيئة، فالله تعالى يهديك الصراط المستقيم؛ فاستعن على أمورك في دنياك بالصلاة، وكذلك على أمور آخرتك. اللهم وفِّقنا لذلك آمين).

وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن
لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ
وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ
﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ
﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ
فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ
بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ
لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ
﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ
عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ
كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ
﴿١٦١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
﴿١٦٢﴾ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

(١٥٤) ﴿**وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ**﴾ أي: هم أموات ﴿**بَلْ أَحْيَآءٌ**﴾ أي: بل هم أحياء ﴿**وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾**﴾ ما حالُهم؛ وهو تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد ولا من جنس ما يحسُّ به من الحيوانات، وإنما هي أمر لا يدرك بالعقل بل بالوحي. وعن الحسن رحمه الله تعالى: إن الشهداء أحياء عند ربهم تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الرَّوح والفرح، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدواً وعشياً فيصل إليهم الألم والوجع. والآية نزلت في شهداء بدر، وكانوا أربعة عشر. وفيها دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحس به من البدن تبقى بعد الموت درَّاكة، وعليه جمهور الصحابة والتابعين، وبه نطقت الآيات والسنن، وعلى هذا فتخصيص الشهداء لاختصاصهم بالقرب من الله تعالى ومزيد البهجة والكرامة.

(١٥٥) ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُم**﴾ ولنصيبنكم إصابة من يختبر لأحوالكم، هل تصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء؟ ﴿**بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ**﴾ أي: بقليل من ذلك؛ وإنما قلَّله بالإضافة إلى ما وقاهم منه ليخفف عليهم، ويريهم أن رحمته لا تفارقهم (أقول: لقد أعطاك الله تعالى عمراً طويلاً بالصحة والعافية، وعشت بالنعمة والصحة والعافية، والآن أعطاك الابتلاء والمرض، فلا بدَّ من الصبر على قضائه جلَّ وعلا حلوه ومرِّه) ﴿**وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ**﴾ وعن الشافعي رضي الله تعالى عنه: الخوف: خوف الله جلَّ وعلا، والجوع: صوم رمضان، والنقص من الأنفس: الأمراض، ومن الثمرات: موت الأولاد (عبَّر عنهم بالثمرات لأنهم ثمرة الفؤاد)، وعن النبي ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة: أقبضتم روح ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول الله تعالى: أقبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول الله تعالى: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد» [رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى] ﴿**وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾**﴾ (على هذه البلايا، أو المسترجعين عند البلايا، لأن الاسترجاع تسليمٌ وإذعان [تفسير النسفي]).

(١٥٦) ﴿**ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾**﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أو لمن تتأتى

منه البشارة؛ والمصيبة تعمُّ ما يصيب الإِنسان من مكروه؛ وليس الصبر بالاسترجاع باللسان، بل به وبالقلب بأن يتصور ما خلق لأجله، وأنه راجع إلى ربه، ويتذكر نعم الله تعالى عليه ليرى أن ما أبقى عليه أضعاف ما استردَّه منه، فيهوِّن على نفسه، ويستسلم له.

(١٥٧) ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ**﴾ الصلاة في الأصل: الدعاء، ومن الله تعالى: التزكية والمغفرة، وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوُّعها، والمراد بالرحمة اللطف والإِحسان ﴿**وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧**﴾ للحق والصواب، حيث استرجعوا واستسلموا لقضاء الله تعالى.

(١٥٨) ﴿**إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ**﴾ هما علمان لجبلين بمكة ﴿**مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ**﴾ من أعلام مناسكه ﴿**فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ**﴾ الحج لغة: القصد، والاعتمار: الزيارة، فغلبا شرعاً على قصد البيت وزيارته على الوجهين المخصوصين ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ**﴾ كان إساف على الصفا ونائلة على المروة (إساف ونائلة اسمان لصنمين)، وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما، فلما جاء الإِسلام وكسرت الأصنام تحرَّج المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك، فنزلت. والإِجماع على أنه مشروع في الحج والعمرة ﴿**وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا**﴾ أي: فعل طاعة فرضاً كان أو نفلاً، أو زاد على ما فرض الله تعالى عليه من حج أو عمرة ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨**﴾ مثيب على الطاعة لا تخفى عليه.

(١٥٩) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ**﴾ كأحبار اليهود ﴿**مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ**﴾ كالآيات الشاهدة على أمر محمد ﷺ ﴿**وَٱلۡهُدَىٰ**﴾ وما يهدي إلى وجوب اتباعه والإيمان به ﴿**مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ**﴾ لخصناه ﴿**فِي ٱلۡكِتَٰبِ**﴾ في التوراة ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩**﴾ أي: الذين يتأتى منهم اللعن عليهم من الملائكة والثقلين.

(١٦٠) ﴿**إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ**﴾ عن الكتمان وسائر ما يجب أن يتاب عنه ﴿**وَأَصۡلَحُواْ**﴾ ما أفسدوا بالتدارك (أقول: قبل فوات زمان التدارك) ﴿**وَبَيَّنُواْ**﴾ ما بيَّنه الله تعالى في كتابهم لتتمَّ توبتهم ﴿**فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ**﴾ بالقبول والمغفرة ﴿**وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠**﴾ المبالغ في قبول التوبة وإفاضة الرحمة.

(١٦١) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ**﴾ أي: ومن لم يتب من الكاتمين حتى مات ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١**﴾ استقر عليهم اللعن من الله تعالى ومن يُعتد بلعنه من خلقه.

(١٦٢) ﴿**خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ**﴾ أي: في اللعنة، أو النار ﴿**لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢**﴾ أي: لا يمهلون، أو لا ينتظرون ليعتذروا، أو لا ينظر إليهم نظر رحمة.

(١٦٣) ﴿**وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ**﴾ خطاب عام، أي: المستحقُّ منكم العبادة واحد لا شريك له يصح أن يعبد أو يسمى إلهاً ﴿**لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**﴾ تقرير للوحدانية ﴿**ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣**﴾ كالحجة عليها، فإنه لما كان مولى النعم كلها أصولها وفروعها وما سواه إما نعمة أو منعم عليه لم يستحق العبادة أحد غيره سبحانه وتعالى.

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

(١٦٤) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (وفي سورة الطلاق قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، كما بيَّن الأستاذ بديع الزمان النورسي رحمه الله تعالى أن عوالم طبقات الأرض سبعٌ ثابتةٌ بشهادة كثير من أهل الكشف وأصحاب الشهود [انظر اللمعات ص١٠٢])

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ تعاقبهما ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: بالذي ينفعهم، والقصد به إلى الاستدلال بالبحر وأحواله ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بالنبات ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ في مهابها وأحوالها، ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مسخَّرٌ للرياح تقلِّبه في الجو بمشيئة الله تعالى ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ يتفكرون فيها وينظرون إليها بعيون عقولهم.

(١٦٥) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ من الأصنام. وقيل: من الرؤساء (والمراد بالأنداد رؤساء الكفار) الذين كانوا يطيعونهم، لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦] ولعل المراد أعم منهما وهو ما يشغله عن الله تعالى ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ يعظمونهم ويطيعونهم ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ كتعظيمه والميل إلى طاعته سبحانه. والمحبة ميل القلب، ومحبة العبد لله تعالى إرادة طاعته والاعتناء بتحصيل مراضيه، ومحبة الله تعالى للعبد إرادة إكرامه واستعماله في الطاعة وصونه عن المعاصي.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ لأنه لا تنقطع محبتهم لله تعالى، بخلاف محبة الأنداد فإنها لأغراض فاسدة موهومة تزول بأدنى سبب، ولذلك كانوا يعدلون عن آلهتهم إلى الله تعالى عند الشدائد، ويعبدون الصنم زماناً ثم يرفضونه إلى غيره.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ ولو يعلم هؤلاء الذين ظلموا باتخاذ الأنداد ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ إذ عاينوه يوم القيامة؛ وأجرى المستقبل مجرى الماضي لتحقُّقه، كقوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤] ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: لو يعلمون أن القوة لله تعالى جميعاً إذا عاينوا العذاب لندموا أشد الندم. وقيل: ولو يرى الذين ظلموا أندادهم لا تنفع لعلموا أن القوة لله تعالى كلها، لا ينفع ولا يضرُّ غيره ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾.

(١٦٦) ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: إذ تبرَّأ المتبوعون من الأتباع ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ والأسباب: الوصل التي كانت بينهم من الاتباع والاتفاق على الدين، والأغراض الداعية إلى ذلك.

(١٦٧) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ أي: ليت لنا كرة إلى الدنيا فنتبرأ منهم ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ ندامات ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ أصله مبالغة في الخلود والإقناط عن الخلاص والرجوع إلى الدنيا.

(١٦٨) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا﴾ نزلت في قوم حرَّموا على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس ﴿طَيِّبًا﴾ يستطيبه الشرع ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ لا تقتدوا به في اتباع الهوى فتحرِّموا الحلال وتحلِّلوا الحرام (أقول: الهوى في نفس الإنسان، والشيطان يوسوس له ويأتيه من الخارج، مع هذا فإنه يتبع الشيطان ويتبع هواه، حينذاك ينشرد عن الاستقامة، هذه مصيبتنا لمن لم يتنبَّه لاتباع الهوى، ولم يقف على حيل الشيطان، قال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]) ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ ظاهر العداوة عند ذوي البصيرة وإن كان يظهر الموالاة لمن يغويه، ولذلك سماه ولياً في قوله تعالى: ﴿أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

(١٦٩) ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ بيانٌ لعداوته ووجوب التحرز عن متابعته. واستعير الأمر لتزيينه وبعثه لهم على الشر تسفيهاً لرأيهم وتحقيراً لشأنهم. والسوء والفحشاء: ما أنكره العقل واستقبحه الشرع ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ كاتِّخاذ الأنداد وتحليل المحرمات وتحريم الطيبات. وفيه دليل على المنع من اتباع الظن رأساً؛ وأما اتباع المجتهد لما أدى إليه ظنٌّ مستند إلى مدرك شرعي فوجوبه قطعي.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۙ أُوْلَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

(١٧٠) ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ**﴾ أي: ما وجدناهم عليه. نزلت في المشركين، أُمروا باتِّباع القرآن وسائر ما أنزل الله تعالى من الحجج والآيات، فجنحوا إلى التقليد ﴿**أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾**﴾ أي: لو كان آباؤهم جهلة لا يتفكرون في أمر الدين ولا يهتدون إلى الحق لاتبعوهم. وهو دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر والاجتهاد. وأما اتباع الغير في الدين إذا علم بدليل ما أنه محق ـ كالأنبياء والمجتهدين في الأحكام ـ فهو في الحقيقة ليس بتقليد، بل اتباع لما أنزل الله جلَّ وعلا.

(١٧١) ﴿**وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ**﴾ المعنى أن الكفرة لانهماكهم في التقليد لا يلقون أذهانهم إلى ما يتلى عليهم، ولا يتأملون فيما يقرر معهم، فهم في ذلك كالبهائم التي ينعق عليها فتسمع الصوت ولا تعرف مغزاه، وتحس بالنداء ولا تفهم معناه ﴿**صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾**﴾ أي: بالفعل، للإخلال بالنظر.

(١٧٢) ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ**﴾ لما وسَّع الأمر على الناس كافة وأباح لهم ما في الأرض سوى ما حرم عليهم، أمر المؤمنين منهم أن يتحروا طيبات ما رزقوا ويقوموا بحقوقها فقال: ﴿**وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ**﴾ على ما رزقكم وأحل لكم ﴿**إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾**﴾ إن صح أنكم تخصونه بالعبادة وتقرون أنه مولى النعم، فإن عبادته تعالى لا تتم إلا بالشكر.

(أقول: والحكمة في تكرر الأكل لتكرر الطاعات، فلا بد لمن يأكل تكراراً أن يجاهد في العبادة تكراراً، حتى يمتاز عن الحيوانات ، فكما أن الطعام غذاء للجسد، فكذلك العبادات غذاء للروح، والأكل بلا طاعات يقوي الجسد ولا يقوي الروح، وهو مصيبة على المؤمن من جانب، وطاعة من جانب آخر، فإن كان يتقوَّى به على معصية الله تعالى فهو مصيبة في حقِّه، وإن كان يتقَّوى به على طاعة الله تعالى فهو طاعة. وإن كان يأكل بالأمر فإنه يأخذ بمقدار الكفاية بدون زيادة ولا نقصان، بعد تحريه عن الحلال، وزهده بما في أيدي الناس، ولا بدَّ للإنسان من أن يتفكَّر أن ما كان له فسيصل إليه، وما كان لغيره فلن يصل إليه).

(١٧٣) ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ أكلها، أو الانتفاع بها، وهي التي ماتت من غير ذكاة، والحديث ألحقَ بها ما أُبِينَ (أي: فُصِلَ) من حَيٍّ؛ والسمك والجراد استثناهما الشرع ﴿وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي: رُفع به الصوت عند ذبحه للصنم ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ بالاستئثار على مضطر آخر ﴿وَلَا عَادٍ﴾ (ولا متجاوز) سدَّ الرمق، أو الجوعة؛ وقيل: غير باغٍ على الوالي، ولا عادٍ بقطع الطريق ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في تناوله ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فعل ﴿رَحِيمٌ (١٧٣)﴾ بالرخصة فيه.

(١٧٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عوضاً حقيراً ﴿أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ إما في الحال، لأنهم أكلوا ما يتلبس بالنار لكونها عقوبة عليه فكأنه أكل النار، أو في المآل، أي: لا يأكلون يوم القيامة إلا النار ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ عبارة عن غضبه عليهم، وتعريض بحرمانهم حال مقابليهم في الكرامة والزلفى من الله تعالى ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ لا يثني عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤)﴾ مؤلم.

(١٧٥) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ في الدنيا ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ في الآخرة، بكتمان الحق للمطامع والأغراض الدنيوية ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥)﴾ تعجب من حالهم في الالتباس بموجبات النار من غير مبالاة.

(١٧٦) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي: ذلك العذاب بسبب أن الله تعالى نزل الكتاب بالحق فرفضوه بالتكذيب أو الكتمان ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ والإشارة إما إلى التوراة، واختلفوا بمعنى تخلفوا عن المنهج المستقيم في تأويلها وحرَّفوا ما فيها؛ وإما إلى القرآن: واختلافهم فيه قولهم سحر، وتقوُّل، وكلام علمه بشر، وأساطير الأولين ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)﴾ لفي خلاف بعيد عن الحق.

﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٨١﴾

(١٧٧) ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ البرُّ كل فعل مَرْضِيٍّ؛ والخطاب لأهل الكتاب، فإنهم أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حولت، وقيل: عام لهم وللمسلمين، أي ليس البر مقصورا بأمر القبلة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: ولكنَّ البرَّ الذي ينبغي أن يُهتَمَّ به برُّ من آمن بالله تعالى، والمراد بالكتاب الجنس، أو القرآن ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: على حبِّ المال، كما قال عليه الصلاة والسلام لما سئل: أيُّ الصدقة أفضل؟ قال: «أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر» [رواه الشيخان رحمهما الله تعالى] ﴿ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ يريد المحاويج منهم، ولم يقيد لعدم الالتباس. وقدَّم ذوي القربى لأن إيتاءهم أفضل كما قال عليه الصلاة والسلام: «صدقتك على المسكين صدقة، وعلى ذوي رحمك اثنتان، صدقة وصلة» [أخرجه الإمام أحمد والترمذي وقال: حديث حسن] ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينَ﴾ جمع المسكين، وهو الذي أسكنته الخلة (أي: الحاجة والفقر) ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر (أي: المسافر المنقطع عن ماله) ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ الذين ألجأتهم الحاجة إلى السؤال، ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ ابتياع الرقاب لعتقها ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يحتمل أن يكون المقصود منه ومن قوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ﴾ الزكاة المفروضة، ولكن الغرض من الأول بيان مصارفها، ومن الثاني أداؤها والحث عليها ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وعن الأزهري: البأساء في الأموال كالفقر، والضراء في الأنفس كالمرض ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ وقت مجاهدة العدو ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾ في الدين واتباع الحق وطلب البر ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ عن الكفر وسائر الرذائل. والآية كما ترى جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها، دالَّة عليها صريحاً أو ضمناً، فإنها بكثرتها وتشعُّبها منحصرة في ثلاثة أشياء: صحة الاعتقاد، وحسن المعاشرة، وتهذيب النفس (عن الشح). وقد أشير إلى الأول بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ إلى ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾. وإلى الثاني بقوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ﴾ إلى ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وإلى الثالث بقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ إلى آخرها؛ ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظراً إلى إيمانه واعتقاده بالتقوى، اعتباراً بمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق.

(١٧٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ كان في الجاهلية بين حيَّين من أحياء العرب دماء، وكان لأحدهما طول على الآخر، فأقسموا لنقتلنَّ الحر منكم بالعبد والذكر بالأنثى، فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وأمرهم أن يتباوؤوا (أي: يتساووا) ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي: شيء من العفو. وذكره بلفظ الأخوة الثابتة بينهما من الجنسية والإسلام ليرقَّ له ويعطف عليه ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ والمراد به وصية العافي بأن يطلب الدية بالمعروف فلا يعنف، والمعفو عنه بأن يؤديها بالإحسان وهو أن لا يمطل ولا يبخس ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الحكم المذكور في العفو والدية ﴿تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ لما فيه من التسهيل والنفع ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: قتلَ بعد العفو وأخذ الدية ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)﴾ في الآخرة.

(أقول: جِرم (جسم) الإنسان صغير، ولكنَّ جُرمه كبير، والعقاب على قدر الجُرم لا على قدر الجِرم، لذا صاحب الجِرم الصغير إذا أنكر شرع الله عزَّ وجل لا يليق له إلا نار جهنم، والعياذ بالله تعالى، وما أكثر التهديد في القرآن لهذا الإنسان وهو في غفلته مستغرق، ولا يرجع إلى رشده ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]. فاتخذ أيها المؤمن الصادق سبيلَ رسول الله ﷺ تسعد في الدارين، وتكن من أهل العدل، وإلا تكون ظالماً، لأن كلَّ سبيل غير سبيل رسول الله ﷺ ظلم وعدوان).

(١٧٩) ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ كلام في غاية الفصاحة والبلاغة من حيث جعل الشيء محل ضده، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة نفسين. وقيل: المراد بها الحياة الأخروية، فإن القاتل إذا اقتُصَّ منه في الدنيا لم يؤاخَذ به في الآخرة ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ذوي العقول الكاملة. ناداهم للتأمل في حكمة القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)﴾ في المحافظة على القصاص والحكم به والإذعان له، أو عن القصاص فتكفوا عن القتل.

(١٨٠) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: حضرت أسبابه وظهرت أماراته ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي: مالاً. وقيل: مالاً كثيراً، لما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن رجلاً أراد أن يوصي فسألته: كم مالك؟ فقال: ثلاثة آلاف، فقالت: كم عيالك؟ قال: أربعة، قالت: إنما قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً﴾ وإن هذا لشيء يسير فاتركه لعيالك [رواه البيهقي وابن أبي شيبة وعبد الرزاق رحمهم الله تعالى] ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ وكان هذا الحكم في بدء الإسلام فنسخ بآية المواريث ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالعدل ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)﴾.

(١٨١) ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ غيَّره من الأوصياء والشهود ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ أي: وصل إليه وتحقق عنده ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ لأنهم هم الذين حافوا (أي: جاروا) وخالفوا الشرع ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١)﴾ وعيد للمبدل بغير حق.

فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

(١٨٢) ﴿**فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ**﴾ أي: توقَّع وعلم ﴿**جَنَفًا**﴾ ميلاً بالخطأ في الوصية ﴿**أَوْ إِثْمًا**﴾ تعمُّداً للحيف (أي: الجور) ﴿**فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ**﴾ بين الموصى لهم بإجرائهم على نهج الشرع ﴿**فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ**﴾ في هذا التبديل، لأنه تبديل باطل إلى حق بخلاف الأول ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾**﴾ وعد للمصلح.

(١٨٣) ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ**﴾ (أي: فُرِضَ) ﴿**عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ يعني الأنبياء والأمم من لدن آدم عليه السلام؛ وفيه توكيد للحكم وترغيب على الفعل وتطييب على النفس. والصوم في اللغة: الإمساك عما تنازع إليه النفس، وفي الشرع: الإمساك عن المفطرات بياض النهار، فإنها معظم ما تشتهيه النفس (أقول: فالمؤمن إيمانه يريد الصوم ولا يريد المخالفة، والنفس والشهوة تريد المخالفة) ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾**﴾ المعاصي فإن الصوم يكسر الشهوة التي هي مبدؤها، كما قال عليه الصلاة والسلام: «فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء» [رواه الشيخان رحمهما الله تعالى وغيرهما] (أقول: أيامك معدودة في الحياة الدنيا، وكل معدود له نهاية، فاغتنم فرصة حياتك بحسن الإقبال على الله تعالى، من خلال اتباعك للنبي ﷺ، انظر كيف كان صيامه ﷺ، وحاول أن تتابعه في ذلك حتى تدخل في مقام الإحسان، عندها تكون عبادتك لربك عز وجل بين مقامي المراقبة والمشاهدة، ومن دخل في هذا المقام لا يعصي مولاه، فإن زلت قدمه فإنه لا يصر على المعصية بل ينزع ويستغفر، وهذا لا يسقط من عناية الله عز وجل).

(١٨٤) ﴿**أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ**﴾ مؤقتات بعدد معلوم، أو قلائل؛ والمراد بها رمضان ﴿**فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا**﴾ مرضاً يضرُّه الصوم ويعسر معه ﴿**أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ**﴾ أو راكب سفر، وفيه إيماء إلى أن من سافر أثناء اليوم لم يفطر ﴿**فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾ أي: فعليه صوم عدد أيام المرض أو السفر من أيام أخر إن أفطر ﴿**وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ**﴾ وعلى المطيقين (أي: بشدة) للصيام إن أفطروا ﴿**فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ**﴾ نصف صاع من بُرّ، أو صاع من غيره عند فقهاء العراق، ومُدٌّ عند فقهاء الحجاز. رُخِّص لهم في ذلك أول الأمر لما أمروا بالصوم فاشتدَّ عليهم لأنهم لم يتعوَّدوه، ثم نسخ (ذهب أكثر العلماء إلى أنها منسوخة، ثم نسخ التخيير ونزلت العزيمة بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾ [تفسير الخازن]) ﴿**فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا**﴾ فزاد في الفدية ﴿**فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ**﴾.

﴿وَأَن تَصُومُواْ﴾ أيها المطيقون أو المرخصون في الإفطار، ليندرج تحته المريض والمسافر ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الفدية أو تطوع الخير أو منهما ومن التأخير للقضاء ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ ما في الصوم من الفضيلة وبراءة الذمة. وقيل: معناه إن كنتم من أهل العلم والتدبُّر علمتم أنَّ الصوم خير لكم من ذلك.

(١٨٥) ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ أي: صيام شهر رمضان ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي: ابتدئ فيه إنزاله، وكان ذلك ليلة القدر، أو أنزل فيه جملة إلى سماء الدنيا ثم نزل منجَّماً إلى الأرض (على قلب الرسول عليه الصلاة والسلام) وفيه إشعار بأن الإنزال فيه سبب اختصاصه بوجوب الصوم ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ أي: هداية للناس بإعجازه، وآيات واضحات مما يهدي إلى الحق ويفرق بينه وبين الباطل بما فيه من الحِكَم والأحكام ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فمن حضر في الشهر ولم يكن مسافراً فليصم فيه ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ مخصصاً له، لأن المسافر والمريض ممن شهد الشهر، ولعل تكريره لذلك، أو لئلا يتوهم نسخه كما نسخ قرينه ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أي يريد أن ييسر عليكم ولا يعسر، فلذلك أباح الفطر في السفر والمرض ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ أي: وشرع جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر، والمرخص بالقضاء، ومراعاة عدة ما أفطر فيه، والترخيص ﴿لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ إلى آخرها، والمعني بالتكبير تعظيم الله تعالى بالحمد والثناء عليه، وقيل: تكبير يوم الفطر.

(١٨٦) ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ أي: فقل لهم: إني قريب (وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ هو على الإضمار - والله أعلم - كأنه قال: وإذا سألك عبادي: أين أنا عن إجابتهم؟ فقل لهم: إني قريب الإحسان والبر والكرامة لمن أطاعني. ويحتمل: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ قرب العلم والإجابة، لا قرب المكان والذات كقرب بعضهم من بعض في المكان؛ لأنه سبحانه كان ولا مكان، ويكون على ما كان، وكذلك قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، وكقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُون﴾ [الواقعة: ٨٥] كل ذلك يرجع إلى قرب العلم والإحاطة وارتفاع الجهات، لا قرب الذات على ما ذكرنا [تفسير الإمام الماتريدي رحمه الله تعالى: ٢/ ٤٨])، وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم (ونياتهم)، واطلاعه على أحوالهم بحال من قَرُبَ مكانه منهم. روي أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزلت [أخرجه ابن أبي حاتم والطبري في التفسير رحمهما الله تعالى] ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ تقرير للقرب، ووعد للداعي بالإجابة ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة كما أجيبهم إذا دعوني لمهماتهم ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِى﴾ أمر بالثبات والمداومة عليه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ راجين إصابة الرشد، وهو إصابة الحق (أقول: لعل وعسى في القرآن تأتي بمعنى التحقيق).

واعلم أنه تعالى لما أمرهم بصوم الشهر ومراعاة العدة، وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر، عقَّبه بهذه الآية الدالة على أنه تعالى خبير بأحوالهم، سميع لأقوالهم (ومطَّلع على نياتهم) مجيب لدعائهم، مجازيهم على أعمالهم تأكيداً له وحثّاً عليه، ثم بيَّن أحكام الصوم فقال تعالى:

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

(١٨٧) ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ**﴾ ليلة الصيام: الليلة التي تصبح منها صائماً. والرفث: كناية عن الجماع، لأنه لا يكاد يخلو من رفث وهو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ**﴾ استئناف يبين سبب الإحلال، وهو قلَّة الصبر عنهنَّ وصعوبة اجتنابهنَّ لكثرة المخالطة وشدة الملابسة ﴿**عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ**﴾ تظلمونها بتعريضها للعقاب وتنقيص حظِّها من الثواب ﴿**فَتَابَ عَلَيْكُمْ**﴾ لما تبتم مما اقترفتموه ﴿**وَعَفَا عَنكُمْ ۖ**﴾ ومحا عنكم أثره ﴿**فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ**﴾ لما نسخ عنكم التحريم ﴿**وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ**﴾ واطلبوا ما قدره لكم وأثبته في اللوح المحفوظ من الولد، والمعنى: أن المباشر ينبغي أن يكون غرضُه الولدَ، فإنه الحكمة من خلق الشهوة وشرعِ النكاح، لا قضاءَ الوطر (أقول: فإذا قطع الأمل عن الولد من الجانبين عليه أن يحفظ دينه ولذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، وإذا نظر إلى النساء الأجنبيات وتحرَّكت في نفسه الشهوة، عليه أن لا يترك الحلال، لقول رسول الله عليه الصلاة والسلام: «أَيُّمَا رَجُلٍ رَأَى امْرَأَةً تُعْجِبُهُ فَلْيَقُمْ إِلَى أَهْلِهِ، فَإِنَّ مَعَهَا مِثْلَ الَّذِي مَعَهَا» [أخرجه الدارمي رحمه الله تعالى]، فكما أن الإنسان الذكر لديه شهوة لا بدَّ أن يقيس المرأة على نفسه، لأن شهوة النساء أقوى من شهوة الرجال، كما قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم). وقيل: النهي عن العزل، وقيل: عن غير المأتي، والتقدير: وابتغوا المحل الذي كتب الله تعالى لكم (أقول: ولا تتجاوزوا إلى غيره كما يفعل فساق الرجال) ﴿**وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ**﴾ شبه أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق وما يمتد معه من غبش الليل بخيطين أبيض وأسود. وفي تجويز المباشرة إلى الصبح الدلالة على جواز تأخير الغسل إليه، وصحة صوم المصبح جنباً (لكن مع الكراهة) ﴿**ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ**﴾ بيان لآخر وقته، وإخراج الليل عنه ونفي صوم الوصال ﴿**وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ**﴾ معتكفون فيها. والاعتكاف: هو اللبث في المسجد بقصد القربة. والمراد بالمباشرة: الوطء ﴿**تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ**﴾ أي الأحكام التي ذكرت ﴿**فَلَا تَقْرَبُوهَا**﴾ نهى أن يقرب الحد الحاجز بين الحق والباطل لئلا يداني الباطل، فضلاً عن أن يتخطى عنه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إن لكل

ملك حمى وإن حمى الله محارمه، فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه» [والحديث أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى] ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ مخالفة الأوامر والنواهي.

(١٨٨) ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي ولا يأكل بعضكم مال بعض بالوجه الذي لم يبحه الله تعالى (بالشرع) ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ (أقول: بالرشوة لتأكلوا بعض أموال الناس خارج أحكام الشرع) أي: ولا تلقوا حكومتها إلى الحكام ﴿لِتَأْكُلُواْ﴾ بالتحاكم ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾ بما يوجب إثما، كشهادة الزور واليمين الكاذبة ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ أنكم مبطلون، فإن ارتكاب المعصية مع العلم بها أقبح. وهي دليل على أن حكم القاضي لا ينفذ باطناً، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إلي ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقضي له قطعة من نار فليأخذها أو ليذرها» [الحديث رواه الشيخان رحمهما الله تعالى].

(١٨٩) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ سأله معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم رضي الله عنهما فقالا: (ما بال الهلال يبدو دقيقاً كالخيط، ثم يزيد حتى يستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ) ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ فإنهم سألوا عن الحكمة في اختلاف حال القمر وتبدل أمره، فأمره الله تعالى أن يجيب بأن الحكمة الظاهرة في ذلك أن تكون معالم للناس يوقتون بها أمورهم، ومعالم للعبادات الموقتة يعرف بها أوقاتها، وخصوصاً الحج، فإن الوقت مراعى فيه أداء وقضاء. والمواقيت: جمع ميقات، من الوقت، والوقت: الزمان المفروض لأمر.

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ كانت الأنصار إذا أحرموا لم يدخلوا داراً ولا فسطاطاً من بابه، وإنما يدخلون من نقب أو فرجة وراءه، ويعدُّون ذلك برّاً، فبين لهم أنه ليس ببر وإنما البر بر من اتقى المحارم والشهوات ولم يجترئ على مثلها (أي: مثل هذه المخالفات).

﴿وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ إذ ليس في العدول بِرٌّ، فباشروا الأمور من وجوهها ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في تغيير أحكامه والاعتراض على أفعاله ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ لكي تظفروا بالهدى والبر.

(١٩٠) ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جاهدوا لإعلاء كلمته وإعزاز دينه ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ قيل: كان ذلك قبل أن أُمروا بقتال المشركين كافة، المقاتلين منهم والمحاجزين (أي: المانعين). وقيل: معناه الذين يناصبونكم القتال ويتوقع منهم ذلك، دون غيرهم من المشايخ والصبيان والرهبان والنساء، أو الكفرة كلهم فإنهم بصدد قتال المسلمين وعلى قصده. ويؤيد الأول ما روي: أن المشركين صدُّوا رسول الله ﷺ عام الحديبية، وصالحوه على أن يرجع من قابل فيُخْلُوا له مكة شرفَّها الله تعالى ثلاثةَ أيام، فرجع رسول الله ﷺ لعمرة القضاء وخاف المسلمون أن لا يوفوا لهم ويقاتلوهم في الحرم أو الشهر الحرام وكرهوا ذلك، فنزلت ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ بابتداء القتال، أو بقتال المعاهد، أو المفاجأة به من غير دعوة، أو المثلة، أو قتل من نهيتم عن قتله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ لا يريد بهم الخير.

وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ
أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ
فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟
فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ
ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ
بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟
عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ
وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ
فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ
ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ
مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ
فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ
إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

(١٩١) ﴿**وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ**﴾ حيث وجدتموهم في حل أو حرم ﴿**وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ**﴾ أي: من مكة، وقد فعل ذلك بمن لم يسلم يوم الفتح ﴿**وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ**﴾ أي: المحنة التي يفتتن بها الإنسان ـ كالإخراج من الوطن ـ أصعب من القتل لدوام تعبها وتألم النفس بها (أقول: ولكن لا يستشعر بهذا التعب كل واحد إذا لم يحصل له، ولذا نرى أكثر الأغنياء لا يشفقون على المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ظلماً. وسعادة المؤمن في أمرين: تعظيم أوامر الله تعالى، والشفقة على خلق الله تعالى) ﴿**وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ**﴾ أي: لا تفاتحوهم بالقتال وهتك حرمة المسجد الحرام ﴿**فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ**﴾ فلا تبالوا بقتالهم فإنهم الذين هتكوا حرمته ﴿**كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾**﴾ مثل ذلك جزاؤهم يُفعل بهم مثل ما فعلوا.

(١٩٢) ﴿**فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟**﴾ عن القتال والكفر ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾**﴾ يغفر لهم ما قد سلف.

(١٩٣) ﴿**وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ**﴾ شرك ﴿**وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ**﴾ خالصاً له ليس للشيطان فيه نصيب (أقول: يوجد من الناس من يعين الشيطان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبأ: ٢٠]) ﴿**فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟**﴾ عن الشرك ﴿**فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾**﴾ أي: فلا تعتدوا على المنتهين، إذ لا يحسن أن يظلم إلا من ظلم. أو أنكم إن تعرضتم للمنتهين صرتم ظالمين، وينعكس الأمر عليكم.

(١٩٤) ﴿**ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ**﴾ قاتلهم المشركون عام الحديبية في ذي القعدة واتفق خروجهم لعمرة القضاء فيه، وكرهوا أن يقاتلوهم فيه لحرمته، فقيل لهم: هذا الشهر بذاك وهتكه بهتكه، فلا تبالوا به ﴿**وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ**﴾ احتجاج عليه، أي: كل حرمة وهو ما يجب أن يحافظ عليها يجري فيها القصاص؛ فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد فافعلوا بهم مثله، وادخلوا عليهم عنوة واقتلوهم إن قاتلوكم. كما قال: ﴿**فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ**﴾ في الانتصار ولا تعتدوا إلى ما لم يُرخص لكم ﴿**وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾**﴾ فيحرسهم ويصلح شأنهم.

(١٩٥) ﴿**وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ ولا تمسكوا كلَّ الإمساك ﴿**وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ**﴾ بالإسراف وتضييع وجه المعاش، أو بالكف عن الغزو والإنفاق فيه، فإن ذلك يقوي العدو ويسلِّطهم على إهلاككم. ويؤيده ما روي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه أنه قال: لما أعزَّ الله تعالى الإسلام وكثر أهله رجعنا إلى أهالينا وأموالنا نقيم فيها ونصلحها فنزلت. أو بالإمساك وحب المال، فإنه يؤدي إلى الهلاك المؤبد، ولذلك سمي البخل

هلاكاً ﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ﴾ أعمالكم وأخلاقكم، أو تفضَّلوا على المحاويج ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

(١٩٦) ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ﴾ أي: ائتوا بهما تامَّين مستجمعي المناسك لوجه الله تعالى، وهو على هذا يدلُّ على وجوبهما. وما روى جابر رضي الله تعالى عنه «أنه قيل: يا رسول الله العمرة واجبة مثل الحج؟ فقال: لا، ولكن إن تعتمر خير لك» [رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى]، فمعارض بما روي: «أن رجلاً قال لعمر رضي الله تعالى عنه: إني وجدت الحج والعمرة مكتوبين عليَّ أهللت بهما جميعاً، فقال: هديت لسنة نبيك ﷺ» [رواه أبو داود والنسائي رحمهما الله تعالى] (أقول: أن ينوي بالعمرة والحج، فإذا حصل له نية الدخول بالعمرة والحج فقد أتمَّهما جميعاً). وقيل: إتمامهما أن تحرم بهما من دويرة (أي: دار) أهلك، أو أن تفرد لكلٍّ منهما سفراً (أقول: أو أن تهلَّ بالعمرة ثم تدخل في الحج، قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ قال القاضي البيضاوي رحمه الله تعالى: أي: فمن استمتع بعد التحلُّل من عمرته باستباحة محظورات الإحرام إلى أن يحرم بالحج ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾) أو أن تجرده لهما لا تشوبهما بغرض دنيوي، أو أن تكون النفقة حلالاً ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ مُنعتم، وهو كل منع من عدو أو مرض أو غيرهما عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ﴾ والمعنى: إن أحصر المحرم وأراد أن يتحلَّل تحلَّل بذبح هدي تيسَّر عليه ـ من بدنة أو بقرة أو شاة ـ حيث أحصر عند الأكثر، لأنه عليه الصلاة والسلام ذبح عام الحديبية بها وهي من الحل، وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى يبعث به، ويجعل للمبعوث على يده يوم أمار (أي: اليوم الذي عينه) فإذا جاء اليوم وظن أنه ذبح تحلل لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ﴾ أي: لا تحلوا حتى تعلموا أن الهدي المبعوث إلى الحرم بلغ محله، أي: مكانه الذي يجب أن ينحر فيه. وحمل الأولون بلوغ الهدي محله على ذبحه حيث يحل الذبح فيه حلاً كان أو حرماً، وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى يجب القضاء ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ مرضاً يحوجه إلى الحلق ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ كجراحة وقمل ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ فعليه فدية إن حلق ﴿مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ﴾ بيان لجنس الفدية، وأما قدرها فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لكعب بن عجرة: «لعلك آذاك هوامُّك؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: احلق وصم ثلاثة أيام، أو تصدق بفرق على ستة مساكين، أو انسك شاة» [رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى]. والفرق ثلاثة آصع ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ الإحصار، أو كنتم في حال سعة وأمن ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ فمن استمتع وانتفع بالتقرب إلى الله تعالى بالعمرة قبل الانتفاع بتقربه بالحج في أشهره. وقيل: فمن استمتع بعد التحلل من عمرته باستباحة محظورات الإحرام إلى أن يحرم بالحج ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ﴾ فعليه دم استيسره بسبب التمتع، فهو دم جبر أن يذبحه إذا أحرم بالحج ولا يأكل منه. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: إنه دم نسك، فهو كالأضحية ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: الهدي ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ﴾ في أيام الاشتغال به بعد الإحرام وقبل التحلل. قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى في أشهره بين الإحرامين، والأحب أن يصوم سابع ذي الحجة وثامنه وتاسعه. ولا يجوز صوم يوم النحر وأيام التشريق عند الأكثرين ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ﴾ إلى أهليكم، وهو أحد قولي الشافعي رضي الله تعالى عنه، أو نفرتم وفرغتم من أعماله، وهو قوله الثاني ومذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ﴾ مبينة كمال العشرة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الحكم المذكور عند الشافعية ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ وهو من كان من الحرم على مسافة القصر عندنا (أي: الشافعية) ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في المحافظة على أوامره ونواهيه وخصوصاً في الحج ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ لمن لم يتقه كي يصدكم العلم به عن العصيان.

ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

(١٩٧) ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ﴾ أي: وقته أشهر ﴿مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾ معروفات وهي: شوال وذو القعدة وتسعة من ذي الحجة بليلة النحر عندنا، والعشر عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وذي الحجة كله عند مالك رحمه الله تعالى. (أقول: من أراد تفصيل أحكام الحج لا بدَّ أن يراجع مناسك الحج في كتب الفقه حتى تتبين له الأحكام جميعاً، لأن الفقهاء رحمهم الله تعالى أعلم بمعاني القرآن وتفاصيلها في مناسك الحج وغيرها من الأحكام).

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ﴾ فمن أوجبه على نفسه ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ فلا جماع، أو فلا فحش من الكلام ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ ولا خروج عن حدود الشرع بالسيئات وارتكاب المحظورات ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ ولا مراء مع الخدم والرفقة ﴿فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ في أيامه؛ وما كان مستقبحاً في نفسه ففي الحج أقبح (أقول: وكذلك الأخلاق المخالفة للشريعة المستقبحة شرعاً أو عرفاً إذا كانت في الحج فهي أقبح).

﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ حثٌّ على الخير عقَّب به النهي عن الشر ليستبدل به ويستعمل مكانه ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ وتزوَّدوا لمعادكم (يعني لآخرتكم) التقوى فإنه خير زاد ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ فإن قضية اللب خشية الله تعالى وتقواه. حثَّهم على التقوى ثم أمرهم بأن يكون المقصود بها هو الله تعالى فيتبرأ من كل شيء سواه، وهو مقتضى العقل المعرى عن شوائب الهوى فلذلك خص أولي الألباب بهذا الخطاب.

(١٩٨) ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ﴾ أي: في أن تطلبوا ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ عطاء ورزقاً منه، يريد الربح بالتجارة ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ﴾ دفعتم منها بكثرة. وفيه دليل على وجوب الوقوف بها، لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده، وهي مأمور بها بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾ [البقرة: ١٩٩] ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ بالتلبية والتهليل والدعاء. وقيل: بصلاة العشاءين ﴿عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ جبل يقف عليه الإمام، ويسمى «قزح». وإنما سمي مشعراً لأنه معلم العبادة، ووصف بالحرام لحرمته. ومعنى ﴿عِنْدَ الْمَشْعَرِ

الْحَرَامِ﴾: مما يليه ويقرب منه فإنه أفضل، وإلا فالمزدلفة كلها موقف إلا وادي محسِّر ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ كما علَّمكم، أو اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة إلى المناسك وغيرها ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: الهدى ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ أي: الجاهلين بالإيمان والطاعة.

(١٩٩) ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: من عرفة لا من المزدلفة ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ من جاهليتكم في تغيير المناسك ونحوه (أقول: واستغفروا الله تعالى من مخالفتكم للشريعة) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ يغفر ذنب المستغفر وينعم عليه (بالعفو).

(٢٠٠) ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ فإذا قضيتم العبادات الحجية وفرغتم منها ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ فاكثروا ذكره وبالغوا فيه ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ والمعنى: فاذكروا الله تعالى كذكر قوم أشد منكم ذكراً ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ تفصيل للذاكرين إلى مقلٍّ لا يطلب بذكر الله تعالى إلا الدنيا، ومكثر يطلب به خير الدارين. والمراد الحثُّ على الإكثار والإرشاد إليه ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ اجعل إيتاءنا ومنحتنا في الدنيا ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ أي: نصيب وحظ؛ لأن همه مقصور بالدنيا.

(٢٠١) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يعني: الصحة والكفاف وتوفيق الخير ﴿وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ يعني الثواب والرحمة ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ بالعفو والمغفرة. قال علي رضي الله تعالى عنه: الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة، وفي الآخرة الحوراء، وعذاب النار المرأة السوء.

﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ معناه احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إلى النار.

(أقول: خصص الشهوة لأن أشد المعاصي على الشخص المؤمن أو المؤمنة الشهوة، هذا من الطبيعة البهيمية، نحن مع إيماننا وإسلامنا مبتلَوْن بهذا، اللهم احفظنا).

(٢٠٢) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الفريقين ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ أي: من جنسه، وهو جزاؤه. أو مما دعوا به نعطيهم منه ما قدَّرناه ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ يحاسب العباد على كثرتهم وكثرة أعمالهم في مقدار لمحة (سئل سيدنا علي رضي الله عنه: كيف يحاسب الله تعالى الخلق على كثرتهم؟ قال: كما يرزقهم على كثرتهم [روح البيان]).

﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

(٢٠٣) ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ﴾ كبِّروه في أدبار الصلاة وعند ذبح القرابين ورمي الجمار وغيرها في أيام التشريق ﴿فَمَن تَعَجَّلَ﴾ فمن استعجل النفر ﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ يوم النحر والذي بعده، أي: فمن نفر في ثاني أيام التشريق بعد رمي الجمار عندنا، وقبل طلوع الفجر عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ باستعجاله ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مجامع أموركم ليعبأ بكم ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ للجزاء بعد الإحياء.

(٢٠٤) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾ يروقك ويعظم في نفسك ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ما يقوله في أمور الدنيا وأسباب المعاش، أو في معنى الدنيا، فإنها مراده من ادعاء المحبة وإظهار الإيمان ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ يحلف ويستشهد الله تعالى على أن ما في قلبه موافق لكلامه (أقول: هذا مجرد نفاق، فعلى المؤمن أن لا يغترَّ بأمثال هذا. ما دام هذا وقع من المنافقين مع رسول الله ﷺ وهو مؤيد بالوحي الإلهي، والله تعالى يوقظه، فنحن مع ضعفنا لا بد أن نحذر من هذا) ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ شديد العداوة والجدال للمسلمين. قيل: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، وكان حسن المنظر حلو المنطق يوالي رسول الله ﷺ ويدعي الإسلام. وقيل: في المنافقين كلهم.

(٢٠٥) ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ أدبر وانصرف عنك ﴿سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ﴾ كما فعله الأخنس بثقيف، إذ بيَّتهم وأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم، أو كما يفعله ولاة السوء بالقتل والإتلاف، أو بالظلم حتى يمنع الله تعالى بشؤمه القطر فيهلك الحرث والنسل (هذا يطلق على ما حصل مع الشعب السوري) ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ لا يرتضيه فاحذروا غضبه عليه.

(٢٠٦) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ﴾ حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الإثم الذي يؤمر باتقائه ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ﴾ كفته جزاء وعذاباً. وجهنم: عَلَمٌ لدار العقاب، وهو في الأصل مرادف للنار ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ أي: الفراش.

(٢٠٧) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ﴾ يبيعها، أي: يبذلها في الجهاد، أو يأمر بالمعروف وينهى عن

المنكر حتى يُقتل ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ طلباً لرضاه. قيل: إنها نزلت في صهيب بن سنان الرومي رضي الله تعالى عنه، أخذه المشركون وعذبوه ليرتدَّ، فقال: إني شيخ كبير لا ينفعكم إن كنت معكم ولا يضركم إن كنت عليكم، فخلوني وما أنا عليه وخذوا مالي، فقبلوه منه وأتى المدينة ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ حيث أرشدهم إلى مثل هذا الشراء وكلفهم بالجهاد فعرَّضهم لثواب الغزاة والشهداء.

(٢٠٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ السلم: الاستسلام والطاعة، والمعنى: استسلموا لله تعالى وأطيعوه جملة ظاهراً وباطناً، والخطاب للمنافقين (أقول: لا بدَّ للمؤمن أن يحفظ باطنه، لأنَّ الله تعالى مطَّلع عليه، وإذا كان الله تعالى مطلعاً عليه فلا عبرة لإظهاره أو إخفائه، فعلى المؤمن أن يكتفي بعلم الله تعالى، ومن فعل خلاف ذلك فهو من النفاق)، أو ادخلوا في الإسلام بكلِّيتكم ولا تخلطوا به غيره (أقول: فلا تُدخلوا في نيَّتكم وعملكم غير الإسلام)، والخطاب لمؤمني أهل الكتاب، فإنهم بعد إسلامهم عظموا السبت وحرموا الإبل وألبانها، أو في شرائع الله تعالى كلها بالإيمان بالأنبياء والكتب جميعاً، والخطاب لأهل الكتاب، أو في شعب الإسلام وأحكامه كلها فلا تُخِلُّوا بشيء، والخطاب للمسلمين ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ ظاهر العداوة (أقول: أمرنا الله جل وعلا بالدخول في الإسلام في جميع أحكامه كافة صغيرها وكبيرها، سننها وفرائضها، وأولها الإيمان بأركانه الستة، وكذلك الشهادة، والصلاة والزكاة والصوم والحج من أركان الإسلام، ولكن بهذه الأمور كلها بدون الإيمان لا يكون المؤمن مؤمناً، ولا يكون المسلم متَّصفاً بالإسلام ما لم يبن أركان الإسلام على الإيمان).

(٢٠٩) ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾ عن الدخول في السلم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ الآيات والحجج الشاهدة على أنه الحق ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه الانتقام (تهديد من الله تعالى لمن خالف أمر الله تعالى وشرعه) ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ لا ينتقم إلا بحقٍّ (أي: لا ينتقم ظلماً).

(٢١٠) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يأتيهم أمره أو بأسه، كقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣] ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: ٤] (أقول: وهو أمر الخالق جلَّ وعلا لفصل القضاء بينهم، وينتهي أمر الخلائق بالفصل بينهم، وهذا القول على التأويل، والله تبارك وتعالى أعلم بمراده، والذهاب والإياب من لوازم الحوادث، وهو سبحانه وتعالى منزَّه عن لوازم الحدوث) ﴿فِى ظُلَلٍ﴾ جمع ظُلَّة، وهي ما أظلَّك ﴿مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ السحاب الأبيض، وإنما يأتيهم العذاب فيه لأنه مظنَّة الرحمة، فإذا جاء منه العذاب كان أفظع لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أصعب، فكيف إذا جاء من حيث يحتسب الخير؟ (أقول: كما حصل لبعض الأقوام، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيم﴾ [الأحقاف: ٢٤] ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فإنهم الواسطة في إتيان أمره، أو الآتون على الحقيقة ببأسه ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أُتِمَّ أمر إهلاكهم وفُرِغَ منه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾.

(فائدة في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أبي صالح: هذا من المكتوم الذي لا يُفسَّر، وروى عبد الرزاق عن سفيان الثوري عن ابن عباس رضي الله عنهما: تفسير القرآن على أربعة أوجه: تفسير يعلمه العلماء، وتفسير تعرفه العرب، وتفسير لا يقدر عليه أحد لجهالته، وتفسير لا يعلمه إلا الله عز وجل ومن ادعى علمه فهو كاذب [تفسير السمرقندي]).

سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾

(٢١١) ﴿**سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ**﴾ أمر للرسول ﷺ، أو لكل أحد. والمراد بهذا السؤال تقريعهم ﴿**كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ**﴾ معجزة ظاهرة، أو آية في الكتب شاهدة على الحق والصواب على أيدي الأنبياء ﴿**وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ**﴾ أي: آيات الله تعالى فإنها سبب الهدى الذي هو أجل النعم، بجعلها سبب الضلالة وازدياد الرجس ﴿**مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ**﴾ من بعد ما وصلت إليه وتمكن من معرفتها ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾**﴾ فيعاقبه أشد عقوبة لأنه ارتكب أشد جريمة.

(٢١٢) ﴿**زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا**﴾ حسنت في أعينهم وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهالكوا عليها وأعرضوا عن غيرها (أقول: لا بدَّ أن نتجنَّب عن محبة الدنيا والتهالك عليها كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة، لا يضرُّ وجود المال، ولا يضرُّ الأخذ بالأسباب حتى يحصِّل المال، ولكن بقلوبكم لا تتعلَّقوا بالمال، واستنكفوا عن حبِّ الدنيا، اليوم يعطي وغداً يأخذ، فاحذروا من التهالك على الدنيا)، والمزيِّن في الحقيقة هو الله تعالى إذ ما من شيء إلا وهو فاعله، وكلٌّ من الشيطان (يزين حب المال في قلبه) والقوة الحيوانية (البهيمية) وما خلقه الله تعالى فيها من الأمور البهية والأشياء الشهية مزيِّن بالعَرَض ﴿**وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ**﴾ يريد فقراء المؤمنين كبلال وعمار وصهيب، أي: يسترذلونهم ويستهزئون بهم على رفضهم الدنيا وإقبالهم على العقبى.

﴿**وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ**﴾ لأنهم في عليين وهم في أسفل السافلين، أو لأنهم في كرامة وهم في مذلة، أو لأنهم يتطاولون عليهم فيسخرون منهم كما سخروا منهم في الدنيا، وإنما قال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ بعد قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ليدلَّ على أنهم متَّقون، وأن استعلاءهم للتقوى ﴿**وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ**﴾ في الدارين ﴿**بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾**﴾ بغير تقدير فيوسع في الدنيا استدراجاً تارةً – نعوذ بالله – وابتلاءً أخرى.

(٢١٣) ﴿**كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ**﴾ متفقين على الحق فيما بين آدم وإدريس، أو متفقين على الجهالة والكفر في فترة إدريس، فاختلفوا ﴿**فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ**﴾ وعن كعب: (الذي علمته من عدد الأنبياء

مئة وأربعة وعشرون ألفاً، والمرسل منهم ثلاث مئة وثلاثة عشر، والمذكور في القرآن باسم العَلَم ثمانية وعشرون) ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يريد به الجنس، ولا يريد به أنه أنزل مع كل واحد كتاباً يخصُّه، فإن أكثرهم لم يكن لهم كتاب يخصهم، وإنما كانوا يأخذون بكتب من قبلهم ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: ملتبساً بالحق شاهداً به ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: الله جلَّ وعلا، أو النبي المبعوث عليه الصلاة والسلام، أو كتابه ﴿فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ في الحق الذي اختلفوا فيه، أو فيما التبس عليهم ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ﴾ في الحق، أو الكتاب ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي: الكتاب المنزل لإزالة الخلاف أي: عكسوا الأمر فجعلوا ما أنزل مزيحاً للاختلاف سبباً لاستحكامه ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ﴾ حسداً بينهم وظلماً لحرصهم على الدنيا ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ أي للحق الذي اختلف فيه من اختلف ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ بيان لما اختلفوا فيه ﴿بِإِذۡنِهِۦۗ﴾ بأمره أو بإرادته ولطفه ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ لا يضلُّ سالكه.

(٢١٤) ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ خاطب به النبي ﷺ والمؤمنين بعد ما ذكر اختلاف الأمم على الأنبياء بعد مجيء الآيات تشجيعاً لهم على الثبات مع مخالفيهم ﴿وَلَمَّا يَأۡتِكُم﴾ ولم يأتكم ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ﴾ حالهم التي هي مَثَلٌ في الشدة ﴿مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ﴾ وأزعجوا إزعاجاً شديداً بما أصابهم من الشدائد ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ لتناهي الشدة واستطالة المدة بحيث تقطعت حبال الصبر ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ استبطاء له لتأخره ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾﴾ استئناف على إرادة القول، أي: فقيل لهم ذلك اسعافاً لهم إلى طلبتهم من عاجل النصر، وفيه إشارة إلى أن الوصول إلى الله تعالى والفوز بالكرامة عنده برفض الهوى واللذات، ومكابدة الشدائد والرياضات، كما قال عليه الصلاة والسلام: «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات» [رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى].

(٢١٥) ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «أن عمرو بن الجموح الأنصاري رضي الله تعالى عنه كان شيخاً ذا مال عظيم، فقال: يا رسول الله ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها؟ فنزلت» ﴿قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ سئل عن المُنفَق فأجيب ببيان المصرف لأنه أهمُّ، فإنَّ اعتداد النفقة باعتباره ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾﴾ أي: إن تفعلوا خيراً فإن الله تعالى يعلم كنهه ويوفي ثوابه.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

(٢١٦) ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ**﴾ شاق عليكم مكروه طبعاً ﴿**وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ وهو جميع ما كلفوا به، فإن الطبع يكرهه وهو مناط صلاحهم وسبب فلاحهم ﴿**وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ**﴾ وهو جميع ما نهوا عنه، فإن النفس تحبه وتهواه وهو يفضي بها إلى الردى. وإنما ذكر «عسى» لأن النفس إذا ارتاضت ينعكس الأمر عليها ﴿**وَٱللَّهُ يَعْلَمُ**﴾ ما هو خير لكم ﴿**وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾**﴾ ذلك، وفيه دليل على أن الأحكام تتبع المصالح الراجحة وإن لم تعرف عينها.

(٢١٧) ﴿**يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ**﴾ روي «أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبد الله بن جحش ابن عمته على سرية في جمادى الآخرة، قبل بدر بشهرين، ليترصَّد عيراً لقريش فيها عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه، فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها من تجارة الطائف، وكان ذلك غرة رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة، فقالت قريش: استحلَّ محمد الشهر الحرام شهراً يأمن فيه الخائف، ويبذعر (يفزع ويلجأ) فيه الناس إلى معايشهم. وشق ذلك على أصحاب السرية، وقالوا: ما نبرح حتى تنزل توبتنا، وردَّ رسول الله ﷺ العير والأسارى». وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «لما نزلت أخذ رسول الله ﷺ الغنيمة وهي أول غنيمة في الإسلام». والسائلون هم المشركون كتبوا إليه في ذلك تشنيعاً وتعييراً. وقيل: أصحاب السرية ﴿**قِتَالٍ فِيهِ**﴾ بدل اشتمال من الشهر الحرام ﴿**قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ**﴾ أي: ذنب كبير ﴿**وَصَدٌّ**﴾ صرف ومنع ﴿**عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ أي: الإسلام، أو ما يوصل العبد إلى الله سبحانه وتعالى من الطاعات ﴿**وَكُفْرٌۢ بِهِۦ**﴾ أي: بالله تعالى ﴿**وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ**﴾ أي: وصدٌّ عن المسجد الحرام ﴿**وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ**﴾ أهل المسجد الحرام، وهم النبي ﷺ والمؤمنون ﴿**أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ**﴾ مما فعلته السرية خطأ وبناء على الظن، وهو خبر عن الأشياء الأربعة المعدودة من كبائر قريش ﴿**وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ**﴾ أي: ما ترتكبونه من الإخراج والشرك أفظع مما ارتكبوه من قتل الحضرمي ﴿**وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ**﴾ إخبار عن دوام عداوة الكفار لهم، وأنهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم ﴿**إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟**﴾ وهو استبعاد لاستطاعتهم، وإيذان بأنهم لا يردونهم ﴿**وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن**

دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ قيَّد الردة بالموت عليها في إحباط الأعمال، كما هو مذهب الشافعي رحمه الله تعالى (وأبو حنيفة رحمه الله تعالى لم يقيد إحباط العمل بالموت على الردة)، والمراد بها الأعمال النافعة ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ لبطلان ما تخيلوه (أي: الكفار) وفوات ما للإسلام من الفوائد الدنيوية ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ بسقوط الثواب ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ كسائر الكفرة.

(٢١٨) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ نزلت أيضاً في أصحاب السرية لما ظُنَّ بهم أنهم إن سلموا من الإِثم فليس لهم أجر ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كرر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد كأنهما مستقلان في تحقيق الرجاء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ ثوابه، أثبت لهم الرجاء إشعاراً بأن العمل غير موجب ولا قاطع في الدلالة سيما والعبرة بالخواتيم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ لما فعلوا خطأً وقلةَ احتياط ﴿رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾﴾ بإجزال الأجر والثواب.

(٢١٩) ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ﴾ روي أنه نزل بمكة قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾ [النحل: ٦٧] فأخذ المسلمون يشربونها، ثم إن عمر ومعاذاً ونفراً من الصحابة قالوا: أَفْتِنا يا رسول الله في الخمر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال، فنزلت هذه الآية فشربها قوم وتركها آخرون. ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناساً منهم فشربوا وسكروا، فأمَّ أحدهم فقرأ: «قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ» فنزلت: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: ٤٣] فقلَّ من يشربها، ثم دعا عتبان بن مالك سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنهما في نفر فلما سكروا افتخروا وتناشدوا، فأنشد سعد شعراً فيه هجاء الأنصار، فضربه أنصاري بلحى بعير (وهو العظم الذي فيه الأسنان) فشجه، فشكا إلى رسول الله ﷺ فقال عمر رضي الله عنه: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] فقال عمر رضي الله عنه: انتهينا يا رب. وهي حرام مطلقاً، وكذا كلُّ ما أسكر عند أكثر العلماء ﴿وَٱلۡمَيۡسِرِۖ﴾ سمي به القمار لأنه أخذ مال الغير بيسر، والمعنى: يسألونك عن تعاطيهما، لقوله تعالى: ﴿قُلۡ فِيهِمَآ﴾ أي: في تعاطيهما ﴿إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ من حيث إنه يؤدي إلى الانتكاب (الإعراض والعدول) عن المأمور، وارتكاب المحظور ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ من كسب المال والطرب والالتذاذ ﴿وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ أي: المفاسد التي تنشأ منهما أعظم من المنافع المتوقعة منهما.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ قيل: سائله أيضاً عمرو بن الجموح رضي الله تعالى عنه، سأل أولًا عن المنفَق والمصرِف، ثم سأل عن كيفية الإِنفاق ﴿قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ العفو نقيض الجهد، وهو أن ينفق ما تيسَّر له بذله ولا يبلغ منه الجهد. وروي أن رجلًا أتى النبي ﷺ ببيضة من ذهب أصابها في بعض المغانم، فقال: خذها مني صدقة، فأعرض عليه الصلاة والسلام عنه، حتى كرَّر عليه مراراً، فقال: هاتها مغضباً، فأخذها فخذفها خذفاً (أي: قذفها) لو أصابه لشجَّه، ثم قال: «يأتي أحدكم بماله كلّه يتصدَّق به ويجلس يتكفَّف الناس، إنما الصدقة عن ظهر غنى» [رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي] ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: مثل ما بين أن العفو أصلح من الجهد ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ في الدلائل والأحكام.

فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٢٤﴾

(٢٢٠) ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ في أمور الدارين فتأخذوا بالأصلح والأنفع فيهما، وتجتنبون عما يضركم ولا ينفعكم، أو يضركم أكثر مما ينفعكم ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ﴾ لما نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً﴾ [النساء: ١٠] الآية، اعتزلوا اليتامى ومخالطتهم والاهتمام بأمرهم، فشق ذلك عليهم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت ﴿قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ﴾ أي: مداخلتهم لإِصلاحهم، أو إصلاح أموالهم خير من مجانبتهم ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ﴾ حثٌّ على المخالطة، أي: إنهم إخوانكم في الدين، ومن حق الأخ أن يخالط الأخ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ وعيد ووعد لمن خالطهم لإِفساد وإصلاح، أي يعلم أمره فيجازيه عليه ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ﴾ أي: كلَّفكم ما يشق عليكم، من العنت وهي المشقة، ولم يجوِّز لكم مداخلتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب يقدر على الإعنات ﴿حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾﴾ يحكم ما تقتضيه الحكمة وتتَّسع له الطاقة.

(٢٢١) ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ﴾ أي: ولا تتزوَّجوهن. والمشركات تعمُّ الكتابيات لأن أهل الكتاب مشركون، لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾ إلى قوله: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠-٣١] ولكنَّها خصَّت عنها بقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥]. روي «أنه عليه الصلاة والسلام بعث مرثداً الغنوي إلى مكة ليخرج منها أناساً من المسلمين، فأتته عناق، وكان يهواها في الجاهلية، فقالت: ألا تخلو؟ فقال: إن الإسلام حال بيننا، فقالت: هل لك أن تتزوج بي؟ فقال: نعم، ولكن أستأمِرُ رسول الله ﷺ، فاستأمره، فنزلت» [سبب النزول رواه أبو داود رحمه الله تعالى] ﴿وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ﴾ أي: وَلَامْرأة مؤمنة، حرة كانت أو مملوكة، فإن الناس كلهم عبيد الله تعالى وإماؤه ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ﴾ بحسنها وشمائلها ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ﴾ ولا تُزوِّجوا منهم المؤمنات حتى يؤمنوا، وهو على عمومه ﴿وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ﴾ تعليل للنهي عن مواصلتهم، وترغيب في مواصلة المؤمنين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ أي: الكفر المؤدي إلى النار، فلا يليق موالاتهم ومصاهرتهم ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ أي: إلى الاعتقاد والعمل الموصلين إليهما ﴿بِإِذۡنِهِۦۖ﴾

أي: بتوفيق الله تعالى وتيسيره، أو بقضائه وإرادته (أقول: عندما يأتي قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ يكون مثل حال الصائم في حزيران أو في يوم أشدَّ منه حَرّاً، فإذا قال المؤذن: الله أكبر، يشرب الماء بإذنه تعالى) ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ لكي يتذكروا، لما ركز في العقول من ميل الخير ومخالفة الهوى.

(٢٢٢) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ روي «أن أهل الجاهلية كانوا لا يساكنون الحُيَّض ولا يؤاكلونها، كفعل اليهود والمجوس، واستمر ذلك إلى أن سأل أبو الدحداح في نفر من الصحابة عن ذلك، فنزلت» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى بمعناه] ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ أي: الحيض شيء مستقذر مؤذ من يقربه ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ فاجتنبوا مجامعتهنَّ ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ تأكيد للحكم وبيان لغايته، وهو أن يغتسلن بعد الانقطاع ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ فإنه يقتضي تأخير جواز الإتيان عن الغسل. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه إذا طهرت لأكثر الحيض جاز قربانها قبل الغسل ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: المأتى الذي أمركم الله تعالى به وحلَّله لكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ من الذنوب ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ أي: المتنزهين عن الفواحش والأقذار، كمجامعة الحائض والإتيان في غير المأتى.

(٢٢٣) ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ مواضع حرث لكم. شُبِّهْنَ بها تشبيهاً لما يلقى في أرحامهن من النطف بالبذور ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ﴾ وهو كالبيان لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾ ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ من أي جهة شئتم، روي «أن اليهود كانوا يقولون: من جامع امرأته من دبرها في قُبُلها كان ولدها أحول، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت» [وسبب النزول في الصحيحين] ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ ما يدَّخر لكم من الثواب. وقيل: التسمية عند الوطء ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بالاجتناب عن معاصيه ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ فتزوَّدوا ما لا تفتضحون به (يوم القيامة) ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ الكاملين في الإيمان بالكرامة والنعيم الدائم.

(٢٢٤) ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ نزلت في الصِّدِّيق رضي الله تعالى عنه لما حلف أن لا ينفق على مسطح لافترائه على عائشة رضي الله تعالى عنها. ومعنى الآية: ولا تجعلوا الله تعالى حاجزاً لما حلفتم عليه من أنواع الخير، فيكون المراد بالأَيمان الأمورُ المحلوف عليها، كقوله عليه الصلاة والسلام لابن سمرة: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها، فأت الذي هو خير وكَفِّرْ عن يمينك» [رواه أبو داود رحمه الله تعالى]. أو لا تجعلوا الله تعالى معرضاً لأيمانكم فتبتذلوه بكثرة الحلف به، ولذلك ذمَّ الحلَّاف بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾ [القلم: ١٠]. و﴿أَن تَبَرُّوا۟﴾ علة للنهي، أي: أنهاكم عنه إرادة بركم وتقواكم وإصلاحكم بين الناس، فإن الحلَّاف مجترئ على الله تعالى، والمجترئ عليه لا يكون براً متقياً ولا موثوقاً به في إصلاح ذات البين ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأيمانكم ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ بنيَّاتكم.

لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ
قُلُوبُكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ
أَرْبَعَةِ أَشْهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ
ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ
بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ
أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ
فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ
وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ
فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن
تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ
ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ
بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ
زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن
يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٖ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

(٢٢٥) ﴿**لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ**﴾ المعنى: لا يؤاخذكم الله تعالى بعقوبة ولا كفارة بما لا قصد معه، ولكن يؤاخذكم بهما أو بأحدهما بما قصدتم من الأيمان وواطأت فيها قلوبكم ألسنتكم.

وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: اللغو أن يحلف الرجل بناء على ظنه الكاذب، والمعنى لا يعاقبكم بما أخطأتم فيه من الأيمان، ولكن يعاقبكم بما تعمدتم الكذب فيه ﴿**وَٱللَّهُ غَفُورٌ**﴾ حيث لم يؤاخذ باللغو ﴿**حَلِيمٞ** ﴿٢٢٥﴾﴾ حيث لم يعجِّل بالمؤاخذة على يمين الجدِّ تربُّصاً للتوبة.

(٢٢٦) ﴿**لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ**﴾ أي: يحلفون على أن لا يجامعوهن ﴿**تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٖۖ**﴾ التربُّص: الانتظار والتوقف، أي: للمُولِي حقُّ التلبُّث في هذه المدة فلا يطالب بفيء ولا طلاق (والمراد بالفيء التكفير عن اليمين والرجوع إلى الزوجة)، ولذلك قال الشافعي رحمه الله تعالى: لا إيلاء إلا في أكثر من أربعة أشهر ويؤيده ﴿**فَإِن فَآءُو**﴾ رجعوا في اليمين بالحنث ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ** ﴿٢٢٦﴾﴾ للمولي إثم حنثه إذا كفَّر.

(٢٢٧) ﴿**وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ**﴾ وإن صمموا قصده ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ**﴾ لطلاقهم ﴿**عَلِيمٞ** ﴿٢٢٧﴾﴾ بغرضهم فيه.

(٢٢٨) ﴿**وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ**﴾ يريد بها المدخول بهن من ذوات الأقراء لما دلت عليه الآيات والأخبار أن حكم غيرهن خلاف ما ذكر ﴿**يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ**﴾ تهييج وبعث لهنَّ على التربُّص (وهو الانتظار)، فإن نفوس النساء طوامح إلى الرجال، فأُمِرن بأن يقمعنها ويحملنها على التربُّص ﴿**ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ**﴾ أي: يتربَّصْنَ مضيَّها. و﴿قُرُوٓءٖ﴾ جمع قرء، ويطلق للحيض، لقوله عليه الصلاة والسلام: «دعي الصلاة أيام أقرائك» [رواه الدارقطني رحمه الله تعالى، وأصله في صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى] وللطهر الفاصل بين الحيضتين ﴿**وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ**﴾ من الولد أو الحيض استعجالاً في العدة وإبطالاً لحقِّ الرجعة، وفيه دليل على أن قولها مقبول في ذلك ﴿**إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ**﴾ ليس المراد منه تقييد نفي الحل بإيمانهن، بل التنبيه على أنه ينافي الإيمان، وأن المؤمن لا يجترئ عليه ولا ينبغي له أن يفعل ﴿**وَبُعُولَتُهُنَّ**﴾ أي: أزواج المطلقات ﴿**أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ**﴾ إلى النكاح والرجعة إليهن ﴿**فِي ذَٰلِكَ**﴾ أي: في زمان التربُّص ﴿**إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحٗاۚ**﴾ بالرجعة لا لإضرار المرأة.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: ولهنَّ حقوق على الرجال مثل حقوقهم عليهن في الوجوب واستحقاق المطالبة عليها، لا في الجنس ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ زيادة في الحق وفضل فيه، لأن حقوقهم في أنفسهم، وحقوقهنَّ المهر والكفاف وترك الضرار ونحوها، أو شرف وفضيلة لأنهم قُوَّام عليهنَّ وحُرَّاس لهنَّ يشاركونهنَّ في غرض الزواج ويخصون بفضيلة الرعاية والإنفاق (أقول: قال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]، هذه القوامة ليست بالضرب والشتم والظلم، بل بالنصيحة حتى يفهمن ويرجعن إلى الحق) ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقدر على الانتقام ممن خالف الأحكام ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ يشرعها لحكم ومصالح.

(٢٢٩) ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ أي: التطليق الرجعي اثنتان. وقيل: معناه التطليق الشرعي تطليقة بعد تطليقة على التفريق، ولذلك قالت الحنفية: الجمع بين الطلقتين والثلاث بدعة ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ بالمراجعة وحسن المعاشرة ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ بالطلقة الثالثة، أو بأن لا يراجعها حتى تَبِينَ ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ أي: من الصدقات ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾ أي: الزوجان ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بترك إقامة أحكامه من مواجب الزوجية ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الحكام ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ على الرجل في أخذ ما افتدت به نفسها واختلعت، وعلى المرأة في إعطائه.

(أقول: وإذا أرادت الزوجة أن تفتدي نفسها بترك شيء من مهرها ليطلقها فلا إثم في ذلك).

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى ما حد من الأحكام ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ فلا تتعدوها بالمخالفة ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ تعقيبٌ للنهي بالوعيد مبالغةً في التهديد، واعلم أن ظاهر الآية يدل على أن الخلع لا يجوز من غير كراهة وشقاق، ولا بجميع ما ساق الزوج إليها فضلاً عن الزائد، ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة» [رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى]. والجمهور استكرهوه ولكن نفذوه فإن المنع عن العقد لا يدلُّ على فساده.

(٢٣٠) ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ والمعنى فإن طلقها بعد الثنتين ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾ من بعد ذلك الطلاق ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ حتى تتزوَّج غيره ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ أن يرجع كل من المرأة والزوج الأول إلى الآخر بالزواج ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ إن كان في ظنهما أنهما يقيمان ما حدَّه الله تعالى وشرعه من حقوق الزوجية ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: الأحكام المذكورة ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ يفهمون ويعملون بمقتضى العلم.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ
ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذْكُرُواْ
نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ
يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٣١﴾
وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ
أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ
مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ
يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ
حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ
وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ
وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ
فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ
أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ
ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٢٣٣﴾

(٢٣١) ﴿**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ**﴾ أي: آخر عدتهن ﴿**فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ**﴾ إذ لا إمساك بعد انقضاء الأجل، والمعنى فراجعوهن من غير ضرار، أو خلوهن حتى تنقضي عدتهن من غير تطويل ﴿**وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا**﴾ ولا تراجعوهن إرادة الإضرار بهنَّ ﴿**لِّتَعْتَدُواْ**﴾ لتظلموهن بالتطويل أو الإلجاء إلى الافتداء.

﴿**وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ**﴾ بتعريضها للعقاب ﴿**وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا**﴾ بالإعراض عنها والتهاون في العمل بما فيها.

﴿**وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ**﴾ التي من جملتها الهداية وبعثة محمد ﷺ، بالشكر والقيام بحقوقها ﴿**وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ**﴾ القرآن والسنة أفردهما بالذكر إظهاراً لشرفهما ﴿**يَعِظُكُم بِهِۦ**﴾ بما أنزل عليكم ﴿**وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٣١﴾**﴾ تأكيد وتهديد.

(٢٣٢) ﴿**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ**﴾ أي: انقضت عدتهن ﴿**فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ**﴾ المخاطب به الأولياء، والعضل: الحبس والتضييق ﴿**إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم**﴾ أي: الخُطَّاب والنساء ﴿**بِٱلْمَعْرُوفِ**﴾ بما يعرفه الشرع وتستحسنه المروءة ﴿**ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ**﴾ لأنه المتعظ به والمنتفع ﴿**ذَٰلِكُمْ**﴾ أي: العمل بمقتضى ما ذكر ﴿**أَزْكَىٰ لَكُمْ**﴾ أنفع ﴿**وَأَطْهَرُ**﴾ من دنس الآثام ﴿**وَٱللَّهُ يَعْلَمُ**﴾ ما فيه من النفع والصلاح ﴿**وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾**﴾ لقصور علمكم.

(٢٣٣) ﴿**وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ**﴾ أمرٌ عبَّر عنه بالخبر للمبالغة، ومعناه الندب أو الوجوب ﴿**حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ**﴾ أكده بصفة الكمال لأنه مما يتسامح فيه ﴿**لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ**﴾ أي: ذلك لمن أراد إتمام الرضاعة، وهو دليل على أن أقصى مدة الإرضاع حولان ولا عبرة به بعدهما.

﴿**وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ**﴾ يعني الوالد، فإن الولد يولد له وينسب إليه ﴿**رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ**﴾ أجرة لهن ﴿**بِٱلْمَعْرُوفِ**﴾ حسب ما يراه الحاكم ويفي به وسعه ﴿**لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ تعليل لإيجاب المُؤَن والتقييد بالمعروف،

ودليل على أنه سبحانه وتعالى لا يكلف العبد بما لا يطيقه ﴿لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ أي: لا يكلِّف كلُ واحد منهما الآخرَ ما ليس في وسعه، ولا يضاره بسبب الولد ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ المراد بالوارث وارث الأب وهو الصبي، أي: مؤن المرضعة من ماله إذا مات الأب.

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ أي: فصالاً (يعني: فطاماً) صادراً عن التراضي منهما والتشاور بينهما قبل الحولين ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في ذلك وإنما اعتبر تراضيهما مراعاة لصلاح الطفل، وحذراً أن يقدم أحدهما على ما يَضُرُّ بِهِ لغرض أو غيره.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ أي: تسترضعوا المراضع لأولادكم ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم﴾ إلى المراضع ﴿مَّآ ءَاتَيْتُم﴾ ما أردتم إيتاءه ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بالوجه المتعارف المستحسن شرعاً.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ مبالغة في المحافظة على ما شرع في أمر الأطفال والمراضع ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ حث وتهديد.

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

(٢٣٤) ﴿**وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا**﴾ أي: والذين يُتوفَّون منكم ويذرون أزواجاً يتربَّصن بعدهم ﴿**فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ**﴾ أي: انقضت عدتهن ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ**﴾ أيها الأئمة أو المسلمون جميعاً ﴿**فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ**﴾ من التعرض للخُطّاب وسائر ما حرم عليهن للعدة ﴿**بِٱلْمَعْرُوفِ**﴾ بالوجه الذي لا ينكره الشرع، ومفهومه أنهن لو فعلن ما ينكره فعليهم أن يكفُّوهن، فإن قصروا فعليهم الجناح ﴿**وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾**﴾ فيجازيكم عليه.

(٢٣٥) ﴿**وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ**﴾ والمراد بالنساء المعتدات للوفاة، وتعريض خطبتها أن يقول لها: إنك جميلة أو نافعة، ومن غرضي أن أتزوج، ونحو ذلك ﴿**أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ**﴾ أو أضمرتم في قلوبكم فلم تذكروه تصريحاً ولا تعريضاً ﴿**عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ**﴾ ولا تصبرون على السكوت عنهن وعن الرغبة فيهن، وفيه نوع توبيخ ﴿**وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا**﴾ أي: فاذكروهن، ولكن لا تواعدوهنَّ نكاحاً أو جماعاً ﴿**إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا**﴾ وهو أن تعرِّضوا ولا تصرِّحوا، أي: لا تواعدوهنَّ مواعدة إلا مواعدة معروفة، أو إلا مواعدة بقول معروف ﴿**وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ**﴾ أي: ولا تعزموا عقد عقدة النكاح ﴿**حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ**﴾ حتى ينتهي ما كتب من العدة.

﴿**وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ**﴾ من العزم على ما لا يجوز ﴿**فَٱحْذَرُوهُ**﴾ ولا تعزموا ﴿**وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ**﴾ لمن عزم ولم يفعل خشية من الله سبحانه وتعالى ﴿**حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾**﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة.

(٢٣٦) ﴿**لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ**﴾ لا تبعة من مهر. وقيل: من وزر، لأنه لا بدعة في الطلاق قبل المسيس ﴿**إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ**﴾ أي: تجامعوهن ﴿**أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً**﴾ والفرض تسمية المهر.

﴿**وَمَتِّعُوهُنَّ**﴾ أي: فطلقوهن ومتِّعوهن، والحكمة في إيجاب المتعة جبر إيحاش الطلاق ﴿**عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ**﴾ أي: على كلٍّ من الذي له سعة والمقتر ـ الضيق الحال ـ ما يطيقه ويليق به؛ ومفهوم الآية

يقتضي تخصيص إيجاب المتعة للمفوضة التي لم يمسها الزوج ﴿مَتَٰعًا﴾ تمتيعاً ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي يستحسنه الشرع والمروءة ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ الذين يحسنون إلى أنفسهم بالمسارعة إلى الامتثال، أو إلى المطلقات بالتمتيع.

(٢٣٧) ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي: فالواجب نصف ما فرضتم لهن ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ أي: المطلقات فلا يأخذن شيئاً ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي: الزوج المالك لعقده وحله ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وعفو الزوج عبارة عن الزيادة على الحقِّ؛ فمن طلَّق قبل المسيس استحقَّ استرداد النصف، فإذا لم يسترده فقد عفا عنه. وعن جبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه أنه تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول، فأكمل لها الصداق، وقال: أنا أحقُّ بالعفو ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: ولا تنسوا أن يتفضَّل بعضكم على بعض ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ لا يضيع تفضلكم وإحسانكم.

حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَـٰتِ مَتَـٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

(٢٣٨) ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ بالأداء لوقتها والمداومة عليها ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ وهي صلاة العصر، لقوله عليه الصلاة والسلام يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم ناراً» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]، وفضلها لكثرة اشتغال الناس في وقتها واجتماع الملائكة ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ في الصلاة ﴿قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ ذاكرين له في القيام، والقنوت الذكر فيه. وقيل: خاشعين. وقال ابن المسيّب رضي الله تعالى عنه: المراد به القنوت في الصبح.

(٢٣٩) ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ من عدو أو غيره ﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ فصلوا راجلين أو راكبين ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ وزال خوفكم ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ صلوا صلاة الأمن، أو اشكروه على الأمن ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ ذكراً مثل ما علَّمكم من الشرائع وكيفية الصلاة حالتي الخوف والأمن ﴿مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

(٢٤٠) ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ والمعنى: أنه يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل أن يحتضروا لأزواجهم بأن يمتعن بعدهم حولاً بالسكنى والنفقة، وكان ذلك في أول الإسلام ثم نسخت المدة بقوله: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾ [البقرة: ٢٣٤] ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ عن منزل الأزواج ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأئمة ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ كالتطيب وترك الإحداد ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾ مما لم ينكره الشرع، وهذا يدل على أنه لم يكن يجب عليها ملازمة مسكن الزوج والحداد عليه، وإنما كانت مخيَّرة بين الملازمة وأخذ النفقة، وبين الخروج وتركها ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ ينتقم ممن خالفه منهم ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾ يراعي مصالحهم.

(٢٤١) ﴿وَلِلْمُطَلَّقَـٰتِ مَتَـٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ أثبت المتعة للمطلقات جميعاً.

(٢٤٢) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من أحكام الطلاق والعدة ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ وعد بأنه سيبين لعباده من الدلائل والأحكام ما يحتاجون إليه معاشاً ومعاداً ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ لعلكم تفهمونها فتستعملون العقل فيها.

(٢٤٣) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب وتقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب التواريخ ﴿إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ يريد أهل داوردان، قرية قبل واسط، وقع فيها طاعون فخرجوا هاربين، فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم ليعتبروا ويتيقنوا أن لا مفرَّ من قضاء الله تعالى وقدره. أو قوماً من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد ففروا حذر الموت، فأماتهم الله تعالى ثمانية أيام ثم أحياهم ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ أي: ألوف كثيرة ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ أي: قال لهم: موتوا، فماتوا، كقوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]. والمعنى أنهم ماتوا ميتة رجل واحد من غير علة، بأمر الله تعالى ومشيئته ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ قيل: مرَّ حزقيل عليه السلام على أهل داوردان وقد عريت عظامهم وتفرقت أوصالهم، فتعجَّب من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه ناد فيهم أن قوموا بإذن الله تعالى، فنادى فقاموا يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أَنتَ. وفائدة القصة تشجيع المسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة، وحثهم على التوكل والاستسلام للقضاء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حيث أحياهم ليعتبروا ويفوزوا، وقص عليهم حالهم ليستبصروا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ أي: لا يشكرونه كما ينبغي، ويجوز أن يراد بالشكر الاعتبار والاستبصار.

(٢٤٤) ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لما بيَّن أنَّ الفرار من الموت غيرُ مخلِّص منه، وأن المقدَّر لا محالة واقعٌ، أمرهم بالقتال، إذ لو جاء أجلهم ففي سبيل الله تعالى، وإلا فالنصر والثواب ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقوله المتخلِّف والسابق ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ بما يضمرانه، وهو من وراء الجزاء.

(٢٤٥) ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ إقراض الله سبحانه وتعالى مثل لتقديم العمل الذي به يطلب ثوابه ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ إقراضاً حسناً مقروناً بالإخلاص وطيب النفس أو مقرضاً حلالاً طيباً. وقيل: القرض الحسن المجاهدةُ والإنفاق في سبيل الله تعالى ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ فيضاعف جزاءه، أخرجه على صورة المغالبة للمبالغة ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ كثرة لا يقدرها إلا الله سبحانه وتعالى. وقيل: الواحد بسبع مئة ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ يقتِّر على بعض ويوسِّع على بعض حسب ما اقتضت حكمته، فلا تبخلوا عليه بما وسَّع عليكم كيلا يبدِّل حالكم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ فيجازيكم على حسب ما قدمتم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

(٢٤٦) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الملأ: جماعة يجتمعون للتشاور ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾ أي: من بعد وفاته ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ﴾ هو يوشع، أو شمعون، أو شمويل عليهم السلام: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أقم لنا أميراً ننهض معه للقتال يدبر أمره ونصدر فيه عن رأيه ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾ والمعنى: أتوقع جبنكم عن القتال إن كتب عليكم ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ أيْ: أيُّ غرض لنا في ترك القتال وقد عرض لنا ما يوجبه ويحث عليه، من الإخراج عن الأوطان والإفراد عن الأولاد؟ وذلك أن جالوت ومن معه من العمالقة كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، فظهروا على بني إسرائيل فأخذوا ديارهم وسبوا أولادهم وأسروا من أبناء الملوك أربع مئة وأربعين ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ ثلاث مئة وثلاثة عشر بعدد أهل بدر ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ وعيد لهم على ظلمهم في ترك الجهاد.

(٢٤٧) ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ (فقال النبي لهم، وهو من نسل هارون بن عمران أخي موسى عليهم السلام): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ من أين يكون له ذلك ويستأهل ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ﴾ والحال أنَّا أحقُّ بالملك منه وراثة ومكنة، وأنه فقير لا مال له يعتضد به؟

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ لمَّا استبعدوا تملُّكه لفقره وسقوط نسبه ردَّ عليهم ذلك؛ أولاً: بأن العمدة فيه اصطفاء الله سبحانه وتعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم. وثانياً: بأن الشرط فيه وفور العلم ليتمكن به من معرفة الأمور السياسية، وجسامة البدن ليكون أعظم خطراً في القلوب وأقوى على مقاومة العدو ومكابدة

الحروب، لا ما ذكرتم، وقد زاده الله تعالى فيهما، وكان الرجل القائم يمدُّ يده فينال رأسه. وثالثاً: بأن الله تعالى مالك الملك على الإطلاق فله أن يؤتيه من يشاء. ورابعاً: أنه واسع الفضل يوسع على الفقير ويغنيه عليم بمن يليق بالملك من النسيب وغيره.

(٢٤٨) ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ لما طلبوا منه حجة على أنه سبحانه وتعالى اصطفى طالوت وملَّكه عليهم ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ الصندوق ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الضمير للإتيان، أي: في إتيانه سكون لكم وطمأنينة، أو للتابوت أي: مودع فيه ما تسكنون إليه، وهو التوراة ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ رضاض الألواح (أي: كِسَرُها)، وعصا موسى عليه السلام وثيابه، وعمامة هارون عليه السلام ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قيل: رفعه الله تعالى بعد موسى عليه السلام، فنزلت به الملائكة عليهم السلام وهم ينظرون إليه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ (إن في رجوع التابوت إليكم علامةً أن الله تعالى قد ملَّك طالوت عليكم إن كنتم مصدِّقين [النسفي]).

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

(٢٤٩) ﴿**فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ**﴾ انفصل بهم عن بلده لقتال العمالقة ﴿**قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ**﴾ معاملكم معاملة المختبر ﴿**فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي**﴾ فليس من أشياعي، أو ليس بمتَّحد معي ﴿**وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ**﴾ أي: من لم يذقه ﴿**إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ**﴾ استثناء من قوله: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ﴾ ﴿**فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ**﴾ أي: القليل الذين لم يخالفوه ﴿**قَالُواْ**﴾ أي: بعضهم لبعض: ﴿**لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ**﴾ لكثرتهم وقوتهم ﴿**قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ**﴾ أي: قال الخلَّص منهم الذين تيقَّنوا لقاء الله تعالى وتوقَّعوا ثوابه، أو علموا أنهم يستشهدون عما قريب فيلقون الله تعالى ﴿**كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ**﴾ بحكمه وتيسيره ﴿**وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾**﴾ بالنصر والإثابة.

(٢٥٠) ﴿**وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ**﴾ أي: ظهروا لهم ودنوا منهم ﴿**قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾**﴾ التجؤوا إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء، وفيه ترتيب بليغ، إذ سألوا أولاً إفراغ الصبر في قلوبهم الذي هو ملاك الأمر، ثم ثبات القدم في مداحض الحرب المسبب عنه، ثم النصر على العدو المترتب عليهما غالباً.

(٢٥١) ﴿**فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ**﴾ فكسروهم بنصره ﴿**وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ**﴾ أي ملك بني إسرائيل ولم يجتمعوا قبل داود على ملك ﴿**وَٱلۡحِكۡمَةَ**﴾ أي: النبوة ﴿**وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ**﴾ كالسرد (صناعة الدروع) وكلام الدواب والطير ﴿**وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾**﴾ ولولا أنه سبحانه وتعالى يدفع بعض الناس ببعض وينصر المسلمين على الكفار ويكف بهم فسادهم لغَلَبوا وأفسدوا في الأرض، أو لفسدت الأرض بشؤمهم.

(٢٥٢) ﴿**تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ**﴾ إشارة إلى ما قصَّ من حديث الألوف وتمليك طالوت وإتيان التابوت وانهزام الجبابرة وقتْلِ داودَ جالوت ﴿**نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ**﴾ بالوجه المطابق الذي لا يشك فيه أهل الكتاب وأرباب التواريخ ﴿**وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾**﴾ لما أخبرت بها من غير تعرف واستماع.

۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

(٢٥٣) ﴿**تِلْكَ ٱلرُّسُلُ**﴾ إشارة إلى الجماعة المذكورة قصصها في السورة ﴿**فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ بأن خصصناه بمنقبة ليست لغيره ﴿**مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ**﴾ وهو موسى عليه الصلاة والسلام ﴿**وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ**﴾ بأن فضله على غيره من وجوه متعددة، أو بمراتب متباعدة، وهو محمد ﷺ، فإنه خصَّه بالدعوة العامة والحجج المتكاثرة والمعجزات المستمرة والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهر والفضائل العلمية والعملية الفائتة للحصر. والإبهام لتفخيم شأنه كأنه العلم المتعين لهذا الوصف المستغني عن التعيين. وقيل: إبراهيم عليه السلام خصصه بالخلة التي هي أعلى المراتب. وقيل: أُوْلُو العزم مِنَ الرسل (أقول: قصصنا عليك من أنبائهم، هم رسل الله تعالى حقاً، وهم متفاوتون في الفضل والمنزلة والمراتب العلية، منهم من خصصهم الله تعالى بالتكليم من غير سفير مثل موسى عليه الصلاة والسلام، ومنهم من رفع قدره وفضله على سائر المرسلين، كخاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى أجمعهم) ﴿**وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ**﴾ خصه بالتعيين لإفراط اليهود والنصارى في تحقيره وتعظيمه ﴿**وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ**﴾ هدى الناس جميعاً ﴿**مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم**﴾ من بعد الرسل ﴿**مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ**﴾ أي: المعجزات الواضحة، لاختلافهم في الدين وتضليل بعضهم بعضاً ﴿**وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ**﴾ بتوفيقه التزام دين الأنبياء تفضلاً ﴿**وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ**﴾ لإعراضه عنه بخذلانه ﴿**وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟**﴾ كرَّره للتأكيد ﴿**وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾**﴾ فيوفق من يشاء فضلاً، ويخذل من يشاء عدلاً. والآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متفاوتة الأقدام، وأنه يجوز تفضيل بعضهم على بعض، ولكن بقاطع، لأن اعتبار الظن فيما يتعلَّق بالعمل، وأن الحوادث بيد الله سبحانه وتعالى تابعة لمشيئته خيراً كان أو شراً إيماناً أو كفراً.

(٢٥٤) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم**﴾ ما أوجبتُ عليكم إنفاقه ﴿**مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ**

﴿فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ من قبل أن يأتي يوم لا تقدرون فيه على تدارك ما فرطتم والخلاص من عذابه، إذ لا بيع فيه فتحصلون ما تنفقونه أو تفتدون به من العذاب، ولا خلة حتى يعينكم عليه أخلاؤكم أو يسامحوكم به، ولا شفاعة ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩] حتى تتكلوا على شفعاء تشفع لكم في حط ما في ذممكم ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ يريد: والتاركون للزكاة هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم، أو وضعوا المال في غير موضعه، وصرفوه على غير وجهه.

(٢٥٥) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ المعنى: أنه المستحقُّ للعبادة لا غيره ﴿ٱلْحَىُّ﴾ الذي يصح أن يعلم ويقدر، وكلُّ ما يصح له فهو واجب لا يزول لامتناعه عن القوة والإمكان ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ السِّنَة: فتور يتقدَّم النومَ، والجملة نفي للتشبيه وتأكيد لكونه حياً قيوماً، فإن من أخذه نعاس أو نوم كان مؤوف الحياة (أي: مصاباً بآفة) قاصراً في الحفظ والتدبير ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تقريرٌ لقيوميَّته واحتجاج به على تفرُّده في الألوهية ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ بيان لكبرياء شأنه سبحانه وتعالى، وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه ليستقل بأن يدفع ما يريده شفاعة واستكانة، فضلاً عن أن يعاوقه عناداً أو مناصبة، أي: مخاصمة ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما قبلهم وما بعدهم، أو أمور الدنيا وأمور الآخرة، أو ما يحسونه وما يعقلونه، أو ما يدركونه وما لا يدركونه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ من معلوماته ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ أن يعلموه، و هذا يدل على تفرده بالعلم الذاتي التام الدال على وحدانيته سبحانه وتعالى ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ تصوير لعظمته وتمثيل مجرد، كقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] ولا كرسي في الحقيقة ولا قاعد. وقيل: كرسيه مجاز عن علمه أو ملكه، مأخوذ من كرسي العالِم والملِك (كما قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم: استوى على عروش ذرائر المخلوقات). وقيل: جسم بين يدي العرش، ولذلك سمي كرسياً، محيط بالسموات السبع ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ أي: ولا يثقله ﴿حِفْظُهُمَا﴾ أي: حفظ السموات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ المتعالي عن الأنداد والأشباه ﴿ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ المستحقَر بالإضافة إليه كلُّ ما سواه. وهذه الآية مشتملة على أمهات المسائل الإلهية، فإنها دالة على أنه تعالى موجود واحد في الألوهية، متصف بالحياة، واجب الوجود لذاته موجد لغيره، إذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره، منزه عن التحيز والحلول، مبرأ عن التغير والفتور، لا يناسب الأشباح ولا يعتريه ما يعتري الأرواح، مالك الملك والملكوت، ومبدع الأصول والفروع، ذو البطش الشديد، الذي لا يشفع عنده إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ، العالِم وحده بالأشياء كلها، جليها وخفيها، كليها وجزئيها، واسع الملك والقدرة كلَّ ما يصح أن يُملك ويُقدر عليه، لا يؤوده شاق، ولا يشغله شأن، متعال عما يدركه، وهو عظيم لا يحيط به فهم، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «إن أعظم آية في القرآن آية الكرسي، من قرأها بعث الله تعالى ملكاً يكتب من حسناته ويمحو من سيئاته إلى الغد من تلك الساعة» [أخرجه الإمام مسلم

رحمه الله تعالى]، وقال: «من قرأ آية الكرسي في دبر كلِّ صلاة مكتوبة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت» [أخرجه النسائي رحمه الله تعالى في السنن الكبرى].

(٢٥٦) ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ إذ الإكراه في الحقيقة إلزام الغير فعلاً لا يَرى فيه خيراً يحمله عليه، ولكن ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾ تميَّز الإيمان من الكفر بالآيات الواضحة، ودلت الدلائل على أن الإيمان رشدٌ يوصل إلى السعادة الأبدية، والكفر غَيٌّ يؤدي إلى الشقاوة السرمدية، والعاقل متى تبين له ذلك بادرت نفسه إلى الإيمان طلباً للفوز بالسعادة والنجاة، ولم يحتج إلى الإكراه والإلجاء ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ بالشيطان، أو الأصنام، أو كل ما عبد من دون الله تعالى، أو صد عن عبادة الله تعالى ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ بالتوحيد وتصديق الرسل ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ طلب الإمساك من نفسه بالعروة الوثقى من الحبل الوثيق ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ لا انقطاع لها ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ بالأقوال ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ بالنيات، ولعله تهديد على النفاق.

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ
ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ
أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ
وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي
بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي
كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ
عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ
بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ
قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ
فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ
حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى
ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٥٩﴾

(٢٥٧) ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ محبُّهم ومتولي أمورهم، والمراد بهم من أراد إيمانه وثبت في علمه أنه يؤمن ﴿يُخۡرِجُهُم﴾ بهدايته وتوفيقه ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمات الجهل واتباع الهوى وقبول الوساوس والشبه المؤدية إلى الكفر ﴿إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ إلى الهدى الموصل إلى الإيمان ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ أي الشياطين، أو المضلات من الهوى والشيطان وغيرهما ﴿يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ من النور الذي منحوه بالفطرة إلى الكفر وفساد الاستعداد والانهماك في الشهوات، أو من نور البينات إلى ظلمات الشكوك والشبهات ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ وعيد وتحذير.

(٢٥٨) ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ تعجيب من محاجة نمروذ وحماقته ﴿أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ لأن آتاه، أي: أبطره إيتاء الملك وحمله على المحاجَّة ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ بخلق الحياة والموت في الأجساد ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ بالعفو عن القتل وبالقتل ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ أعرض إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن الاعتراض على معارضته الفاسدة إلى الاحتجاج بما لا يقدر فيه على نحو هذا التمويه دفعاً للمشاغبة، وهو في الحقيقة عدول عن مثال خفي إلى مثال جلي من مقدوراته التي يعجز عن الإتيان بها غيره، لا عن حجة إلى أخرى. ولعل نمروذ زعم أنه يقدر أن يفعل كل جنس يفعله الله تعالى، فنقضه إبراهيم بذلك. وإنما حمله عليه بطر الملك وحماقته، أو اعتقاد الحلول (أقول: والحلول والتناسخ محال) ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ فصار مبهوتاً ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالامتناع عن قبول الهداية. وقيل: لا يهديهم محجة الاحتجاج، أو سبيل النجاة، أو طريق الجنة يوم القيامة.

(٢٥٩) ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ﴾ وهو عزير بن شرحيا ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ خالية ساقطة حيطانها على سقوفها ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ﴾ اعترافاً بالقصور عن معرفة طريق الإحياء،

واستعظاماً لقدرة المحيي ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ فألبثه ميتاً مئة عام ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ بالإحياء ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ القائل هو الله تعالى. وقيل: ملَكٌ أو نبيٌّ ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ كقول الظانِّ ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير بمرور الزمان ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ كيف تفرقت عظامه ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: وفعلنا ذلك لنجعلك آية. روي أنه أتى قومه على حماره وقال: أنا عزير، فكذبوه، فقرأ التوراة من الحفظ ـ ولم يحفظها أحد قبله ـ فعرفوه بذلك، وقالوا: هو ابن الله. وقيل: لما رجع إلى منزله كان شابّاً وأولاده شيوخاً، فإذا حدَّثهم بحديث قالوا: حديث مئة سنة ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾ يعني عظام الحمار أو الأموات الذين تعجَّب من إحيائهم ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ كيف نحييها، أو نرفع بعضها على بعض ونركبه عليه ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ أنَّ الله تعالى على كلِّ شيء قدير ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

(٢٦٠) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ إنما سأل ذلك ليصير علمه عياناً (أي: سألتك المعاينة لأخرج من العلم إلى العين) ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ بأني قادر على الإحياء بإعادة التركيب والحياة؟ قال له ذلك ـ وقد علم أنه أغرقُ الناس في الإيمان ـ ليجيب بما أجاب به، فيعلم السامعون غرضه ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي: بلى آمنت، ولكن سألت ذلك لأزيد بصيرة وسكون قلب بمضامة العيان إلى الوحي والاستدلال (أقول: هذا ليس شكاً من سيدنا إبراهيم عليه السلام، ولكن ليخرج من العلم إلى العيان).

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ قيل: طاوساً وديكاً وغراباً وحمامة، ومنهم من ذكر النسر بدل الحمامة، وفيه إيماء إلى أن إحياء النفس بالحياة الأبدية إنما يتأتى بإماتة حب الشهوات والزخارف الذي هو صفة الطاووس، والصولة المشهور بها الديك وخسة النفس وبعد الأمل المتصف بهما الغراب، والترفع والمسارعة إلى الهوى الموسوم بهما الحمام. وإنما خص الطير لأنه أقرب إلى الإنسان وأجمع لخواص الحيوان ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ فأملهنَّ واضممهنَّ إليك لتتأملها وتعرف شياتها (أي: علاماتها وألوانها) لئلا تلتبس عليك بعد الإحياء ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي: ثم جزئهن وفرق أجزاءهن على الجبال التي بحضرتك ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ قل لهن: تعالين بإذن الله تعالى ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ ساعيات مسرعات طيراناً أو مشياً. روي أنه أُمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها فيمسك رؤوسها ويخلط سائر أجزائها ويوزعها على الجبال ثم يناديهن، ففعل ذلك، فجعل كلُّ جزء يطير إلى الآخر، حتى صارت جثثاً، ثم أقبلن فانضممن إلى رؤوسهنَّ. وفيه إشارة إلى أن من أراد إحياء نفسه بالحياة الأبدية فعليه أن يقبل على القوى البدنية فيقتلها ويمزج بعضها ببعض حتى تنكسر سَوْرتها (أي: سطوتها)، فيطاوعنه مسرعات متى دعاهنَّ بدعاية العقل أو الشرع. وكفى لك شاهداً على فضل إبراهيم عليه الصلاة والسلام وَيُمْنِ الضراعة في الدعاء وحسن الأدب في السؤال أنه تعالى أراه ما أراد أن يريه في الحال على أيسر الوجوه، وأراه عُزيراً بعد أن أماته مئة عام.

﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجز عما يريده ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ ذو حكمة بالغة في كل ما يفعله ويذره.

(٢٦١) ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أي مثل نفقتهم كمثل حبة أو مثلهم كمثل باذر حبة ﴿أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ أسند الإنبات إلى الحبة لما كانت من الأسباب كما يسند إلى الأرض والماء، والمنبِت على الحقيقة هو الله تعالى؛ والمعنى: أنه يخرج منها ساق يتشعَّب لكل منه سبع شعب، لكلٍّ منها سنبلة فيها مئة حبة ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾ تلك المضاعفة ﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾ بفضله ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ لا يضيق عليه ما يتفضل به من الزيادة ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ بنيَّة المنفق وقدر إنفاقه.

(٢٦٢) ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى﴾ والمنُّ: أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه. والأذى أن يتطاول عليه بسبب ما أنعم عليه، و«ثم» للتفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (أي: ثواب إنفاقهم) ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ (من بخس الأجر) ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ (من فوته؛ أو: لا خوف من العذاب، ولا حزن بفوت الثواب [النسفي]).

(٢٦٣) ﴿قَوْلٞ مَّعْرُوفٞ﴾ ردٌّ جميل ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ وتجاوز عن السائل إلحاحَه، أو نيل المغفرة من الله تعالى بالرد الجميل، أو عفو من السائل بأن يعذره ويغتفر رده ﴿خَيْرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتْبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن إنفاقٍ بمنٍّ وإيذاء ﴿حَلِيمٞ ﴿٢٦٣﴾﴾ عن معاجلة من يمن ويؤذي بالعقوبة.

(٢٦٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ لا تحبطوا أجرها بكل واحد منهما ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ﴾ كإبطال المنافق الذي يرائي بإنفاقه ولا يريد به رضا الله تعالى ولا ثواب الآخرة ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ أي فمثل المرائي في إنفاقه ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ كمثل حجر أملس ﴿عَلَيْهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ﴾ مطر عظيم القطر ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدٗاۖ﴾ أملس نقياً من التراب ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ لا ينتفعون بما فعلوا رياء ولا يجدون له ثواباً ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ إلى الخير والرشاد. وفيه تعريض بأن الرئاء والمن والأذى على الإنفاق من صفات الكفار، ولا بدَّ للمؤمن أن يتجنب عنها.

(أقول: لا بدَّ أن تقطع أصول عرق الرياء بالكلية، وأصوله ثلاثة أمور:

أولاً: حبُّ الدنيا والتعلق بشهواتها الظاهرة والباطنة.

ثانياً: اللذَّة العاجلة وترجيحها على الآخرة.

ثالثاً: الالتفات إلى الخلق في مدحهم أو ذمهم.

فرضاً لو سجدت الكائنات لمخلوق، ومدحوه، فلا بدَّ للساجد والمسجود له من الموت، والرجوع إلى الله عز وجل، فلا بدَّ أن نتَّعظ بموعظة الله عز وجل ونتفكَّر).

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

(٢٦٥) ﴿**وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ وتثبيتاً لبعض أنفسهم على الإيمان، فإن المال شقيق الروح، فمن بذل ماله لوجه الله تعالى ثبَّت بعض نفسه، ومن بذل ماله وروحه ثبَّتها كلها. وفيه تنبيه على أن حكمة الإنفاق للمنفق تزكية النفس عن البخل وحب المال ﴿**كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ**﴾ أي: ومثل نفقة هؤلاء في الزكاة كمثل بستان بموضع مرتفع، فإن شجره يكون أحسن منظراً وأزكى ثمراً ﴿**أَصَابَهَا وَابِلٌ**﴾ مطر عظيم القطر ﴿**فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا**﴾ ثمرتها ﴿**ضِعْفَيْنِ**﴾ مثلي ما كانت تثمر بسبب الوابل ﴿**فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ**﴾ أي: فالذي يصيبها طلٌّ، أو فطل يكفيها لكرم منبتها وبرودة هوائها لارتفاع مكانها. والطَّلُّ: هو المطر الصغير القطر، والمعنى: أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله تعالى لا تضيع بحال، وإن كانت تتفاوت باعتبار ما ينضمُّ إليها من أحواله ﴿**وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾**﴾ تحذير عن الرياء وترغيب في الإخلاص.

(٢٦٦) ﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ**﴾ أي: كبر السن، فإن الفاقة والعالة في الشيخوخة أصعب ﴿**وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ**﴾ صغار لا قدرة لهم على الكسب ﴿**فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ**﴾ والمعنى: تمثيل حال من يفعل الأفعال الحسنة ويضم إليها ما يحبطها كرياء وإيذاء في الحسرة والأسف إذا كان يوم القيامة واشتدت حاجته إليها وجدها محبطة بحال من هذا شأنه؛ وأشبههم به من جال بسرِّه في عالم الملكوت، وترقى بفكره إلى جناب الجبروت، ثم نكص على عقبيه إلى عالم الزور، والتفت إلى ما سوى الحقِّ، وجعل سعيه هباء منثوراً ﴿**كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾**﴾ أي: تتفكَّرون فيها فتعتبرون بها.

(أقول: هذه الآية تحذرنا من الرياء، كما قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم).

(٢٦٧) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ**﴾ من حلاله، أو جياده ﴿**وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ**﴾ أي: ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمرات والمعادن ﴿**وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ**

﴿تُنفِقُونَ﴾ أي: ولا تقصدوا الرديء من المال، أو مما أخرجنا لكم ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ أي: وحالكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم لرداءته ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ﴾ إلا أن تتسامحوا فيه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا يتصدَّقون بحشف التمر (أي: أردئه) وشِراره (الشِّرار: جمع شَرّ) فنُهوا عنه (أقول: لا بدَّ للإنسان أن يطهِّر حاله تجاه خالقه من المادة والخيانة والرذالة) ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن إنفاقكم، وإنما يأمركم به لانتفاعكم ﴿حَمِيدٌ ٢٦٧﴾ بقبوله وإثابته.

(٢٦٨) ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ في الإنفاق ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ويغريكم على البخل، والعرب تسمي البخيل فاحشاً. وقيل: المعاصي ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ أي: يعدكم في الإِنفاق مغفرة لذنوبكم ﴿وَفَضْلًاۗ﴾ خلفاً أفضل مما أنفقتم في الدنيا، أو في الآخرة ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي: واسع الفضل لمن أنفق ﴿عَلِيمٌ ٢٦٨﴾ بإنفاقه.

(أقول: لا أحد أصدق من الله تعالى وهو القائل جل شأنه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، أخبرك ربك تبارك وتعالى أن الشيطان لك عدو، وأمرك أن تعاديه، ومعاداتُه في مخالفته وعدم الإصغاء لوسوسته، قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، فكن على حذر منه، فإذا هجم عليك فاستعذ بالله تعالى، فإنه تعالى يراك ويراه، وكن مخلصاً لله عز وجل عسى أن يصطفيك ويجعلك من المخلصين، فإن أصبحت منهم كنت عند الله تعالى عبداً محبوباً، وهو القائل تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]، فلا يغوينَّك الشيطان، كما قال تعالى حاكياً عن إبليس: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩ـ٤٠] فلا سبيل عليهم).

(٢٦٩) ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ﴾ تحقيق العلم وإتقان العمل (أقول: الحكمة هي علم القرآن والسنة) ﴿مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ٢٦٩﴾ ذوو العقول الخالصة عن شوائب الوهم والركون إلى متابعة الهوى.

وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٧١﴾ ۞لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

(٢٧٠) ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ قليلة أو كثيرة، سراً أو علانية، في حقٍّ أو باطل ﴿أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ﴾ بشرط أو بغير شرط، في طاعة أو معصية ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ﴾ فيجازيكم عليه ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ينفقون في المعاصي وينذرون فيها (أي: ينذرون في المعاصي)، أو يمنعون الصدقات ولا يوفون بالنذر ﴿مِنۡ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ من ينصرهم من الله تعالى ويمنعهم من عقابه.

(٢٧١) ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ﴾ فنعمّ شيئاً إبداؤها ﴿وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ﴾ أي: تعطوها مع الإخفاء ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ فالإخفاء خير لكم، وهذا في التطوع ولمن لم يُعرف بالمال فإن إبداء الفرض لغيره أفضل لنفي التهمة عنه ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٧١﴾﴾ ترغيب في الإسرار.

(٢٧٢) ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾ لا يجب عليك أن تجعل الناس مهديين، وإنما عليك الإرشاد والحثُّ على المحاسن، والنهي عن القبائح كالمنِّ والأذى وإنفاق الخبيث ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ صريح بأن الهداية من الله تعالى وبمشيئته، وأنها تخص بقوم دون قوم ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ من نفقة معروفة ﴿فَلِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم، فلا تمنُّوا عليه ولا تنفقوا الخبيث ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ﴾ وكأنه قال: وما تنفقون من خير فلأنفسكم غير منفقين إلا لابتغاء وجه الله تعالى وطلب ثوابه ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ ثوابه أضعافاً مضاعفة، أو ما يُخلَف للمنفق استجابة لقوله عليه الصلاة والسلام: «اللهم اجعل لمنفق خلفاً، ولممسك تلفاً» [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى]. روي: أن ناساً من المسلمين كانت لهم أصهار ورضاع في اليهود، وكانوا ينفقون عليهم، فكرهوا لما أسلموا أن ينفعوهم، فنزلت. وهذا في غير الواجب أما الواجب فلا يجوز صرفه إلى الكفار ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ أي: لا تنقصون ثواب نفقاتكم.

(٢٧٣) ﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾ أي: اجعلوا ما تنفقونه للفقراء ﴿ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أحصرهم

الجهاد ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لاشتغالهم به ﴿ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ذهاباً فيها للكسب. وقيل: هم أهل الصُّفَّة، كانوا نحواً من أربع مئة من فقراء المهاجرين يسكنون صُفَّةَ المسجد، يستغرقون أوقاتهم بالتعلم والعبادة، وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ﴾ بحالهم ﴿أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ من أجل تعفُّفهم عن السؤال ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ من الضعف ورثاثة الحال، والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ إلحاحاً، وهو أن يلازم المسؤول حتى يعطيه، والمعنى أنهم لا يسألون، وإن سألوا عن ضرورة لم يلحوا.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ ترغيب في الإنفاق وخصوصاً على هؤلاء.

(٢٧٤) ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: يعمُّون الأوقات والأحوال بالخير. نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، تصدَّق بأربعين ألف دينار، عشرة بالليل وعشرة بالنهار، وعشرة بالسرِّ، وعشرة بالعلانية. وقيل: في أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه، لم يملك إلا أربعة دراهم، فتصدَّق بدرهم ليلاً ودرهم نهاراً ودرهم سراً ودرهم علانية ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

(٢٧٥) ﴿**ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ**﴾ أي: الآخذون له، وإنما ذكر الأكل لأنه أعظم منافع المال، ولأن الربا شائع في المطعومات وهو زيادة في الأجل، بأن يباع مطعوم بمطعوم أو نقد بنقد إلى أجل، أو في العوض بأن يباع أحدهما بأكثر منه من جنسه ﴿**لَا يَقُومُونَ**﴾ إذا بعثوا من قبورهم ﴿**إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ**﴾ إلا قياماً كقيام المصروع ﴿**مِنَ ٱلۡمَسِّۚ**﴾ أي: الجنون ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ**﴾ أي: ذلك العقاب بسبب أنهم نَظَموا الربا والبيع في سلك واحد لإفضائهما إلى الربح، فاستحلوه استحلاله ﴿**وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ**﴾ إنكار لتسويتهم، وإبطال للقياس لمعارضته النص ﴿**فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ**﴾ فمن بلغه وعظ من الله تعالى وزجر كالنهي عن الربا ﴿**فَٱنتَهَىٰ**﴾ فاتعظ وتبع النهي ﴿**فَلَهُۥ مَا سَلَفَ**﴾ تقدم أخذه قبل التحريم ولا يسترد منه ﴿**وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ**﴾ يجازيه على انتهائه إن كان عن قبول الموعظة وصدق النية ﴿**وَمَنۡ عَادَ**﴾ إلى تحليل الربا ﴿**فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾**﴾ لأنهم كفروا به.

(٢٧٦) ﴿**يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ**﴾ يُذهب بركته، ويُهلك المال الذي يدخل فيه ﴿**وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ**﴾ يضاعف ثوابها ويبارك فيما أخرجت منه. وعنه عليه الصلاة والسلام: «ما نقصت زكاة من مال قط» [صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ﴿**وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ**﴾ لا يرتضي، أو لا يحب محبته للتوابين ﴿**كُلَّ كَفَّارٍ**﴾ مصر على تحليل المحرمات ﴿**أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾**﴾ منهمك في ارتكابه.

(٢٧٧) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ بالله تعالى ورسوله ﷺ وبما جاءهم منه ﴿**وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ**﴾ عطفهما على ما يعمُّهما لإنافتهما (أي: لارتفاعهما) على سائر الأعمال الصالحة ﴿**لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ**﴾ من آتٍ ﴿**وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾**﴾ على فائت.

(٢٧٨) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ**﴾ واتركوا بقايا ما شرطتم على الناس من الربا ﴿**إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾**﴾ بقلوبكم فإن دليله امتثال ما أمرتم به.

(٢٧٩) ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: فاعلموا بها، مِنْ أذن بالشيء إذا علم به ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ من الارتياب (أي: فعل الربا) واعتقاد حلِّه ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ بأخذ الزيادة ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ بالمطل والنقصان.

(أقول: استشعرْ هول الموقف بين يدي الله عز وجل يوم القيامة، عندما تكون على جسر جهنم، فتنظر أيمن منك فلا ترى إلا ما قدمت، وتنظر أشأم منك فلا ترى إلا ما قدمت، وتنظر تلقاء وجهك فلا ترى إلا النار، وأنت بين يدي الملك القهار الذي يعلم السر وأخفى، فماذا تقول لربك عز وجل يوم القيامة؟ إن سألك: عبدي كيف اجترأت على أكل مال الحرام من ربا وغيره؟ لتستح من الله عز وجل، فدائرة الحلال تكفيك أيها المؤمن، ولا تنس أنه ما أعطاك إلا لحكمة، وما منعك إلا لحكمة، فمقياس الكرامة ليس المال، بل مقياسها التقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ومن التقوى ترك الربا، وترك أخذ أموال الناس بالباطل وبسيف الحياء. نسأل الله تعالى أن يرزقنا القناعة، وأن يخرجنا من الدنيا على السلامة من وبالها، إنه على كل شيء قدير).

(٢٨٠) ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ أي: وإن كان الغريم ذا عسرة ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ فعليكم نظرة، وهي الإنظار ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ يسار ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ﴾ بالإبراء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أكثر ثواباً من الإنظار، أو خير مما تأخذون لمضاعفة ثوابه ودوامه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ ما فيه من الذكر الجميل والأجر الجزيل.

(٢٨١) ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة، أو يوم الموت، فتأهبوا لمصيركم إليه ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ جزاء ما عملت من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ بنقص ثواب وتضعيف عقاب.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾

(٢٨٢) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ أي: إذا داين بعضكم بعضاً ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ معلوم بالأيام والأشهر ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ لأنه أوثق وأدفع للنزاع، والجمهور على أنه استحباب ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ من يكتب بالسوية لا يزيد ولا ينقص، وهو في الحقيقة أمر للمتداينين باختيار كاتب فقيه دين حتى يجيء مكتوبه موثوقاً به معدلاً بالشرع.

﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ﴾ ولا يمتنع أحد من الكتّاب ﴿أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ مثل ما علمه الله تعالى من كتبة الوثائق، أو لا يأب أحد أن ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله تعالى بتعليمها، كقوله: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾ تلك الكتابة المعلمة. أَمر بها بعد النهي عن الإِباء عنها تأكيداً ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ وليكن المملي مَن عليه الحق، لأنه المقر المشهود عليه ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ أي: المملي أو الكاتب ﴿وَلَا يَبۡخَسۡ﴾ ولا ينقص ﴿مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ أي: من الحق، أو مما أملي عليه ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا﴾ ناقص العقل مبذراً ﴿أَوۡ ضَعِيفًا﴾ صبياً أو شيخاً مختلاً ﴿أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ أو غير مستطيع للإِملال بنفسه لخرس أو جهل باللغة ﴿فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ أي: الذي يلي أمره.

﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ﴾ واطلبوا أن يشهد على الدين شاهدان ﴿مِن رِّجَالِكُمۡۖ﴾ من رجال المسلمين ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ﴾ فإن لم يكن الشاهدان رجلين ﴿فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ﴾ فليستشهد رجل وامرأتان ﴿مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ لعلمكم بعدالتهم ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾ علة اعتبار العدد أي: لأجل أن إحداهما إن ضلت الشهادة بأن نسيتها ذَكَّرتها الأخرى ﴿وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ﴾ لأداء الشهادة.

﴿وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ﴾ ولا تملُّوا من كثرة مدايناتكم أن تكتبوا الدين أو الحق أو الكتاب ﴿صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا﴾ صغيراً كان الحق أو كبيراً ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ﴾ إلى وقت حلوله الذي أقر به المديون ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إشارة إلى أن تكتبوه ﴿أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أكثر قسطاً ﴿وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ وأثبت لها وأعون على إقامتها ﴿وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾

وأقرب في أن لا تشكوا في جنس الدين وقدره وأجله والشهود ونحو ذلك ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ﴾ استثناء من الأمر بالكتابة، والتجارة الحاضرة تعمُّ المبايعة بدَين أو عين، وإدارتها بينهم تعاطيهم إياها يداً بيد، أي: إلا أن تتبايعوا يداً بيد فلا بأس أن لا تكتبوا، لبعده عن التنازع والنسيان.

﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ﴾ هذا التبايع، أو مطلقاً لأنه أحوط. والأوامر التي في هذه الآية للاستحباب عند أكثر الأئمة ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ﴾ وهو نهيهما عن ترك الإِجابة والتحريف والتغيير في الكتبة والشهادة ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ الضرار أو ما نهيتم عنه ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْۗ﴾ خروج عن الطاعة لاحق بكم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ في مخالفة أمره ونهيه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ أحكامه المتضمنة لمصالحكم ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٨٢﴾ كرر لفظة «الله» في الجمل الثلاث لاستقلالها، فإن الأولى حثٌّ على التقوى، والثانية وعد بإنعامه، والثالثة تعظيمٌ لشأنه جلَّ وعلا .

(أقول: كن حريصاً على مطعمك ومشربك وملبسك أن يكون حلالاً، فمن أكل الحلال تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾، وهذا هو العلم اللدني الذي لا يمنحه الله تعالى إلا لمن ارتقى سلم التقوى، فشمر عن ساعد الجد؛ وتابع النبيَّ ﷺ في أقوالك وأفعالك وأحوالك كلها، تسعد في الدارين بإذن الله تعالى. وكن حافظاً ألا تَخدع ولا تُخدع، وإذا تخدع الآخرين ينتقل إليك مال الغير مع وزره، وإذا تُخدع يبقى الهمُّ معك، تقول: هذا خدعني! يمكن أن تُحِلَّ هذا، ولكن ليس قطعياً أن الآخر يُحِلُّك، فيبقى الوبال عليك إلى يوم القيامة، يقتضي منك ما أكلت من ماله، نسأل الله العظيم أن يحفظنا من ذلك، آمين).

۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

(٢٨٣) ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي: مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ فالذي يستوثق به رهان، أو فليؤخذ رهان ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: بعض الدائنين بعض المديونين، واستغنى بأمانته عن الارتهان ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ أي: دَينه؛ سماه أمانة لائتمانه عليه بترك الارتهان به ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ في الخيانة وإنكار الحق.

﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ أيها الشهود، أو المديونون؛ والشهادة شهادتهم على أنفسهم ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ أي: يأثم قلبه ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ تهديد.

(٢٨٤) ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يعني: ما فيها من السوء والعزم عليه، لترتب المغفرة والعذاب عليه ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ مغفرته ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبه ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ فيقدر على الإحياء والمحاسبة.

(٢٨٥) ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ شهادة وتنصيص من الله تعالى على صحة إيمانه والاعتداد به، وأنه جازم في أمره غير شاك فيه ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ أي: يقولون: لا نفرق ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا﴾ أجبنا ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمرك ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ نطلب غفرانك ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ المرجع بعد الموت، وهو إقرار منهم بالبعث.

(٢٨٦) ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما تسعه قدرتها فضلاً ورحمةً، أو ما دون مدى طاقتها بحيث يتسع فيه طوقها ويتيسر عليها، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من خير ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ من شر لا ينتفع بطاعتها ولا يتضرر بمعاصيها غيرها.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي: لا تؤاخذنا بما أدى بنا إلى نسيان أو خطأ من تفريط وقلة مبالاة، أو بأنفسهما، إذ لا تمتنع المؤاخذة بهما عقلاً، فإن الذنوب كالسموم، فكما أن تناولها يؤدي إلى الهلاك وإن

كان خطأ، فتعاطي الذنوب لا يبعد أن يفضي إلى العقاب وإن لم يكن عزيمة، لكنَّه تعالى وعد التجاوز عنه رحمةً وفضلاً (بعد التوبة)، فيجوز أن يدعو الإنسان به استدامة واعتداداً بالنعمة فيه.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ عبئاً ثقيلاً يأصر صاحبه، أي: يحبسه في مكانه، يريد به التكاليف الشاقة ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ والمراد به ما كُلِّف به بنو إسرائيل؛ من قتل الأنفس، وقطع موضع النجاسة، وخمسين صلاة في اليوم والليلة، وصرف ربع المال للزكاة. أو ما أصابهم من الشدائد والمحن.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ من البلاء والعقوبة، أو من التكاليف التي لا تفي بها الطاقة البشرية ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ وامح ذنوبنا ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ واستر عيوبنا ولا تفضحنا بالمؤاخذة ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ وتعطف بنا وتفضل علينا ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ سيدنا ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ فإن من حق المولى أن ينصر مواليه على الأعداء، أو المراد به عامة الكفرة.

وعنه عليه الصلاة والسلام: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» [رواه ابن ماجه رحمه الله تعالى].

تمَّ بحمد الله تعالى وتوفيقه استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة البقرة فله جلَّ وعلا الفضل والمنة والثناء الحسن الجميل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٣) سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ (٢٠٠)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ
بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن
قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ
عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ
شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ
فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ
ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ
وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ
مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ
وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ
إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ
لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ
ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة آل عمران

مدنيَّة وآياتها مئتان

(١ـ٢) ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ (أقول: الحيُّ: حياته جل وعلا ذاتية لا روحية، وحياة الآخرين روحيَّة عارضيَّة، وهي بحياته سبحانه وتعالى) (والقيُّوم هو القائم بالقسط، والقائم على كلِّ نفس بما كسبت [النسفي]).

(٣) ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ القرآن نجوماً ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ بالعدل، أو بالصدق في أخباره، أو بالحجج المحقِّقة أنه من عند الله تعالى ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ من الكتب ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾﴾ جملة على موسى وعيسى عليهما السلام.

(٤) ﴿مِن قَبۡلُ﴾ من قبل تنزيل القرآن ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ المراد به قومهما ﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾ أي: الكتب الفارقة بين الحق والباطل، أو القرآن، وكرَّر ذكره بما هو نعت له مدحاً وتعظيماً وإظهاراً لفضله، من حيث إنه يشاركهما في كونه وحياً منزلاً ويتميز بأنه معجز يفرق بين المحق والمبطل (أقول: عَطفَ الخاص على العام بعد ذكر الكتب السماوية الثلاثة)، أو المقصود بالفرقان: المعجزات.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ من كتبه المنزلة وغيرها ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾ بسبب كفرهم ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٞ﴾ غالب لا يُمنع من التعذيب ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ لا يقدر على مثله منتقم.

(٥) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾ أيُّ شيء كائن في العالم، كلياً كان أو جزئياً، إيماناً أو كفراً. فعبَّر عنه بالسماء والأرض إذ الحسُّ لا يتجاوزهما. وقوله تعالى:

(٦) ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ ـ أي: من الصور المختلفة ـ كالدليل على القيوميَّة، والاستدلال على أنه عالم بإتقان فعله في خلق الجنين وتصويره ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يعلم غيرُه جملةَ ما يعلمُه، ولا يقدر على مثل ما يفعله ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ إشارة إلى كمال قدرته وتناهي حكمته.

(٧) ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ أُحكمت عبارتها بأن حُفظت من الإجمال

والاحتمالات ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أصله، يُرَدُّ إليها غيرها ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ محتمِلات، لا يتضح مقصودها لإجمالٍ أو مخالفةِ ظاهرٍ إلا بالفحص والنظر، ليظهر فيها فضل العلماء، ويزداد حرصهم على أن يجتهدوا في تدبرها وتحصيل العلوم المتوقف عليها استنباط المراد بها، فينالوا بها وبإتعاب القرائح (أي: العقول) في استخراج معانيها والتوفيق بينها وبين المحكمات معالي الدرجات. وأما قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١]. فمعناه أنها حفظت من فساد المعنى وركاكة اللفظ، وقوله: ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾ [الزمر: ٢٣] فمعناه أنه يشبه بعضه بعضاً في صحة المعنى وجزالة اللفظ.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ عدول عن الحقِّ، كالمبتدعة ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ فيتعلقون بظاهره أو بتأويلٍ باطل ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ طلبَ أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ وطلبَ أن يؤولوه على ما يشتهونه (أقول: نعوذ بالله من هذه الأفكار الفاسدة).

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ الذي يجب أن يُحمل عليه ﴿إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ أي: الذين ثبتوا وتمكنوا فيه (أي: في العلم). ومن وقف على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فسَّر المتشابه بما استأثر اللهُ بعلمه سبحانه وتعالى.

﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ استئناف موضِّح لحال الراسخين ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ أي: كلٌّ من المتشابه والمحكم من عنده سبحانه ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ مدحٌ للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر (وصدق الإيمان)، وإشارةٌ إلى ما استعدوا به للاهتداء إلى تأويله، وهو تجرد العقل عن غواشي الحسِّ (أقول: العقل المنور بالوحي الإلهي خالٍ عن غواشي الحسِّ، والذي يخرج عن الاستقامة لا يخرج إلا بهذا الحسِّ، وإلا فإن إيمانه لا يَقبل هذا).

(٨) ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ من مقال الراسخين. والمعنى: لا تزغ قلوبنا عن نهج الحق إلى اتباع المتشابه بتأويلٍ لا ترتضيه سبحانك. قال عليه الصلاة والسلام: «قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه على الحق وإن شاء أزاغه عنه» [رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] (أقول: قلب الإنسان تحت سيطرة خالقه جلَّ وعلا، فإذا أراد أن يثبته ينظر إلى حقيقته من أيِّ جنس هو من معادن البشر، فيثبت قلبه عليه، ومع هذا فإن الله تعالى قادر على أن يفسخ عزائم الإنسان ويحوِّلها إلى غير الاستقامة) ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ إلى الحق والإيمان بالقسمين من المحكم والمتشابه ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ تُزلفنا إليك ونفوز بها عندك، أو توفيقاً للثبات على الحق، أو مغفرة للذنوب ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ لكل سؤل. وفيه دليل على أن الهدى والضلال من الله تعالى، وأنه جلَّ وعلا متفضِّل بما ينعم على عباده، لا يجب عليه شيء.

(٩) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ لحساب يوم، أو لجزائه ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ في وقوع اليوم وما فيه من الحشر والجزاء. نَبهوا به على أن معظم غرضهم من الطلبتين ما يتعلَّق بالآخرة فإنها المقصد والمآل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ فإن الإلهية تنافيه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم
مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ
فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ
وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ
وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدۡ كَانَ
لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ
يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي
ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ
وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ
وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلۡ
أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ
وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿١٥﴾

(١٠) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ**﴾ أي: من رحمته، أو طاعته، أو من عذابه ﴿**وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾**﴾ حطَبها.

(١١) ﴿**كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ**﴾ أي: لن تغني عنهم كما لم تغنِ عن أولئك، أو توقد بهم كما توقد بأولئك ﴿**وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ**﴾ عطف على آل فرعون ﴿**كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾**﴾ تهويل للمؤاخذة وزيادة تخويف للكفرة.

(١٢) ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ**﴾ أي: قل لمشركي مكة ستُغلبون، يعني يوم بدر. وقيل: لليهود، فإنه عليه الصلاة والسلام جمعهم بعد بدر في سوق بني قينقاع، فحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش، فقالوا لا يغرنك أنك أصبت أغماراً (أي: قليلي الخبرة) لا علم لهم بالحرب، لئن قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس، فنزلت. وقد صدق الله تعالى وعده لهم بقتل قريظة وإجلاء بني النضير وفتح خيبر وضرب الجزية على من عداهم، وهو من دلائل النبوة ﴿**وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٢﴾**﴾ بئس المهاد جهنم، أو ما مهدوه لأنفسهم.

(١٣) ﴿**قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ**﴾ الخطاب لقريش أو لليهود، وقيل: للمؤمنين ﴿**فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ**﴾ يوم بدر ﴿**فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ**﴾ يرى المشركون المؤمنين مثلي عدد المشركين، وكان قريباً من ألف، أو مثلي عدد المسلمين، وكانوا ثلاث مئة وبضعة عشر، وذلك كان بعد ما قلَّلهم في أعينهم حتى اجترؤوا عليهم وتوجهوا إليهم، فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا، مدداً من الله تعالى للمؤمنين. أو يرى المؤمنون المشركين مثلي المؤمنين، وكانوا ثلاثة أمثالهم، ليثبتوا لهم ويتيقَّنوا بالنصر الذي وعدهم الله تعالى به في قوله: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦] (بإذن الله تعالى) ﴿**رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ**﴾ رؤية ظاهرة معاينة ﴿**وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ**﴾ نصره، كما أيد أهل بدر ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ**﴾ أي: التقليل والتكثير، أو غلبة القليل عديم العدة على الكثير شاكي السلاح (أي: تام السلاح) ﴿**لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿١٣﴾**﴾ أي لعظةً لذوي البصائر. وقيل: لمن أبصرهم.

(١٤) ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ أي: المشتهَيات، سماها شهوات مبالغةً وإيماء إلى أنهم انهمكوا في محبتها حتى أحبوا شهوتها. والمزيِّن هو الله تعالى، لأنه الخالق للأفعال والدواعي، ولعله زينه ابتلاء، أو لأنه يكون وسيلة إلى السعادة الأخروية إذا كان على وجه يرتضيه الله تعالى، أو لأنه من أسباب التعيش وبقاء النوع. وقيل: الشيطان، فإن الآية في معرض الذم ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ بيان للشهوات. والقنطار: المال الكثير. والمسومة: المعلَّمة (أقول: في ذاك العصر الفرس الجواد، وفي هذا العصر الطيارات والسيارات) والأنعام: الإبل والبقر والغنم ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إشارة إلى ما ذُكر ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ أي: المرجع. وهو تحريض على استبدال ما عنده من اللذات الحقيقية الأبدية بالشهوات المخدَّجة (أي: الناقصة المعيبة) الفانية.

(١٥) ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ يريد به تقرير أن ثواب الله تعالى خير من مستلذات الدنيا ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ مما يستقذر من النساء (أي: من النساء في الدنيا) ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ أي: بأعمالهم، فيثيب المحسن ويعاقب المسيء، أو بأحوال الذين اتقوا، فلذلك أعد لهم جنات. وقد نبَّه بهذه الآية على نعمه، فأدناها متاع الحياة الدنيا وأعلاها رضوان الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وأوسطها الجنة ونعيمها. (أقول: من رجح هذا على ذاك يكون موافقاً لرضا الله تعالى).

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

(١٦) ﴿**ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾**﴾ صفة للمتقين. وفي ترتيب السؤال على مجرد الإيمان دليل على أنه كافٍ في استحقاق المغفرة أو الاستعداد لها.

(١٧) ﴿**ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾**﴾ حصرٌ لمقامات السالك على أحسن ترتيب، فإن معاملته مع الله تعالى إما توسل وإما طلب، والتوسل إما بالنفس، وهو منعها عن الرذائل وحبسها على الفضائل والصبر يشملهما؛ وإما بالبدن، وهو إما قولي وهو الصدق، وإما فعلي وهو القنوت الذي هو ملازمة الطاعة؛ وإما بالمال، وهو الإنفاق في سبل الخير. وأما الطلب فبالاستغفار، لأن المغفرة أعظم المطالب بل الجامع لها. وتخصيص الأسحار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة، لأن العبادة حينئذ أشق، والنفس أصفى، والرُّوع (أي: القلب) أجمع للمجتهدين (أي: في العبادة). قيل: إنهم كانوا يصلون إلى السحر، ثم يستغفرون ويدعون، (كما قال الله تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]).

(١٨) ﴿**شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**﴾ بيَّن وحدانيته بنصب الدلائل الدالة عليها وإنزال الآيات الناطقة بها ﴿**وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ**﴾ بالإقرار ﴿**وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ**﴾ بالإيمان بها والاحتجاج عليها ﴿**قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ**﴾ مقيماً للعدل في قَسْمه وحُكمه ﴿**لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**﴾ كرره للتأكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد والحكم به بعد إقامة الحجة وليبني عليه قوله: ﴿**ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾**﴾ فيُعلم أنه الموصوف بهما سبحانه وتعالى.

(١٩) ﴿**إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ**﴾ أي: لا دين مرضي عند الله تعالى سوى الإسلام، (كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥])، وهو التوحيد والتدرع (من الدرع، وهو التحصن) بالشرع الذي جاء به محمد ﷺ (أقول: هذا في زمان الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام، أما قبله فما كان موافقاً للكتب المنزلة) ﴿**وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ**﴾ من

اليهود والنصارى ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ أي: بعد ما علموا حقيقة الأمر وتمكّنوا من العلم بها بالآيات والحجج ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ حسداً بينهم وطلباً للرئاسة، لا لشبهة وخفاء في الأمر ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾ وعيد لمن كفر منهم (أقول: ولمن خالف كذلك).

(٢٠) ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ﴾ في الدين وجادلوك فيه بعد ما أقمت الحجج ﴿فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ أخلصت نفسي وجملتي له، لا أشرك فيها غيره، وهو الدين القويم الذي قامت عليه الحجج ودعت إليه الآيات والرسل. وإنما عبَّر بالوجه عن النفس لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهر القوى والحواس.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ الذين لا كتاب لهم، كمشركي العرب ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾ كما أسلمتُ لمّا أوضحت لكم الحجة، أم أنتم بعدُ على كفركم؟ ﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾ فقد نفعوا أنفسهم بأن أخرجوها من الضلال ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ أي: فلم يضروك، إذ ما عليك إلا أن تبلغ وقد بلغت ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠﴾ وعد ووعيد.

(٢١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ (أقول: أي: بغير حق ثبت عندهم) ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ هم أهل الكتاب الذين في عصره عليه الصلاة و السلام، قَتل أوَّلُهم الأنبياءَ ومتابعيهم، وهم رضوا به وقصدوا قتل النبي ﷺ والمؤمنين ولكن الله تعالى عصمهم.

(٢٢) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٢﴾ يدفعون عنهم العذاب.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

(٢٣) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أي: التوراة، أو جنس الكتب السماوية ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الداعي محمد عليه الصلاة والسلام، وكتاب الله تعالى القرآن، أو التوراة ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ استبعادٌ لتوليهم مع علمهم بأن الرجوع إليه واجب ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وهم قوم عادتهم الإعراض.

(٢٤) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى التولي ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ بسبب تسهيلهم أمرَ العقاب على أنفسهم لهذا الاعتقاد الزائغ والطمع الفارغ ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ من أن النار لن تمسهم إلا أياماً قلائل.

(٢٥) ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ استعظام لما يحيق بهم في الآخرة، وتكذيب لقولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ جزاء ما كسبت. وفيه دليل على أن العبادة لا تحبط، وأن المؤمن لا يخلد في النار، لأن توفية إيمانه وعمله لا تكون في النار ولا قبل دخولها، فإذن هي بعد الخلاص منها (أقول: هذا إذا تاب قبل الموت فتوبته مقبولة ما لم يغرغر، وإذا شاء جل وعلا يغفر بدون توبة) ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

(٢٦) ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ أصله يا الله ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ يتصرَّف فيه تصرف الملاك فيما يملكون ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ تعطي منه ما تشاء مَن تشاء وتسترد ما تشاء ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما بالنصر والإدبار والتوفيق والخذلان ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ (أقول: وفي ضمنه أمرٌ لرسول الله عليه الصلاة والسلام بأن يقول: بيدك الخير). ذكرَ الخير وحده لأنه المقضي بالذات، والشر مقضي بالعرَض، إذ لا يوجد شر جزئي ما لم يتضمن خيرًا كلياً (أقول: خلق الشرِّ ليس بشرٍّ، وإنما فعل الشرِّ شرٌّ)، أو لمراعاة الأدب في الخطاب.

(٢٧) ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ عقَّب ذلك ببيان قدرته على معاقبة (أي: تتابع) الليل والنهار والموت والحياة وسعة

فضله، دلالة على أن من قدر على ذلك قدر على معاقبة (أي: متابعة) الذل والعز، وإيتاء الملك ونزعه. والولوج: الدخول في مضيق، وإيلاج الليل والنهار: إدخال أحدهما في الآخر بالتعقيب أو الزيادة والنقص. وإخراج الحي من الميت وبالعكس: كإنشاء الحيوانات من موادها وإماتتها، أو إنشاء الحيوان من النطفة والنطفة منه، وقيل: إخراج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن.

(٢٨) ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ نهوا عن موالاتهم لقرابة أو صداقة جاهلية ونحوهما، حتى لا يكون حبهم وبغضهم إلا في الله تعالى، أو عن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينية ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالاة، وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي اتخاذهم أولياء ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي: من ولايته في شيء يصحُّ أن يسمى ولاية، فإن موالاة المتعادِيَين لا يجتمعان (أقول: حق المؤمن أن يحب من يحب الله تعالى، ويكره من يكره الله تعالى) ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ إلا أن تخافوا من جهتهم ما يجب اتقاؤه ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ فلا تتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه وموالاة أعدائه. وهو تهديد عظيم مشعر بتناهي المنهي في القبح. وذكر النفس ليُعلم أن المحذر منه عقاب يصدر منه تعالى، فلا يؤبه دونه بما يحذر من الكفرة.

(أقول: يحذركم يا أهل العزائم عن نفسه على وجه المبالغة بأن لا تأمنوا عن سخطه، ولا تغفلوا عن غضبه، ولا تميلوا عنه سبحانه بارتكاب ما نهيتم عنه).

(٢٩) ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ أي: إنه يعلم ضمائركم من ولاية الكفار وغيرها إن تخفوها أو تبدوها ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيعلم سركم وعلنكم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ فيقدر على عقوبتكم إن لم تنتهوا عما نهيتم عنه. والآية بيان لقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾، فكأنه قال: ويحذركم نفسه لأنها متصفة بعلم ذاتي محيط بالمعلومات كلِّها، وقدرة ذاتيَّة تعمُّ المقدورات بأسرها، فلا تجسروا على عصيانه، إذ ما من معصية إلا وهو مطلع عليها قادر على العقاب بها (اللهمَّ لا تؤاخذنا بذنوبنا يا ربَّ العالمين).

يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

(٣٠) ﴿**يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ**﴾ أي: تتمنى كلُّ نفس يوم تجد صحائف أعمالها، أو جزاء أعمالها من الخير والشر، حاضرةً لو أن بينها وبين ذلك اليوم وهولِهِ أمداً بعيداً ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ**﴾ كرره للتأكيد والتذكير ﴿**وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٣٠﴾**﴾ إشارة إلى أنه تعالى إنما نهاهم وحذرهم رأفة بهم ومراعاة لصلاحهم، أو أنه لذو مغفرة وذو عقاب أليم، فترجى رحمته ويخشى عذابه.

(٣١) ﴿**قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي**﴾ المحبة ميل النفس إلى الشيء لكمالٍ أدركته فيه، بحيث يحملها على ما يقربها إليه. والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا لله تعالى، وأن كل ما يراه كمالاً من نفسه أو غيره فهو من الله وبالله وإلى الله، لم يكن حبه إلا لله وفي الله، وذلك يقتضي إرادة طاعته والرغبة فيما يقرِّبه إليه، فلذلك فُسرت المحبة بإرادة الطاعة، وجُعلت مستلزمة لاتباع الرسول ﷺ في عبادته والحرص على مطاوعته ﴿**يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ**﴾ أي: يرضَ عنكم ويكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم، فيقربكم من جناب عزه ويبوئكم في جوار قدسه ﴿**وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾**﴾ لمن تحبب إليه بطاعته واتباع نبيه ﷺ.

(٣٢) ﴿**قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ**﴾ فيما يأمركم به من التوحيد ﴿**فَإِن تَوَلَّوۡاْ**﴾ أي: أعرضوا عن الطاعة ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾**﴾ لا يرضى عنهم ولا يثني عليهم (أقول: هذا في حقِّ الكافرين، لا المؤمنين المخالفين).

(٣٣) ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾**﴾ بالرسالة والخصائص الروحانية والجسمانية، ولذلك قووا على ما لم يقوَ عليه غيرهم. لمَّا أوجب طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام وبيَّن أنها الجالبة لمحبة الله تعالى عقَّب ذلك ببيان مناقبهم تحريضاً عليها. وبه استُدل على فضلهم على الملائكة.

(٣٤) ﴿**ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ**﴾ أي: إنهم ذرية واحدة متشعبة بعضها من بعض ﴿**وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾**﴾ بأقوال الناس وأعمالهم، فيصطفي من كان مستقيم القول والعمل، أو سميعٌ بقول امرأة عمران (والدة السيدة مريم عليهما السلام) عليمٌ بنيَّتها.

(٣٥) ﴿ **إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي**﴾ أي قالت: اللهم إن لك علي نذراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من خدمه، فحملت بمريم ﴿**مُحَرَّرًا**﴾ معتقاً لخدمته لا أشغله بشيء ﴿**فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ**﴾ ما نذرته ﴿**إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾**﴾ لقولي ونيتي.

(٣٦) ﴿ **فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰٓ**﴾ بمعنى: وليس الذكر والأنثى سيان فيما نذرتُ ﴿**وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ**﴾ أجيرها بحفظك ﴿**وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾**﴾ المطرود. وعن النبي ﷺ: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل من مسِّه، إلا مريم وابنها» [رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى]. ومعناه أن الشيطان يطمع في إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه، إلا مريم وابنها، فإن الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة.

(٣٧) ﴿ **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا**﴾ فرضي بها في النذر مكان الذَّكَر ﴿**بِقَبُولٍ حَسَنٍ**﴾ أي: بوجه حسن يَقبل به النذائر، وهو إقامتها مقام الذَّكر. روي أن حنة لما ولدتها لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار، وقالت: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم، فقال زكريا عليه السلام: أنا أحقُّ بها، عندي خالتها فأبوا إلا القرعة، وكانوا سبعة وعشرين، فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم، فطفا قلم زكريا عليه السلام ورسبت أقلامهم، فتكفَّلها زكريا عليه السلام ﴿**وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا**﴾ مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها ﴿**وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ**﴾ أي: جعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ**﴾ أي: الغرفة التي بنيت لها، أو المسجد، أو أشرف مواضعه ومقدمها، سمي به لأنه محل محاربة الشيطان، كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس ﴿**وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ**﴾ روي: أنه كان لا يدخل عليها غيره، وإذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب، وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وبالعكس ﴿**قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ**﴾ من أين لك هذا الرزق الآتي في غير أوانه والأبواب مغلقة عليك؟ وهو دليل جواز الكرامة للأولياء ﴿**قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ**﴾ فلا تستبعده. قيل: تكلَّمت صغيرة كعيسى عليه السلام، ولم ترضع ثدياً قط، وكان رزقها ينزل عليها من الجنة ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾**﴾ بغير تقدير لكثرته، أو بغير استحقاق تفضلاً به.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾

(٣٨) ﴿**هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ**﴾ في ذلك المكان أو الوقت. لمَّا رأى كرامة مريم ومنزلتها من الله تعالى ﴿**قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً**﴾ كما وهبتها لحنَّة العجوز العاقر. وقيل: لما رأى الفواكه في غير أوانها انتبه على جواز ولادة العاقر من الشيخ، فسأل وقال: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً﴾ لأنه لم يكن على الوجوه المعتادة وبالأسباب المعهودة ﴿**إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ** ﴿٣٨﴾﴾ مجيبه.

(٣٩) ﴿**فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ**﴾ أي: من جنسهم، فإن المنادي كان جبريل عليه السلام وحده ﴿**وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ**﴾ أي: بعيسى عليه السلام. سمي بذلك لأنه وُجد بأمره تعالى دون أب، فشابه البدعيات التي هي عالم الأمر (والبدعيات هي الأمور التي أُنشئت على غير مثال سابق) ﴿**وَسَيِّدًا**﴾ يسود قومه ويفوقهم، وكان فائقاً للناس كلهم في أنه مَا هَمَّ بمعصية قط ﴿**وَحَصُورًا**﴾ مبالغاً في حبس النفس عن الشهوات والملاهي ﴿**وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ** ﴿٣٩﴾﴾ ناشئاً منهم، أو كائناً من عداد من لم يأت كبيرة ولا صغيرة.

(٤٠) ﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ**﴾ استبعاداً من حيث العادة، أو استفهاماً عن كيفية حدوثه ﴿**وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ**﴾ أدركني كبر السن وأثَّر فيَّ ﴿**وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ**﴾ لا تلد؟ ﴿**قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ** ﴿٤٠﴾﴾ أي: يفعل ما يشاء من العجائب مثل ذلك الفعل، وهو إنشاء الولد من شيخ فانٍ وعجوز عاقر.

(٤١) ﴿**قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً**﴾ علامة أعرف بها الحبَل لأستقبله بالبشاشة والشكر، وتزيح مشقة الانتظار ﴿**قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ**﴾ أن لا تقدر على تكليم الناس ثلاثاً ﴿**إِلَّا رَمْزًا**﴾ إشارة بنحو يد أو رأس ﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا**﴾ في أيام الحبسة ﴿**وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ**﴾ من الزوال إلى الغروب، وقيل: من العصر أو الغروب إلى ذهاب صدر الليل ﴿**وَالْإِبْكَارِ** ﴿٤١﴾﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى.

(٤٢) ﴿**وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ** ﴿٤٢﴾﴾ (أقول: على نساء العالمين في زمانها) كلَّموها شفاهاً كرامة لها. والاصطفاء الأول تقبلها من أمها ولم يقبل قبلها أنثى،

وتفريغها للعبادة، وإغناؤها برزق الجنة عن الكسب، وتطهيرها عما يستقذر من النساء. والاصطفاء الثاني هدايتها، وإرسال الملائكة إليها، وتخصيصها بالكرامات السنية؛ كالولد من غير أب، وتبرئتها مما قذفتها به اليهود بإنطاق الطفل، وجعلها وابنها آية للعالمين.

(٤٣) ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أمرت بالصلاة في الجماعة بذكر أركانها مبالغة في المحافظة عليها. وقيل: المراد بالقنوت إدامة الطاعة كقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر: ٩]، وبالسجود الصلاة، كقوله تعالى: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُود﴾ [ق: ٤٠]، وبالركوع الخشوع والإخبات.

(٤٤) ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي: ما ذكرنا من القصص من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ للاقتراع، والمراد تقرير كونه وحياً ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ أي: يلقونها ليعلموا أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ تنافساً في كفالتها.

(٤٥) ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ المسيح لقبه، وهو من الألقاب المشرفة، ومعناه: المبارك ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ الوجاهة في الدنيا النبوة، وفي الآخرة الشفاعة ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ من الله تعالى.

وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ
ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾
وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾
وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ
فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ
وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ
فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾
وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم
بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ
هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ
ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ
أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

(٤٦) ﴿**وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا**﴾ أي: يكلمهم حال كونه طفلاً وكهلاً كلامَ الأنبياء من غير تفاوت ﴿**وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾**﴾.

(٤٧) ﴿**قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**﴾ تعجُّب، أو استفهام عن أنه يكون بتزوج أو غيره ﴿**قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ**﴾ القائل جبريل عليه السلام ﴿**إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾**﴾ إشارة إلى أنه تعالى كما يقدر أن يخلق الأشياء مدرجاً بأسباب ومواد يقدر أن يخلقها دفعة من غير ذلك.

(٤٨) ﴿**وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾**﴾ كلام مبتدأ ذُكر تطييباً لقلبها وإزاحة لما همها من خوف اللوم لمّا علمت أنها تلد من غير زوج.

(٤٩) ﴿**وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ**﴾ والمعنى: أقدِّر لكم وأصور شيئاً مثل صورة الطير ﴿**فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ**﴾ فيصير حياً طياراً بأمر الله تعالى. نبَّه به على أن إحياءه من الله تعالى لا منه.

﴿**وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ**﴾ الأكمه: الذي ولد أعمى، أو الممسوح العين.

روي أنه ربما كان يجتمع عليه ألوف من المرضى، من أطاق منهم أتاه ومن لم يطق أتاه عيسى عليه الصلاة والسلام، وما يداوي إلا بالدعاء ﴿**وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ**﴾ كرر ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ دفعاً لتوهم الألوهية، فإن الإحياء ليس من جنس الأفعال البشرية ﴿**وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ**﴾ بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكُّون فيها ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾**﴾ موفَّقين للإيمان، فإن غيرهم لا ينتفع بالمعجزات، أو مصدِّقين للحقِّ غير معاندين.

(٥٠) ﴿**وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ**﴾ أي: وجئتكم مصدقاً ﴿**وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**﴾ أي: في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام كالشحوم والثروب (أي: الشحم الرقيق يغشى الكرش والأمعاء) والسمك ولحوم الإبل والعمل في السبت ﴿**وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾**﴾.

(٥١) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ أي: جئتكم بآية أخرى ألهمنيها ربكم، وهي قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾، فإنه دعوة الحق المجمَع عليها فيما بين الرسل، الفارقة بين النبي والساحر ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ في المخالفة ﴿وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أدعوكم إليه. ثم شرع في الدعوة وأشار إليها بالقول المجمل فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ إشارة إلى استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذي غايته التوحيد، وقال: ﴿فَٱعْبُدُوهُۚ﴾ إشارة إلى استكمال القوة العملية، فإنه بملازمة الطاعة التي هي الإتيان بالأوامر والانتهاء عن المناهي. ثم قرَّر ذلك بأن بيَّن أن الجمع بين الأمرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة، ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام: «قل آمنت بالله ثم استقم» [رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى].

(٥٢) ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ تحقق كفرهم عنده تحقق ما يدرك بالحواس ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي: مَن الذين يضيفون أنفسهم إلى الله تعالى في نصري؟ ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ حواريُّ الرجل خالصته؛ سمي به أصحاب عيسى عليه الصلاة والسلام لخلوص نيَّتهم ونقاء سريرتهم ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: أنصار دين الله تعالى ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ لتشهد لنا يوم القيامة حين يشهد الرسل لقومهم وعليهم.

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾

(٥٣) ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: مع الشاهدين بوحدانيتك، أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم، أو مع أمة محمد ﷺ فإنهم شهداء على الناس.

(٥٤) ﴿وَمَكَرُواْ﴾ أي: الذين أحس منهم الكفر من اليهود، بأن وكلوا عليه من يقتله غِيلة (أي: على غفلة منه) ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ حين رفع عيسى عليه الصلاة والسلام وألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل. والمكر من حيث إنه في الأصل حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة لا يُسند إلى الله تعالى إلا على سبيل المقابلة ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أقواهم مكراً وأقدرهم على إيصال الضرر مِنْ حَيْثُ لَا يحتسب.

(٥٥) ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: مستوفي أجلك ومؤخرك إلى أجلك المسمى.

﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ إلى محلِّ كرامتي ومقرِّ ملائكتي ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من سوء جوارهم أو قصدهم ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يغلبونهم بالحجة أو السيف في غالب الأمر ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ من أمر الدين.

(٥٦) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ (بالقتل والسبي والجزية والذلة) ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ (بالنار) ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (أي: مانعين منه [تفسير السراج المنير للخطيب الشربيني رحمه الله تعالى]) (أقول: هذا إذا ماتوا على ما هم عليه من الكفر ولم يتوبوا).

(٥٧) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ تفسير للحكم وتفصيل له ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ تقرير لذلك (أقول: يوفي المؤمنين أجورهم إذا لم ينحرفوا ولم يرتدُّوا؛ إلا إذا تابوا ورجعوا قبل الموت ، كما قال جلَّ وعلا في سورة البقرة [آية: ٢١٧]: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون﴾).

(٥٨) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى عليه السلام وغيره ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ

﴿ٱلۡحَكِيمِ ۝٥٨﴾ المشتمل على الحِكم، أو المحكم الممنوع عن تطرُّق الخلل إليه، يريد به القرآن الكريم (اللهم لا تحرمنا من بركته والعمل به).

(٥٩) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ﴾ إن شأنه الغريب كشأن آدم عليه الصلاة والسلام ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ وهو أنه خلق بلا أب كما خلق آدم من التراب بلا أب وأم. والمعنى: خلق قالبه من التراب ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ أي: أنشأه بشراً.

(٦٠) ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ۝٦٠﴾ خطاب للنبي ﷺ على طريقة التهييج لزيادة الثبات، أو لكل سامع.

(٦١) ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ﴾ من النصارى ﴿فِيهِ﴾ في عيسى عليه السلام ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي: من البينات الموجبة للعلم ﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ﴾ أي: يدع كلٌّ منا ومنكم نفسَه وأعزَّة أهله وألصقهم بقلبه إلى المباهلة ﴿ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ﴾ أي: نتباهل بأن نلعن الكاذب منا ﴿فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٦١﴾.

روي أنهم لما دعوا إلى المباهلة قالوا: حتى ننظر، فلما تخالوا قالوا للعاقب ـ وكان ذا رأيهم ـ: ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم نبوَّته، ولقد جاءكم بالفصل في أمر صاحبكم، والله ما باهَلَ قومٌ نبياً إلا هلكوا، فإن أبيتم إلا إلف دينكم فوادِعوا الرجل وانصرِفوا، فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، وعلي رضي الله عنه خلفها، وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمِّنوا»، فقال أسقفهم: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلًا من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا، فأذعنوا لرسول الله ﷺ وبذلوا له الجزية ألفي حلة حمراء وثلاثين درعاً من حديد، فقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لو تباهلوا لمُسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصل الله تعالى نجران وأهله حتى الطير على الشجر» [أخرجه أبو نعيم رحمه الله تعالى في الدلائل]. وهو دليل على نبوَّته عليه الصلاة والسلام، وفضلِ من أتى بهم من أهل بيته.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٞۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصْرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسْلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

(٦٢) ﴿**إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ**﴾ يفيد أن ما ذكره في شأن عيسى ومريم عليهما السلام حق دون ما ذكروه ﴿**وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ**﴾ تأكيدٌ للرد على النصارى في تثليثهم ﴿**وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾**﴾ لا أحد سواه يساويه في القدرة التامة والحكمة البالغة ليشاركه في الألوهية (أقول: المؤمنون ولو عاشوا أذلاء في الدنيا لكنهم ينظرون بقلوبهم إلى الآخرة، ولا محالة أن الجميع يخرجون من الدنيا إلى الآخرة، وهناك يستريح المؤمنون).

(٦٣) ﴿**فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾**﴾ وعيدٌ لهم. وهو يدل على أن التولي عن الحجج والإعراض عن التوحيد إفساد للدين والاعتقاد المؤدي إلى فساد النفس، بل إلى فساد العالم.

(٦٤) ﴿**قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**﴾ لا يختلف فيها الرسل والكتب، ويفسرها ما بعدها ﴿**أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ**﴾ أن نوحده بالعبادة ونخلص فيها ﴿**وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا**﴾ ولا نجعل غيره شريكاً له في استحقاق العبادة، ولا نراه أهلاً لأن يُعبد ﴿**وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ**﴾ ولا نقول عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله، ولا نطيع الأحبار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل. روي أنها لما نزلت: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [التوبة: ٣١] قال عدي بن حاتم رضي الله عنه: ما كنا نعبدهم يا رسول الله قال: «أليس يُحِلُّون لكم ويحرِّمون فتأخذون بقولهم؟ قال: نعم، قال: هو ذاك» [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى وحسنه] ﴿**فَإِن تَوَلَّوْاْ**﴾ عن التوحيد ﴿**فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾**﴾ أي: لزمتكم الحجة فاعترِفوا بأنا مسلمون دونكم.

(٦٥) ﴿**يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓۚ**﴾ تنازعت اليهود والنصارى في إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وزعم كل فريق أنه منهم، وترافعوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت. والمعنى أن اليهودية والنصرانية حدثتا بنزول التوراة والإنجيل على موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وكان إبراهيم عليه السلام قبل موسى عليه السلام بألف سنة، وعيسى عليه السلام بألفين، فكيف يكون عليهما؟ ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾**﴾ فتدَّعون المحال.

(٦٦) ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: أنتم هؤلاء الحمقى، وبيانُ حماقتكم أنكم جادلتم فيما لكم به علم مما وجدتموه في التوراة والإِنجيل عناداً، أو تدعون وروده فيه، فلمَ تجادلون فيما لا علم لكم به ولا ذِكر له في كتابكم من دين إبراهيم عليه السلام ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما حاججتم فيه ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ وأنتم جاهلون به.

(٦٧) ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ مائلاً عن العقائد الزائغة، ﴿مُّسْلِمًا﴾ منقاداً لله تعالى (قال الله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]) ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ تعريض بأنهم مشركون، لإِشراكهم به عزيراً والمسيح، وردٌّ لادِّعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام.

(٦٨) ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾ إنَّ أخصهم به وأقربهم منه ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ من أمته ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لموافقتهم له في أكثر ما شرع لهم على الأصالة، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ ينصرهم ويجازيهم الحسنى لإيمانهم.

(٦٩) ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ نزلت في اليهود لمّا دعوا حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ وما يتخطاهم الإِضلال ولا يعود وباله إلا عليهم، إذ يضاعف به عذابهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ وزره واختصاص ضرره بهم.

(٧٠) ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بما نطقت به التوراة والإنجيل ودلت على نبوة محمد ﷺ ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أنها آيات الله تعالى، أو (تكفرون) بالقرآن وأنتم تشهدون نعته في الكتابين، أو تعلمون بالمعجزات أنه حقٌّ.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾

(٧١) ﴿**يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ**﴾ بالتحريف وإبراز الباطل في صورته. قال عليه الصلاة السلام: «المتشبِّع بما لم يُعطَ كلابس ثوبَي زور» [رواه البخاري ومسلم رضي الله عنهما] ﴿**وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ**﴾ نبوَّة محمد عليه الصلاة والسلام ونعته ﴿**وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ** ﴿٧١﴾﴾ عالمين بما تكتمونه.

(٧٢) ﴿**وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ**﴾ أي: أَظهِروا الإيمان بالقرآن أول النهار ﴿**وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ** ﴿٧٢﴾﴾ واكفروا به آخره لعلهم يشكُّون في دينهم ظناً بأنكم رجعتم لخلل ظهر لكم.

(٧٣) ﴿**وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ**﴾ ولا تقروا عن تصديقِ قلبٍ إلا لأهل دينكم (وهو قول اليهود) ﴿**قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ**﴾ يهدي من يشاء إلى الإيمان ويثبته عليه ﴿**أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ**﴾ والمعنى أن الحسد حملكم على ذلك ﴿**أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ**﴾ فيدحضوا حجَّتكم ﴿**قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ** ﴿٧٣﴾﴾ (أقول: أي بمشيئته وإرادته جلَّ وعلا).

(٧٤) ﴿**يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ** ﴿٧٤﴾﴾ ردٌّ وإبطال لما زعموه بالحجة الواضحة.

(٧٥) ﴿**وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ**﴾ كعبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه، استودعه قرشي ألفاً ومائتي أوقية ذهباً فأداه إليه ﴿**وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ**﴾ كفنحاص بن عازوراء، استودعه قرشي آخر ديناراً فجحده ﴿**إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ**﴾ إلا مدة دوامك قائماً على رأسه مبالغاً في مطالبته بالتقاضي والترافع وإقامة البينة.

﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ**﴾ أي: ليس علينا في شأن من ليسوا من أهل الكتاب ولم يكونوا على ديننا عتاب وذم ﴿**وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ** ﴿٧٥﴾﴾ أنهم كاذبون، وذلك لأنهم استحلُّوا ظلم من خالفهم، وقالوا: لم يجعل لهم في التوراة حرمة.

(٧٦) ﴿**بَلَىٰ**﴾ إثبات لما نفوه، أي: بلى عليهم فيهم سبيل ﴿**مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ** ﴿٧٦﴾﴾

أشعرَ بأن التقوى ملاك الأمر، وهو يعمُّ الوفاء وغيره من أداء الواجبات والاجتناب عن المناهي.

(٧٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ﴾ يستبدلون ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ بما عاهدوا الله تعالى عَلَيْهِ من الإِيمان بالرسول ﷺ والوفاء بالأمانات ﴿وَأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ وبما حلفوا به من قولهم: والله لنؤمننَّ به ولننصرنَّه ﴿ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ متاع الدنيا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما يسرُّهم، أو بشيء أصلاً. والظاهر أنه كناية عن غضبه عليهم، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فإن من سخط على غيره واستهان به أعرض عنه وعن التكلم معه والالتفات نحوه ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ ولا يثني عليهم بالجميل ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾ على ما فعلوه. قيل: إنها نزلت في أحبار حرَّفوا التوراة وبدلوا نعت محمد ﷺ وحكم الأمانات وغيرهما وأخذوا على ذلك رشوة.

وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾

(٧٨) ﴿**وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا**﴾ يعني المحرِّفين ﴿**يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ**﴾ يفتلونها بقراءته فيميلونها عن المنزَّل إلى المحرَّف ﴿**لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ**﴾ تشنيع عليهم وبيان لأنهم يزعمون ذلك ﴿**وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٨﴾**﴾ تأكيدٌ وتسجيل عليهم بالكذب على الله تعالى والتعمد فيه.

(٧٩) ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ**﴾ تكذيب وردٌّ على عبَدة عيسى عليه السلام ﴿**وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ**﴾ والربَّانيُّ منسوب إلى الربِّ، وهو الكامل في العلم والعمل ﴿**بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾**﴾ بسبب كونكم معلِّمين الكتاب وبسبب كونكم دارسين له، فإن فائدة التعليم والتعلم معرفة الحق والخير للاعتقاد والعمل.

(٨٠) ﴿**وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ**﴾ أي: ما كان لبشر أن يستنبئه الله تعالى، ثم يأمر الناس بعبادة نفسه ويأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً ﴿**أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾**﴾ دليل على أنَّ الخطاب للمسلمين.

(٨١) ﴿**وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ**﴾ فإذا كان هذا حكم الأنبياء كان الأمم به أولى ﴿**قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ**﴾ أي: عهدي؟ ﴿**قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ**﴾ أي: فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار ﴿**وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾**﴾ وأنا أيضاً على إقراركم وتَشاهُدِكم شاهدٌ، وهو توكيد وتحذير عظيم.

(٨٢) ﴿**فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ**﴾ بعد الميثاق والتوكيد بالإقرار والشهادة ﴿**فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾**﴾ المتمرِّدون من الكفرة.

(٨٣) ﴿**أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا**﴾ أي: طائعين بالنظر واتباع الحجة، وكارهين بالسيف ومعاينة ما يلجئ إلى الإسلام، كنتق الجبل وإدراك الغرق والإشراف على الموت (أقول: المؤمنون طوعاً والكافرون كرهاً) ﴿**وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾**﴾ (فيجازون على الأعمال [النسفي]).

قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ
وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ
مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ
دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾
كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ
أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ
عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ
بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ
كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ
ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

(٨٤) ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ (أقول: أي: قل يا أكمل الرسل بلسان الجمع: آمنا بالله تعالى) أمرٌ للرسول ﷺ بأن يخبر عن نفسه ومتابعيه بالإيمان. والقرآنُ كما هو منزل عليه منزل عليهم بتوسط تبليغه إليهم ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ بالتصديق والتكذيب ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ منقادون، أو مخلصون في عبادته.

(٨٥) ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا﴾ أي: غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعالى ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ والمعنى أن المعرض عن الإسلام والطالب لغيره فاقدٌ للنفع واقع في الخسران.

(٨٦) ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾ استبعادٌ لأن يهديهم الله تعالى، فإن الحائد عن الحق بعد ما وضح له منهمك في الضلال بعيد عن الرشاد ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالإخلال بالنظر ووضع الكفر موضع الإيمان، فكيف من جاءه الحق وعرفه ثم أعرض عنه.

(٨٧-٨٨) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ في اللعنة أو العقوبة ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (أي: يمهلون).

(٨٩) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد الارتداد ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ ما أفسدوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ يقبل توبتهم، ﴿رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ يتفضل عليهم. قيل: إنها نزلت في الحارث بن سويد حين ندم على ردَّته، فأرسل إلى قومه أن سلوا: هل لي من توبة؟ فأرسل إليه أخوه الجلاس بالآية، فرجع إلى المدينة فتاب.

(٩٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ كاليهود كفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل بعد الإيمان بموسى عليه السلام والتوراة، ثم ازدادوا كفراً بمحمد عليه الصلاة والسلام والقرآن ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ لأنهم لا يتوبون، أو لا يتوبون إلا إذا أشرفوا على الهلاك. فكنَّى عن عدم توبتهم بعدم قبولها، تغليظاً في شأنهم وإبرازاً لحالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ الثابتون على الضلال.

(٩١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾ كأنه قيل: فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ مبالغةٌ في التحذير وإقناط، لأن من لا يُقبل منه الفداء ربما يُعفى عنه تكرماً (أقول: العفو للمؤمنين وليس للكافرين) ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ في دفع العذاب.

لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ
فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ
ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى
بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ
إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ
مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ
عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟
فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾

(٩٢) ﴿**لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ**﴾ أي: لن تبلغوا حقيقة البرِّ الذي هو كمال الخير، أو لن تنالوا برَّ الله تعالى الذي هو الرحمة والرضا والجنة ﴿**حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ**﴾ أي: من المال أو ما يعمُّه وغيره، كبذل الجاه في معاونة الناس، والبدن في طاعة الله تعالى، والمهجة في سبيله. «روي أنها لما نزلت جاء أبو طلحة رضي الله عنه فقال: يا رسول الله إن أحبَّ أموالي إلي بَيْرَحَاء، فضعها حيث أراك الله، فقال: بخ بخ ذاك مال رابح أو رائح، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين» [الحديث متفق عليه]. وذلك يدل على أن إنفاق أحب الأموال على أقرب الأقارب أفضل، وأن الآية تعمُّ الإنفاق الواجب والمستحب ﴿**وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ**﴾ أي: من أي شيء محبوب أو غيره ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾**﴾ فيجازيكم بحسبه.

(٩٣) ﴿**كُلُّ ٱلطَّعَامِ**﴾ أي: المطعومات، والمراد أكلُها ﴿**كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ**﴾ حلالاً لهم ﴿**إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ**﴾ يعقوب عليه السلام ﴿**عَلَىٰ نَفْسِهِۦ**﴾ كلحوم الإبل وألبانها. وقيل: كان به عرق النسا، فنذر إن شفي لم يأكل أحبَّ الطعام إليه، وكان ذلك أحبَّه إليه ﴿**مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ**﴾ أي: من قبل إنزالها مشتملة على تحريم ما حُرِّم عليهم لظلمهم وبغيهم عقوبة وتشديداً ﴿**قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾**﴾ أمرٌ بمحاجَّتهم بكتابهم وتبكيتهم بما فيه من أنه قد حُرِّم عليهم بسبب ظلمهم ما لم يكن محُرَّماً.

(٩٤) ﴿**فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ**﴾ ابتدعه على الله تعالى بزعمه أنه حرَّم ذلك قبل نزول التوراة على بني إسرائيل ومَن قبلهم ﴿**مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ**﴾ من بعد ما لزمتهم الحجة ﴿**فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾**﴾ الذين لا ينصفون من أنفسهم، ويكابرون الحق بعد ما وضح لهم.

(٩٥) ﴿**قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ**﴾ أي: ثبت أن الله تعالى صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون ﴿**فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا**﴾ أي: ملة الإسلام التي هي في الأصل ملة إبراهيم عليه السلام ﴿**وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾**﴾ فيه إشارة إلى أن اتباعه واجب في التوحيد الصرف والاستقامة في الدين والتجنب عن الإفراط والتفريط، وتعريض بشرك اليهود.

(٩٦) ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ**﴾ أي: وُضع للعبادة وجعل متعبَّداً لهم، والواضع هو الله تعالى ﴿**لَلَّذِى بِبَكَّةَ**﴾ للبيتُ الذي بِبَكَّةَ، وهي لغة في مكة. «سئل عليه الصلاة والسلام عن أول بيت وضع للناس فقال:

المسجد الحرام، ثم بيت المقدس. وسئل كم بينهما؟ فقال: أربعون سنة» [الحديث متفق عليه] ﴿مُبَارَكًا﴾ كثير الخير والنفع لمن حجه واعتمره واعتكف دونه وطاف حوله ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدهم، ولأن فيه آيات عجيبة كما قال تعالى:

(٩٧) ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الأعصار، وأن ضواري السباع تخالط الصيود في الحرم ولا تتعرَّض لها، وأنَّ كلَّ جبار قصده بسوء قهره الله تعالى كأصحاب الفيل ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: منها مقام إبراهيم عليه السلام. والمراد بالآيات أثر القدم في الصخرة الصماء وغوصها فيها إلى الكعبين، وسبب هذا الأثر أنه لما ارتفع بنيان الكعبة قام على هذا الحجر ليتمكن من رفع الحجارة فغاصت فيه قدماه ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ أي: ومنها أمْنُ مَنْ دخله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ قصدُه للزيارة على الوجه المخصوص ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ وقد فسر رسول الله ﷺ الاستطاعة «بالزاد والراحلة» [أخرجه الترمذي وابن ماجه رحمهما الله تعالى] وهو يؤيد قول الشافعي رضي الله تعالى عنه إنها بالمال، ولذلك أوجب الاستنابة على الزَّمِن (أي: المريض مرضاً يدوم زماناً طويلًا) إذا وجد أجرة من ينوب عنه. وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى إنها بالبدن، فيجب على من قدر على المشي والكسب في الطريق. وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى: إنها بمجموع الأمرين ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ وضع كَفَرَ موضع من لم يحج، تأكيداً لوجوبه وتغليظاً على تاركه، وتسمية ترك الحج كفراً من حيث إنه فعل الكفرة.

(٩٨) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بآياته السمعيَّة والعقليَّة الدالة على صدق محمد ﷺ فيما يدعيه من وجوب الحج وغيره. وتخصيص أهل الكتاب بالخطاب دليل على أن كفرهم أقبح، لأن معرفتهم بالآيات أقوى، وأنهم وإن زعموا أنهم مؤمنون بالتوراة والإنجيل فهم كافرون بهما ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها، لا ينفعكم التحريف والاستسرار.

(٩٩) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ كرَّر الخطاب والاستفهام مبالغة في التقريع ونفي العذر لهم، وإشعاراً بأن كل واحد من الأمرين مستقبح في نفسه مستقل باستجلاب العذاب. وسبيلُ الله تعالى دينه الحق المأمور بسلوكه، وهو الإسلام ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: باغين طالبين لها اعوجاجاً بأن تلبسوا على الناس وتوهموا أن فيه عوجاً عن الحق، بمنع النسخ وتغيير صفة رسول الله ﷺ ونحوهما (أقول: عوجاً أي: انحرافاً وضعفاً حتى يضعف اعتقاد المسلمين) ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ أنها سبيل الله تعالى؛ والصدُّ عنها ضلال وإضلال ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ وعيدٌ لهم. ولما كان المنكر في الآية الأولى كفرهم وهم يجهرون به ختمها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾، ولما كان في هذه الآية صدهم للمؤمنين عن الإسلام وكانوا يخفونه ويحتالون فيه قال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

(١٠٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ وإنما خاطبهم الله تعالى بنفسه بعد ما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يخاطب أهل الكتاب إظهاراً لجلالة قدرهم، وإشعاراً بأنهم هم الأحقَّاء بأن يخاطبهم الله تعالى ويكلِّمهم.

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾

(١٠١) ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ إنكار وتعجيب لكفرهم في حال اجتمع لهم الأسباب الداعية إلى الإيمان الصارفة عن الكفر ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ ومن يتمسَّك بدينه أو يلتجئ إليه في مجامع أموره ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ فقد اهتدى لا محالة.

(١٠٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ حق تقواه وما يجب منها، وهو استفراغ الوسع في القيام بالواجب والاجتناب عن المحارم كقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. وقيل: هو أن تنزه الطاعة عن الالتفات إليها وعن توقع المجازاة عليها ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي: ولا تكونُنَّ على حال سوى حال الإِسلام إذا أدرككم الموت. (أقول: جدير بك أن يكون أمرك مبدوءاً بالتقوى ومختوماً بها، ولا سبيل لضمان حسن الخاتمة إلا بمتابعة النبي ﷺ في ما جاء به عن ربه عز وجل، فكن متمسكاً بالكتاب والسنة، مجاهداً لنفسك ولأهوائك، ومحافظاً على سلامة قلبك بكثرة ذكرك لله تعالى بالحضور التام الدائم، وراجياً مولاك أن يتقبل منك هذا، ولا تعتمد على أعمالك الصالحة، مع اعتقادك أن عبادتك غير لائقة بربك عز وجل. اللهم اجعلنا من الذين سبقت لهم منك الحسنى برحمتك يا أرحم الراحمين).

(١٠٣) ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ بدين الإِسلام، أو بكتابه. استعار له الحبل من حيث أن التمسك به سبب للنجاة من الردى، كما أن التمسك بالحبل سبب للسلامة من التردي، وللوثوق به والاعتماد عليه ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين عليه ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ أي لا تتفرقوا تفرقكم في الجاهلية يحارب بعضكم بعضاً ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ التي من جملتها الهداية والتوفيق للإِسلام المؤدي إلى التآلف وزوال الغلِّ ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾ في الجاهلية متقاتلين ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بالإِسلام ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ متحابِّين مجتمعين على الأخوة في الله تعالى. وقيل: كان الأوس والخزرج أخوين لأبوين، فوقع بين أولادهما العداوة وتطاولت الحروب مئة وعشرين سنة، حتى أطفأها الله تعالى بالإِسلام، وألَّف بينهم برسوله ﷺ ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ لكفركم، إذ لو أدرككم الموت على تلك الحالة لوقعتم في النار ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بالإِسلام ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائله ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ إرادةَ ثباتِكم على الهدى وازديادكم فيه.

(١٠٤) ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ «من» للتبعيض، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية، واجب على الكل، حتى لو تركوه رأساً أثموا جميعاً، ولكن يسقط بفعل بعضهم (أقول: فعلى كلِّ من يعلم كلمة من الإسلام أن يقول. مثلاً: إذا رأى المسلمُ المصلي مسلماً آخر لا يصلي لا بدَّ أن ينصحه، ولا ينتظر حتى يأتي عالم ليقول له). أو للتبيين، بمعنى وكونوا أمة يدعون كقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. والدعاء إلى الخير يعمُّ الدعاء إلى ما فيه صلاح ديني أو دنيوي ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ المخصوصون بكمال الفلاح. والأمر بالمعروف يكون واجباً ومندوباً على حسب ما يؤمر به. والنهي عن المنكر واجب كله، لأن جميع ما أنكره الشرع حرام. والأظهر أن العاصي يجب عليه أن يَنهى عما يرتكبه، لأنه يجب عليه تركه وإنكاره، فلا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر.

(١٠٥) ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ﴾ كاليهود والنصارى، اختلفوا في التوحيد والتنزيه وأحوال الآخرة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ الآيات والحجج المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه. والأظهر أن النهي فيه مخصوص بالتفرق في الأصول دون الفروع (أقول: وهذا بالنسبة للمجتهدين لا لكلِّ أحد) لقوله عليه الصلاة والسلام: «من اجتهد فأصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد» [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى] ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ وعيد للذين تفرَّقوا، وتهديد على التشبُّه بهم.

(١٠٦) ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ بياض الوجه وسواده كنايتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه. وقيل يوسم أهل الحق ببياض الوجه والصحيفةِ وإشراق البشرة وسعي النور بين يديه وبيمينه، وأهل الباطل بأضداد ذلك ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ أي: فيقال لهم أكفرتم، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم، وهم المرتدون، أو أهل الكتاب، كفروا برسول الله ﷺ بعد إيمانهم به قبل مبعثه ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ أمرُ إهانةٍ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ جزاء لكفركم.

(١٠٧) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ يعني الجنة والثواب المخلد، عبَّر عن ذلك بالرحمة تنبيهاً على أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى لا يدخل الجنة إلا برحمته وفضله تعالى ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

(١٠٨) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الواردة في وعده ووعيده ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ ملتبسة بالحق لا شبهة فيها ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ إذ يستحيل الظلم منه لأنه لا يحقُّ عليه شيء فيظلم بنقصه، ولا يُمنع عن شيء فيظلم بفعله، لأنه المالك على الإطلاق، كما قال تعالى:

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ
(١٠٩) كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ
أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ
وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ
وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ
عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ
وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ
حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (١١٢) ۞ لَيْسُواْ سَوَآءًۗ
مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ
وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ
وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ
فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُواْ
مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ (١١٥)

(١٠٩) ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (١٠٩)**﴾ فيجازي كلًّا بما وعد له وأوعد.

(١١٠) ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ**﴾ دلَّ على خيريَّتهم فيما مضى، ولم يدل على انقطاع طرأ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [النساء: ٢٣] ﴿**أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ أي: أظهرت لهم ﴿**تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ**﴾ يتضمن الإيمان بكل ما يجب أن يؤمَن به ﴿**وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ**﴾ إيماناً كما ينبغي ﴿**لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ**﴾ مما هم عليه ﴿**مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ**﴾ كعبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه وأصحابه ﴿**وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (١١٠)**﴾ المتمرِّدون في الكفر.

(١١١) ﴿**لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ**﴾ ضرراً يسيراً، كطعن وتهديد ﴿**وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ**﴾ ينهزموا ولا يضروكم بقتل وأسر ﴿**ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١)**﴾ ثم لا يكون أحد ينصرهم عليكم أو يدفع بأسكم عنهم.

(١١٢) ﴿**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ**﴾ هدر النفس والمال والأهل، أو ذل التمسُّك بالباطل والجزية ﴿**أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ**﴾ وُجدوا ﴿**إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ**﴾ أي: ضربت عليهم الذلَّة في عامة الأحوال، إلا معتصمين أو ملتبسين بذمة الله تعالى، أو كتابه الذي آتاهم، وذمة المسلمين ﴿**وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ**﴾ رجعوا به مستوجبين له ﴿**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ**﴾ فهي محيطة بهم إحاطة البيت المضروب على أهله ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ**﴾ بسبب كفرهم بالآيات وقتلهم الأنبياء. والتقييد بغير حق، مع أنه كذلك في نفس الأمر، للدلالة على أنه لم يكن حقاً بحسب اعتقادهم أيضاً ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ أي: الكفر والقتل ﴿**بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (١١٢)**﴾ بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى، فإن الإصرار على الصغائر يفضي إلى الكبائر، والاستمرار عليها يؤدي إلى الكفر.

(١١٣) ﴿**لَيْسُواْ سَوَآءًۗ**﴾ في المساوئ ﴿**مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ**﴾ أي: مستقيمة عادلة، وهم الذين

أسلموا منهم ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ يتلون القرآن في تهجدهم. عَبَّر عنه بالتلاوة في ساعات الليل مع السجود ليكون أبين وأبلغ في المدح.

(١١٤) ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ صفات أخر لأمةٍ وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود، فإنهم (أي: اليهود) منحرفون عن الحق، غير متعبِّدين في الليل، مشركون بالله تعالى ملحدون في صفاته، واصفون اليوم الآخر بخلاف صفته، مداهنون في الاحتساب، متباطئون عن الخيرات ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات ممن صلحت أحوالهم عند الله تعالى واستحقُّوا رضاه وثناءه.

(١١٥) ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ فلن يضيع ولا ينقص ثوابه ألبتة (أقول: وما يفعلوه من أعمال الخير قلَّ أو كثر، فلن يعدم ثوابه، بل يشكره الله تعالى لهم ويجازيهم عليه بفضله، بشرط الإخلاص).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ بشارة لهم وإشعار بأن التقوى مبدأ الخير وحُسْنِ العمل، وأن الفائز عند الله تعالى هو أهل التقوى (اللهم اجعلنا بفضلك مع الذين أنت راضٍ عنهم).

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

(١١٦) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ**﴾ من العذاب ﴿**وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۚ**﴾ ملازموها ﴿**هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾**﴾.

(١١٧) ﴿**مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ**﴾ ما ينفق الكفرة قربةً، أو مفاخرة وسمعة، أو المنافقون رياء أو خوفاً ﴿**فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ**﴾ برد شديد ﴿**أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ**﴾ بالكفر والمعاصي ﴿**فَأَهْلَكَتْهُۚ**﴾ عقوبة لهم، لأن الإهلاك عن سخط أشد ﴿**وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾**﴾ أي: ما ظلم المنفقين بضياع نفقاتهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم لما لم ينفقوها بحيث يعتد بها.

(١١٨) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً**﴾ وهو الذي يعرِّفه الرجل أسراره ثقة به. شُبِّه ببطانة الثوب كما شبه بالشِّعَار، قال عليه الصلاة والسلام: «الأنصار شعار والناس دثار» [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى] (والشعار: ما وَلِي جَسَدَ الإنسان دون ما سواه من الثياب، والدِّثَار: الثوبُ الذي يكون فوق الشِّعار) ﴿**مِّن دُونِكُمْ**﴾ من دون المسلمين ﴿**لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا**﴾ أي: لا يقصرون لكم في الفساد ﴿**وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ**﴾ تمنَّوا عنتكم، وهو شدة الضرر والمشقة ﴿**قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ**﴾ أي: في كلامهم، لأنهم لا يتمالكون أنفسهم لفرط بغضهم ﴿**وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ**﴾ مما بدا، لأن بُدُوَّه ليس عن روية واختيار ﴿**قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِۖ**﴾ الدالة على وجوب الإخلاص وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين ﴿**إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾**﴾ ما بُيِّن لكم.

(١١٩) ﴿**هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ**﴾ أي: أنتم أولاء الخاطئون في موالاة الكفار تحبونهم ولا يحبونكم ﴿**وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ**﴾ بجنس الكتاب كله. والمعنى: إنهم لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم أيضاً، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم. وفيه توبيخ بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم.

﴿**وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا**﴾ نفاقاً وتغريراً ﴿**وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ**﴾ تأسُّفاً وتحسُّراً، حيث لم يجدوا إلى التشفِّي سبيلاً ﴿**قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ**﴾ دعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف قوة الإسلام

وأهله حتى يهلكوا به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ فيعلم ما في صدورهم من البغضاء والحنق (أي: شدة الغضب والغيظ). أي: قل لهم ذلك، ولا تتعجَّب من إطْلاعي إياك على أسرارهم، فإني عليم بالأخفى من ضمائرهم.

(١٢٠) ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ بيان لتناهي عداوتهم إلى حدِّ حسدوا ما نالهم من خير ومنفعة، وشمتوا بما أصابهم من ضرٍّ وشدة ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ﴾ على عداوتهم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ موالاتهم ﴿لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ بفضل الله عز وجل وحفظه الموعود للصابرين (قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣])، والمتقين (قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ سورة [التوبة: ٤]). ولأن المُجدَّ في الأمر المتدرِّب بالاتقاء والصبر يكون قليل الانفعال جريئاً على الخصم (أقول: لأنه يحوِّل الأمور إلى الله تعالى، وإذا لم تقتضِ إرادته تعالى أن يمنع الأمر عنه لا بد أن يصبر).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ في عداوتكم عليم فيعاقبهم عليه ﴿مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾﴾ أي: محيط علمه، فيجازيهم بما هم أهله (أقول: لا بدَّ من الصبر، هذا كلُّه امتحان في الدنيا يجري على المسلمين، فلا بدَّ للمسلم أن لا يغفل عن ربِّه وخالقه، لأنه لا يغيب عنه شيء جل وعلا).

(١٢١) ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ﴾ أي: واذكر إذ غدوت ﴿مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ أي: من حجرة عائشة رضي الله عنها ﴿تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تنزلهم، أو تسوي وتهيئ لهم ﴿مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ﴾ مواقف وأماكن لهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ بنياتكم. روي أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء ثاني عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة، فاستشار الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه، وقد دعا عبد الله بن أبيّ بن سلول ولم يدعه من قبل، فقال هو وأكثر الأنصار: أقم يا رسول الله بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا؟ فدَعْهم فإن أقاموا أقاموا بشرِّ محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وأشار بعضهم إلى الخروج، فقال عليه الصلاة والسلام: «إني رأيت في منامي بقرة مذبوحة حولي فأوَّلتها خيراً، ورأيت في ذُباب سيفي (أي: طرفه) ثلماً (أي: كسراً) فأوَّلته هزيمة، ورأيت كأني أدخلت يدي في درع حصينة فأوَّلتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتَدَعُوهم، فقال رجال فاتَتْهم بدر وأكرمهم الله تعالى بالشهادة يوم أحد: اخرج بنا إلى أعدائنا، وبالغوا، حتى دخل ولبس لَأْمَتَهُ (أي: سلاحه)، فلما رأوا ذلك ندموا على مبالغتهم، وقالوا: اصنع يا رسول الله ما رأيت، فقال: لا ينبغي لنبيٍّ أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل»، فخرج بعد صلاة الجمعة وأصبح بشعب أُحُد يوم السبت، ونزل في عدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وسوى صفهم، وَأَمَّر عبد الله بن جبير رضي الله تعالى عنه على الرماة، وقال: انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا [رواه البيهقي في الدلائل بألفاظ متقاربة].

إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

(١٢٢) ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ﴾ بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي العسكر ﴿أَن تَفۡشَلَا﴾ أن تجبُنا وتضعُفا.

روي أنه عليه الصلاة والسلام خرج في زهاء ألف رجل، ووعد لهم النصر إن صبروا، فلما بلغوا الشوط انخذل ابن أبيٍّ في ثلاث مئة رجل وقال: علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فتبعهم عمرو بن حزم الأنصاري وقال: أنشدكم الله والإسلام في نبيكم وأنفسكم، فقال ابن أبيّ: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، فهمَّ الحيان باتباعه، فعصمهم الله تعالى، فمضوا مع رسول الله ﷺ [رواه الطبري في التفسير بألفاظ متقاربة].

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ أي: عاصمهما من اتباع تلك الخطرة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ أي فليتوكلوا عليه ولا يتوكلوا على غيره، لينصرهم كما نصرهم ببدر.

(١٢٣) ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ﴾ لضعف الحال وقلة المراكب والسلاح ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الثبات ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصره.

(١٢٤) ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يوم أُحُد، وكان مع اشتراط الصبر والتقوى عن المخالفة، فلما لم يصبروا عن الغنائم وخالفوا أمر الرسول ﷺ لم تنزل الملائكة ﴿أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ إنكار أن لا يكفيهم ذلك، وإنما جيء بلن إشعاراً بأنهم كانوا كالآيسين من النصر لضعفهم وقلتهم وقوة العدو وكثرتهم.

(١٢٥) ﴿بَلَىٰٓۚ﴾ أي: بلى يكفيكم. ثم وعد لهم الزيادة على الصبر والتقوى حثاً عليهما وتقوية لقلوبهم فقال: ﴿إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم﴾ أي: المشركون ﴿مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ من ساعتهم هذه ﴿يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ في حال إتيانهم بلا تراخ ولا تأخير ﴿مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ معلَّمين.

(١٢٦) ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ وما جعل إمدادكم بالملائكة ﴿إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ﴾ إلا بشارة لكم بالنصر ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ﴾ ولتسكن إليه من الخوف ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لاَ من العدة والعدد. وهو تنبيه على أنه لا

حاجة في نصرهم إلى مدد، وإنما أمدهم ووعد لهم به بشارة لهم وربطاً على قلوبهم، من حيث أن نظر العامة إلى الأسباب أكثر، وحثاً على أن لا يبالوا بمن تأخر عنهم ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يغالَب في أقضيته ﴿ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ الذي ينصر ويخذل بوسط (أي: بواسطة) وبغير وسط على مقتضى الحكمة والمصلحة.

(١٢٧) ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ والمعنى: لينقص منهم بقتل بعض وأسر آخرين، وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من صناديدهم ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أو يخزيهم ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ فينهزموا منقطعي الآمال.

(١٢٨) ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ والمعنى: أن الله تعالى مالك أمرهم، فإما أن يهلكهم، أو يكبتهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصروا، وليس لك من أمرهم شيء، وإنما أنت عبد مأمور لإنذارهم وجهادهم. روي أن عتبة بن أبي وقاص شجَّهُ يوم أحد وكسر رباعيته، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم؟ فنزلت [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]. وقيل: همَّ أن يدعو عليهم فنهاه الله تعالى لعلمه سبحانه بأنَّ فيهم مَنْ يؤمن ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ قد استحقوا التعذيب بظلمهم.

(١٢٩) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، فله الأمر كله لا لك ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ صريح في نفي وجوب التعذيب ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ لعباده، فلا تبادر إلى الدعاء عليهم.

(١٣٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ لا تزيدوا زيادات مكرَّرة، ولعل التخصيص بحسب الواقع، إذ كان الرجل منهم يُربي إلى أجل ثم يزيد فيه زيادة أخرى حتى يستغرق بالشيء الطفيف مال المديون ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما نهيتم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ راجين الفلاح.

(أقول: احذر من نفسك أن تسوِّل لك الحرام، وهذا الخطاب لك، فأنت تأبى أولاً لأنك مؤمن، والإيمان صفتك. عليك بامتثال أمر الله تعالى، وانتبه من رقدة الغفلة، ودع الجمع والشح والحرص على حطام الدنيا. فالرزق مقسوم، ودائرة الحلال تكفينا، والخروج منها من سوء أدبنا. فاستحي من الله تعالى حق الاستحياء، حتى تنال مقام المتقين الذين وعدهم الله تعالى بالجنة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: ٥١]).

(١٣١) ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ بالتحرز عن متابعتهم وتعاطي أفعالهم. وفيه تنبيه على أن النار بالذات معدَّة للكافرين، وبالعرَضِ للعصاة (أقول: أي من المؤمنين، ولكن بالنتيجة المؤمنون لا يخلَّدون في النار، والكافرون لا يخرجون من النار).

(١٣٢) ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ أتبعَ الوعيد بالوعد ترهيباً عن المخالفة وترغيباً في الطاعة.

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾

(١٣٣) ﴿**وَسَارِعُوٓاْ**﴾ بادروا وأقبلوا ﴿**إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ**﴾ إلى ما يُستحَق به المغفرة، كالإسلام والتوبة والإخلاص ﴿**وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ**﴾ أي: عرضها كعرضهما. وذكر العرض للمبالغة في وصفها بالسعة على طريقة التمثيل، لأنه دون الطول ﴿**أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾**﴾ هيئت لهم. وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة.

(١٣٤) ﴿**ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ**﴾ صفة مادحة للمتقين ﴿**فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ**﴾ في حالتي الرخاء والشدة، أو الأحوال كلها، إذ الإنسان لا يخلو عن مسرة أو مضرة، أي: لا يخلون في حالٍ ما بإنفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير ﴿**وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ**﴾ المسكين عليه الكافِّين عن إمضائه مع القدرة ﴿**وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ**﴾ التاركين عقوبة من استحقوا مؤاخذته ﴿**وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾**﴾ (أقول: نعم هو لمن تخلَّق بأخلاق القرآن الكريم بعد رياضات كاملة وحجة وافية، ولمن كان متمسِّكاً بسنة سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام).

(١٣٥) ﴿**وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً**﴾ فعلة بالغة في القبح كالزنى ﴿**أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ**﴾ بأن أذنبوا أيَّ ذنب كان ﴿**ذَكَرُواْ ٱللَّهَ**﴾ تذكَّروا وعيده أو حُكمه أو حقَّه العظيم ﴿**فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ**﴾ بالندم والتوبة ﴿**وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾ المراد به وصفه تعالى بسعة الرحمة وعموم المغفرة، والحثُّ على الاستغفار، والوعد بقبول التوبة ﴿**وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ**﴾ ولم يقيموا على ذنوبهم غير مستغفرين ﴿**وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾**﴾ (قُبْحَها) أي: ولم يصرُّوا على قبيح فعلهم عالمين به.

(١٣٦) ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ**﴾ ولا يلزم من إعداد الجنة للمتقين والتائبين جزاء لهم أن لا يدخلها المصرون، كما لا يلزم من إعداد النار للكافرين جزاء لهم أن لا يدخلها غيرهم. وتنكير «جنات» يدل على أن ما لهم أدونُ مما للمتقين الموصوفين بتلك الصفات المذكورة في الآية المتقدمة، وكفاك فارقاً بين القبيلين أنه فصَّل آيتهم بأن بيَّن أنهم محسنون مستوجبون لمحبة الله تعالى، وذلك لأنهم حافظوا على حدود الشرع، وتخطوا إلى التخصُّص بمكارمه، وفصَّل آية هؤلاء بقوله:

﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ لأن المتدارِك لتقصيره كالعامل لتحصيل بعض ما فوَّت على نفسه، وكم بين المحسن والمتدارك والمحبوب والأجير.

(١٣٧) ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾ وقائع سنَّها الله تعالى في الأمم المكذِّبة ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ لتعتبروا بما ترون من آثار هلاكهم.

(١٣٨) ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨﴾ أي: إنه مع كونه بياناً للمكذبين فهو زيادة بصيرة وموعظة للمتقين.

(١٣٩) ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ تسلية لهم عما أصابهم يوم أحد. والمعنى: لا تضعفوا عن الجهاد بما أصابكم، ولا تحزنوا على من قُتل منكم ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم شأناً، فإنكم على الحق وقتالكم لله تعالى وقتلاكم في الجنة، وإنهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلاهم في النار؛ أو وأنتم الأعلون في العاقبة، فيكون بشارة لهم بالنصر والغلبة ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ أي: لا تهنوا إن صحَّ إيمانكم، فإنه يقتضي قوة القلب بالوثوق بالله تعالى.

(١٤٠) ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ المعنى: إن أصابوا منكم يوم أُحُد فقد أصبتم منهم يوم بدر مثله، ثم إنهم لم يضعفوا ولم يجبنوا، فأنتم أولى بأن لا تضعفوا، فإنكم ترجون مِنَ الله تعالى مَا لَا يرجون ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ نصرِّفها بينهم، لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى؛ والمراد بها أوقات النصر والغلبة ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: وليتميز الثابتون على الإيمان من الذين على حرف ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ﴾ ويكرم ناساً منكم بالشهادة، يريد شهداء أُحُد ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾ الذين يضمرون خلاف ما يظهرون، أو الكافرين. وفيه تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة، وإنما يُغلِّبهم أحياناً استدراجاً لهم وابتلاء للمؤمنين.

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

(١٤١) ﴿**وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ ليطهرهم ويصفيهم من الذنوب إن كانت الدولة عليهم ﴿**وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾**﴾ ويهلكهم إن كانت عليهم.

(١٤٢) ﴿**أَمۡ حَسِبۡتُمۡ**﴾ بل أحسبتم، ومعناه الإنكار (أي: لا تحسبوا) ﴿**أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ**﴾ أي: ولمَّا تجاهدوا. وفيه دليل على أنَّ الجهاد فرض كفاية (أقول: أما إذا هجم العدو على المسلمين، حينذاك يكون الجهاد فرض عين) ﴿**وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾**﴾.

(١٤٣) ﴿**وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ**﴾ أي الحرب، فإنها من أسباب الموت، أو الموت بالشهادة (قال رسول الله ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدق بلَّغه الله تعالى منازل الشهداء ولو مات على فراشه» [رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]). والخطاب للذين لم يشهدوا بدراً، وتمنوا أن يشهدوا مع رسول الله ﷺ مشهداً لينالوا ما نال شهداء بدر من الكرامة، فألحوا يوم أحد على الخروج ﴿**مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ**﴾ من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدته ﴿**فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾**﴾ أي: فقد رأيتموه معاينين له حين قتل دونكم من قتل من إخوانكم. وهو توبيخ لهم على أنهم تمنَّوا الحرب وتسبَّبوا لها، ثم جَبُنوا وانهزموا عنها.

(١٤٤) ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ**﴾ فسيخلوا كما خلوا بالموت أو القتل ﴿**أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ**﴾ إنكارٌ لارتدادهم وانقلابهم على أعقابهم عن الدين لخلوه بموت أو قتل بعد علمهم بخلوِّ الرسل قبله وبقاء دينهم متمسَّكاً به. روي أنه لما رمى عبدُ الله بن قميئة الحارثي رسولَ الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه، فذب عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه ـ وكان صاحب الراية ـ حتى قتله ابن قميئة، وهو يرى أنه قتل النبي عليه الصلاة والسلام، فقال: قد قتلت محمداً، وصرخ صارخ ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأ الناس، وجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو: إليَّ عباد الله، فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه وحموه حتى كشفوا عنه المشركين، وتفرَّق الباقون. وقال بعضهم: ليت ابن أبيٍّ يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال ناس من المنافقين: لو كان نبياً لما قُتل، ارجعوا إلى إخوانكم ودينكم، فقال أنس بن النضر عم

أنس بن مالك رضي الله عنهما: يا قوم إن كان قُتل محمَّد ﷺ فإنَّ ربَّ محمَّد ﷺ حيٌّ لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعده، فقاتلوا على ما قاتل عليه، ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما يقولون وأبرأ إليك منه، وشد بسيفه فقاتل حتى قتل، فنزلت [سيرة ابن هشام].

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بارتداده، بل يضرُّ نفسه ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ على نعمة الإسلام بالثبات عليه، كأنس رضي الله تعالى عنه وأضرابه.

(١٤٥) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إلا بمشيئة الله تعالى، أو بإذنه تعالى لملك الموت عليه السلام في قبض روحه. والمعنى: أنَّ لكلِّ نفس أجلاً مسمًّى في علمه تعالى وقضائه لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون بالإحجام عن القتال والإقدام عليه. وفيه تحريض وتشجيع على القتال، ووعد للرسول ﷺ بالحفظ وتأخير الأجل ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ أي: مؤقتاً لا يتقدم ولا يتأخر ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ تعريضٌ لمن شغلتهم الغنائم يوم أحد، فإن المسلمين حملوا على المشركين وهزموهم وأخذوا ينهبون، فلما رأى الرماة ذلك أقبلوا على النهب (أي: الغنيمة) وخلَّوا مكانهم، فانتهز المشركون وحملوا عليهم من ورائهم فهزموهم ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: من ثوابها ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ الذين شكروا نعمة الله تعالى فلم يشغلهم شيء عن الجهاد.

(١٤٦) ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ ربانيون علماء أتقياء، أو عابدون لربهم ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فما فتروا ولم ينكسر جِدهم لما أصابهم من قتل النبي أو بعضهم ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟﴾ عن العدو أو في الدين ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ وما خضعوا للعدو ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ فينصرهم ويعظم قدرهم.

(١٤٧) ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ أي: وما كان قولهم مع ثباتهم وقوتهم في الدين وكونهم ربانيين إلا هذا القول، وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم هضماً لها، وإضافة ما أصابهم إلى سوء أعمالهم والاستغفار عنها، ثم طلب التثبيت في مواطن الحرب والنصر على العدو ليكون عن خضوع وطهارة، فيكون أقرب إلى الإجابة.

(١٤٨) ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ فآتاهم الله تعالى بسبب الاستغفار واللجأ إلى الله تعالى النصرَ والغنيمةَ والعزَّ وحسنَ الذكر في الدنيا، والجنةَ والنعيمَ في الآخرة، وخصَّ ثوابها بالحُسن إشعاراً بفضله، وأنه المعتد به عند الله تعالى.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

(١٤٩) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ**﴾ أي: إلى الكفر ﴿**عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾**﴾ نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى دينكم وإخوانكم، ولو كان محمد عليه الصلاة والسلام نبياً لما قُتل.

(١٥٠) ﴿**بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ**﴾ ناصركم ﴿**وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾**﴾ فاستغنوا به عن ولاية غيره ونصره.

(١٥١) ﴿**سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ**﴾ يريد ما قذف في قلوبهم من الخوف يوم أحد حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب ﴿**بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا**﴾ أي: بسبب إشراكهم به آلهة ليس على إشراكها حجة، ولم ينزل عليهم به سلطان ﴿**وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾**﴾.

(١٥٢) ﴿**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ**﴾ أي: وعده إياكم بالنصر بشرط التقوى والصبر، وكان كذلك حتى خالف الرماة، فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماة يرشقونهم بالنبل والباقون يضربونهم بالسيف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم ﴿**إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ**﴾ تقتلونهم ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ**﴾ جبنتم وضعف رأيكم، أو ملتم إلى الغنيمة، فإن الحرص من ضعف العقل (أقول: الحرص وصف خبيث في كثير من المسلمين، فإذا سلبه الله تعالى من الإنسان سلبه، وإذا لم يسلبه يبقى معه إلى أن يموت. اللهم طهِّر قلوبنا) ﴿**وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ**﴾ يعني اختلاف الرماة حين انهزم المشركون، فقال بعضهم: فما موقفنا هٰهنا، وقال آخرون: لا نخالف أمر الرسول عليه الصلاة والسلام، فثبت مكانه أميرهم في نفر دون العشرة، ونفر الباقون للنهب، وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿**وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ**﴾ من الظفر والغنيمة وانهزام العدو ﴿**مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا**﴾ وهم التاركون المركز للغنيمة ﴿**وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ**﴾ وهم الثابتون محافظة على أمر الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿**ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ**﴾ ثم كفَّكم عنهم حتى حالت الحال فغلبوكم ﴿**لِيَبْتَلِيَكُمْ**﴾ على المصائب ويمتحن ثباتكم على الإيمان عندها ﴿**وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ**﴾ تفضُّلاً، ولِمَا علم من ندمكم على المخالفة ﴿**وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾**﴾ يتفضَّل عليهم بالعفو.

(أقول وبالله التوفيق: في الآية فائدة عظيمة لمن تفكَّر وتدبَّر. تشير الآية الكريمة أولاً إلى أن إحاطة علم الله تعالى شاملة لجميع الأشياء، وهو مطلع على نيات عباده وما في ضمائرهم من الإخلاص مع إرادة الدنيا، أو الإخلاص المجرد مع قطع النظر عن الدنيا، وهم يريدون وجهه تعالى فقط. ليس هناك أحد أفضل على الله تعالى من أصحاب رسول الله ﷺ بعد النبيين صلوات الله وسلامه عليهم.

اسمع ما قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: ما شعرنا أنَّ أحداً من أصحاب النبي ﷺ يريد الدنيا حتى كان يوم أحد، ونزلت الآية الكريمة: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ فهؤلاء يقتبسون من أنوار الرسول ﷺ وأخلاقه القرآنية، مع يقينهم الصادق، وهم كالنجوم يهتدى بهم، انظر كيف عاتبهم الله تعالى في مخالفة واحدة، وآخذهم بمخالفة واحدة. فعلى المؤمن أن يختار أمر الرسول ﷺ وطاعته على هوى نفسه، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وعليه ألا يترك سبيله ومنهجه كي ينال شفاعته ﷺ إن شاء الله تعالى. اللهم وفِّقنا لذلك آمين).

(١٥٣) ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ الإصعاد: الذهاب والإبعاد في الأرض ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ لا يقف أحد لأحد ولا ينتظره ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ كان يقول إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله، أنا رسول الله، من يكرّ فله الجنة ﴿فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ في جماعتكم المتأخرة ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ المعنى: فجازاكم الله تعالى عن فشلكم وعصيانكم غمّاً متَّصلاً بغمٍّ، من الاغتمام بالقتل والجرح وظفر المشركين والإرجاف بقتل الرسول ﷺ ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ لتتمرنوا على الصبر في الشدائد، فلا تحزنوا فيها بعد على نفع فائت ولا ضرٍّ لاحق ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ عالم بأعمالكم وبما قصدتم بها.

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ
مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ
ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ
قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ
يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ
فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ
وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ
وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ
يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا
كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا
ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا
قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

(١٥٤) **﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا﴾** أنزل الله تعالى عليكم الأمن حتى أخذكم النعاس. وعن أبي طلحة رضي الله تعالى عنه: غشينا النعاس في المصافِّ (أي: في صفِّ القتال) حتى كان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه، ثم يسقط فيأخذه **﴿يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾** أي: النعاس. والطائفة المؤمنون حقاً **﴿وَطَآئِفَةٞ﴾** هم المنافقون **﴿قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾** أوقعتهم أنفسهم في الهموم، أو ما يهمهم إلا هم أنفسهم وطلب خلاصها **﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾** أي: يظنون بالله تعالى غير الظن الحق الذي يحقُّ أن يُظنَّ به **﴿يَقُولُونَ﴾** أي: لرسول الله ﷺ **﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾** هل لنا مما أمر الله تعالى ووعد من النصر والظفر نصيب؟ **﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾** أي: الغلبة الحقيقية لله تعالى ولأوليائه ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦] **﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾** أي: يقولون مُظهرين أنهم مسترشدون طالبون النصر، مبطنين الإنكار والتكذيب **﴿يَقُولُونَ﴾** أي: في أنفسهم وإذا خلا بعضهم إلى بعض: **﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ﴾** كما وعد محمد عليه الصلاة والسلام أن الأمر كله لله تعالى ولأوليائه **﴿مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾** لما غلبنا، أو لما قتل من قتل منا في هذه المعركة **﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾** أي: لخرج الذين قدَّر الله تعالى عليهم القتل إلى مصارعهم، ولم تنفعهم الإِقامة بالمدينة ولم ينجُ منهم أحد، فإنه سبحانه وتعالى قدَّر الأمور ودبرها في سابق قضائه، لا معقِّب لحكمه **﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾** وليمتحن الله تعالى ما في صدوركم ويظهر سرائرها من الإِخلاص والنفاق **﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾** وليكشفه ويميزه، أو يخلصه من الوساوس **﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾** بخفيَّاتها قبل إظهارها. وفيه وعد ووعيد، وتنبيه على أنه غني عن الابتلاء، وإنما فعل ذلك لتمرين المؤمنين وإظهار حال المنافقين.

(١٥٥) **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾** يعني إن

الذين انهزموا يوم أحد إنما كان السبب في انهزامهم أن الشيطان طلب منهم الزلل فأطاعوه، واقترفوا ذنوباً لمخالفة النبي ﷺ بترك المركز، والحرص على الغنيمة أو الحياة، فمُنعوا التأييد وقوة القلب ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لتوبتهم واعتذارهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ لا يعاجل عقوبة المذنب كي يتوب.

(١٥٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني المنافقين ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ معنى أخوّتهم اتفاقهم في النسب أو المذهب ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إذا سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها ﴿أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾ جمع غازٍ ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ولا تكونوا مثلهم في النطق بذلك القول والاعتقاد، ليجعله حسرة في قلوبهم خاصة ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ ردٌّ لقولهم، أي: هو المؤثر في الحياة والممات، لا الإقامةُ والسفر، فإنه تعالى قد يحيي المسافر والغازي، ويميت المقيم والقاعد ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ تهديدٌ للمؤمنين على أن يماثلوهم.

(١٥٧) ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ أي: متُّم في سبيله ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ والمعنى أن السفر والغزو ليس مما يجلب الموت ويقدم الأجل، وإن وقع ذلك في سبيل الله تعالى فما تنالون من المغفرة والرحمة بالموت خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا.

وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

(١٥٨) ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ أي: على أيِّ وجه اتفق هلاككم ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ لإلى معبودكم الذي توجَّهتم إليه وبذلتم مُهجكم (أي: روحكم) لوجهه جل وعلا لا إلى غيره لا محالة تحشرون، فيوفي جزاءكم ويعظم ثوابكم.

(١٥٩) ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أي: إن لينه لهم ما كان إلا برحمة من الله تعالى، وهو ربْطُهُ على جأشه (أي: ثباته عند الشدائد) وتوفيقه للرفق بهم، حتى اغتمَّ لهم بعد أن خالفوه عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ سيِّئ الخلق جافياً ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ قاسيه ﴿لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ لتفرقوا عنك ولم يسكنوا إليك ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يختص بك ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما لله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في أمر الحرب، إذ الكلام فيه، أو فيما يصح أن يشاوَر فيه، استظهاراً برأيهم وتطييباً لنفوسهم وتمهيداً لسنة المشاورة للأمة ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ فإذا وطنت نفسك على شيء بعد الشورى ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في إمضاء أمرك على ما هو أصلح لك، فإنه لا يعلمه سواه جلَّ وعلا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ فينصرهم ويهديهم إلى الصلاح.

(١٦٠) ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلا أحد يغلبكم ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أُحُد ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد خذلانه، أو من بعد الله تعالى، بمعنى إذا جاوزتموه فلا ناصر لكم. وهذا تنبيه على المقتضي للتوكل، وتحريض على ما يستحقُّ به النصر من الله تعالى، وتحذير عما يَستجلب خذلانَهُ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ فلْيخصُّوه بالتوكُّل عليه لما علموا أنْ لا ناصر لهم سواه وآمنوا به جلَّ وعلا.

(١٦١) ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ﴾ وما صحَّ لنبيٍّ أن يخون في الغنائم، فإن النبوة تنافي الخيانة ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يأت بالذي غله يحمله على عنقه كما جاء في الحديث، أو بما احتمل من وباله وإثمه ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ يعني تعطى جزاء ما كسبت وافياً ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ فلا ينقص ثواب مطيعهم، ولا يزاد في عقاب عاصيهم.

(١٦٢) ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بالطاعة ﴿كَمَنۢ بَآءَ﴾ رجع ﴿بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بسبب المعاصي ﴿وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦٢﴾.

(١٦٣) ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ شبِّهوا بالدرجات لما بينهم من التفاوت في الثواب والعقاب ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٦٣﴾ عالم بأعمالهم، ودرجاتها صادرة عنهم، فيجازيهم على حسبها.

(١٦٤) ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أنعم على من آمن مع الرسول ﷺ من قومه. وتخصيصُهم مع أن نعمة البعثة عامة لزيادة انتفاعهم بها ﴿إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ من نسبهم، أو من جنسهم عربياً مثلهم، ليفهموا كلامه بسهولة، ويكونوا واقفين على حاله في الصدق والأمانة مفتخرين به ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: القرآن، بعد ما كانوا جهالاً لم يسمعوا الوحي ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ يطهرهم من دنس الطباع وسوء الاعتقاد والأعمال ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي: القرآن والسنة ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ والمعنى: وإن الشأن كانوا من قبل بعثة الرسول ﷺ في ضلال ظاهر.

(١٦٥) ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾ أي: أقلتم حين أصابتكم مصيبة، وهي قتل سبعين منكم يوم أحد، والحال إنكم نلتم ضعفها يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين: من أين هذا أصابنا وقد وعدنا الله تعالى النصر؟ ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ أي: مما اقترفته أنفسكم من مخالفة الأمر بترك المركز، فإن الوعد كان مشروطاً بالثبات والمطاوعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ فيقدر على النصر ومنعه، وعلى أن يصيب بكم ويصيب منكم.

وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ
يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ
فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ
وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ
ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ
بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ
بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾
۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ
أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾
ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ
فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

(١٦٦) ﴿**وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ**﴾ جمع المسلمين وجمع المشركين، يريد يوم أُحُد ﴿**فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ**﴾ فهو كائن بقضائه جَلَّ وَعَلَا ﴿**وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾**﴾.

(١٦٧) ﴿**وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ**﴾ وليتميز المؤمنون والمنافقون، فيظهر إيمان هؤلاء وكفر هؤلاء ﴿**وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ**﴾ تقسيم للأمر عليهم، وتخيير بين أن يقاتلوا للآخرة أو للدفع عن الأنفس والأموال ﴿**قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ**﴾ لو نعلم ما يصحُّ أن يسمى قتالاً لاتبعناكم فيه، لكن ما أنتم عليه ليس بقتال بل إلقاء بالأنفس إلى التهلكة ﴿**هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ**﴾ لانخذالهم وكلامهم هذا، فإنهما أول أمارات ظهرت منهم مؤذنة بكفرهم.

﴿**يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۗ**﴾ يُظهرون خلاف ما يضمرون، لا تواطئ قلوبهم ألسنتهم بالإيمان ﴿**وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾**﴾ من النفاق، وما يخلو به بعضهم إلى بعض، فإنه يعلمه جل وعلا مفصَّلاً بعلم واجب، وأنتم تعلمونه مجملاً بأمارات.

(١٦٨) ﴿**ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ**﴾ أي: لأجلهم، يريد من قتل يوم أُحُد من أقاربهم أو من جنسهم ﴿**وَقَعَدُواْ**﴾ أي: قالوا قاعدين عن القتال: ﴿**لَوۡ أَطَاعُونَا**﴾ في القعود بالمدينة ﴿**مَا قُتِلُواْۗ**﴾ كما لم نقتل ﴿**قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾**﴾ أي: إن كنتم صادقين أنكم تقدرون على دفع القتل عمن كتب عليه فادفعوا عن أنفسكم الموت وأسبابه فإنه أحرى بكم. والمعنى: أن القعود غير مغنٍ عن الموت، فإن أسباب الموت كثيرة، وكما أن القتال يكون سبباً للهلاك والقعود سبباً للنجاة قد يكون الأمر بالعكس.

(١٦٩) ﴿**وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ**﴾ نزلت في شهداء أُحُد، وقيل في شهداء بدر. والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد ﴿**بَلۡ أَحۡيَآءٌ**﴾ أي بل هم أحياء ﴿**عِندَ رَبِّهِمۡ**﴾ ذوو زلفى منه (أي: ذوو قربى ومنزلة) ﴿**يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾**﴾ من الجنة، وهو تأكيد لكونهم أحياء.

(١٧٠) ﴿**فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ**﴾ وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية والقرب من الله

تعالى والتمتُّع بنعيم الجنة ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ يسرون بالبشارة ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم﴾ أي: بإخوانهم المؤمنين الذين لم يقتلوا فيلحقوا بهم ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: الذين من خلفهم زماناً أو رتبة ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ المعنى: أنهم يستبشرون بما تبين لهم من أمر الآخرة وحال من تركوا من خلفهم من المؤمنين، وهو أنهم إذا ماتوا أو قتلوا كانوا أحياء حياة لا يكدرها خوفُ وقوعِ محذورٍ، وحزنُ فواتِ محبوبٍ. والآية تدل على أن الإنسان غير الهيكل المحسوس بل هو جوهر مدرِك بذاته لا يفنى بخراب البدن، ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه والتذاذه، ويؤيد ذلك قوله تعالى في آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ [غافر: ٤٦]. وفيها حث على الجهاد، وترغيب في الشهادة، وبعث على ازدياد الطاعة، وإحماد لمن يتمنى لإخوانه مثل ما أُنعم عليه، وبشرى للمؤمنين بالفلاح.

(١٧١) ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ ثواباً لأعمالهم ﴿وَفَضْلٍ﴾ زيادةٍ عليه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ من جملة المستبشر به، عطف على ﴿فَضْلٍ﴾.

(١٧٢) ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ صفةٌ للمؤمنين ﴿مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ (يوم أحد والقرح: ألم الجراح وأذى الهزيمة) ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ روي أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فندب أصحابه للخروج في طلبه، وقال لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس، فخرج عليه الصلاة والسلام مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد، وهي على ثمانية أميال من المدينة، وكان بأصحابه القرح، فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر، وألقى الله تعالى الرعب في قلوب المشركين فذهبوا، فنزلت [أخرجه البيهقي رحمه الله تعالى في دلائل النبوة].

(١٧٣) ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ يعني الركب الذين استقبلوهم من عبد قيس، أو نعيم بن مسعود الأشجعي ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ والمعنى أنهم لم يلتفتوا إليه ولم يضعفوا، بل ثبت به يقينهم بالله تعالى، وازداد إيمانهم، وأظهروا حميَّة الإسلام، وأخلصوا النية عنده ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ كافينا ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ ونعم الموكول إليه هو جلَّ وعلا.

فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٨٠﴾

(١٧٤) ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾ فرجعوا من بدر ﴿بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عافيةٍ وثبات على الإيمان وزيادة فيه ﴿وَفَضۡلٖ﴾ وربح في التجارة، فإنهم لما أتوا بدراً وافوا بها سوقاً فاتجروا وربحوا ﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ من جراحة وكيد عدو ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ﴾ الذي هو مناط الفوز بخير الدارين بجرأتهم وخروجهم ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ قد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان والتوفيق للمبادرة إلى الجهاد والتصلُّب في الدين وإظهار الجرأة على العدو، وبالحفظ عن كلِّ ما يسوؤهم، وإصابة النفع مع ضمان الأجر، حتى انقلبوا بنعمة من الله تعالى وفضل.

(١٧٥) ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ يريد به المثبِّط نعيماً، أو أبا سفيان ﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ القاعدين عن الخروج مع الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ﴾ في مخالفة أمري، فجاهِدوا مع رسولي ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ فإن الإيمان يقتضي إيثار خوف الله تعالى على خوف الناس.

(١٧٦) ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾ يقعون فيه سريعاً حرصاً عليه، وهم المنافقون من المتخلفين، أو قوم ارتدوا عن الإسلام. والمعنى: لا يحزنك خوف أن يضروك ويعينوا عليك لقوله: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ أي: لن يضروا أولياء الله تعالى شيئاً بمسارعتهم في الكفر، وإنما يضرون بها أنفسهم ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ نصيباً من الثواب في الآخرة. وهو يدلُّ على تمادي طغيانهم وموتهم على الكفر. وفي ذكر الإرادة إشعار بأن كفرهم بلغ الغاية، حتى أراد أرحم الراحمين أن لا يكون لهم حظٌّ من رحمته ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ مع الحرمان عن الثواب.

(١٧٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾﴾ تعميم للكفرة بعد تخصيصِ مَن نافق من المتخلفين أو ارتد من العرب.

(١٧٨) ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ﴾ أي: أن الإملاء خير لأنفسهم، والإملاء:

الإمهال وإطالة العمر ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ (أي: إنما نمهلهم ونؤخِّر آجالهم ليزدادوا إثماً) ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٧٨﴾ (في الآخرة [الخازن]).

(١٧٩) ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ الخطاب لعامة المخلصين والمنافقين في عصره (أقول: هذه الدنيا مُظهرة لما ثبت في قلوبهم، لا يخرج أحد من علمه جل وعلا، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور). والمعنى: لا يترككم مختلطين لا يُعرف مخلصكم من منافقكم حتى يميز المنافق من المخلص بالوحي إلى نبيه بأحوالكم، أو بالتكاليف الشاقة التي لا يصبر عليها ولا يذعن لها إلا الخلص المخلصون منكم، كبذل الأموال والأنفس في سبيل الله تعالى، ليختبر النبي ﷺ به بواطنكم ويستدل به على عقائدكم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾ وما كان الله تعالى ليؤتي أحدكم علم الغيب فيطلع على ما في القلوب من كفر أو إيمان، ولكن الله تعالى يجتبي لرسالته من يشاء فيوحي إليه ويخبره ببعض المغيبات ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ بصفة الإِخلاص، أو بأن تعلموه وحده مطلعاً على الغيب، وتعلموهم عباداً مجتبين لا يعلمون إلا ما علمهم الله تعالى، ولا يقولون إلا ما أوحي إليهم ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ﴾ حق الإِيمان ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ النفاق ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧٩﴾ لا يُقادَر قدره (أقول: الميزان هو الشريعة والسنة النبوية، فمن كان موافقاً للشريعة والسنة النبوية يكون مقبولاً عند الله تعالى، ومن حوَّل وجهه عن الشريعة والسنة وجعل ظهره إليهما نفوض أمره إلى الله تعالى).

(١٨٠) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ﴾ أي: ولا يحسبن البخلاءُ بخلَهم هو خيراً لهم ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: البخل ﴿شَرٌّ لَّهُمْۖ﴾ لاستجلاب العقاب عليهم ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ والمعنى: سيُلزَمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق. وعنه عليه الصلاة والسلام: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل الله له شجاعاً في عنقه يوم القيامة» [الحديث رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى].

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ وله ما فيهما مما يتوارث، فما لهؤلاء يبخلون عليه بماله ولا ينفقونه في سبيله. أو أنه يرث منهم ما يمسكونه ولا ينفقونه في سبيله بهلاكهم، وتبقى عليهم الحسرة والعقوبة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المنع والإِعطاء ﴿خَبِيرٌ ١٨٠﴾ فيجازيكم.

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

(١٨١) ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ قالته اليهود لما سمعوا: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. والمعنى: أنه لم يخفَ عليه، وأنه أعد لهم العقاب عليه ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: سنكتبه في صحائف الكتَبَة، أو سنحفظه في علمنا لا نهمله، لأنه كلمة عظيمة، إذ هو كفر بالله عز وجل واستهزاء بالقرآن والرسول عليه الصلاة والسلام ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ أي: وننتقم منهم بأن نقول لهم: ذوقوا العذاب المحرق، وفيه مبالغات في الوعيد. وذكره هٰهنا لأن العذاب مرتب على قولهم الناشئ عن البخل والتهالك على المال، وغالب حاجة الإنسان إليه لتحصيل المطاعم، ومعظمُ بخله به للخوف من فقدانه، ولذلك كثر ذكر الأكل مع المال.

(١٨٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى العذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ من قتل الأنبياء، وقولهم هذا، وسائر معاصيهم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ عطف على «ما قدَّمت»، وسببيَّته للعذاب من حيث أن نفي الظلم يستلزم العدل المقتضي إثابة المحسن ومعاقبة المسيء.

(١٨٣) ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ أَمَرَنا في التوراة وأوصانا ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ بأن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بهذه المعجزة الخاصة التي كانت لأنبياء بني إسرائيل، وهو أن يقرِّب بقربان، فيقوم النبيُّ فيدعو، فتنزل نار سماوية فتأكله ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ تكذيب وإلزام بأن رسلًا جاؤوهم قبله ـ كزكريا ويحيى عليهما السلام ـ بمعجزات أخر موجبة للتصديق وبما اقترحوه فقتلوهم.

(١٨٤) ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ تسليةٌ للرسول ﷺ من تكذيب قومه واليهود. والزُّبُر جمع زَبُور، وهو الكتاب المقصور على الحِكَم. والكتاب في عرف القرآن ما يتضمَّن الشرائع والأحكام.

(١٨٥) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ وعد ووعيد للمصدق والمكذب ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ تُعطَون جزاء أعمالكم ـ خيراً كان أو شراً ـ تاماً وافياً ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ﴾ يوم قيامكم من القبور. ولفظ التوفية يشعر بأنه قد يكون قبلها بعض الأجور، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى] ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ بُعِّد عنها ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ﴾ بالنجاة ونيل المراد. وعن النبي ﷺ: «من أحبَّ أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر، ويؤتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى].

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي: لذَّاتها وزخارفها ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ شبَّهها بالمتاع الذي يدلَّس به (أي: تُخفى عيوبه) على المستام (الذي يريد الشراء) ويُغر حتى يشتريه، وهذا لمن آثرها على الآخرة، فأما من طلب بها الآخرة فهي له متاعُ بلاغ.

(١٨٦) ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ أي: والله لتُختبَرُنَّ ﴿فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بتكليف الإنفاق وما يصيبها من الآفات ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالجهاد والقتل والأسر والجراح وما يَردُ عليها من المخاوف والأمراض والمتاعب ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ﴾ من هجاء الرسول ﷺ والطعن في الدين وإغراء الكفرة على المسلمين. أخبرهم بذلك قبل وقوعها ليوطِّنوا أنفسهم على الصبر والاحتمال، ويستعدوا للقائها حتى لا يرهقهم نزولها ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ على ذلك ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ مخالفة أمر الله تعالى ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ يعني الصبر والتقوى ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ من معزومات الأمور التي يجب العزم عليها.

وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

(١٨٧) ﴿**وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ**﴾ أي: اذكر وقت أخذه ﴿**مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ**﴾ يريد به العلماء ﴿**لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ**﴾ حكايةٌ لمخاطبتهم ﴿**فَنَبَذُوهُ**﴾ أي: الميثاق ﴿**وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ**﴾ فلم يراعوه ولم يلتفتوا إليه ﴿**وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ**﴾ وأخذوا بدله ﴿**ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ**﴾ من حطام الدنيا وأعراضها ﴿**فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴿١٨٧﴾**﴾ يختارون لأنفسهم. وعن النبي ﷺ: «من كتم علماً عن أهله أُلجم بلجام من نار» [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى].

(١٨٨) ﴿**لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ**﴾ الخطاب للرسول ﷺ. والمعنى: لا تحسبن الذين يفرحون بما فعلوا من التدليس وكتمان الحق، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من الوفاء بالميثاق وإظهار الحق والإخبار بالصدق، بمفازةٍ: بمنجاة من العذاب، أي: فائزين بالنجاة منه ﴿**وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨٨﴾**﴾ بكفرهم وتدليسهم.

(١٨٩) ﴿**وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ**﴾ فهو يملك أمرهم ﴿**وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾**﴾ فيقدر على عقابهم.

(١٩٠) ﴿**إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾**﴾ لَدلائلُ واضحةٌ على وجود الصانع ﷻ ووحدته وكمال علمه وقدرته لذوي العقول المجلوة الخالصة عن شوائب الحس والوهم.

(١٩١) ﴿**ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ**﴾ أي: يذكرونه دائماً على الحالات كلها قائمين وقاعدين ومضطجعين (أي: وهؤلاء العقلاء هم الذين يذكرون الله تعالى وعظمته دائماً وأبداً، يتذكَّرون جلال الله سبحانه، ولا يغفلون عنه في جميع الأحوال، سواء كانوا في أسواقهم وأعمالهم، أو مضطجعين في فرشهم للنوم [التفسير الواضح الميسر]). وقيل: معناه يصلُّون على الهيئات الثلاث حسب طاقتهم، لقوله عليه الصلاة والسلام لعمران بن حصين: «صلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب تومئ إيماءً» [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى]. فهو حجة للإمام الشافعيِّ رضي الله تعالى عنه في أنَّ المريض يصلي مضطجعاً على جنبه الأيمن مستقبلاً بمقاديم بدنه (أي: أجزاء البدن الأمامية من الرأس واليدين والرجلين والصدر)

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استدلالاً واعتباراً، وهو أفضل العبادات، لأنه المخصوص بالقلب والمقصود من الخلق ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أي: يتفكرون قائلين ذلك. والمعنى: ما خلقتَه عبثاً ضائعاً من غير حكمة، بل خلقته لِحِكم عظيمة، من جملتها أن يكون مبدأ لوجود الإِنسان وسبباً لمعاشه، ودليلاً يدلُّه على معرفتك ويحثُّه على طاعتك، لينال الحياة الأبديَّة والسعادة السرمديَّة في جوارك ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهاً لك من العبث وخلق الباطل ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ (أي: فنجِّنا من عذاب جهنَّم) للإِخلال بالنظر فيه والقيام بما يقتضيه.

(١٩٢) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ (أي: أهنته أو أهلكته أو فضحته [النسفي]) ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾ لأن ظلمهم سبب لإِدخالهم النار وانقطاع النصرة عنهم في الخلاص منها، ولا يلزم من نفي النصرة نفي الشفاعة (للمؤمنين).

(١٩٣) ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ﴾ المراد به الرسول عليه الصلاة والسلام، وقيل: القرآن ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ كبائرنا، فإنها ذات تبعة ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ صغائرَنا، فإنها مستقبحة، ولكن مكفَّرة عن مجتنب الكبائر ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ مخصوصين بصحبتهم معدودين في زمرتهم. وفيه تنبيه على أنهم يحبون لقاء الله تعالى، ومن أحبَّ لقاء الله تعالى أحبَّ اللهُ تعالى لقاءه.

(١٩٤) ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي: ما وعدتنا على تصديق رسلك من الثواب ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بأن تعصمنا عما يقتضيه ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ بإثابة المؤمن وإجابة الداعي.

فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

٤ سُورَةُ النِّسَاءِ ١٧٦

(١٩٥) ﴿**فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ**﴾ إلى طلبتهم ﴿**أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ**﴾ لأن الذكر من الأنثى، والأنثى من الذكر؛ وهي جملة معترضة بيَّن بها شركة النساء مع الرجال فيما وُعد للعمال. روي أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله إني أسمع الله تعالى يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء، فنزلت [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى] ﴿**فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ**﴾ والمعنى: فالذين هاجروا الشرك أو الأوطان والعشائر للدين ﴿**وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي**﴾ بسبب إيمانهم بالله تعالى ومن أجله ﴿**وَقَٰتَلُواْ**﴾ الكفار ﴿**وَقُتِلُواْ**﴾ في الجهاد ﴿**لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ**﴾ لأمحونَّها ﴿**وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ**﴾ أي: أثيبهم بذلك إثابة من عند الله تعالى تفضُّلاً منه ﴿**وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾**﴾ على الطاعات، قادر عليه جل وعلا.

(١٩٦) ﴿**لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾**﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته. والمعنى: لا تنظر إلى ما الكفرة عليه من السعة والحظ، ولا تغترَّ بظاهر ما ترى من تبسطهم في مكاسبهم ومتاجرهم ومزارعهم. روي أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين في رخاءٍ ولينِ عيشٍ فيقولون: إن أعداء الله تعالى فيما نرى من الخير، وقد هلكنا من الجوع والجهد، فنزلت.

(١٩٧) ﴿**مَتَٰعٞ قَلِيلٞ**﴾ أي: ذلك التقلُّب متاع قليل لقصر مدته في جنب ما أعدَّ الله تعالى للمؤمنين. قال عليه الصلاة والسلام: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليمِّ فلينظر بم يرجع» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ﴿**ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾**﴾ أي: ما مهَّدوا لأنفسهم.

(١٩٨) ﴿**لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ**﴾ والنُّزُل: ما يُعَدُّ للنازل من طعام وشراب وصلة ﴿**وَمَا عِندَ ٱللَّهِ**﴾ لكثرته ودوامه ﴿**خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٨﴾**﴾ مما يتقلب فيه الفجار، لقلَّته وسرعة زواله.

(١٩٩) ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه رضي الله عنهم ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الكتابَين (التوراة والإنجيل) ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كما يفعله المحرِّفون من أحبارهم ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ما خُصَّ بهم من الأجر ووعده في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٤] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ المراد أن الأجر الموعود سريع الوصول، فإن سرعة الحساب تستدعي سرعة الجزاء.

(٢٠٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟﴾ على مشاقِّ الطاعات وما يصيبكم من الشدائد ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ وغالبوا أعداء الله تعالى بالصبر على شدائد الحرب، وأعدى عدوكم في الصبر على مخالفة الهوى، وتخصيصُه بعد الأمر بالصبر مطلقاً لشدّته ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ أبدانكم وخيولكم في الثغور مترصدين للغزو، وأنفسكم على الطاعة ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ فاتقوه بالتبرِّي عما سواه لكي تفلحوا غاية الفلاح، أو واتقوا القبائح لعلكم تفلحون بنيل المقامات الثلاثة المترتبة التي هي الصبر على مضض الطاعات، ومصابرة النفس في رفض العادات، ومرابطة السر على جناب الحق لترصد الواردات، المعبَّر عنها بالشريعة والطريقة والحقيقة، والله تعالى أعلم.

تم بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة آل عمران وصلى الله تعالى على سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله ربِّ العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا
زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ
بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ
وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ
كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا
مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا
فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا
النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ
هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ
قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا
الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا
إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ
غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا
دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة النساء

مدنيَّة وهي مئة (وست) وسبعون آية

(١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاب يعمُّ بني آدم ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هي آدم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وخلق منه أمكم حواء ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ المعنى: ونَشَرَ منهما بنين وبنات كثيرة. وترتيب الأمر بالتقوى على هذه القصة لأن المراد به تمهيد الأمر بالتقوى فيما يتصل بحقوق أهل منزله وبني جنسه على ما دلَّت عليه الآيات التي بعدها ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ أي: يسأل بعضكم بعضاً فيقول: أسألك بالله تعالى ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ أي: اتقوا الله تعالى واتقوا الأرحام فَصِلوها ولا تقطعوها (أقول: صِلْ من قطعك، أحياناً أنت تصل وهو يقطع، لا بد أن لا تقطع بقطعه). وقد نبَّه سبحانه وتعالى إذ قرن الأرحام باسمه الكريم جل وعلا على أن صلتها بمكان منه. وعنه عليه الصلاة والسلام: «الرحم معلقة بالعرش تقول: ألا من وصلني وصله الله تعالى، ومن قطعني قطعه الله تعالى» [أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ حافظاً مطَّلعاً (أقول: لا بدَّ للعبد المؤمن بإيمانه أن يحفظ مراقبته، ويحذر من أن يراه ربه في معصية. اللهم طهِّر قلوبنا من كلِّ وصف يباعدنا عن هذه المراقبة والمشاهدة).

(٢) ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي: إذا بلغوا ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ ولا تستبدلوا الحرام من أموالهم بالحلال من أموالكم ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ ولا تأكلوها مضمومة إلى أموالكم، أي: لا تنفقوهما معاً ولا تسوّوا بينهما، وهذا حلال وذاك حرام، وهو فيما زاد على قدر أجره ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ ذنباً عظيماً.

(٣) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ أي: إن خفتم أن لا تعدلوا في يتامى النساء إذا تزوجتم بهنَّ فتزوجوا ما طاب لكم من غيرهنَّ؛ إذْ كان الرجل يجد يتيمة ذات مال وجمال فيتزوَّجها ضناً (أي: بخلًا) بها، فربما يجتمع عنده منهنَّ عدد ولا يقدر على القيام بحقوقهنَّ ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ

﴿أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ فانكحوا واحدة وذروا الجمع ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ﴾ سوَّى بين الواحدة من الأزواج والعدد من السراري (أي: الجواري) لخفة مؤنهنَّ وعدم وجوب القسم بينهنَّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: التقليل منهنَّ أو اختيار الواحدة أو التسري ﴿أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣﴾ أقرب من أن لا تميلوا (وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: أقرب ألا تكثر عيالكم فتفتقروا).

(٤) ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ مهورهن ﴿نِحۡلَةٗۚ﴾ أي: عطية ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا﴾ والمعنى: فإن وهبن لكم شيئاً من الصداق عن طيب نفس ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤﴾ فخذوه وأنفقوه حلالاً بلا تبعة.

(٥) ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ نهيٌ للأولياء عن أن يؤتوا الذين لا رشد لهم أموالهم فيضيعوها ﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾ أي: تقومون بها وتنتعشون (أي: تقوم بمعاشكم) ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ واجعلوها مكاناً لرزقهم وكسوتهم بأن تتجروا فيها وتحصلوا من نفعها ما يحتاجون إليه ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥﴾ عِدَة جميلة تطيب بها نفوسهم.

(٦) ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ اختبروهم قبل البلوغ بتتبع أحوالهم في صلاح الدين، والتهدي إلى ضبط المال وحسن التصرف ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ حتى إذا بلغوا حدَّ البلوغ بأن يحتلم، أو يستكمل خمس عشرة سنة عندنا (أي: عند الشافعية)، وثماني عشرة عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾ فإن أبصرتم منهم رشداً ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ من غير تأخير عن حدِّ البلوغ ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ﴾ مسرفين ومبادرين كِبَرَهم ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ﴾ من أكلها ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ بقدر حاجته وأجرة سعيه. وعنه عليه الصلاة والسلام: «أن رجلاً قال له: إن في حجري يتيماً أفآكل من ماله؟ قال: كل بالمعروف غير متأثل مالاً (أي: غير متَّخذ منه أصل مالٍ للتجارة ونحوها) ولا واق مالك بماله» [رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى] ﴿فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ بأنهم قبضوها، فإنه أنفى للتهمة وأبعد من الخصومة ووجوب الضمان ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦﴾ محاسباً، فلا تخالفوا ما أُمرتم به، ولا تتجاوزوا ما حُدَّ لكم.

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

(٧) ﴿**لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ**﴾ يريد بهم المتوارثين بالقرابة ﴿**مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾**﴾ نصيباً مقطوعاً واجباً لهم.

(٨) ﴿**وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ**﴾ ممن لا يرث ﴿**وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ**﴾ فأعطوهم شيئاً من المقسوم تطييباً لقلوبهم وتصدُّقاً عليهم، وهو أمر ندب للبُلَّغ من الورثة (أقول: وإذا كان في الورثة صغار لا يجوز أن يعطى شيءٌ لمن لا يرث) ﴿**وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾**﴾ وهو أن يدعوا لهم ويستقلوا ما أعطوهم ولا يمنُّوا عليهم.

(٩) ﴿**وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ**﴾ أمرٌ للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه في أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذراريهم الضعاف بعد وفاتهم. أو للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى والمساكين متصورين أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضعافاً مثلهم هل يجوِّزون حرمانهم؟! ﴿**فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾**﴾ أمرهم بالتقوى التي هي غاية الخشية بعد ما أمرهم بها مراعاة للمبدأ والمنتهى، ثم أمرهم أن يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لأولادهم بالشفقة وحسن الأدب.

(١٠) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا**﴾ ظالمين، أو على وجه الظلم ﴿**إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ**﴾ ملء بطونهم ﴿**نَارًا**﴾ ما يجرُّ إلى النار ويؤول إليها ﴿**وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾**﴾ سيدخلون ناراً وأيَّ نار.

(١١) ﴿**يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ**﴾ يأمركم ويعهد إليكم ﴿**فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ**﴾ في شأن ميراثهم، وهو إجمال، تفصيله: ﴿**لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ**﴾ أي: يُعدُّ كل ذكر بأنثيين حيث اجتمع الصنفان، فيضعف نصيبه (أقول: هنا بدأ بعلوم الفرائض، وترك قسماً من ذوي الفرائض، وقسماً من أحكام الحجب. والحجب قسمان: حجب حرمان، وحجب نقصان، كلُّ هذه الأحكام أخذها العلماء رحمهم الله تعالى من القرآن الكريم والسنة النبوية، خلافاً للشيعة. ولا تُعلم هذه الأحكام بالمقدار الذي يذكره المفسرون رحمهم الله تعالى، فعلوم الفرائض منبسطة معلومة عند أهل الديانة، فعلينا أن نرجع إلى علم الفرائض).

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً﴾ أي: إن كان الأولاد نساء خلصاً ليس معهنَّ ذكر ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي: نساء زائدات على اثنتين ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ المتوفى منكم ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ﴾ ولأبوي الميت ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ﴾ أي: للميت ﴿وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ فحسب ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ﴾ مما ترك ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ﴾ متعلق بما تَقدَّمه من قسمة المواريث كلها، أي: هذه الأنصباء للورثة من بعد ما كان من وصية أو دين ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ﴾ أي: لا تعلمون من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم في عاجلكم وآجلكم، فتحرَّوا فيهم ما أوصاكم الله تعالى به، ولا تعمدوا إلى تفضيل بعض وحرمانه ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ يأمركم ويفرض عليكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح والرتب ﴿حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ فيما قضى وقدَّر.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي الثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

(١٢) ﴿**وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ**﴾ أي: ولد وارث من بطنها، أو من صلب بنيها، أو بني بنيها وإن سفل، ذكراً كان أو أنثى، منكم أو من غيركم ﴿**مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ**﴾ فَرَضَ للرجل بحقِّ الزواج ضعفَ ما للمرأة كما في النسب.

﴿**وَإِن كَانَ رَجُلٌ**﴾ أي: الميت ﴿**يُورَثُ كَلَٰلَةً**﴾ وهو من لم يخلف ولداً ولا والداً، والمراد بها قرابة ليست من جهة الوالد والولد ﴿**أَوِ امْرَأَةٌ**﴾ عطف على رجل ﴿**وَلَهُۥٓ**﴾ أي: وللرجل، واكتفى بحكمه عن حكم المرأة لدلالة العطف على تشاركهما فيه ﴿**أَخٌ أَوْ أُخْتٌ**﴾ أي: من الأم ﴿**فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي الثُّلُثِ**﴾ سوَّى بين الذكر والأنثى في القسمة لأن الإدلاء بمحض الأنوثة، ومفهوم الآية أنهم لا يرثون ذلك مع الأم والجدة، كما لا يرثون مع البنت وبنت الابن، فخُصَّ فيه بالإجماع ﴿**مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ**﴾ أي: غير مضار لورثته بالزيادة على الثلث ﴿**وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ**﴾ بالمُضار وغيره ﴿**حَلِيمٌ ﴿١٢﴾**﴾ لا يعاجل بعقوبته.

(١٣) ﴿**تِلْكَ**﴾ إشارة إلى الأحكام التي قدمت في أمر اليتامى والوصايا والمواريث ﴿**حُدُودُ اللَّهِ**﴾ شرائعه التي هي كالحدود المحدودة التي لا يجوز مجاوزتها ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ**﴾ (في جميع الأوامر والنواهي التي من جملتها ما فُصِّل في الآيتين «١١-١٢» [المقتطف]) ﴿**يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾**﴾ (الذي لا فوز وراءه [المقتطف] أقول: وهو رضا الله تعالى).

(١٤) ﴿**وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾**﴾ (أقول: هذا لمن لم يتب و يرجع ويستغفر ومات على ما هو عليه من الكفر).

وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ
عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي
ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا
﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا
وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا
﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ
يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ
قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ
أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ
لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ
مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ
أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾

(١٥) ﴿**وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ**﴾ الفاحشة: الزنى، لزيادة قبحها وشناعتها ﴿**فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ**﴾ فاطلبوا ممن قذفهنَّ أربعة من رجال المؤمنين تشهد عليهن ﴿**فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ**﴾ فاحبسوهن في البيوت واجعلوها سجناً عليهن ﴿**حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ**﴾ أي: يتوفاهن ملائكة الموت. قيل: كان ذلك عقوبتهن في أوائل الإسلام فنسخ بالحدِّ ﴿**أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾**﴾ كتعيين الحدِّ المخلِّص عن الحبس، أو النكاح المغني عن السفاح.

(١٦) ﴿**وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ**﴾ يعني الزانية والزاني ﴿**فَـَٔاذُوهُمَاۖ**﴾ بالتوبيخ والتقريع ﴿**فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ**﴾ فاقطعوا عنهما الإيذاء، أو أعرضوا عنهما بالإغماض والستر ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾**﴾ علة الأمر بالإعراض وترك المذمَّة.

(١٧) ﴿**إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ**﴾ أي: إن قبول التوبة كالمحتوم على الله تعالى بمقتضى وعده ﴿**لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ**﴾ متلبِّسين بها سفهاً، فإن ارتكاب الذنب سفه وتجاهل ﴿**ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ**﴾ من زمان قريب، أي: قبل حضور الموت لقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر» [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى] ﴿**فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ**﴾ وعدٌ بالوفاء بها وعد به وكتب على نفسه بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا**﴾ فهو يعلم بإخلاصهم في التوبة ﴿**حَكِيمٗا ﴿١٧﴾**﴾ والحكيم لا يعاقب التائب.

(١٨) ﴿**وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ**﴾ والمراد بالذين يعملون السوء: عصاة المؤمنين، وبالذين يعملون السيئات: المنافقون لتضاعف كفرهم وسوء أعمالهم، وبالذين يموتون: الكفار ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾**﴾ تأكيد لعدم قبول توبتهم، وبيان أن العذاب أعدَّه لهم، لا يعجزه عذابهم متى شاء جل وعلا.

(١٩) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ﴾ كان الرجل إذا مات وله عَصَبة (أي: قرابة لأبيه) ألقى (أي: العصبةُ) ثوبَهُ على امرأته (أي: على امرأة الميت) وقال: أنا أحقُّ بها، ثم إن شاء تزوَّجها بصداقها الأول، وإن شاء زوَّجها غيره وأخذ صداقها، وإن شاء عضلها لتفتدي بها ورثت من زوجها، فنُهوا عن ذلك ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أي: ولا تمنعوهنَّ من التزويج. والخطاب مع الأزواج، كانوا يحبسون النساء من غير حاجة ورغبة حتى يرثوا منهنَّ أو يختلعْنَ بمهورهنَّ ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ﴾ كالنشوز وسوء العشرة وعدم التعفُّف ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ بالإِنصاف في الفعل والإِجمال في القول (أي: التلطُّف فيه) ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ أي: فلا تفارقوهن لكراهة النفس، فإنها قد تكره ما هو أصلح ديناً وأكثر خيراً، وقد تحبُّ ما هو بخلافه؛ وليكن نظركم إلى ما هو أصلح للدين وأدنى إلى الخير؛ والمعنى: فإن كرهتموهنَّ فاصبروا عليهنَّ فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

(أقول: عاشروهن بالمعروف، فكما تكون هذه الزوجة رفيقتك في الدنيا الفانية تحبُّها لحسنها، أو لمالها، أو لمودتها، أو للحظوظ النفسانية، لا بدَّ لك أن تحبَّ دينها كي يحفظها الله تعالى من العذاب، حتى تكون الرفيقة في الجنة، وإلا تكون خائناً في أداء الأمانة التي ائتمنت عليها، وقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]. والصابر على أخلاقهنَّ يعدُّ من المجاهدين، فلا تترك هذه المجاهدة حتى تدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. أما الغيرة الشرعية فلا يُصبر عليها، والأخلاق الباقية فهي من الطبيعة البشرية).

وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ
إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ
بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ
بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا
غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ
ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا
وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ
وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ
ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ
وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ
ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ
مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ
إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

(٢٠) ﴿**وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ**﴾ تطليق امرأة وتزوج أخرى ﴿**وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا**﴾ مالاً كثيراً ﴿**فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾**﴾ استفهام إنكار وتوبيخ، أي: أتأخذونه باهتين وآثمين؟ والبهتان: الكذب الذي يُبهت المكذوبَ عليه.

(٢١) ﴿**وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ**﴾ إنكار لاسترداد المهر، والحال أنه وصل إليها بالملامسة، ودخل بها وتقرَّر المهر ﴿**وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾**﴾ عهداً وثيقاً، وهو حقُّ الصحبة والممازجة، أو ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «أخذتموهنَّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى].

(٢٢) ﴿**وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ**﴾ فإنه لا مؤاخذة عليه (أقول: وهذا كان من عادة الجاهلية) ﴿**إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا**﴾ أي: إنَّ نكاحهنَّ كان فاحشة عند الله تعالى ما رخَّص فيه لأمةٍ من الأمم، ممقوتاً عند ذوي المروءات، ولذلك سمي ولد الرجل من زوجة أبيه المقتي (أي: المنسوب إلى نكاح المقت من زوجة أبيه) ﴿**وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾**﴾ سبيل من يراه ويفعله.

(٢٣) ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ**﴾ ليس المراد تحريم ذواتهنَّ، بل تحريم نكاحهنَّ، لأنه معظم ما يقصد منهنَّ؛ وأمهاتكم تعمُّ من ولدتك أو ولدت من ولدك وإن علت، وبناتكم تتناول من ولدْتَها أو ولدْتَ مَن ولدَها وإن سفلت، وأخواتكم من الأوجه الثلاثة، وكذلك الباقيات، والعمة والخالة وبنات الأخ وبنات الأخت تتناول القربى والبُعدى ﴿**وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ**﴾ (أقول: لا أخوات أخواتكم من الرضاعة) نَزَّلَ الله تعالى الرضاعة منزلة النسب حتى سمى المرضعة أماً والمراضعة أختاً، قال عليه الصلاة والسلام: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» [متفق عليه] ﴿**وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ**﴾ ذكر أولاً محرَّمات النسب، ثم محرَّمات الرضاعة لأن لها لحمة كلحمة

النسب، ثم محرَّمات المصاهرة فإن تحريمهنَّ عارض لمصلحة الزواج. والربائب: جمع ربيبة، والربيب: ولد المرأة من آخر. وقوله: ﴿دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ أي: دخلتم معهنَّ الستر، وهي كناية عن الجماع، قال رسول الله ﷺ في رجل تزوَّج امرأة وطلقها قبل أن يدخل بها: «إنه لا بأس أن يتزوَّج ابنتها، ولا يحلُّ له أن يتزوَّج أمها» [رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى] ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ تصريح بعد إشعار دفعاً للقياس ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾ زوجاتهم ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ (أقول: وكذا زوجة ابنك من الرضاعة، قال في بدائع الصنائع «٣/٤»: وكذلك تحرم حليلة ابن الرضاع وابن ابن الرضاع على أبي الرضاع وأبي أبيه كما في النسب) ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ والظاهر أن الحرمة غير مقصورة على النكاح، فإن المحرَّمات المعدودة كما هي محرَّمة في النكاح فهي محرَّمة في ملك اليمين ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ معناه: لكن ما قد سلَفَ مغفورٌ، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦﴾

(٢٤) ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ذوات الأزواج ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ يريد ما ملكت أيمانكم من اللاتي سُبِين ولهنَّ أزواج كفار، فهنَّ حلال للسابين، والنكاح مرتفع بالسبي لقول أبي سعيد رضي الله تعالى عنه: أصبنا سبايا يوم أوطاس ولهنَّ أزواج كفار، فكرهنا أن نقع عليهن، فسألنا النبي ﷺ، فنزلت الآية، فاستحللناهن [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: لو سُبي الزوجان لم يرتفع النكاح، ولم تحلَّ للسابي ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ أي: كتب الله تعالى عليكم تحريم هؤلاء كتاباً ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ ما سوى المحرَّمات المذكورة. وخص عنه بالسُّنة ما في معنى المذكورات كسائر محرَّمات الرضاع، والجمع بين المرأة وعمَّتها وخالتها ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ والمعنى: أحل لكم ما وراء ذلكم إرادة أن تبتغوا النساء بأموالكم بالصرف في مهورهن، أو أثمانهن (في حال شراء الجارية)، في حال كونكم محصنين غير مسافحين، والإِحصان: العفة، والسفاح: الزنى ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ﴾ من جماع أو عقد عليهنَّ ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهنَّ ﴿فَرِيضَةٗۚ﴾ بمعنى مفروضة ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ﴾ فيما يزاد على المسمى أو يحط عنه بالتراضي. وقيل: نزلت الآية في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتحت مكة ثم نسخت، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أباحها ثم أصبح يقول: «يا أيها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء، ألا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]. وهي النكاح المؤقت بوقت معلوم، سمي بها إذ الغرض منه مجرد الاستمتاع بالمرأة وتمتيعها بما تعطى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح ﴿حَكِيمٗا ﴿٢٤﴾﴾ فيما شرع من الأحكام.

(٢٥) ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا﴾ غنى واعتلاء ﴿أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أي: ومن لم يستطع منكم أن يعتلي نكاح المحصنات، أو من لم يستطع منكم غنى يبلغ به نكاح المحصنات، يعني الحرائر،

لقوله تعالى: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِۚ﴾ يعني الإماء المؤمنات ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ﴾ فاكتفوا بظاهر الإيمان فإنه العالم بالسرائر وبتفاضل ما بينكم في الإيمان، فرُبَّ أَمَةٍ تَفضُل الحرَّة فيه، ومن حقكم أن تعتبروا فضل الإيمان لا فضل النسب (أقول: أي: والله تعالى أعلم بتفاضل ما بينكم وبين أرقائكم في الإيمان، فربما كان إيمان الأَمَةِ أرجح من إيمان الحرَّة، وإيمان المرأة من إيمان الرجل، فلا ينبغي للمؤمن أن يطلب الفضل والرجحان إلا باعتبار الإيمان والإسلام، لا بالأحساب والأنساب، فبينكم وبين أرقائكم المؤاخاة الإيمانية والجنسية الدينية، لا يَفضُلُ حر عبداً إلا برجحان الإيمان وقدم الدين) ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ أنتم وأرقاؤكم متناسبون، نسبكم من آدم عليه السلام، ودينكم الإسلام ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ يريد أربابهن ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: أدوا إليهن مهورهن ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بغير مطل وإضرار ونقصان ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ عفائف ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ غير مجاهرات بالسفاح ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ﴾ أخلاء في السر ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ بالتزويج ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ﴾ زنى ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ يعني الحرائر ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِۚ﴾ من الحد، وهو يدلُّ على أن حدَّ العبد نصف حدِّ الحرِّ، وأنه لا يُرجم لأن الرجم لا ينتصف ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي نكاح الإماء ﴿لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْۚ﴾ لمن خاف الوقوع في الزنى ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْۗ﴾ أي: وصبركم عن نكاح الإماء متعففين خير لكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن لم يصبر ﴿رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ بأن رخص له.

(٢٦) ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ ما تعبَّدكم به من الحلال والحرام، أو ما خفي عنكم من مصالحكم ومحاسن أعمالكم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ مناهج من تقدمكم من أهل الرشد لتسلكوا طرقهم ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ﴾ ويغفر لكم ذنوبكم، أو يرشدكم إلى ما يمنعكم عن المعاصي ويحثكم على التوبة، أو إلى ما يكون كفارة لسيئاتكم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بها ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ في وضعها.

وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ
عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن
تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا
وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ
عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾
وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ
نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ
وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ
عَلِيمٗا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ
وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ
نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

(٢٧) ﴿**وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ**﴾ كرَّره للتأكيد والمبالغة ﴿**وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ**﴾ يعني الفجرة ﴿**أَن تَمِيلُواْ**﴾ عن الحق بموافقتهم على اتباع الشهوات واستحلال المحرمات ﴿**مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾**﴾ بالإضافة إلى ميل من اقترف خطيئة على ندور غير مستحلٍّ لها (أقول: جزاه الله خيراً قيَّد بقوله: «غير مستحلٍّ» حفظاً لإيمانهم).

(٢٨) ﴿**يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ**﴾ فلذلك شرع لكم الشرعة الحنيفيّة السمحة السهلة، ورخَّص لكم في المضايق، كإحلال نكاح الأَمَة ﴿**وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾**﴾ لا يصبر عن الشهوات ولا يتحمل مشاقَّ الطاعات (أقول: اللهم إنا نريد أن نتشبَّث بمن تخلَّق بأخلاق القرآن، اللهم وفِّقنا لذلك).

(٢٩) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ**﴾ بما لم يبحه الشرع كالغصب والربا والقمار ﴿**إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ**﴾ أي: تجارة صادرة عن تراضي المتعاقدين. وقيل: المراد بالنهي المنع عن صرف المال فيما لا يرضاه الله تعالى، وبالتجارة صرفه فيما يرضاه ﴿**وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ**﴾ بالبخع (أي: قتل النفس تأسفاً وتحزناً على ما فات) كما تفعله جهلة الهند، أو بإلقاء النفس إلى التهلكة ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾**﴾ أي: أمر ما أمر ونهى عما نهى لفرط رحمته عليكم.

(٣٠) ﴿**وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ**﴾ إشارة إلى القتل، أو ما سبق من المحرمات ﴿**عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا**﴾ إفراطاً في التجاوز عن الحق وإتياناً بما لا يستحقه. وقيل أراد بالعدوان التعدي على الغير، وبالظلم ظلم النفس بتعريضها للعقاب ﴿**فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ**﴾ ندخله إياها ﴿**وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾**﴾ لا عسر فيه ولا صارف عنه.

(٣١) ﴿**إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ**﴾ كبائر الذنوب التي نهاكم الله تعالى ورسوله ﷺ عنها (وهي الشرك بالله تعالى بأنواعه، من إثبات الوجود لغيره وإسناد الحوادث إلى الأسباب وغير ذلك، كما قال

أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم) ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ نغفر لكم صغائركم ونمحها عنكم (وخطاياكم اللاحقة لنفوسكم من لوازم بشريتكم ومقتضى طبيعتكم، كما قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم) واختُلف في الكبائر، والأقرب أن الكبيرة كل ذنب رتَّب الشارع عليه حداً أو صرح بالوعيد فيه. وقيل: ما عُلم حرمته بقاطع. وعن النبي ﷺ أنها سبع: «الإشراك بالله تعالى، وقتل النفس التي حرم الله، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، والربا، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين» [والحديث رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى].

﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ الجنة وما وعد من الثواب (أقول: فعلى العاقل المنوَّر أن لا يفعل المعاصي سواء كانت صغيرة أو كبيرة، إذ ربما يكون تحت هذه الصغيرة غضب الله تعالى، فيصيبه بها غضب الله جلَّ جلاله؛ لأن هذه الصغيرة عملْتَها بإصرار في ظاهرك، وعن علم في باطنك، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ [النساء: ١٨]؛ والله تبارك وتعالى ينظر إلى قلبك، فذلك هو المعتبر عنده جل وعلا، فيرى الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور أنك عملتها بدون جهل، مع العلم بها والتمادي فيها. وتأجيلُ التوبة ليس من شأن الإيمان والخشية من الله تعالى. والإنسان من طبيعته الغفلة، ومن مقتضى إيمانه التنبه والندامة على المعاصي، إذ يمكن على هذه الحالة أن تكون الكبيرة صغيرة إذا صاحبتها التوبة العاجلة، والصغيرة كبيرة إذا صاحبها الإصرار، ولابد للمؤمن أن لا يسوف التوبة، ولا يكون مصراً على الصغائر، نسأل الله تعالى السلامة من كلِّ ذنب مخالف لرضا الله تعالى ورضا رسوله ﷺ، سواء كان قولًا أو فعلًا).

(٣٢) ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ من الأمور الدنيوية كالجاه والمال، فلعل عدمه خير. والمقتضي للمنع كونه ذريعة إلى التحاسد والتعادي ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ أي: لكل من الرجال والنساء فضل ونصيب بسبب ما اكتسب ومن أجله، فاطلبوا الفضل من الله تعالى بالعمل لا بالحسد والتمني ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: لا تتمنوا ما للناس واسألوا الله تعالى مثله من خزائنه التي لا تنفذ. وهو يدلُّ على أنَّ المنهيَّ عنه هو الحسد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ فهو يعلم ما يستحقُّه كلُّ إنسان فيفضل عن علم وتبيان.

(٣٣) ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ أي: ولكل تركة جعلنا وراثاً يلونها ويحرزونها (أي: ينالونها) ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي: الأزواج، على أن العقد عقد النكاح ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ تهديد على منع نصيبهم.

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ
عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ
قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ
نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ
وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴿٣٤﴾ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ
بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن
يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا
﴿٣٥﴾ ۞وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ
إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ
ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ
وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن
كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ
ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾

(٣٤) ﴿**ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ**﴾ يقومون عليهن قيام الولاة على الرعية (أقول: لا بالضرب والشتم، بل بالنصيحة) ﴿**بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ**﴾ بسبب تفضيله تعالى الرجال على النساء بكمال العقل وحسن التدبير، ومزيد القوة في الأعمال والطاعات، ولذلك خُصُّوا بالنبوة والإمامة والولاية وإقامة الشعائر، والشهادة في مجامع القضايا، ووجوب الجهاد والجمعة ونحوها، والتعصيب (أي: كونه عَصَبة بنفسه) وزيادة السهم في الميراث، والاستبداد بالفراق ﴿**وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ**﴾ في نكاحهنَّ، كالمهر والنفقة.

﴿**فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ**﴾ مطيعات لله تعالى قائمات بحقوق الأزواج ﴿**حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ**﴾ أي: يحفظن في غيبة الأزواج ما يجب حفظه في النفس والمال، وقيل: لأسرارهم (أقول: الأسرار التي بين المرأة وزوجها يحرم عليها أن تبوح بها) ﴿**بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ**﴾ بحفظ الله تعالى إياهن بالأمر على حفظ الغيب والحث عليه بالوعد والوعيد والتوفيق له ﴿**وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ**﴾ عصيانهن وترفعهن عن مطاوعة الأزواج ﴿**فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ**﴾ في المراقد، فلا تدخلوهنَّ تحت اللحف، أو لا تباشروهنَّ فيكون كناية عن الجماع ﴿**وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ**﴾ يعني ضرباً غير مبرِّح ولا شائن، والأمور الثلاثة مرتبة ينبغي أن يتدرج فيها ﴿**فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ**﴾ بالتوبيخ والإيذاء. والمعنى: فأزيلوا عنهنَّ التعرض، واجعلوا ما كان منهنَّ كأنْ لم يكن (أقول: يعني أغمضوا عيونكم عن مخالفتهن) فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴿٣٤﴾**﴾ فاحذروه، فإنه أقدر عليكم منكم على مَنْ تحت أيديكم، أو أنه على علو شأنه يتجاوز عن سيئاتكم ويتوب عليكم فأنتم أحق بالعفو عن أزواجكم.

(٣٥) ﴿**وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا**﴾ خلافاً بين المرأة وزوجها ﴿**فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ**﴾ فابعثوا أيها الحكام متى اشتبه عليكم حالهما لتبيين الأمر أو إصلاح ذات البين، رجلاً وسطاً يصلح للحكومة والإصلاح من أهله وآخر من أهلها، فإن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للصلاح، وهذا

على وجه الاستحباب، فلو نُصِّبا من الأجانب جاز ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ الضمير الأول للحكمين والثاني للزوجين، أي: إن قصدا الإِصلاح أوقع الله تعالى بحسن سعيهما الموافقة بين الزوجين. وفيه تنبيه على أن من أصلح نيَّته فيما يتحرَّاه أصلح الله تعالى مبتغاه (أقول: ولكن أكثرنا يقدِّم حظوظ نفسه على مبتغى ربِّه، ولذا يفوح من فمه كلامٌ يدلُّ على نفسه، لا يتكلَّم بجوهرة روحه كلاماً موافقاً لعظمته جلَّ وعلا).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ٣٥﴾ بالظواهر والبواطن، فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق (أقول: لا بد أن نجعل بواطننا موافقة لرضا الله تعالى، لا بالظاهر فقط، فهو مطَّلع على النيَّات جلَّ وعلا).

(٣٦) ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ صنماً أو غيره، أو شيئاً من الإِشراك جلياً أو خفياً ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ وأحسنوا بهما إحساناً ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ وبصاحب القرابة ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي: الذي قرب جواره. وقيل: الذي له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين ﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾ البعيد، أو الذي لا قرابة له ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ الرفيق في أمر حسن، كتعلُّم وتصرُّف وصناعة وسفر ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر أو الضيف ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾ العبيد والإماء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا﴾ متكبراً يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم ﴿فَخُورًا ٣٦﴾ يتفاخر عليهم.

(٣٧) ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ الغنى والعلم، فهم أحقاء بكلِّ ملامة ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧﴾ أي: من هذا شأنه فهو كافر لنعمة الله جلَّ وعلا، ومن كان كافراً لنعمة الله جلَّ وعلا فله عذاب يهينه كما أهان النعمة بالبخل والإِخفاء.

وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ
قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟
مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ
اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ الصَّلَوٰةَ
وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى
سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ
أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ النِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً
فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ
الْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ الضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

(٣٨) ﴿**وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ النَّاسِ**﴾ عطف على الذين يبخلون ﴿**وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْءَاخِرِ**﴾ ليتحروا بالإنفاق مراضيه وثوابه ﴿**وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾**﴾ تنبيه على أن الشيطان قرينهم، فحملهم على ذلك وزيّنه لهم.

(٣٩) ﴿**وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ**﴾ أيُّ تبعة تحيق بهم بسبب الإيمان والإنفاق في سبيل الله تعالى؟ وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة والاعتقاد في الشيء على خلاف ما هو عليه، وتحريض على الفكر لطلب الجواب، لعله يؤدي بهم إلى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة، والعوائد الجميلة ﴿**وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾**﴾ وعيد لهم.

(٤٠) ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ**﴾ لا ينقص من الأجر ولا يزيد في العقاب أصغر شيء كالذرة، وهي النملة الصغيرة، ويقال لكل جزء من أجزاء الهباء ﴿**وَإِن تَكُ حَسَنَةً**﴾ وإن يكن مثقال الذرة حسنة ﴿**يُضَٰعِفْهَا**﴾ يضاعف ثوابها ﴿**وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ**﴾ ويعط صاحبها من عنده على سبيل التفضل زائداً على ما وعد في مقابلة العمل ﴿**أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾**﴾ عطاء جزيلاً.

(٤١) ﴿**فَكَيْفَ**﴾ أي: فكيف حال هؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى وغيرهم ﴿**إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ**﴾ يعني نبيهم يشهد على فساد عقائدهم وقبح أعمالهم ﴿**وَجِئْنَا بِكَ**﴾ يا محمد عليه الصلاة والسلام ﴿**عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾**﴾ تشهد على صدق هؤلاء الشهداء، لعلمك بعقائدهم، واستجماع شرعك مجامع قواعدهم.

(٤٢) ﴿**يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ**﴾ أي: يود الكفرة والعصاة في ذلك الوقت أن يدفنوا فتسوى بهم الأرض كالموتى، أو لم يبعثوا، أو لم يخلقوا وكانوا هم والأرض سواء ﴿**وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾**﴾ ولا يقدرون على كتمانه، لأن جوارحهم تشهد عليهم.

(٤٣) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ**﴾ أي: لا تقوموا إليها

وأنتم سكارى حتى تنتبهوا وتعلموا ما تقولون في صلاتكم ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ عطف على قوله: ﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ والجنب الذي أصابته الجنابة ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ أي: لا تقربوا الصلاة جنباً في عامة الأحوال إلا في السفر، وذلك إذا لم يجد الماء وتيمم ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ غاية النهي عن القربان حال الجنابة. وفي الآية تنبيه على أن المصلي ينبغي أن يتحرَّز عما يلهيه ويشغل قلبه، ويزكي نفسه عما يجب تطهيرها عنه.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ مرضاً يخاف معه من استعمال الماء، فإن الواجد له كالفاقد، أو مرضاً يمنعه عن الوصول إليه ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ لا تجدونه فيه ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ فأحدث بخروج الخارج من أحد السبيلين ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أو ماسستم بشرتهنَّ ببشرتكم، وبه استدلَّ الإمام الشافعي رحمه الله تعالى على أن اللمس ينقض الوضوء. وقيل: أو جامعتموهن (أقول: وهذا مذهب الأحناف؛ لأن اللمس عند الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى بمعنى الجماع) ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾ فلم تتمكَّنوا من استعماله، إذ الممنوع عنه كالمفقود ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ أي: فتعمدوا شيئاً من وجه الأرض طاهراً. ولذلك قالت الحنفية: لو ضرب المتيمم يده على حجر صلد ومسح به أجزأه. وقال أصحابنا: لا بد من أن يعلق باليد شيء من التراب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ فلذلك يسَّر الأمر عليكم ورخَّص لكم.

(أقول: السُّكْرُ على أربعة أقسام:

سكر بالخمر، وسكر بالدنيا، وسكر بالهوى، وسكر بمحبة الله تعالى ورسوله ﷺ.

الأول: سكر بالخمر، فقد نهى الله تعالى عنه بالآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

الثاني: سكر بالدنيا، نبَّه الله تعالى عليه بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

الثالث: سكر بالهوى، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

الرابع: سكر بمحبة الله تعالى ورسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. حبُّ الله تعالى يذهل القلب عن الدنيا والنفس، ويبقى فيه همٌّ واحد، وهو حبُّ الله تعالى وحده، وحبُّ الرسول عليه الصلاة والسلام، يصدق بمتابعة السنة المطهرة، لأن المحبة تقتضي الطاعة، وإلا فدعواه باطلة).

(٤٤) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟﴾ من رؤية البصر أو القلب ﴿نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ حظاً يسيراً من علم التوراة، لأن المراد أحبار اليهود ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ يختارونها على الهدى ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ سبيل الحق.

وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾
مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ
سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ
وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا
لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا
مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا
عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ
ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ
ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا
﴿٤٨﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ
وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ
وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا
مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ
لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾

(٤٥) ﴿**وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ**﴾ منكم ﴿**بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ**﴾ وقد أخبركم بعداوة هؤلاء وما يريدون بكم فاحذروهم (أقول: الله تعالى أعلم بعداوة نفوسكم والشيطان، فعلينا جميعاً أن نستعيذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن شرور الشيطان اللعين، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك» [رواه الإمام البيهقي رحمه الله تعالى] نستعيذ بالله تعالى من شرور نفوسنا الأمارة) ﴿**وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا**﴾ يلي أمركم ﴿**وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾**﴾ يعينكم، فثقوا عليه واكتفوا به عن غيره.

(٤٦) ﴿**مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ**﴾ أي: من الذين هادوا قوم يحرفون الكلم، أي: يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله تعالى فيها بإزالته عنها وإثبات غيره فيها، أو يؤولونه على ما يشتهون فيميلونه عما أنزل الله تعالى فيه ﴿**وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا**﴾ قولك ﴿**وَعَصَيۡنَا**﴾ أمرك ﴿**وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ**﴾ أي: مدعواً عليك بلا سمعت لصمم أو موت، أو اسمع غير مجاب إلى ما تدعو إليه ﴿**وَرَٰعِنَا**﴾ انظرنا نكلمك أو نفهم كلامك ﴿**لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ**﴾ فتْلًا بها وصرفاً للكلام إلى ما يشبه السبَّ ﴿**وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ**﴾ استهزاء به وسخرية ﴿**وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ**﴾ لكان قولهم ذلك خيراً لهم وأعدل ﴿**وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ**﴾ ولكن خذلهم الله جلَّ وعلا وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم ﴿**فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾**﴾ أي: إلا إيماناً قليلًا لا يُعبأ به، وهو الإيمان ببعض الآيات والرسل، أو إلا قليلاً منهم آمنوا أو سيؤمنون.

(٤٧) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ**﴾ من قبل أن نمحو تخطيط صورها ونجعلها على هيئة أدبارها، يعني الأقفاء، أو ننكسها إلى ورائها في الدنيا، أو في الآخرة ﴿**أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ**﴾ أو نخزيهم بالمسخ كما أخزينا به أصحاب السبت، أو نلعنهم على لسانك كما لعنّاهم على لسان داود عليه السلام ﴿**وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ**﴾ وعيده، أو ما حكم به وقضاه ﴿**مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾**﴾ نافذاً وكائناً، فيقع لا محالة ما أُوعدتم به إن لم تؤمنوا.

(٤٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ لأنه بتَّ الحكم على خلود عذابه، وأنَّ ذنبه لا ينمحي عنه أثره، فلا يستعدُّ للعفو، بخلاف غيره ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما دون الشرك صغيراً كان أو كبيراً ﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾ تفضُّلاً عليه وإحساناً (من التائبين وغيرهم، كما قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم). والآية حجَّة على الخوارج الذين زعموا أنَّ كلَّ ذنب شركٌ، وأن صاحبَه خالدٌ في النار ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ ارتكب ما يستحقر دونه الآثام، وهو إشارة إلى المعنى الفارق بينه وبين سائر الذنوب.

(٤٩) ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ﴾ يعني أهل الكتاب قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] وفي معناهم من زكى نفسه وأثنى عليها ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ تنبيه على أن تزكيته تعالى هي المعتد بها دون تزكية غيره، فإنه العالم بما ينطوي عليه الإنسان من حَسَن وقبيح، وقد ذمهم وزكى المرتضين من عباده المؤمنين ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ﴾ بالذم أو العقاب على تزكيتهم أنفسهم بغير حق ﴿فَتِيلًا ٤٩﴾ أدنى ظلم وأصغره، وهو الخيط الذي في شق النواة يضرب به المثل في الحقارة.

(٥٠) ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ في زعمهم أنهم أبناء الله تعالى وأزكياء عنده ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾ بزعمهم هذا، أو بالافتراء ﴿إِثۡمًا مُّبِينًا ٥٠﴾ لا يخفى كونه مأثماً من بين آثامهم.

(٥١) ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ نزلت في يهود كانوا يقولون: إن عبادة الأصنام أرضى عند الله جلَّ وعلا مما يدعوهم إليه محمد عليه الصلاة والسلام. وقيل: في حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف في جمع من اليهود خرجوا إلى مكة يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ فقالوا: أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب إلى محمد عليه الصلاة والسلام منكم إلينا فلا نأمن مكركم، فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم، ففعلوا. والجِبْت: في الأصل اسم صنم، فاستعمل في كلِّ ما عبد من دون الله تعالى. والطاغوت: يطلق لكل باطل من معبود أو غيره ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ٥١﴾ أقوم ديناً وأرشد طريقاً.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾
أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمۡ
يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ
ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴿٥٤﴾
فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا
﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ
جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ
لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞إِنَّ
ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ
ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا
بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي
ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ
تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾

(٥٢) ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾**﴾ يمنع العذاب عنه بشفاعة أو غيرها.

(٥٣) ﴿**أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ**﴾ إنكارُ أن يكون لهم نصيب من الملك، وجحدٌ لما زعمت اليهود من أن الملك سيصير إليهم ﴿**فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾**﴾ أي: لو كان لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون أحداً ما يوازي نقيراً، وهو النقرة في ظهر النواة.

(٥٤) ﴿**أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ**﴾ بل أيحسدون رسول الله ﷺ وأصحابه، أو العرب، أو الناس جميعاً، لأن من حسد على النبوة فكأنما حسد الناس كلهم ﴿**عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ**﴾ يعني: النبوة والكتاب والنصرة والإعزاز وجعل النبي الموعود منهم ﴿**فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ**﴾ الذين هم أسلاف محمد ﷺ وأبناء عمه ﴿**ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ**﴾ النبوة ﴿**وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴿٥٤﴾**﴾ فلا يبعد أن يؤتيه الله تعالى مثل ما آتاهم.

(٥٥) ﴿**فَمِنۡهُم**﴾ من اليهود ﴿**مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ**﴾ بمحمد ﷺ ﴿**وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ**﴾ أعرض عنه ولم يؤمن به ﴿**وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾**﴾ ناراً مسعورة يعذَّبون بها.

(٥٦) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا**﴾ بأن يعاد ذلك الجلد بعينه على صورة أخرى ﴿**لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ**﴾ أي: ليدوم لهم ذوقه. وقيل: يخلق لهم مكانه جلد آخر والعذاب في الحقيقة للنفس العاصية المدركة لا لآلة إدراكها، فلا محذور ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا**﴾ لا يمتنع عليه ما يريده ﴿**حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾**﴾ يعاقِب على وفق حكمته.

(٥٧) ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾**﴾ دائماً لا تنسخه الشمس، وهو إشارة إلى النعمة التامة الدائمة.

(٥٨) ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا**﴾ خطاب يعمُّ المكلفين والأمانات، وإن نزلت يوم

الفتح في عثمان بن طلحة بن عبد الدار لما أغلق باب الكعبة، وأبى أن يدفع المفتاح ليدخل فيها رسول الله ﷺ وقال: لو علمتُ أنه رسول الله ﷺ لم أمنعه، فَلَوَى عليٌّ ـ كرم الله وجهه ـ يدَه وأخذه منه وفتح، فدخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين، فلما خرج سأله العباس رضي الله تعالى عنه أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة، فنزلت، فأمره الله تعالى أن يردَّه إليه، فأمر علياً رضي الله تعالى عنه أن يردَّه ويعتذر إليه، وصار ذلك سبباً لإسلامه، ونزل الوحي بأن السدانة في أولاده أبداً ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أي: وأن تحكموا بالإنصاف والسوية إذا قضيتم بين من ينفذ عليه أمركم أو يرضى بحكمكم ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ أي: نعم شيئاً يعظكم به ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ بأقوالكم وأحكامكم وما تفعلون في الأمانات.

(٥٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ يريد بهم أمراء المسلمين في عهد الرسول ﷺ وبعده، ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة وأمراء السرية؛ أمر الناس بطاعتهم بعد ما أمرهم بالعدل تنبيهاً على أن وجوب طاعتهم ما داموا على الحق. وقيل: علماء الشرع، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ﴾ أنتم وأولو الأمر منكم ﴿فِي شَيْءٍ﴾ من أمور الدين، وهو يؤيد الوجه الأول، إذ ليس للمقلد أن ينازع المجتهد في حكمه بخلاف المرؤوس ﴿فَرُدُّوهُ﴾ فارجعوا فيه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ إلى كتابه ﴿وَالرَّسُولِ﴾ بالسؤال عنه في زمانه عليه الصلاة والسلام، والمراجعة إلى سنته بعده عليه الصلاة والسلام ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فَإِنَّ الإيمان يوجب ذلك ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الرد ﴿خَيْرٌ﴾ لكم ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ عاقبة أو أحسن تأويلاً من تأويلكم.

(أقول: ويفهم من هذه الآية الكريمة: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ أن إطاعة الله تعالى فرضٌ قطعيٌّ ما دام المكلف حياً، وهكذا إلى قيام يوم القيامة؛ وإطاعة الرسول ﷺ، كذلك فرض في حياته، وقيّد هذا بذاته الشريفة وبالوحي، وبعد انتقاله عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى بقيت سنته ﷺ في أمته، فعلى المكلف أن يتبعها. ولمعرفة هذه السنة لا بدَّ من علماء الدين الذين يرجِّحون الدين على الدنيا، فلا يمكن أن تلعب هذه الدنيا بهم، وهم مجتمعون على الصدق الذي أوصى الله تعالى به عباده بقوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] لا ينتهي هؤلاء الصادقون من أمة سيد المرسلين ﷺ إلى قيام الساعة).

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى الطَّٰغُوتِ
وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ الشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ
ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ
اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ
صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ
إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا
فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ
أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا
لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
جَآءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا۟ اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ
لَوَجَدُوا۟ اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟
فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

(٦٠) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى الطَّٰغُوتِ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن منافقاً خاصم يهودياً، فدعاه اليهودي إلى النبي ﷺ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف، ثم إنهما احتكما إلى رسول الله ﷺ، فحكم لليهودي، فلم يرض المنافق بقضائه وقال: نتحاكم إلى عمر، فقال اليهودي لعمر: قضى لي رسول الله ﷺ فلم يرض بقضائه وخاصم إليك، فقال عمر رضي الله تعالى عنه للمنافق: أكذلك؟ فقال نعم. فقال: مكانكما حتى أخرج إليكما، فدخل فأخذ سيفه ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى برد، وقال: هكذا أقضي لمن لم يرضَ بقضاء الله تعالى ورسوله ﷺ» فنزلت، وقال جبريل: إن عمر قد فرَّق بين الحق والباطل، فسمي الفاروق. والطاغوت على هذا كعب بن الأشرف، وفي معناه من يحكم بالباطل ويؤثر لأجله، سمي بذلك لفرط طغيانه، أو لتشبهه بالشيطان، أو لأن التحاكم إليه تحاكم إلى الشيطان من حيث إنه الحامل عليه كما قال: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ الشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ﴾ (عن الحق) ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ (مستمراً حتى الموت [المدارك للنسفي رحمه الله تعالى]).

(٦١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ (للمنافقين) ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ (للتحاكم) ﴿رَأَيْتَ الْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ (يعرضون عنك إلى غيرك ليغروه بالرشوة فيقضي لهم. [المدارك للنسفي])

(٦٢) ﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حالهم ﴿إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ كقتل عمر رضي الله عنه المنافق، أو النقمة من الله تعالى ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من التحاكم إلى غيرك وعدم الرضى بحكمك ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ حين يصابون للاعتذار ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ ما أردنا بذلك إلا الفصل بالوجه الأحسن والتوفيق بين الخصمين، ولم نرد مخالفتك.

(٦٣) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق، فلا يغني عنهم الكتمان والحلف الكاذب من العقاب ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: عن عقابهم لمصلحة في استبقائهم أو عن قبول معذرتهم

﴿وَعِظْهُمْ﴾ بلسانك وكُفَّهم عما هم عليه ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: خالياً بهم فإن النصح في السر أنجع ﴿قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ يبلغ منهم ويؤثر فيهم، أمره بالتجافي عن ذنوبهم والنصح لهم والمبالغة فيه بالترغيب والترهيب، وذلك مقتضى شفقة الأنبياء عليهم السلام.

(٦٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بسبب إذنه في طاعته وأمره المبعوثَ إليهم بأن يطيعوه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالنفاق أو التحاكم إلى الطاغوت ﴿جَآءُوكَ﴾ تائبين من ذلك ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ بالتوبة والإخلاص ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ واعتذروا إليك حتى انتصبت لهم شفيعاً ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ لعلموه قابلاً لتوبتهم متفضلاً عليهم بالرحمة.

(٦٥) ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ أي: فوربِّك ﴿لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ فيما اختلف بينهم واختلط ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ ضيقاً مما حكمت به ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ وينقادوا لك انقياداً بظاهرهم وباطنهم.

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن
دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ
بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأٓتَيْنَٰهُم مِّن
لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾
وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم
مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ
أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ
فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ
فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ
شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن
لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ
فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ
يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

(٦٦) ﴿**وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ**﴾ تعرضوا بها للقتل في الجهاد، أو اقتلوها كما قتل بنو إسرائيل ﴿**أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم**﴾ خروجهم حين استتيبوا من عبادة العجل ﴿**مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْۖ**﴾ إلا أناس قليل وهم المخلصون ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ**﴾ من متابعة الرسول ﷺ ومطاوعته طوعاً ورغبة ﴿**لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ**﴾ في عاجلهم وآجلهم ﴿**وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾**﴾ في دينهم، لأنه أشد لتحصيل العلم ونفي الشك أو تثبيتاً لثواب أعمالهم.

(٦٧) ﴿**وَإِذًا لَّأٓتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾**﴾ وإذاً لو تثبتوا لآتيناهم.

(٦٨) ﴿**وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾**﴾ يصلون بسلوكه جناب القدس، ويفتح عليهم أبواب الغيب.

(٦٩) ﴿**وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم**﴾ مزيد ترغيب في الطاعة بالوعد عليها مرافقة أكرم الخلائق وأعظمهم قدراً ﴿**مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ**﴾ قسمهم أربعة أقسام بحسب منازلهم في العلم والعمل، وحث كافة الناس على أن لا يتأخروا عنهم، وهم: **الأنبياء** الفائزون بكمال العلم والعمل، المتجاوزون حد الكمال إلى درجة التكميل. ثم **الصديقون** الذين صعدت نفوسهم تارة بمراقي النظر في الحجج والآيات وأخرى بمعارج التصفية والرياضات إلى أوج العرفان، حتى اطلعوا على الأشياء وأخبروا عنها على ما هي عليها. ثم **الشهداء** الذين أدى بهم الحرص على الطاعة والجد في إظهار الحق حتى بذلوا مهجهم في إعلاء كلمة الله تعالى. ثم **الصالحون** الذين صرفوا أعمارهم في طاعته وأموالهم في مرضاته. ولك أن تقول: المنعَم عليهم هم العارفون بالله تعالى، وهؤلاء إما أن يكونوا بالغين درجة العيان (أقول: يعبدون الله تعالى كأنّهم يرونه، كما جاء في الحديث الشريف: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [متفق عليه]) أو واقفين في مقام الاستدلال والبرهان. والأولون إما أن ينالوا مع العيان القرب بحيث يكونون كمن يرى الشيء قريباً وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو لا فيكونون كمن يرى الشيء بعيداً وهم الصديقون، والآخرون إما أن يكون عرفانهم بالبراهين القاطعة وهم العلماء الراسخون في العلم الذين هم

شهداء الله تعالى في أرضه، وإما أن يكون بأمارات وإقناعات تطمئن إليها نفوسهم وهم الصالحون ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ في معنى التعجب (أقول: فعلى المرء أن يتبع الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن يتبع أولياء الله تعالى، فإن الأنبياء لهم وحي إلهيٌّ، والأولياء لهم إلهام ربانيٌّ [تفسير روح البيان]). روي أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه، فسأله عن حاله، فقال: ما بي من وجع غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة فخفت أن لا أراك هناك لأني عرفت أنك ترتفع مع النبيين وإن أدخلت الجنة كنت في منزل دون منزلك، وإن لم أدخل فذاك حينٌ لا أراك أبداً. فنزلت [رواه الطبراني في الصغير والواحدي في أسباب النزول] (أقول: هذا ينطبق على أهل التصوف الحقيقيين، فإنهم يشتاقون إلى لقاء شيخهم ومرشدهم، سبب هذا أنهم بفيوضات شيوخهم يطهرون، وببعدهم عن شيوخهم لا يحصل هذا التطهير، هذا مثل كنز يريد الإنسان أن يستخرجه، لكن ذلك لا يمكن إلا بواسطة خبير تعلَّم وتدرَّب على استخراج المعادن المدفونة، وهذا يحصل لمشايخ الطريق الحقيقيين، من أنكر هذا يكون كمن في عينه مانع من رؤية الشمس، يقال له: هل تُرى الشمس؟ فيقول: لا، فالعذر منه لا من الشمس؛ إنا لله وإنا إليه راجعون).

(٧٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما للمطيعين من الأجر ومزيد الهداية ومرافقة المنعم عليهم، أو إلى فضل هؤلاء المنعم عليهم ومزيتهم ﴿ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠﴾ بجزاء من أطاعه، أو بمقادير الفضل واستحقاق أهله.

(٧١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ تيقَّظوا واستعدوا للأعداء (أقول: كما أُمرتَ أن تأخذ حذرك من عدوك الظاهر أُمرتَ أن تأخذ حذرك من عدوك الباطن، وعدوك الباطن نفسك وشيطانك فلا تأمن من نفسك مهما بلغت المراتب، لأنها قد ترجع إلى أصلها أمارة بالسوء. وأما شيطانك فعداوته واضحة بنص الكتاب. جاهد نفسك بقلة الطعام والكلام والنوم، وكن على حذر منها إذا شبعت من حلال. وجاهد شيطانك بكثرة الذكر لله تعالى، لأنه ليس له سبيل على الذاكرين لله تعالى بقلب حاضر. نرجو الله تعالى أن يعيننا على أنفسنا وأهوائنا وشياطيننا، إنه على ما يشاء قدير).

﴿فَٱنفِرُواْ﴾ فاخرجوا إلى الجهاد ﴿ثُبَاتٍ﴾ جماعات متفرقة ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١﴾ مجتمعين كوكبة واحدة. والآية وإن نزلت في الحرب، لكن يقتضي إطلاق لفظها وجوب المبادرة إلى الخيرات كلها كيفما أمكن قبل الفوات (أقول: طبيعة الإنسان الكسل، هذا واحد، والثاني أنه عدو ما لم يعلم فينكره. والفوات إما أن يحصل بالموت أو بفوات ملاقاة من يطلب منه، أكثر الناس لا يميزون بين الجوهر والشيء المزين، الجوهر بأصله جوهر أما المزين بظاهره فليس كالجوهر الحقيقي ولكن أكثر الناس عن هذا غافلون).

(٧٢) ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ الخطاب لعسكر رسول الله ﷺ، المؤمنين منهم والمنافقين. والمبطئون: منافقوهم تثاقلوا وتخلَّفوا عن الجهاد ﴿فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ كقتل وهزيمة ﴿قَالَ﴾ أي: المبطئ ﴿قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ٧٢﴾ حاضراً فيصيبني ما أصابهم.

(٧٣) ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ كفتح وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧٣﴾ للتنبيه على ضعف عقيدتهم، وأن قولهم هذا قول من لا مواصلة بينكم وبينه، وإنما يريد أن يكون معكم لمجرد المال.

(٧٤) ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: الذين يبيعونها بها، والمعنى: إن بطأ هؤلاء عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم في طلب الآخرة ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٧٤﴾ وعد له الأجر العظيم غَلَبَ أو غُلِبَ، ترغيباً في القتال وتكذيباً لقولهم: ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ وإنما قال: ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ تنبيهاً على أن المجاهد ينبغي أن يثبت في المعركة حتى يعز نفسه بالشهادة، أو الدين بالظفر والغلبة، وأن لا يكون قصده بالذات إلى القتل، بل إلى إعلاء الحق وإعزاز الدين.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ
ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ
نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ
ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ
وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ
مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ
كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا
قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا
تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ
حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟
هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن
سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

(٧٥) ﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ**﴾ أي: وفي سبيل المستضعفين، وهو تخليصهم من الأسر وصونهم عن العدو ﴿**مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ**﴾ بيان للمستضعفين، وهم المسلمون الذين بقوا بمكة بصدِّ المشركين، أو ضعفهم عن الهجرة مستذَلِّين ممتَحَنِين ﴿**ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾**﴾ فاستجاب الله تعالى دعاءهم بأن يسر لبعضهم الخروج إلى المدينة وجعل لمن بقي منهم خير ولي وناصر بفتح مكة على يد نبيه ﷺ، فتولاهم ونصرهم، ثم استعمل عليهم عتاب بن أسيد رضي الله عنه فحماهم ونصرهم حتى صاروا أعزَّ أهلها.

(٧٦) ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ فيما يصلون به إلى الله تعالى ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ**﴾ فيما يبلغ بهم إلى الشيطان ﴿**فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ**﴾ لما ذكر مقصد الفريقين أمر أولياءه أن يقاتلوا أولياء الشيطان، ثم شجَّعهم بقوله: ﴿**إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾**﴾ أي: إن كيده للمؤمنين بالإضافة إلى كيد الله سبحانه وتعالى للكافرين ضعيف لا يؤبه به، فلا تخافوا أولياءه، فإن اعتمادهم على أضعف شيء وأوهنه.

(٧٧) ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ**﴾ أي: عن القتال ﴿**وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ**﴾ واشتغلوا بما أمرتم به ﴿**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ**﴾ يخشون الكفار أن يقتلوهم كما يخشون الله تعالى أن ينزل عليهم بأسه ﴿**أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ**﴾ استزادة في مدة الكف عن القتال حذراً عن الموت ﴿**قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ**﴾ سريع التقضي ﴿**وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾**﴾ أي: ولا تنقصون أدنى شيء من ثوابكم، فلا ترغبوا عنه، أو من آجالكم المقدرة.

(٧٨) ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ**﴾ في قصور أو حصون مرتفعة ﴿**وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ**﴾ أي: وإن تصبهم نعمة كخصب نسبوها إلى الله سبحانه وتعالى، وإن تصبهم بلية كقحط أضافوها إليك ﴿**قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ**﴾ أي: يبسط ويقبض حسب إرادته ﴿**فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾**﴾ يوعظون به، وهو القرآن، فإنهم لو فهموه وتدبَّروا معانيه لعلموا أنَّ الكلَّ من عند الله سبحانه وتعالى.

(٧٩) ﴿**مَّآ أَصَابَكَ**﴾ يا إنسان ﴿**مِنْ حَسَنَةٍ**﴾ من نعْمَةٍ ﴿**فَمِنَ ٱللَّهِ**﴾ أي: تفضلاً منه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «ما يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله تعالى. قيل: ولا أنت؟ قال: ولا أنا» [أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى] ﴿**وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ**﴾ من بلية ﴿**فَمِن نَّفْسِكَ**﴾ لأنها السبب فيها لاستجلابها بالمعاصي ﴿**وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾**﴾ على رسالتك بنصب المعجزات.

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ
عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ
عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ
مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا
﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ
فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ
أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي
ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ
ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾
فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ
عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا
وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ
نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ
بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

(٨٠) ﴿**مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ**﴾ لأنه عليه الصلاة والسلام في الحقيقة مبلِّغ، والآمر هو الله سبحانه وتعالى ﴿**وَمَن تَوَلَّىٰ**﴾ عن طاعته ﴿**فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾**﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

(٨١) ﴿**وَيَقُولُونَ**﴾ إذا أمرتهم بأمر: ﴿**طَاعَةٞ**﴾ أي: مِنَّا طاعة ﴿**فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ**﴾ خرجوا ﴿**بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ**﴾ أي: زورت خلاف ما قلت لها، أو ما قالت لك من القبول وضمان الطاعة ﴿**وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ**﴾ يثبته في صحائفهم للمجازاة ﴿**فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ**﴾ قلل المبالاة بهم، أو تجاف عنهم ﴿**وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ**﴾ في الأمور كلها سيما في شأنهم ﴿**وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾**﴾ يكفيك مضرتهم وينتقم لك منهم.

(٨٢) ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ**﴾ يتأملون في معانيه ويتبصرون ما فيه ﴿**وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ**﴾ أي: ولو كان من كلام البشر كما تزعم الكفار ﴿**لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾**﴾ من تناقض المعنى وتفاوت النظم، وكان بعضه فصيحاً وبعضه ركيكاً، وبعضه يصعب معارضته وبعضه يسهل، ومطابقة بعض أخباره المستقبلة للواقع دون بعض، وموافقة العقل لبعض أحكامه دون بعض، على ما دلَّ عليه الاستقراء لنقصان القوة البشرية.

(٨٣) ﴿**وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ**﴾ مما يوجب الأمن أو الخوف ﴿**أَذَاعُواْ بِهِۦۖ**﴾ أفشوه كما كان يفعله قوم من ضعفة المسلمين إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله ﷺ، أو أخبرهم الرسول ﷺ بما أوحي إليه من وعد بالظفر، أو تخويف من الكفرة أذاعوا به لعدم حزمهم، فكانت إذاعتهم مفسدة ﴿**وَلَوۡ رَدُّوهُ**﴾ أي: ولو ردوا ذَلك الخبر ﴿**إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ**﴾ إلى رأيه ورأي كبار أصحابه البصراء بالأمور ﴿**لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ**﴾ يستخرجون تدابيره بتجاربهم وأنظارهم. وقيل: كانوا يسمعون أراجيف المنافقين فيذيعونها فتعود وبالاً على المسلمين، ولو ردُّوه إلى الرسول ﷺ وإلى أولي الأمر منهم حتى يسمعوه منهم ويعرفوا أنه هل يذاع أو لا يذاع لعَلِم ذلك هؤلاء الذين يستنبطونه من الرسول وأولي الأمر، أي: يستخرجون علمه من جهتهم ﴿**وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ**﴾ بإرسال الرسول ﷺ وإنزال الكتاب

﴿لَاتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ بالكفر والضلال ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ أي: إلا قليلًا منكم تفضَّل الله تعالى عليه بعقل راجح اهتدى به إلى الحق والصواب، وعصمه عن متابعة الشيطان.

(٨٤) ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إن تثبطوا وتركوك وحدك ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ إلا فعل نفسك، لا يضرُّك مخالفتهم وتقاعدهم، فتقدَّمْ إلى الجهاد وإن لم يساعدك أحد، فإن الله تعالى ناصرك لا الجنود ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على القتال، إذ ما عليك في شأنهم إلا التحريض ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني قريشاً، وقد فعل بأن ألقى في قلوبهم الرعب حتى رجعوا ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ من قريش ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ تعذيباً منهم، وهو تقريع وتهديد لمن لم يتبعه ﷺ.

(٨٥) ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ راعى بها حق مسلم ودفع بها عنه ضراً أو جلب إليه نفعاً ابتغاء لوجه الله تعالى، ومنها الدعاء لمسلم. قال عليه الصلاة والسلام: «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له الملك ولك مثل ذلك» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ وهو ثواب الشفاعة والتسبب إلى الخير الواقع بها ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ يريد بها محرَّماً ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ نصيب من وزرها مساوٍ لها في القدر ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ مقتدراً.

(٨٦) ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ الجمهور على أنه في السلام، ويدلُّ على وجوب الجواب إما بأحسن منه، وهو أن يزيد عليه: ورحمة الله، فإن قاله المسلِّم زاد: وبركاته، وهي النهاية؛ وإما بردِّ مثله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ يحاسبكم على التحية وغيرها.

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ
وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ
فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ
أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ
تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ
حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ
حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ
حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ
ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ
وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾
سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ
مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ
ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ
ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾

(٨٧) ﴿**ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ**﴾ أي: والله ليحشرنَّكم من قبوركم إلى يوم القيامة ﴿**لَا رَيۡبَ فِيهِۗ**﴾ (أي: لا شك فيه) ﴿**وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾**﴾ إنكار أن يكون أحد أكثر صدقاً منه جل وعلا، فإنه لا يتطرَّق الكذب إلى خبره بوجه لأنه نقص وهو على الله تعالى محال.

(٨٨) ﴿**فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ**﴾ فما لكم تفرقتم في أمر المنافقين ﴿**فِئَتَيۡنِ**﴾ أي: فرقتين، ولم تتفقوا على كفرهم ﴿**وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ**﴾ ردهم إلى حكم الكفرة، أو نكسهم بأن صيرهم للنار ﴿**أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ**﴾ أن تجعلوه من المهتدين ﴿**وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾**﴾ إلى الهدى.

(٨٩) ﴿**وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ**﴾ تمنوا أن تكفروا ككفرهم ﴿**فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ**﴾ فتكونون معهم سواء في الضلال ﴿**فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ**﴾ فلا توالوهم حتى يؤمنوا وتتحققوا إيمانهم بهجرة هي لله ورسوله ﷺ لا لأغراض الدنيا ﴿**فَإِن تَوَلَّوۡاْ**﴾ عن الإيمان الظاهر بالهجرة أو عن إظهار الإيمان ﴿**فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ**﴾ كسائر الكفرة ﴿**وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾**﴾ أي: جانبوهم رأساً ولا تقبلوا منهم ولاية ولا نصرة.

(٩٠) ﴿**إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ**﴾ أي: إلا الذين يتصلون وينتهون إلى قوم عاهدوكم، ويفارقون محاربتكم ﴿**أَوۡ جَآءُوكُمۡ**﴾ أي: أو الذين جاؤوكم كافِّين عن قتالكم وقتال قومهم. استثنى من المأمور بأخذهم وقتلهم من ترك المحاربين فلحق بالمعاهدين، أو أتى الرسول ﷺ وكفَّ عن قتال الفريقين ﴿**حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ**﴾ والحصر الضيق والانقباض ﴿**أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ**﴾ أي: عن أن يقاتلوكم ﴿**وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ**﴾ بأن قوى قلوبهم وبسط صدورهم وأزال الرعب عنهم ﴿**فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ**﴾ ولم يكفوا عنكم ﴿**فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ**﴾ فإن لم يتعرضوا لكم ﴿**وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ**﴾ الاستسلام والانقياد ﴿**فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾**﴾ فما أذن لكم في أخذهم وقتلهم.

(٩١) ﴿**سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ**﴾ هم أسد وغطفان، وقيل: بنو عبد الدار، أتوا المدينة وأظهروا الإسلام ليأمنوا المسلمين، فلما رجعوا كفروا ﴿**كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ**﴾ دعوا إلى الكفر وإلى قتال المسلمين ﴿**أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ**﴾ عادوا إليها وقُلبوا فيها أقبح قلب ﴿**فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ**﴾ وينبذوا إليكم العهد ﴿**وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ**﴾ عن قتالكم ﴿**فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ**﴾ حيث تمكنتم منهم ﴿**وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾**﴾ حجة واضحة في التعرض لهم بالقتل والسبي لظهور عداوتهم ووضوح كفرهم وغدرهم.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

(٩٢) ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ**﴾ وما صحَّ له وليس من شأنه ﴿**أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا**﴾ بغير حق ﴿**إِلَّا خَطَـًٔا**﴾ والخطأ ما لا يضامُّه القصد إلى الفعل أو الشخص، أو ما لا يقصد به زهوق الروح غالباً، أو ما لا يقصد به محظور، كرمي مسلم في صف الكفار مع الجهل بإسلامه، أو يكون فعل غير المكلف ﴿**وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ**﴾ أي: فعليه تحرير رقبة، والتحرير: الإعتاق ﴿**مُّؤْمِنَةٍ**﴾ محكوم بإسلامها وإن كانت صغيرة ﴿**وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ**﴾ مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كسائر المواريث ﴿**إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟**﴾ إلا أن يتصدَّقوا عليه بالدية. سمي العفو عنها صدقة حثّاً عليه وتنبيهاً على فضله. وعن النبي ﷺ: «كلُّ معروف صدقة» [أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى] ﴿**فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ**﴾ أي: فإن كان المؤمن المقتول من قوم كفار محاربين، أو في تضاعيفهم ولم يعلم إيمانه فعلى قاتله الكفارة دون الدية لأهله، إذ لا وراثة بينه وبينهم، ولأنهم محاربون ﴿**وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ**﴾ أي: وإن كان من قوم كفرة معاهدين أو أهل الذمة فحكمه حكم المسلمين في وجوب الكفارة والدية، ولعله فيما إذا كان المقتول معاهداً، أو كان له وارث مسلم ﴿**فَمَن لَّمْ يَجِدْ**﴾ رقبة بأن لم يملكها ولا ما يتوصل به إليها ﴿**فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ**﴾ فعليه صيام شهرين متتابعين ﴿**تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ**﴾ أي: شرع ذلك توبة ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا**﴾ بحاله ﴿**حَكِيمًا ﴿٩٢﴾**﴾ فيما أمر في شأنه.

(٩٣) ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾**﴾ لما فيه من التهديد العظيم. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «لا تقبل توبة قاتل المؤمن عمداً». ولعله أراد به التشديد، إذ روي عنه خلافه. والجمهور على أنه مخصوص بمن لم يتب، لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾ [طه: ٨٢] ونحوه؛ وهو عندنا إما مخصوص بالمستحلِّ له، كما ذكره عكرمة

رحمه الله تعالى وغيره، أو المراد بالخلود المكث الطويل، فإنَّ الدلائل متظاهرة على أن عصاة المسلمين لا يدوم عذابهم.

(٩٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سافرتم وذهبتم للغزو ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ فاطلبوا بيان الأمر وثباته ولا تعجلوا فيه ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ لمن حياكم بتحية الإسلام ﴿لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ وإنما فعلتَ ذلك متعوِّذاً ﴿تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ تطلبون ماله الذي هو حطام سريع النفاذ ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ﴾ لكم ﴿كَثِيرَةٞۚ﴾ تغنيكم عن قتل أمثاله لماله ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ﴾ أي: أول ما دخلتم في الإِسلام تفوهتم بكلمتي الشهادة فحُصِّنت بها دماؤكم وأموالكم من غير أن يعلم مواطأة قلوبكم ألسنتكم ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ بالاشتهار بالإيمان والاستقامة في الدين ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْۚ﴾ وافعلوا بالداخلين في الإِسلام كما فعل الله تعالى بكم، ولا تبادروا إلى قتلهم ظناً بأنهم دخلوا فيه اتقاء وخوفاً، فإن إبقاء ألف كافر أهون عند الله تعالى من قتل امرئ مسلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٩٤﴾ عالماً به وبالغرض منه، فلا تتهافتوا في القتل واحتاطوا فيه.

(أقول: تدلُّ هذه النظرة على سماحة الأخلاق الإسلامية واتساع صدور المسلمين، فالأصل عندهم أن كلَّ الناس طيبون، ويجب أن نحسن الظن بهم جميعاً ونتقبل ظواهرهم، تاركين أسرارهم للمولى سبحانه حذراً من أن نقع في حكم ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. أنت مأمور أن تعامل الناس حسب الظاهر، والله تعالى يتولى السرائر، أنت بمقدورك أن تعلم شيئاً من الظاهر، ولا تعلم كلَّ الظاهر، فكيف بالسرائر؟! ففوِّض أمور البشر إلى الله تعالى الذي يعلم السرَّ وأخفى، وأحسن الظن فيهم، فلا بدَّ للمؤمن ألا يتسرَّع إلى تكذيب من صدق بلسانه، وألا يرغب إلى كاذب بكثرة سواده، ولا بد أن يكون خبيراً).

لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

(٩٥) ﴿**لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ**﴾ عن الحرب ﴿**مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ**﴾ أي: لا مساواة بينهم وبين من قعد عن الجهاد من غير علة ﴿**فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا**﴾ من القاعدين والمجاهدين ﴿**وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ**﴾ المثوبة الحسنى وهي الجنة، لحسن عقيدتهم وخلوص نيتهم، وإنما التفاوت في زيادة العمل المقتضي لمزيد الثواب ﴿**وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾**﴾ كأنه قيل: وأعطاهم زيادة على القاعدين أجراً عظيماً.

(٩٦) ﴿**دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ**﴾ كرر تفضيل المجاهدين، وبالغ فيه إجمالاً وتفصيلاً تعظيماً للجهاد وترغيباً فيه. وقيل: الأول: ما خولهم في الدنيا من الغنيمة والظفر وجميلِ الذِّكْر، والثاني: ما جعل لهم في الآخرة. وقيل: المجاهدون الأولون من جاهد الكفار، والآخرون من جاهد نفسه ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا**﴾ لما عسى أن يفرط منهم ﴿**رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾**﴾ بما وعد لهم.

(٩٧) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ**﴾ بمعنى أن الله تعالى يوفي الملائكة أنفسهم فيتوفونها، أي: يمكِّنهم من استيفائها فيستوفونها ﴿**ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ**﴾ في حال ظلمهم أنفسهم بترك الهجرة وموافقة الكفرة ﴿**قَالُوا۟**﴾ أي: الملائكة توبيخاً لهم (بعد وفاتهم): ﴿**فِيمَ كُنتُمْ ۖ**﴾ في أيِّ شيء كنتم من أمر دينكم؟ ﴿**قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ**﴾ اعتذروا مما وبخوا به بضعفهم وعجزهم عن الهجرة، أو عن إظهار الدين وإعلاء كلمة الله تعالى ﴿**قَالُوٓا۟**﴾ ـ أي: الملائكة ـ تكذيباً لهم وتبكيتاً: ﴿**أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ**﴾ إلى قطر آخر كما فعل المهاجرون إلى المدينة والحبشة؟ ﴿**فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ**﴾ لتركهم الواجب ومساعدتهم الكفار ﴿**وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾**﴾ أي: جهنم، وفي الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكَّن الرجل فيه من إقامة دينه.

(٩٨) ﴿**إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾**﴾ صفة للمستضعفين. واستطاعة الحيلة: وجدان أسباب الهجرة وما تتوقف عليه، واهتداء السبيل: معرفة الطريق بنفسه أو بدليل.

(٩٩) ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ﴾ ذكر بكلمة الإطماع ولفظ العفو إيذاناً بأن ترك الهجرة أمر خطير، حتى إن المضطر من حقه أن لا يأمن ويترصد الفرصة ويعلق بها قلبه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

(١٠٠) ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾ أي: طريقاً يراغم قومه بسلوكه أي: يفارقهم على رغم أنوفهم ﴿وَسَعَةًۚ﴾ في الرزق وإظهار الدين ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ والمعنى: ثبت أجره عند الله تعالى ثبوت الأمر الواجب. والآية الكريمة نزلت في جندب بن ضمرة رضي الله عنه، حمله بنوه على سرير متوجِّهاً إلى المدينة، فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت، فصفق بيمينه على شماله فقال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك ﷺ، أبايعك على ما بايع عليه رسولك ﷺ، فمات رضي الله تعالى عنه (أقول: وفي هذه الآيات توجيه من الله سبحانه وتعالى للهجرة من أجل المحافظة على الدين. قال في التفسير الواضح الميسر: وفي الآية ترغيب في الهجرة لكلِّ من لم يستطع أن يقيم شعائر الدين في وطنه، فيجب أن يهاجر إلى بلد يستطيع أن يعبد الله تعالى فيه دون أذى أو ضرر، فأرض الله تعالى واسعة. وقال في روح البيان: وفي الآية الكريمة إرشاد إلى وجوب المهاجرة من موضع لا يتمكَّن الرجل فيه من إقامة أمور دينه بأيِّ سبب كان، قال رسول الله ﷺ: «من فرَّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجبت له الجنة» [رواه الثعلبي عن الحسن رحمه الله تعالى مرسلاً])

(١٠١) ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ سافرتم ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بتنصيف ركعاتها ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ بمعنى كراهة أن يفتنكم، وهو القتال والتعرض بما يكره.

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾

(١٠٢) ﴿**وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ**﴾ عامةُ الفقهاء على أنه تعالى علَّم الرسول ﷺ كيفيتها ليأتمَّ به الأئمة بعده، فإنهم نواب عنه، فيكون حضورهم كحضوره ﴿**فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ**﴾ فاجعلهم طائفتين، فلتقم إحداهما معك يصلون، وتقوم الطائفة الأخرى تجاه العدو ﴿**وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ**﴾ يعني المصلين ﴿**فَلْيَكُونُواْ**﴾ أي: غير المصلين ﴿**مِن وَرَآئِكُمْ**﴾ يحرسونكم، يعني النبي ﷺ ومن يصلي معه ﴿**وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ**﴾ لاشتغالهم بالحراسة ﴿**فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْۗ**﴾ جعل الحذر آلة يتحصن بها الغازي، فجمع بينه وبين الأسلحة في وجوب الأخذ ﴿**وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةًۚ**﴾ تمنوا أن ينالوا منكم غِرَّة في صلاتكم فيشدُّون عليكم شَدَّة واحدة (والغِرَّة: الغفلة عن العدوِّ).

﴿**وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْۖ**﴾ رخصة لهم في وضعها إذا ثقل عليهم أخذها بسبب مطر أو مرض ﴿**وَخُذُواْ حِذْرَكُمْۗ**﴾ أمرهم مع ذلك بأخذ الحذر كي لا يهجم عليهم العدو ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾**﴾ وعدٌ للمؤمنين بالنصر على الكفار بعد الأمر بالحزم، لتقوى قلوبُهم وليعلموا أن الأمر بالحزم ليس لضعفهم وغلبة عدوهم، بل لأن الواجب أن يحافظوا في الأمور على مراسم التيقُّظ والتدبُّر، فيتوكَّلوا على الله سبحانه وتعالى.

(١٠٣) ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ**﴾ أديتم وفرغتم منها ﴿**فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ**﴾ فداوموا على الذكر في جميع الأحوال، أو إذا أردتم أداء الصلاة واشتد الخوف فأدوها كيف ما أمكن ﴿**فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ**﴾ سكنت قلوبكم من الخوف ﴿**فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ**﴾ فعدلوا واحفظوا أركانها وشرائطها وائتوا بها تامة ﴿**إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾**﴾ فرضاً محدود الأوقات، لا يجوز إخراجها عن أوقاتها في شيء من الأحوال.

(١٠٤) ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا ﴿فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ في طلب الكفار بالقتال ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ إلزام لهم وتقريع على التواني فيه بأن ضرر القتال دائر بين الفريقين غير مختصٍّ بهم، وهم يرجون من الله تعالى بسببه من إظهار الدين واستحقاق الثروات ما لا يرجو عدوهم، فينبغي أن يكونوا أرغب منهم في الحرب وأصبر عليها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأعمالكم وضمائركم ﴿حَكِيمًا (١٠٤)﴾ فيما يأمر وينهى.

(١٠٥) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ نزلت في طعمة بن أبيرق من بني ظفر، سرق درعاً من جاره قتادة بن النعمان في جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه، وخبأها عند زيد بن السمين اليهودي، فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد، وحلف ما أخذها وماله بها علم فتركوه، واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي فأخذوها. فقال: دفعها إليَّ طعمة، وشهد له ناس من اليهود، فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ، فسألوه أن يجادل عن صاحبهم، وقالوا: إن لم تفعل هلك وافتضح وبرئ اليهودي، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يفعل ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ بما عرَّفك الله تعالى وأوحى به إليك ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ﴾ أي: لأجلهم والذبِّ عنهم ﴿خَصِيمًا (١٠٥)﴾ للبرآء.

وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾

(١٠٦) ﴿**وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ**﴾ مما هممت به ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾**﴾ لمن يستغفره.

(١٠٧) ﴿**وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ**﴾ يخونونها، فإن وبال خيانتهم يعود عليها ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا**﴾ مبالغاً في الخيانة مصراً عليها ﴿**أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾**﴾ منهمكاً فيها. روي: أن طعمة هرب إلى مكة وارتدَّ، ونقب حائطاً بها ليسرق أهله، فسقط الحائط عليه فقتله.

(١٠٨) ﴿**يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ**﴾ يستترون منهم حياء وخوفاً ﴿**وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ**﴾ ولا يستحيون منه، وهو أحقُّ بأن يُستحيا ويُخاف منه ﴿**وَهُوَ مَعَهُمۡ**﴾ لا يخفى عليه سرهم فلا طريق معه إلا ترك ما يستقبحه ويؤاخذ عليه ﴿**إِذۡ يُبَيِّتُونَ**﴾ يدبِّرون ويزوِّرون ﴿**مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ**﴾ من رمي البريء، والحلف الكاذب، وشهادة الزور ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾**﴾ لا يفوت عنه شيء.

(١٠٩) ﴿**هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾**﴾ محامياً يحميهم من عذاب الله تعالى.

(١١٠) ﴿**وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا**﴾ قبيحاً يسوء به غيره ﴿**أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ**﴾ بما يختص به ولا يتعدَّاه ﴿**ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ**﴾ بالتوبة ﴿**يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا**﴾ لذنوبه ﴿**رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾**﴾ متفضِّلاً عليه.

(١١١) ﴿**وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ**﴾ فلا يتعدَّاه وباله، كقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١١﴾**﴾ فهو عالم بفعله حكيم في مجازاته.

(١١٢) ﴿**وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً**﴾ صغيرة، أو ما لا عمد فيه ﴿**أَوۡ إِثۡمٗا**﴾ كبيرة، أو ما كان عن عمد ﴿**ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾**﴾ بسبب رمي البريء وتبرئة النفس الخاطئة.

(١١٣) ﴿**وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ**﴾ بإعلام ما هم عليه بالوحي، والضمير لرسول الله ﷺ ﴿**لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ**﴾ أي: من بني ظفر ﴿**أَن يُضِلُّوكَ**﴾ عن القضاء بالحق مع علمهم بالحال ﴿**وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ**﴾ لأنه عاد وباله عليهم ﴿**وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ**﴾ فإن الله سبحانه وتعالى عصمك، وما خطر ببالك كان اعتماداً منك على ظاهر الأمر، لا ميلاً في الحكم ﴿**وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ**﴾ من خفيات الأمور، أو من أمور الدين والأحكام ﴿**وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾**﴾ إذ لا فضل أعظم من النبوة.

۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ
أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ
ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن
يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ
سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ
مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا
﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ
إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ
مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ
وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ
فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا
مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾
يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

(١١٤) ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ من تناجيهم ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ أي: إلا نجوى من أمر، أو بمعنى: ولكن مَنْ أمر بصدقة ففي نجواه الخير. والمعروف: كلُّ ما يستحسنه الشرع ولا ينكره العقل ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ﴾ أو إصلاح ذات البين ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ وصف الأجر بالعظم تنبيهاً على حقارة ما فات في جنبه من أعراض الدنيا.

(١١٥) ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ يخالفه عليه الصلاة والسلام ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ ظهر له الحق بالوقوف على المعجزات ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ غير ما هم عليه من اعتقاد أو عمل ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ نجعله والياً لما تولى من الضلال، ونخلِّ بينه وبين ما اختاره ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ﴾ وندخله فيها ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ جهنم. والآية تدلُّ على حرمة مخالفة الإجماع، لأنه سبحانه وتعالى رتب الوعيد الشديد على المشاقة واتباع غير سبيل المؤمنين.

(١١٦) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ كرره للتأكيد ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ عن الحق، فإن الشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدها عن الصواب والاستقامة.

(١١٧)﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ يعني اللات والعزى ومناة ونحوها ﴿وَإِن يَدْعُونَ﴾ وإن يعبدون بعبادتها ﴿إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ لأنه الذي أمرهم بعبادتها وأغراهم عليها، فكأن طاعته في ذلك عبادة له.

(١١٨) ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ طرده الله تعالى من رحمته ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾ عطف عليه، أي: شيطاناً مَريداً جامعاً بين لعنة الله جلَّ وعلا وهذا القولِ الدالِّ على فرط عداوته للناس. وقد برهن سبحانه وتعالى أولاً على أن الشرك ضلال في الغاية، ثم استدل عليه بأنه عبادة الشيطان، وهي أفظع الضلال لثلاثة أوجه:

الأول: أنه مَريد (أي: متمرِّد) منهمِك في الضلال لا يعلق بشيء من الخير والهدى، فتكون طاعته ضلالاً بعيداً عن الهدى.

والثاني: أنه ملعون لضلاله، فلا تستجلب مطاوعته سوى الضلال واللعن.

والثالث: أنه في غاية العداوة والسعي في إهلاكهم، وموالاة من هذا شأنه غاية الضلال فضلاً عن عبادته.

(١١٩) ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ عن الحقِّ ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ الأماني الباطلة كطول الحياة وأن لا بعث ولا عقاب ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يشقُّونها لتحريم ما أحلَّ الله تعالى ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ عن وجهه صورةً أو صفةً ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بإيثاره ما يدعو إليه على مَا أَمَرَ الله تعالى بِهِ ومجاوزته عن طاعة الله سبحانه وتعالى إلى طاعته ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ إذ ضيَّع رأس ماله، وبدَّل مكانه من الجنة بمكان من النار.

(١٢٠) ﴿يَعِدُهُمْ﴾ ما لا ينجزه ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ ما لا ينالون ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر؛ وهذا الوعد إما بالخواطر الفاسدة، أو بلسان أوليائه.

(١٢١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ مَعدِلاً ومهرباً.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ
جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ
ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ
وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ
وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن
يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ
فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ
أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ
مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ
فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ
ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ
وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ
بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ﴿١٢٧﴾

(١٢٢) ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ**﴾ أي: وعدُه جلَّ وعلا وعدٌ حقٌّ ﴿**وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾**﴾ والمقصود من الآية معارضة المواعيد الشيطانية الكاذبة لقرنائه بوعد الله جل وعلا الصادق لأوليائه، والمبالغة في توكيده ترغيباً للعباد في تحصيله.

(١٢٣) ﴿**لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ**﴾ أي: ليس ما وعد الله تعالى من الثواب يُنال بأمانيكم أيها المسلمون، ولا بأماني أهل الكتاب، وإنما ينال بالإيمان والعمل الصالح ﴿**مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ**﴾ عاجلاً أو آجلاً لما روي «أنها لما نزلت قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: فمن ينجو مع هذا يا رسول الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: أما تحزن؟ أما تمرض؟ أما يصيبك اللأواء (ضيق المعيشة وشدة المرض)؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: هو ذاك» [أخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى] ﴿**وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾**﴾ ولا يجد لنفسه إذا جاوز موالاة الله تعالى ونصرته من يواليه وينصره في دفع العذاب عنه.

(١٢٤) ﴿**وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ**﴾ بعضها أو شيئاً منها، فإنَّ كلَّ أحد لا يتمكَّن من كلِّها، وليس مكلَّفاً بها ﴿**مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ**﴾ شرَطَ اقتران العمل به في استدعاء الثواب المذكور تنبيهاً على أنه لا اعتداد به دونه فيه ﴿**فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾**﴾ بنقص شيء من الثواب وإذا لم ينقص ثواب المطيع فبالحري أن لا يزاد عقاب العاصي، لأن المجازي أرحم الراحمين جلَّ وعلا.

(١٢٥) ﴿**وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ**﴾ أخلص نفسه لله تعالى، لا يعرف لها ربّاً سواه ﴿**وَهُوَ مُحۡسِنٞ**﴾ آت بالحسنات تارك للسيئات ﴿**وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ**﴾ الموافقة لدين الإسلام المتفق على صحتها ﴿**حَنِيفٗاۗ**﴾ مائلاً عن سائر الأديان إلى دين الإسلام ﴿**وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾**﴾ اصطفاه وخصصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله.

(١٢٦) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ خلقاً وملكاً، يختار منهما من يشاء وما يشاء ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٖ مُّحِيطٗا ١٢٦﴾ إحاطة علم وقدرة، فكان عالماً بأعمالهم فيجازيهم على خيرها وشرها.

(١٢٧) ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ﴾ في ميراثهن ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ يبين لكم حكمه فيهن ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: يتلى عليكم في شأنهن ﴿ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ أي: فرض لهن من الميراث ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ فإن أولياء اليتامى كانوا يرغبون فيهن إن كن جميلات ويأكلون مالهن، وإلا كانوا يعضلونهن طمعاً في ميراثهن ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ عطف على يتامى النساء، والعرب ما كانوا يورِّثونهم كما لا يورِّثون النساء ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ﴾ أي: ويأمركم أن تقوموا، وهو خطاب للأئمة في أن ينظروا لهم ويستوفوا حقوقهم، أو للقوَّام بالنصفة (أي: بالإنصاف) في شأنهم ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ١٢٧﴾ وعد لمن آثر الخير في ذلك.

وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ
عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ
ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ
بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ
فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا
مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ
مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا ﴿١٣١﴾
وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾
إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ
ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿١٣٤﴾

(١٢٨) ﴿**وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا**﴾ توقعت منه لما ظهر لها من المخايل (أي: العلامات) ﴿**نُشُوزًا**﴾ تجافياً عنها وترفُّعاً عن صحبتها كراهة لها ومنعاً لحقوقها ﴿**أَوۡ إِعۡرَاضٗا**﴾ بأن يُقِلَّ مجالستها ومحادثتها ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ**﴾ أن يتصالحا بأن تحط له بعض المهر، أو القسم، أو تهب له شيئاً تستميله به ﴿**وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ**﴾ من الفرقة أو سوء العشرة، أو من الخصومة ﴿**وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ**﴾ ومعنى إحضار الأنفس الشح جعلها حاضرة له مطبوعة عليه، فلا تكاد المرأة تسمح بالإعراض عنها والتقصير في حقها ولا الرجل يسمح بأن يمسكها ويقوم بحقها على ما ينبغي إذا كرهها أو أحب غيرها ﴿**وَإِن تُحۡسِنُواْ**﴾ في العشرة ﴿**وَتَتَّقُواْ**﴾ النشوز والإعراض ونقص الحق ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ**﴾ من الإحسان والخصومة ﴿**خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾**﴾ عليماً به وبالغرض فيه فيجازيكم عليه.

(١٢٩) ﴿**وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ**﴾ لأن العدل أن لا يقع ميل ألبتة، وهو متعذر ﴿**وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ**﴾ أي: على تحري ذلك وبالغتم فيه ﴿**فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ**﴾ بترك المستطاع والجور على المرغوب عنها، فإن ما لا يُدرَك كلُّه لا يُترَك كلُّه ﴿**فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ**﴾ التي ليست ذات بعل ولا مطلقة. وعن النبي ﷺ: «من كانت له امرأتان يميل مع إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل» [أخرجه أصحاب السنن رحمهم الله تعالى] ﴿**وَإِن تُصۡلِحُواْ**﴾ ما كنتم تفسدون من أمورهنَّ ﴿**وَتَتَّقُواْ**﴾ فيما يُستقبل من الزمان ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٢٩﴾**﴾ يغفر لكم ما مضى من ميلكم.

(١٣٠) ﴿**وَإِن يَتَفَرَّقَا**﴾ أي: وإن يفارق كل منهما صاحبه ﴿**يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا**﴾ منهما عن الآخر ببدل أو سُلُوٍّ (والسُّلُوُّ: أن ينسى كلَّ ما كان بينهما) ﴿**مِّن سَعَتِهِۦۚ**﴾ غناه وقدرته ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ﴿١٣٠﴾**﴾ مقتدراً متقناً في أفعاله وأحكامه جلَّ وعلا.

(١٣١) ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ**﴾ تنبيه على كمال سعته وقدرته ﴿**وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ**

﴿ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني اليهود والنصارى ومَن قبلهم ﴿وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي: وقلنا لهم ولكم: إِن تكفروا فإنَّ الله تعالى مالك الملك كلِّه، لا يتضرَّر بكفركم ومعاصيكم، كما لا ينتفع بشكركم وتقواكم، وإنما وصَّاكم لرحمته (بكم) لا لحاجته سبحانه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن الخلق وعبادتهم ﴿حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ في ذاته، حُمِد أو لم يحمَد.

(١٣٢) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ فإنَّ جميع المخلوقات تدلُّ بحاجتها على غناه، وبما أفاض عليها من الوجود وأنواع الخصائص والكمالات على كونه حميداً ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾ فإنَّه توكَّل بكفايتهما.

(١٣٣) ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يُفْنِكُمْ ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ﴾ ويوجد قوماً آخرين مكانكم أو خلقاً آخرين مكان الإِنس ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ من الإِعدام والإِيجاد ﴿قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ بليغ القدرة لا يعجزه مراد.

(١٣٤) ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ كالمجاهد يجاهد للغنيمة ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ فما له يطلب أخسَّهما؟ فليطلبهما كمن يقول: ﴿رَبَّنَا آتِنا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ عالماً بالأغراض فيجازي كلا بحسب قصده.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ
وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا
أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن
تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ
بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ
ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ
ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ
سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ
يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ
عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴿١٣٩﴾ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي
ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا
تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ
إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

(١٣٥) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ**﴾ مواظبين على العدل مجتهدين في إقامته ﴿**شُهَدَآءَ لِلَّهِ**﴾ بالحق، تقيمون شهاداتكم لوجه الله سبحانه وتعالى ﴿**وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ**﴾ ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن تقرُّوا عليها، لأن الشهادة بيان للحق سواء كان عليه أو على غيره ﴿**أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ**﴾ ولو على والديكم وأقاربكم ﴿**إِن يَكُنۡ**﴾ أي: المشهود عليه ﴿**غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا**﴾ فلا تمتنعوا عن إقامة الشهادة، أو لا تجوروا فيها ميلاً أو ترحُّماً ﴿**فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ**﴾ بالغني والفقير وبالنظر لهما، فلو لم تكن الشهادة عليهما أو لهما صلاحاً لما شرعها ﴿**فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ**﴾ لأن تعدلوا عن الحقِّ، أو كراهة أن تعدلوا، من العدل ﴿**وَإِن تَلۡوُۥٓاْ**﴾ ألسنتكم عن شهادة الحق، أو حكومة العدل ﴿**أَوۡ تُعۡرِضُواْ**﴾ عن أدائها ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٣٥﴾**﴾ فيجازيكم عليه (أقول: علينا معاشر المؤمنين أن نتمسك بالشريعة المحمدية، فهي نزلت من الرب الكريم جل وعلا بواسطة جبريل عليه السلام على رسوله الكريم ﷺ، ونحن مسؤولون عن الحق سواء كان هذا الحق حق الله تعالى، أو حق أنفسنا، أو حق العباد، فلا بد أن نراعي ذلك، ولا يحملنا الحرص على الدنيا والطمع فيها على أن نأكل أموال الناس بغير حق، أو نكتم الشهادة، ويجب أن نتبع في أمورنا جميعاً ديناً ودنيا سنةَ سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام، وألا نتبع الهوى. نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحب ويرضى، وأن نكون صادقين في فعلنا وقولنا، في المعاملات الظاهرة والباطنة، مع الله تعالى ومع عباد الله تعالى، بحرمة سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم).

(١٣٦) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ**﴾ خطاب للمسلمين، أو للمنافقين، أو لمؤمني أهل الكتاب ﴿**ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ**﴾ اثبتوا على الإيمان بذلك وداوموا عليه، أو آمنوا به بقلوبكم كما آمنتم بألسنتكم ﴿**وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ**﴾ أي: ومن يكفر بشيء من ذلك ﴿**فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾**﴾ عن المقصد، بحيث لا يكاد يعود إلى طريقه.

(أقول: الإيمان ثلاث مراتب:

١- الإيمان التقليدي.

٢- الإيمان بالاستدلال والبراهين.

٣- الإيمان الذوقي الشهودي وما فوقه.

أما الإيمان التقليدي: فهو وإن كان مقبولاً عند بعض المجتهدين إلا أن صاحبه مقلِّد، ويدخل فيه الإيمان العلمي، يسمع من هذا ويقرأ هذا حتى يحصل الإيمان، وهذا هو الإيمان الغيبي.

وأما الإيمان بالاستدلال والبراهين: وهو إيمان المتكلِّمين، فكذلك ليس قوياً بالنسبة لإيمان من فوقهم.

قال الإمام الشاذلي رحمه الله تعالى: نحن نعرف ربَّنا بدون دليل.

وأما الإيمان الذوقي والشهودي وما فوقهما: فله مراتب حتى يصل إلى إيمان الصديقين، كما في الحديث: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] أي: إن لم تكن من أهل الذوق والشهود، وأن تنظر بعين قلبك إلى ربك جل وعلا، عليك على الأقل أن تفهم وتتيقن بأنه يراك).

(١٣٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني اليهود، آمنوا بموسى عليه الصلاة والسلام ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ حين عبدوا العجل ﴿ثُمَّ ءَامَنُواْ﴾ بعد عوده إليهم ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ بعيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾﴾ إذ يستبعد منهم أن يتوبوا عن الكفر ويثبتوا على الإيمان، فإن قلوبهم ضربت بالكفر وبصائرهم عميت عن الحق، لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم يقبل منهم ولم يغفر لهم.

(١٣٨) ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ يدلُّ على أن الآية في المنافقين، وهم قد آمنوا في الظاهر وكفروا في السرِّ مرَّة بعد أخرى، ثُمَّ ازدادوا بالإصرار على النفاق وإفساد الأمر على المؤمنين.

(١٣٩) ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ أيتعزَّزون بموالاتهم؟ ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ لا يتعزَّز إلا من أعزَّه الله تعالى، وقد كتَبَ العزَّة لأوليائه فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٣]، ولا يُؤْبَهُ بعزَّة غيرهم بالإضافة إليهم.

(١٤٠) ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني القرآن ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ في الإثم، لأنكم قادرون على الإعراض عنهم والإنكار عليهم، أو الكفر إن رضيتم بذلك، أو لأن الذين يُقاعدون الخائضين في القرآن من الأحبار كانوا منافقين، ويدلُّ عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ يعني القاعدين والمقعود معهم.

ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ
نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ
عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾
إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى
ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا
قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ
وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ
أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ
فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ
دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ
إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴿١٤٧﴾

(١٤١) ﴿**ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ**﴾ ينتظرون وقوع أمر بكم ﴿**فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ**﴾ مظاهرين لكم، فأسهموا لنا مما غنمتم ﴿**وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ**﴾ من الحرب فإنها سجال ﴿**قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ**﴾ أي قالوا للكفرة: ألم نغلبكم ونتمكَّن من قتلكم فأبقينا عليكم؟ والاستحواذ: الاستيلاء ﴿**وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ**﴾ بأن خذلناهم بتخييل ما ضعفت به قلوبهم، وتوانينا (أي: فترنا وقصَّرنا) في مظاهرتهم (أي: مناصرتهم)، فأشركونا فيما أصبتم ﴿**فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾**﴾ حينئذ أو في الدنيا. والمراد بالسبيل: الحجة.

(١٤٢) ﴿**إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ**﴾ (وخداعهم مع الله سبحانه ليس على ظاهره؛ لأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية، ولأنهم لم يقصدوا خديعته، بل المراد إما مخادعة رسوله ﷺ، أو على أن معاملة الرسول عليه الصلاة والسلام معاملة الله سبحانه وتعالى من حيث إنه خليفته، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]. وإما أن صورة صنيعهم مع الله تعالى من إظهار الإيمان واستبطان الكفر، وصنع الله تعالى معهم بإجراء أحكام المسلمين عليهم، وهم عنده جل وعلا أخبث الكفار وأهل الدرك الأسفل من النار، استدراجاً لهم، وامتثال الرسول ﷺ والمؤمنين أمرَ الله تعالى في إخفاء حالهم، وإجراء حكم الإسلام عليهم، مجاراةً لهم بمثل صنيعهم، صورةُ صنيع المتخادعين. أقول: فهو مقابلة اللفظ باللفظ على سبيل المشاكلة) ﴿**وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ**﴾ متثاقلين كالمكرَه على الفعل ﴿**يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ**﴾ ليخالوهم مؤمنين ﴿**وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾**﴾ إذ المرائي لا يفعل إلا بحضرة من يرائيه، وهو أقلُّ أحواله؛ أو لأنَّ ذكرهم باللسان قليل بالإضافة إلى الذكر بالقلب. وقيل: المراد بالذكر الصلاة. وقيل: الذكر فيها؛ فإنهم لا يذكرون فيها غير التكبير والتسليم.

(١٤٣) ﴿**مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ**﴾ والمعنى: مردَّدين بين الإيمان والكفر، من الذبذبة ﴿**لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ**﴾ لا منسوبين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين، أو لا صائرين إلى أحد الفريقين بالكلية ﴿**وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ**

﴿لَهُۥ سَبِيلٗا ١٤٣﴾ إلى الحق والصواب، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

(١٤٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ فإنه صنيع المنافقين وديدنهم فلا تتشبهوا بهم، ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤﴾ حجة بيِّنة فإن موالاتهم دليل على النفاق أو سلطاناً يسلط عليكم عقابه.

(أقول: قال الله تعالى جل وعلا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، والمراد بالأخوَّة أخوَّة الإيمان والإسلام، ولأنهم من أمة سيد المرسلين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ومن لم يكتف بهذه الأخوة، وبهذه الأمة، مع هذا النص القطعي، ويتخذ عدو الله تعالى، وعدو رسوله عليه الصلاة والسلام صديقاً من ناحية حطام الدنيا، أو من ناحية الخوف، أو من ناحية أنَّ بينهم مودَّة الجاهلية، فهذا إيمانه بلسانه، وهو من المقلِّدين، وإيمان المقلِّدين أضعف الإيمان عند ربِّ العالمين، علينا أن نعتقد أنَّ الضارَّ والنافع هو الله جل وعلا، والناصر هو الله جل وعلا).

(١٤٥) ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وهو الطبقة التي في قعر جهنم. وإنما كان كذلك لأنهم أخبث الكفرة، إذ ضموا إلى الكفر استهزاء بالإسلام وخداعاً للمسلمين. وأما قوله عليه الصلاة والسلام «ثلاث من كُنَّ فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: من إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ونحوه فمن باب التشديد والتغليظ، وإنما سميت طبقاتها السبع (لجهنم) دركات لأنها متداركة متتابعة بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥﴾ يخرجهم منه.

(١٤٦) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ عن النفاق ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم في حال النفاق ﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ وثقوا به أو تمسَّكوا بدينه ﴿وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ لا يريدون بطاعتهم إلا وجهه سبحانه وتعالى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ ومن عدادهم في الدارين ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٦﴾ فيساهمونهم فيه.

(١٤٧) ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾ أيتشفى به غيظاً أو يدفع به ضرراً أو يستجلب به نفعاً وهو الغني المتعالي عن النفع والضر؟ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾ مثيباً، يقبل اليسير ويعطي الجزيل ﴿عَلِيمٗا ١٤٧﴾ بحقِّ شكركم وإيمانكم.

۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن
سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ
وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ
أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ
حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ
يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ يَسۡـَٔلُكَ
أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ
مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ
ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ
ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾
وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا
وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿١٥٤﴾

(١٤٨) ﴿**لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ**﴾ إلا جهر من ظُلِم، بالدعاء على الظالم والتظلُّم منه ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا**﴾ لكلام المظلوم ﴿**عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾**﴾ بالظالم (أقول: أي: لا يحب إظهار الفضائح وإفشاء القبائح، ولا الفحش في القول أو الإيذاء باللسان، إلا المظلوم، فإنه يباح له أن يذكر الظالم بما فيه من السوء، وأن يجهر بالدعاء عليه ليحذره الناس، والله سميع عليم).

(١٤٩) ﴿**إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا**﴾ طاعة وبراً ﴿**أَوۡ تُخۡفُوهُ**﴾ أو تفعلوه سراً ﴿**أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ**﴾ لكم المؤاخذة عليه ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾**﴾ أي: يُكثِر العفو عن العصاة مع كمال قدرته على الانتقام، فأنتم أولى بذلك؛ وهو حثٌّ للمظلوم على العفو بعد ما رخص له في الانتصار حملاً على مكارم الأخلاق.

(١٥٠) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ**﴾ بأن يؤمنوا بالله تعالى ويكفروا برسله عليهم الصلاة والسلام ﴿**وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ**﴾ نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعضهم ﴿**وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾**﴾ طريقاً وسطاً بين الإيمان والكفر، ولا واسطة، إذ الحق لا يختلف، فإن الإيمان بالله سبحانه وتعالى لا يتم إلا بالإيمان برسله وتصديقهم فيما بلغوا عنه تفصيلاً أو إجمالاً، فالكافر ببعض ذلك كالكافر بالكل.

(١٥١) ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ**﴾ هم الكاملون في الكفر، لا عبرة بإيمانهم هذا ﴿**حَقّٗاۚ**﴾ أي: يقيناً محققاً ﴿**وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾**﴾.

(١٥٢) ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ**﴾ أضدادهم ومقابلوهم ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ**﴾ الموعودة لهم ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا**﴾ لما فرط منهم ﴿**رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾**﴾ عليهم بتضعيف حسناتهم.

(١٥٣) ﴿**يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ**﴾ نزلت في أحبار اليهود، قالوا: إن كنت صادقاً فائتنا بكتاب من السماء جملة، كما أتى به موسى عليه السلام ﴿**فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ**﴾ أي: إن

استكبرت ما سألوه منك فقد سألوا موسى عليه السلام أكبر منه ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ أي: مجاهرين معاينين له ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ نار جاءت من قِبَل السماء فأهلكتهم ﴿بِظُلۡمِهِمۡۚ﴾ بسبب ظلمهم، وهو تعنتهم وسؤالهم ما يستحيل في تلك الحال التي كانوا عليها، وذلك لا يقتضي امتناع الرؤية مطلقاً ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ هذه الجناية الثانية التي اقترفها أيضاً أوائلهم، والبينات: المعجزات ﴿فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾﴾ تسلُّطاً ظاهراً عليهم، حين أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم توبة عن اتخاذهم.

(١٥٤) ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ﴾ بسبب ميثاقهم ليقبلوه ﴿وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ على لسان موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، والطور مطلٌّ عليهم ﴿وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ على لسان داود عليه الصلاة والسلام ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿١٥٤﴾﴾ على ذلك، وهو قولهم: سمعنا وأطعنا.

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ
بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ
رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟
حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ
بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ
ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ
أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

(١٥٥) ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي: فخالفوا ونقضوا، ففعلنا بهم ما فعلنا بنقضهم ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بالقرآن، أو بما جاء في كتابهم ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أوعية للعلوم، أو في أكنَّة مما تدعونا إليه ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فجعلها محجوبة عن العلم، أو خذلَها ومنعها التوفيق للتدبر في الآيات والتذكر في المواعظ ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ منهم، كعبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه، أو إيماناً قليلاً، إذ لا عبرة به لنقصانه.

(١٥٦) ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ بعيسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ يعني (افتراءً كبيراً وهو) نسبتها إلى الزنى.

(١٥٧) ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: بزعمهم، ويحتمل أنهم قالوه استهزاء ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وإنما ذمَّهم الله سبحانه وتعالى بما دلَّ عليه الكلام من جراءتهم على الله سبحانه وتعالى، وقصدهم قتل نبيه المؤيد بالمعجزات الباهرة، وتبجُّحهم به، لا بقولهم هذا على حسب حسبانهم، ولكن وقع لهم التشبيه بين عيسى عليه السلام والمقتول ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ في شأن عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ لفي تردُّد ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ أي: لكنهم يتبعون الظن ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾ كما زعموه بقولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ﴾.

(١٥٨) ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ ردٌّ وإنكار لقتله وإثبات لرفعه عليه السلام ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يُغلَب على ما يريده ﴿حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ فيما دبَّره لعيسى عليه الصلاة والسلام.

(١٥٩) ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي: وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمننَّ به. والمعنى: ما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمننَّ بأن عيسى عبد الله ورسوله قبل أن يموت، ولو حين أن تزهق روحه ولا ينفعه إيمانه ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ فيشهد على اليهود بالتكذيب، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله سبحانه وتعالى.

(١٦٠) ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي: فبأيِّ ظلم منهم ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ يعني ما ذكره في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا﴾ [الأنعام:١٤٦] ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ ناساً كثيراً، أو صداً كثيراً.

(١٦١) ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ كان الربا محرماً عليهم كما هو محرم علينا ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ دون من تاب وآمن.

(١٦٢) ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ كعبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه وأصحابه ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: منهم أو من المهاجرين والأنصار ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: يؤمنون بالكتب والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ على جمعهم بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح.

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧٠﴾

(١٦٣) ﴿**إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ**﴾ جواب لأهل الكتاب عن اقتراحهم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، واحتجاج عليهم بأن أمره في الوحي كسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿**وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ**﴾ خصَّهم بالذكر مع اشتمال النبيين عليهم تعظيماً لهم، فإن إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أول أولي العزم منهم (بعد سيدنا نوح عليه السلام)، وعيسى عليه السلام آخرهم، والباقون أشرف الأنبياء ومشاهيرهم عليهم صلوات الله تعالى وسلامه ﴿**وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾**﴾ (سمي به الكتاب المنزل على داود عليه السلام).

(١٦٤) ﴿**وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ**﴾ أي: من قبل هذه السورة، أو اليوم ﴿**وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾**﴾ وهو منتهى مراتب الوحي خص به موسى عليه السلام من بينهم، وقد فضل الله تعالى محمداً ﷺ بأن أعطاه مثل ما أعطى كل واحد منهم.

(١٦٥) ﴿**رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ**﴾ فيقولوا: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾ [طه: ١٣٤] فينبهنا ويعلمنا ما لم نكن نعلم ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا**﴾ لا يُغلب فيما يريد ﴿**حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾**﴾ فيما دبَّر من أمر النبوَّة وخصَّ كلَّ نبيٍّ بنوع من الوحي والإِعجاز.

(١٦٦) ﴿**لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ**﴾ من القرآن المعجز الدالِّ على نبوَّتك ﴿**أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ**﴾ (أقول: وهو العلم الحضوري، أو في كتاب مبين وهو القرآن المبين، ويدلُّ على العلم الإلهي) أنزله ملتبساً بعلمه الخاص به، وهو العلم بتأليفه على نظم يعجز عنه كلَّ بليغ ﴿**وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ**﴾ أيضاً بنبوَّتك ﴿**وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾**﴾ أي: وكفى بما أقام من الحجج على صحَّة نبوَّتك عن الاستشهاد بغيره.

(١٦٧) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾**﴾ لأنهم جمعوا بين الضلال والإِضلال، ولأن المضلَّ يكون أغرق في الضلال وأبعد من الانقلاع عنه.

(١٦٨) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾ محمداً عليه الصلاة والسلام بإنكار نبوته، أو الناسَ بصدِّهم عما فيه صلاحهم وخلاصهم ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾﴾.

(١٦٩) ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾ لجري حكمه السابق ووعده المحتوم على أن من مات على كفره فهو خالد في النار ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ لا يصعب عليه ولا يستعظمه.

(١٧٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ لمَّا قرَّر أمر النبوة وبيَّن الطريق الموصل إلى العلم بها ووعيد من أنكرها، خاطب الناس عامة بالدعوة وإلزام الحجة والوعد بالإِجابة والوعيد على الردِّ ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ يعني: وإن تكفروا فهو غني عنكم، لا يتضرَّر بكفركم كما لا ينتفع بإيمانكم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ فيما دبَّر لهم.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾

(١٧١) ﴿**يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ**﴾ الخطاب للفريقين؛ غَلَت اليهود في حطِّ عيسى عليه الصلاة والسلام حتى رموه بأنه ولد من غير رشدة، والنصارى في رفعه حتى اتخذوه إلهاً ﴿**وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ**﴾ يعني تنزيهه عن الصاحبة والولد ﴿**إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ**﴾ أوصلها إليها وحصلها فيها ﴿**وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ**﴾ وذو روح صدر منه، لا بتوسُّط ما يجري مجرى الأصل والمادة له (أقول: أي ذو روح خلقه الله تعالى كسائر الأرواح، لا نافخ ولا منفوخ) ﴿**فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ**﴾ أي: الآلهة ثلاثة الله سبحانه وتعالى والمسيح عليه السلام ومريم ﴿**ٱنتَهُواْ**﴾ عن التثليث ﴿**خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ**﴾أي: واحد بالذات، لا تعدُّد فيه بوجهٍ ما ﴿**سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ**﴾ أي: أسبِّحه تسبيحاً من أن يكون له ولد، فإنه يكون لمن يعادله مثل، ويتطرَّق إليه فناء ﴿**لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ**﴾ ملكاً وخلقاً، لا يماثله شيء من ذلك فيتخذه ولداً ﴿**وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾**﴾ تنبيه على غناه عن الولد سبحانه وتعالى.

(١٧٢) ﴿**لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ**﴾ لن يأنف ﴿**أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ**﴾ من أن يكون عبداً له، فإن عبوديَّته شرف يتباهى به، وإنما المذلَّة والاستنكاف في عبوديَّة غيره ﴿**وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ**﴾ أي: ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيداً لله جل وعلا ﴿**وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾**﴾ فيجازيهم.

(١٧٣) ﴿**فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾**﴾ كأنه قال: فسيحشرهم إليه جميعاً يوم يحشر العباد للمجازاة، فإن إثابة مقابليهم والإِحسان إليهم تعذيب لهم بالغمِّ والحسرة.

(١٧٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾ عنى بالبرهان المعجزات وبالنور القرآن. أي: قد جاءكم دلائل العقل وشواهد النقل ولم يبق لكم عذر ولا علة (أقول: خطاب لجميع البشر، أي: لقد جاءكم أيها الناس أكبر حجة وأعظم برهان من رب العزة والجلال، وهو محمد رسول الله ﷺ، جاء بالقرآن العظيم المعجز).

(١٧٥) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾ في ثواب قدَّره بإزاء إيمانه وعمله رحمة منه، لا قضاء لحقٍّ واجب ﴿وَفَضۡلٖ﴾ إحسان زائد عليه ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ﴾ إلى الله سبحانه وتعالى ﴿صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ١٧٥﴾ هو الإِسلام والطاعة في الدنيا، وطريق الجنة في الآخرة.

يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ
لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ
إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ
وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿١٧٦﴾

٥ سُورَةُ المَائِدَةِ ١٢٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ
ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ
يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ
وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ
ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ
وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ
ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ
عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾

(١٧٦) ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ في من مات ولم يكن له ولد ولا والد ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ﴾ والمراد بالأخت الأخت من الأبوين أو الأب ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾ أي: والمرء يرث أخته إن كان الأمر بالعكس ﴿إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ﴾ وفائدة الإخبار عنه باثنتين التنبيه على أن الحكم باعتبار العدد دون الصغر والكبر وغيرهما ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ أي: يبين الله تعالى لكم ضلالكم الذي من شأنكم إذا خليتم وطباعكم لتحترزوا عنه وتتحروا خلافه، أو يبين لكم الحق والصواب كراهة أن تضلوا ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿١٧٦﴾﴾ فهو عالم بمصالح العباد في المحيا والممات.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة النساء

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة المائدة

مدنيَّة، وآيها مئة وعشرون آية

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ الوفاء: هو القيام بمقتضى العهد، والعقد: العهد الموثق. ولعل المراد بالعقود ما يعمُّ العقود التي عقدها الله سبحانه وتعالى على عباده وألزمها إياهم من التكاليف، وما يعقدون بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به أو يحسن ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ تفصيلٌ للعقود؛ والبهيمةُ: كلُّ حي لا يميِّز، وإضافتها إلى الأنعام للبيان، ومعناه البهيمة من الأنعام، وهي الأزواج الثمانية، وألحق بها الظباء وبقر الوحش ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ تحريمه ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾ الحُرُمُ جمع حرام، وهو المحرِم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ من تحليل وتحريم.

(أقول: علامة امتثال أوامر الله تعالى والانتهاء عن نواهيه خوفُك ووجلك من الله تعالى عند مجيء الأمر والنهي، وأن تذلَّ له في نفسك، وتتواضع للخلق من غير حاجة إليهم ولا طمع فيما في أيديهم. اللهم أحي قلوبنا بالتوكُّل عليك وبالطاعة لك وبالذكر لك، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم).

(٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ يعني مناسك الحج، جمع شعيرة، وهي اسم ما أشعر، أي: جُعل شعاراً، سُمي به أعمال الحج ومواقفه لأنها علامات الحج وأعلام النسك. وقيل: دين الله جل وعلا، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ﴾ [الحج: ٣٢] أي: دينه ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ بالقتال فيه أو بالنسيء (والنسيء: تأخير الأشهر الحرم أو تقديمها) ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾ ما أهدي إلى الكعبة ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ أي: ذوات القلائد من الهَدي. والقلائدُ جمع قلادة، وهي ما قُلِّد به الهدي، ليُعلم به أنه هديٌ فلا يُتعرض له ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ قاصدين لزيارته ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًاۚ﴾ أن يثيبهم ويرضى عنهم ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْۚ﴾ إذنٌ في الاصطياد بعد زوال الإِحرام ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي: لا يحملنَّكم ﴿شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ شدة بغضهم وعداوتهم ﴿أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ لأن صدوكم عنه عام الحديبية ﴿أَن تَعْتَدُواْ﴾ بالانتقام ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ﴾ على العفو والإِغضاء ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ﴾ للتشفي والانتقام ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢﴾ فانتقامه أشد.

(أقول: ابحث جاهداً عن تلك الفئة التي تعينك على البر والتقوى، لأنها أصبحت نادرة في هذا الزمان، أما الذين يعينونك على الإثم والعدوان فما أكثرهم؛ جاهد نفسك في عدم مجالسة هذه الفئة من الناس، لأنهم يضرون دينك ودنياك، وخاصة إن كانوا من تلك الفئة التي تؤيد هواها بالحجة الشرعية، ابحث عمن يعينك على البرِّ والتقوى، وهم لا يوجِّهونك لأنفسهم، بل لله عز وجل، اللهم وجِّه قلوبَنا إليك).

حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ
بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ
ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ
بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ
فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ
عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي
مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣﴾
يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم
مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ
عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ
﴿٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ
لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ
مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ
بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾

(٣) ﴿**حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ**﴾ بيانُ ما يتلى عليكم. والميتة ما فارقه الروح من غير تذكية ﴿**وَٱلدَّمُ**﴾ أي: الدم المسفوح ﴿**وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ**﴾ أي: رفع الصوت لغير الله تعالى به كقولهم: باسم اللات والعزى عند ذبحه ﴿**وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ**﴾ أي: التي ماتت بالخنق ﴿**وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ**﴾ المضروبة بنحو خشب أو حجر حتى تموت ﴿**وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ**﴾ التي تردَّت من علوٍ أو في بئر فماتت ﴿**وَٱلنَّطِيحَةُ**﴾ التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح ﴿**وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ**﴾ وما أكل منه السبع فمات، وهو يدل على أن جوارح الصيد إذا أكلت مما اصطادته لم تحل ﴿**إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ**﴾ إلا ما أدركتم ذكاته وفيه حياة مستقرة من ذلك. والذكاة في الشرع بقطع الحلقوم والمريء بمحدَّد ﴿**وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ**﴾ النصب واحد الأنصاب، وهي أحجار كانت منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويَعدُّون ذلك قربة ﴿**وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ**﴾ أي: وحُرِّم عليكم الاستقسام بالأزلام، وذلك أنهم إذا قصدوا فعلاً ضربوا ثلاثة أقداح، مكتوب على أحدها: أمَرَني ربي، وعلى الآخر: نهاني ربي، والثالث غُفلٌ (والغُفْل ما لا علامة فيه)، فإن خرج الآمر مضوا على ذلك، وإن خرج الناهي تجنبوا عنه، وإن خرج الغفل أجالوها (أي: أعادوها) ثانياً. فمعنى الاستقسام طلب معرفة ما قسم لهم دون ما لم يقسم لهم بالأزلام ﴿**ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ**﴾ إشارة إلى الاستقسام. وكونُه فسقاً لأنه دخولٌ في علم الغيب، وضلال باعتقاد أن ذلك طريق إليه، وافتراء على الله سبحانه وتعالى إن أريد بـ«ربي» الله، وجهالةٌ وشركٌ إن أريد به الصنم ﴿**ٱلۡيَوۡمَ**﴾ لم يُردْ به يوماً بعينه، وإنما أراد الزمان الحاضر وما يتصل به من الأزمنة الآتية ﴿**يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ**﴾ أي: من إبطاله ورجوعكم عنه بتحليل هذه الخبائث وغيرها، أو من أن يغلبوكم عليه ﴿**فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ**﴾ أن يَظهروا عليكم ﴿**وَٱخۡشَوۡنِۚ**﴾ وأخلصوا الخشية لي.

﴿**ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ**﴾ بالنصر والإظهار على الأديان كلها، أو بالتنصيص على قواعد العقائد والتوقيف على أصول الشرائع وقوانين الاجتهاد (وفي السراج المنير للشربيني رحمه الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ

لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ أي: الفرائض والسنن والحدود والجهاد والحلال والحرام، فلم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام ولا شيء من الفرائض) ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بالهداية والتوفيق أو بإكمال الدين أو بفتح مكة وهدم منار الجاهلية ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ اخترته لكم ديناً من بين الأديان، وهو الدين عند الله تعالى لا غير. ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ المعنى: فمن اضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ مجاعة ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ﴾ غير مائل له ومنحرف إليه بأن يأكلها تلذذاً أو مجاوزاً حد الرخصة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ لا يؤاخذه بأكله.

(٤) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ﴾ كأنهم لما تُلي عليهم ما حُرِّم عليهم سألوا عما أُحلَّ لهم ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ﴾ ما لم تستخبثه الطباع السليمة ولم تنفر عنه، أو ما لم يدل نصٌّ ولا قياس على حرمته ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ وصيدُ ما علمتم. والجْوارحُ كواسب الصيد ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ معلِّمين إياه الصيد ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ﴾ من الحيل وطرق التأديب، فإن العلم بها إلهام من الله تعالى، أو مكتسب بالعقل الذي هو منحة منه سبحانه وتعالى، أو مما علمكم الله تعالى أن تعلموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه، وأن ينزجر بزجره وينصرف بدعائه ويمسك عليه الصيد ولا يأكل منه ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وهو ما لم تأكل منه، لقوله عليه الصلاة والسلام لعدي بن حاتم رضي الله تعالى عنه: «وإن أكل منه فلا تأكل إنما أمسك على نفسه» [متفق عليه] وإليه ذهب أكثر الفقهاء ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ﴾ المعنى: سموا عليه عند إرساله، أو لما أمسكن، بمعنى سموا عليه إذا أدركتم ذكاته ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ﴾ في محرماته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ فيؤاخذكم بما جلَّ ودقَّ.

(٥) ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ يتناول الذبائح وغيرها، ويعم الذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْۖ﴾ فلا عليكم أن تطعموهم وتبيعوه منهم (وكذلك طعامهم حل لكم) ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: الحرائر أو العفائف، وتخصيصهن بعثٌ على ما هو الأولى ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وإن كن حربيات، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تحلُّ الحربيات ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورَهنَّ ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أعفَّاء بالنكاح ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ غير مجاهرين بالزنى ﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍۗ﴾ مُسرِّين به. والخِدْن: الصديق، يقع على الذكر والأنثى ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ يريد بالإيمان شرائع الإسلام، وبالكفر به إنكاره والامتناع عنه.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ
وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ
وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ
وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ
أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا
فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ
لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ
وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٦﴾
وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم
بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّـٰمِينَ لِلَّهِ
شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ
أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ
ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٩﴾

(٦) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إذا أردتم القيام، أو إذا قصدتم الصلاة؛ لأن التوجه إلى الشيء والقيام له قصدٌ له؛ وظاهر الآية يوجب الوضوء على كلِّ قائم إلى الصلاة وإن لم يكن مُحْدِثاً، والإجماع على خلافه (أقول: هذا من السنة)، لما روي «أنه عليه الصلاة والسلام صلى الصلوات الخمس بوضوء واحد يوم الفتح، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: صنعتَ شيئاً لم تكن تصنعه؟ فقال: عمداً فعلتُه» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]. والمعنى: إذا قمتم إلى الصَّلاة محدِثين. وقيل: الأمر فيه للندب ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ أَمِرُّوا الماء عليها ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ الجمهور على دخول المرفقين في المغسول ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ الباء مزيدة، وقيل: للتبعيض. واختلف العلماء في قدر الواجب؛ فأوجب الشافعي رضي الله تعالى عنه أقلَّ ما يقع عليه الاسم (اسم المسح) أخذاً باليقين. وأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: مسح ربع الرأس، لأنه عليه الصلاة والسلام مسح على ناصيته، وهو قريب من الربع ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ عطفاً على وجوهكم، ويؤيده: السنة الشائعة، وعمل الصحابة رضوان الله عليهم، وقول أكثر الأئمة رحمهم الله تعالى ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ فاغتسلوا ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾ (مرضاً يُخاف معه من استعمال الماء، فإنَّ الواجد كالفاقد، أو مرضاً يمنعه عن الوصول إليه) ﴿أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ (لا تجدونه فيه) ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾ (فأحدث بخروج الخارج من أحد السبيلين) ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ (أو ماسستم بشرتهنَّ ببشرتكم، وبه استدلَّ الإمام الشافعيُّ رحمه الله تعالى على أنَّ اللمس ينقض الوضوء. وقيل: أو جامعتموهنَّ) ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ﴾ (فلم تتمكَّنوا من استعماله، إذ الممنوع عنه كالمفقود) ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾ (أي: فتعمَّدوا شيئاً من وجه الأرض طاهراً، ولذا قالت الحنفيَّة: لو ضرب المتيمِّم يده ومسح به أجزأه. وقال أصحابنا: لا بدَّ من أن يعلق باليد شيء من التراب) ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾ أي: ما يريد الأمر بالطهارة للصلاة أو الأمر بالتيمم تضييقاً عليكم ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ لينظِّفكم، أو ليطهِّركم عن الذنوب، فإن الوضوء تكفير للذنوب، أو ليطهِّركم بالتراب إذا أعوزكم التطهير بالماء ﴿وَلِيُتِمَّ﴾ بشرعه ما هو

مطهِّر لأبدانكم ومكفِّر لذنوبكم ﴿نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ في الدين، أو ليتمَّ برخصه إنعامه عليكم بعزائمه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ نعمته (أقول: لا بدَّ للعبد المسلم الخائف أن يستعدَّ للصلاة قبل دخول وقتها بإسباغ الوضوء، وينتظر الصلاة في المكان الذي أراد الصلاة فيه، ويشتغل بالذكر يعني بـ«لا إله إلا الله» حتى يقطع من القلب شواغل الدنيا، ويهيئ قلبه لمناجاة ربِّه جل و علا، ويقبل بقلبه على ربِّه في صلاته، وتصلي روحه في قالبه، وحينئذ يكون من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ـ٢] فهذه الصلاة التي تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وإذا أراد العبد أن يعرف ما بينه وبين ربه من صلة، فلينظر في صلاته، فبمقدار ما يعقل من صلاته فتلك حصته، ومن الله تعالى التوفيق، والله تبارك وتعالى يهدي إلى سواء السبيل).

(٧) ﴿وَاذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام، لتذكركم المنعم وترغبكم في شكره ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يعني الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، أو ميثاقه ليلة العقبة، أو بيعة الرضوان ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في إنساء (أي: نسيان) نعمه ونقض ميثاقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ أي: بخفياتها، فيجازيكم عليها فضلاً عن جليات أعمالكم.

(٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ المعنى: لا يحملنَّكم شدَّة بغضكم للمشركين على ترك العدل فيهم، فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل، كمثلة وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفياً مما في قلوبكم (من الغيظ) ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: العدل أقرب للتقوى. صرَّح لهم بالأمر بالعدل، وبين أنه بمكانٍ من التقوى، بعد ما نهاهم عن الجَور وبين أنه مقتضى الهوى؛ وإذا كان هذا للعدل مع الكفار فما ظنك بالعدل مع المؤمنين؟! ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ فيجازيكم به (أقول: القواعد الأساسية للبشر هي الشريعة الغراء التي وصلت إليهم منذ بعثة النبي ﷺ، هي قواعد أبدية أزلية، والمكلف مسؤول عنها في آخرته؛ وربنا جلَّ جلاله العالِم الذي لا يعزب عن علمه سبحانه وتعالى شيء من ماض وحاضر ومستقبل، فهو أعلم بحال العباد ابتداء ومآلاً. وعلى هذا لا بدَّ للمسلم: ١- أن ينقاد للحكم الإلهي. ٢- وأن يكون استمتاعه في الدنيا موافقاً للقانون الإلهي وهو عين الإيمان، ولذا لا يلزم علينا أن ننقد على من يتكلم بالهوى، ويظهر علمه بالهوى، بينه وبين الله جلَّ وعلا، إذا دقَّق المؤمن يطَّلع عليه، ولكن القول لا يفيد لأنه ضدُّ نفسه، وإذا كان ضد نفسه لا يقرُّ بالعدل. ٣- وأن يجري الأحكام الشرعية على جوارحه، كما أجراها أصحاب رسول الله ﷺ في عصرهم على أنفسهم الطيبة الطاهرة).

(٩) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (أي: أقروا بالإيمان بألسنتهم) ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ (تصديقاً لهذا الإقرار) ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾ (والأجر العظيم هو الجنة [السراج المنير للشربيني رحمه الله تعالى]).

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ
ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ
فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ
ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ
إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ
وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا
حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ
جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ
ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا
نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ
يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا
ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ
فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣﴾

(١٠) ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٠﴾**﴾ هذا من عادته تعالى، أن يُتبِع حال أحد الفريقين حال الآخر وفاءً بحقِّ الدعوة، وفيه مزيد وعدٍ للمؤمنين وتطييب لقلوبهم.

(١١) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ**﴾ روي «أنه عليه الصلاة والسلام أتى قريظة ومعه الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم يستقرضهم لدية مسلمَين قتلهما عمرو بن أمية الضمري خطأً يحسبهما مشركَين، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، اجلس حتى نطعمك ونقرضك، فأجلسوه وهمُّوا بقتله، فعمد عمرو بن جحاش إلى رحى عظيمة يطرحها عليه، فأمسك الله جل وعلا يده فنزل جبريل عليه السلام فأخبره فخرج». وقيل: «نزل رسول الله ﷺ منزلاً وعلق سلاحه بشجرة وتفرق الناس عنه، فجاء أعرابي فسلَّ سيفه وقال: من يمنعك مني؟ فقال: الله! فأسقطه جبريل من يده، فأخذه الرسول ﷺ وقال: من يمنعك مني؟ فقال: لا أحد، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ» فنزلت [متفق عليه]. ﴿**إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ**﴾ بالقتل والإهلاك ﴿**فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ**﴾ منعها أن تمد إليكم، وردَّ مضرتها عنكم ﴿**وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾**﴾ فإنه الكافي لإيصال الخير ودفع الشر.

(أقول: اعتصم بمولاك إله العالمين، والزم الباب بالتضرُّع والابتهال والبكاء آناء الليل وأطراف النهار مع المتضرعين، فإنه لا نجاة من هذا الأمر إلا برحمة الله تعالى، ولا سلامة من هذه الفتن إلا بنظره وتوفيقه وعنايته، فتنبَّه من رقدة الغافلين، وجاهد نفسك في مرضاة مولاك، والمستعان بالله تعالى على كلِّ حال، فإنه خير معين، وهو تعالى أرحم الراحمين).

(١٢) ﴿**وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ**﴾ شاهداً من كل سبط، ينقب عن أحوال قومه ويفتش عنها، أو كفيلاً يكفل عليهم بالوفاء بما أمروا به. روي أن بني إسرائيل لما فرغوا من فرعون واستقروا بمصر أمَرَهم الله سبحانه وتعالى بالمسير إلى أريحاء من أرض الشام، وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون، وقال: إني كتبتها لكم داراً وقراراً، فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها فإني ناصركم، وأمَرَ

موسى عليه الصلاة والسلام أن يأخذ من كل سبط كفيلاً عليهم بالوفاء بما أمِروا به، فأخذ عليهم الميثاق واختار منهم النقباء وسار بهم، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون الأخبار، ونهاهم أن يحدِّثوا قومهم، فرأوا أجراماً عظيمة وبأساً شديداً، فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم ونكثوا الميثاق، إلا كالب بن يوفنا من سبط يهوذا، ويوشع بن نون من سبط أفرائيم بن يوسف عليه السلام.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ﴾ بالنصرة ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ﴾ أي: نصرتموهم وقويتموهم ﴿وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ بالإنفاق في سبيل الخير (أقول: أي: أنفقتم من أموالكم في سبيل الخير طلباً لرضا الله جل وعلا، وهو ما كان من طيِّب، أو ما لا يتبعه منٌّ ولا أذى، أو ما كان من مال حلال) ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ذلك الشرط المؤكد المعلق به الوعد العظيم ﴿مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٢﴾ ضلالاً لا شبهة فيه ولا عذر معه.

(١٣) ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ﴾ طردناهم من رحمتنا ﴿وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ﴾ لا تنفعل عن الآيات والنذر ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ استئنافٌ لبيان قسوة قلوبهم، فإنه لا قسوة أشد من تغيير كلام الله سبحانه وتعالى والافتراء عليه ﴿وَنَسُواْ حَظّٗا﴾ وتركوا نصيباً وافياً ﴿مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾ من التوراة، أو من اتباع محمد ﷺ. والمعنى أنهم حرَّفوا التوراة وتركوا حظهم مما أنزل عليهم فلم ينالوه ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ خيانةٍ منهم، أو فرقةٍ خائنةٍ. والمعنى أن الخيانة والغدر من عادتهم وعادة أسلافهم، لا تزال ترى ذلك منهم ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ﴾ لم يخونوا، وهم الذين آمنوا منهم ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾ إن تابوا وآمنوا، أو عاهدوا والتزموا الجزية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣﴾ تعليلٌ للأمر بالصفح وحثٌّ عليه.

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ
فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ
وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ
بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ
قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا
كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن
كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ
مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ
سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى
ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ
﴿١٦﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ
ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ
أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي
ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾

(١٤) ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾ أي: وأخذنا من النصارى ميثاقهم كما أخذنا ممن قبلهم ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ (أقول: أي: نقضوا عهداً) ﴿فَأَغۡرَيۡنَا﴾ فألزمنا ﴿بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ بين فِرَقِ النصارى، أو بينهم وبين اليهود ﴿وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ بالجزاء والعقاب.

(١٥) ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ كنَعتِ محمد ﷺ، وآية الرجم في التوراة، وبشارة عيسى عليه الصلاة والسلام بأحمد ﷺ في الإنجيل ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ﴾ مما تخفونه، لا يخبر به إذا لم يضطر إليه في أمرٍ دينيٍّ ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾﴾ يعني القرآن، فإنه الكاشف لظلمات الشك والضلال، والكتابُ الواضح الإعجاز. وقيل: يريد بالنور محمداً ﷺ.

(١٦) ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ من اتبع رضاه بالإيمان منهم ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ طرق السلامة من العذاب ﴿وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من أنواع الكفر إلى الإسلام ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ بإرادته أو بتوفيقه ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾﴾ طريقٍ هو أقرب الطرق إلى الله سبحانه وتعالى، ومؤدٍّ إليه لا محالة.

(١٧) ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ﴾ هم الذين قالوا بالاتحاد منهم، وقيل لم يصرِّح به أحد منهم، ولكن لما زعموا أن فيه لاهوتاً وقالوا لا إله إلا واحدٌ لزمهم أن يكون هو المسيح،فُنسب إليهم لازم قولهم، توضيحاً لجهلهم وتفضيحاً لمعتقدهم ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ فمن يمنع من قدرته وإرادته شيئاً ﴿إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ﴾ احتج بذلك على فساد قولهم. وتقريرُه: أن المسيح عليه السلام مقدور مقهور قابل للفناء كسائر الممكنات، ومن كان كذلك فهو بمعزل عن الألوهية ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾﴾ إزاحةٌ لما عرض لهم من الشبهة في أمره. والمعنى أنه سبحانه وتعالى قادر على الإطلاق، يخلق من غير أصل كما خلق السموات والأرض، ومن أصل كخلق ما بينهما، فينشئ من أصل ليس من جنسه كآدم وكثير من الحيوانات، ومن أصل يجانسه، إما من ذَكَرٍ وحده كما خلق حواء، أو من أنثى وحدها كعيسى عليه السلام، أو منهما كسائر الناس.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

(١٨) ﴿**وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ**﴾ أشياع ابْنَيْهِ: عزير والمسيح عليهما السلام ﴿**قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم**﴾ أي: فإن صح ما زعمتم فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم، فإنَّ من كان بهذا المنصب لا يَفعل ما يوجب تعذيبه، وقد عذبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ، واعترفتم بأنه سيعذبكم بالنار أياماً معدودات ﴿**بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ**﴾ ممن خلقه الله تعالى ﴿**يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ**﴾ وهم من آمن به وبرسله ﴿**وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ**﴾ وهم من كفر. والمعنى أنه يعاملكم معاملة سائر الناس لا مزية لكم عنده ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا**﴾ كلها سواء في كونها خلقاً وملكاً له ﴿**وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ** ﴿١٨﴾﴾ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

(١٩) ﴿**يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ**﴾ أي: الدينَ ﴿**عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ**﴾ أي: جاءكم على حين فتور من الإرسال، وانقطاع من الوحي ﴿**أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ**﴾ كراهةَ أن تقولوا ذلك وتعتذروا به ﴿**فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ**﴾ أي: لا تعتذروا بـ﴿مَا جَآءَنَا﴾ فقد جاءكم ﴿**وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴿١٩﴾﴾ فيقدر على الإرسال تترى كما فعل بين موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، إذْ كان بينهما ألف وسبع مئة سنة وألف نبي، وعلى الإرسال على فترة كما فعل بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام كان بينهما ست مئة أو خمس مئة وتسع وستون سنة وأربعة أنبياء ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب خالد بن سنان العبسي. وفي الآية امتنان عليهم بأن بعث إليهم حين انطمست آثار الوحي وكانوا أحوج ما يكونون إليه.

(٢٠) ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ**﴾ فأرشدكم وشرفكم بهم، ولم يبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء ﴿**وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا**﴾ أي: وجعل منكم أو فيكم. وقد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الأنبياء بعد فرعون، حتى قتلوا يحيى عليه السلام وهموا بقتل عيسى عليه السلام ﴿**وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴿٢٠﴾﴾ من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، ونحوها مما آتاهم الله جل وعلا. وقيل: المراد بالعالمين عالَمي زمانهم.

(٢١) ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ أرض بيت المقدس. سُمِّيت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومسكن المؤمنين ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ قَسَمها لكم، أو كتبَ في اللوح أنها تكون مسكناً لكم، ولكن إن آمنتم وأطعتم، لقوله لهم بعد ما عصوا: ﴿فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٢٦] ﴿وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ﴾ ولا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبابرة، أو لا ترتدوا عن دينكم بالعصيان وعدم الوثوق على الله سبحانه وتعالى ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ ثواب الدارين.

(٢٢) ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ﴾ متغلِّبين لا تتأتى مقاومتهم ﴿وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢﴾ إذ لاَ طَاقَة لَنَا بهم.

(٢٣) ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ كالبٌ ويوشع ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي: يخافون الله سبحانه وتعالى ويتقونه. وقيل: رجلان من الجبابرة أسلما وسارا إلى موسى عليه الصلاة والسلام ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا﴾ بالإيمان والتثبيت ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ بابَ قريتهم، أي: باغِتوهم (يعني: فاجئوهم) وضاغِطوهم (أي: زاحموهم) في المضيق وامنعوهم من الإصحار (أي: الدخول في الصحراء) ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾ لتعسر الكرِّ عليهم في المضايق من عظم أجسامهم، ولأنهم أجسام لا قلوب فيها ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ أي: مؤمنين به ومصدِّقين بوعده.

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾

(٢٤) ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ قالوا ذلك استهانةً بالله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام وعدمَ مبالاةٍ بهما.

(٢٥) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ قاله شكوى بَثِّه وحزنِهِ إلى الله سبحانه وتعالى لمَّا خالفه قومه وأيس منهم، ولم يبق معه موافق يثق به غير هارون عليه السلام، والرجلان المذكوران وإن كانا يوافقانه لم يثق بهما لِما كابَدَ من تلوُّن قومه ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ بأن تحكم لنا بما نستحقه وتحكم عليهم بما يستحقونه.

(٢٦) ﴿قَالَ فَإِنَّهَا﴾ فإن الأرض المقدسة ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ﴾ لا يدخلونها ولا يملكونها بسبب عصيانهم ﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: يسيرون فيها متحيرين لا يرون طريقاً ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ خاطبَ به موسى عليه الصلاة والسلام.

(٢٧) ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ﴾ قابيل وهابيل، أوحى الله سبحانه وتعالى إلى آدم أن يزوج كل واحد منهما توأمة الآخر، فسخط منه قابيل لأن توأمته كانت أجمل، فقال لهما آدم: قرِّبا قرباناً، فمن أيكما قُبِلَ تزوجها، فَقُبِلَ قربان هابيل بأن نزلت نار فأكلته، فازداد قابيل سخطاً وفعل ما فعل ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: ملتبساً بالصدق موافقاً لما في كتب الأولين ﴿إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا﴾ والقربان اسم ما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى من ذبيحة أو غيرها ﴿فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ﴾ لأنه سَخِطَ حكم الله سبحانه وتعالى، ولم يُخلص النية في قربانه، وقَصدَ إلى أخس ما عنده ﴿قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ﴾ توعَّده بالقتل لفرط الحسد له على تقبل قربانه، ولذلك ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: إنما أُتيتَ من قِبَلِ نفسك بترك التقوى لا من قبلي، فلِمَ تقتلني؟

(٢٨) ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ قيل: كان هابيل أقوى منه، ولكن تحرَّج عن قتله واستسلم له خوفاً من الله سبحانه وتعالى، لأن الدفع لم يبح بعدُ، أو تحرياً لما هو الأفضل.

(٢٩) ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾ المعنى: إنما أستسلمُ لك إرادة أن تحمل إثمي لو بسطتُ إليك يدي، وإثمك ببسطك يدك إلي.

(٣٠) ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ﴾ فسهَّلته له ووسعته ﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠﴾ ديناً ودنيا، إذ بقي مدة عمره مطروداً محزوناً.

(٣١) ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ﴾ روي أنه لما قتله تحيَّر في أمره ولم يدرِ ما يصنع به، إذ كان أولَ ميت من بني آدم، فبعث الله تعالى غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، فحفر له بمنقاره ورجليه، ثم ألقاه في الحفرة. والمراد بسوأة أخيه جسده الميت ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ كلمةُ جزع وتحسر. والمعنى: يا ويلتي احضري فهذا أوانك. والويلة: الهلكة ﴿أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾ لا أهتدي إلى مثل ما اهتدى إليه! ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ على قتله، لِما كابد فيه من التحير في أمره وحَمْلِهِ على رقبته سنةً أو أكثر على ما قيل، وتلمذه للغراب، واسوداد لونه، وتبري أبويه منه.

مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾

(٣٢) ﴿**مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ**﴾ بسببه قضينا عليهم ﴿**أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ**﴾ أي: بغير قتلِ نفسٍ يوجب الاقتصاص ﴿**أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ**﴾ أو بغير فساد فيها؛ كالشرك أو قطع الطريق ﴿**فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا**﴾ من حيث أنه هتك حرمة الدماء وسَنَّ القتل وجرَّأ الناس عليه، أو من حيث أن قتل الواحد وقتل الجميع سواء في استجلاب غضب الله سبحانه وتعالى والعذاب العظيم ﴿**وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ**﴾ أي: ومن تسبب لبقاء حياتها بعفوٍ أو منعٍ عن القتل أو استنقاذٍ من بعض أسباب الهلكة فكأنما فعل ذلك بالناس جميعاً. والمقصود منه تعظيم قتلِ النفسِ وإحيائِها في القلوب، ترهيباً عن التعرُّض لها وترغيباً في المحاماة عليها ﴿**وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴿٣٢﴾**﴾ أي: بعد ما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم من أجل أمثال تلك الجناية وأرسلنا إليهم الرسل بالآيات الواضحة تأكيداً للأمر وتجديداً للعهد كي يتحاموا عنها كثيرٌ منهم يسرفون في الأرض بالقتل ولا يبالون به. والإسراف: التباعد عن حد الاعتدال في الأمر (أقول: المؤمن له وقفة عند حدود الله تعالى، والكافر ليس له حدود فلا يقف، كما نرى ونشاهد، خصوصاً في سوريا والعراق، اللهمَّ أزلْ هذا البلاء عن المسلمين، نتشفَّع إليك بمحمَّد عليه الصلاة والسلام وبالقرآن الكريم).

(٣٣) ﴿**إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ**﴾ أي: يحاربون أولياءهما، وهم المسلمون، جعلَ محاربتهم محاربتهما تعظيماً، وأصل الحرب: السلبُ، والمراد به هٰهنا قطع الطريق ﴿**وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا**﴾ أي: مفسدين (أقول: لا بد للمؤمن أن يتمسك بالشريعة، وإلا يهلك، ولو كان غنياً أو فقيراً، عالماً أو جاهلاً) ﴿**أَن يُقَتَّلُوٓاْ**﴾ أي: قصاصاً من غير صلبٍ إن أفردوا القتلَ ﴿**أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ**﴾ أي: يصلبوا مع القتل إن قتلوا وأخذوا المال ﴿**أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ**﴾ تقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى إن أخذوا

المال ولم يَقتلوا ﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أو ينفوا من بلد إلى بلد بحيث لا يتمكنون من القرار في موضعٍ إن اقتصروا على الإِخافة. وفسَّر أبو حنيفة رحمه الله تعالى النفي بالحبس ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ ذلٌّ وفضيحة ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ لعظم ذنوبهم.

(٣٤) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ استثناءٌ مخصوص بما هو حقُّ الله سبحانه وتعالى، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ أما القتل قصاصاً فإلى الأولياء، يسقط بالتوبة وجوبه لا جوازه. وتقييد التوبة بالتقدُّم على القدرة يدلُّ على أنها بعد القدرة لا تُسقِط الحدَّ، وإن أَسقطت العذاب، وأن الآية في قُطَّاع المسلمين، لأن توبة المشرك تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها.

(٣٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ أي: ما تتوسَّلون به إلى ثوابه والزلفى منه؛ مِنْ فعل الطاعات وترك المعاصي ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ بمحاربة أعدائه الظاهرة والباطنة ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ بالوصول إلى الله سبحانه وتعالى والفوز بكرامته.

(٣٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من صنوف الأموال ﴿جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ ليجعلوه فدية لأنفسهم ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ والجملة تمثيل للزوم العذاب لهم، وأنه لا سبيل لهم إلى الخلاص منه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

(٣٧) ﴿**يُرِيدُونَ**﴾ (يطلبون أو يتمنَّون) ﴿**أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾**﴾ (دائم [النسفي]).

(٣٨) ﴿**وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا**﴾ السرقة: أخذ مال الغير في خفية. وإنما توجبُ القطعَ إذا كانت من حرزٍ، والمأخوذ ربع دينار أو ما يساويه ﴿**جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ**﴾ (أي: عقوبة منه) ﴿**وَٱللَّهُ عَزِيزٌ**﴾ (غالب لا يُعارَض في حكمه) ﴿**حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾**﴾ (فيما حكم من قطع يد السارق والسارقة [النسفي]) (والنَّكال هو العذاب الذي يكون عبرةً لغيره).

(٣٩) ﴿**فَمَن تَابَ**﴾ من السراق ﴿**مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ**﴾ أي: بعد سرقته ﴿**وَأَصْلَحَ**﴾ أَمْرَهُ بالتقصي عن التبعات والعزم على أن لا يعود إليها ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾**﴾ يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة. وأما القطع فلا يسقط بها عند الأكثرين لأن فيه حق المسروق منه.

(٤٠) ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو لكل أحد ﴿**يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ**﴾ تعذيبه ﴿**وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ**﴾ المغفرةَ له ﴿**وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾**﴾.

(٤١) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ**﴾ أي: صنيع الذين يقعون في الكفر سريعاً، أي: في إظهاره إذا وجدوا منه فرصةً ﴿**مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ**﴾ أي: من المنافقين ﴿**وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ**﴾ أي: قابلون لما تفتريه الأحبار ﴿**سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ**﴾ أي: لجمعِ آخرين من اليهود لم يحضروا مجلسك وتجافوا عنك تكبراً وإفراطاً في البغضاء. والمعنى على الوجهين: أي: مُصغون لهم قابلون كلامَهم، أو سماعون منك لأجلهم وللإنهاء إليهم ﴿**يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ**﴾ أي: يُميلونه عن مواضعه التي وضعه الله تعالى فيها؛ إما لفظاً: بإهماله أو تغيير وضعه، وإما معنىً: بحمله على غير المراد وإجرائه في غير مورده ﴿**يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ**﴾ أي: إن أوتيتم هذا المحرَّف فاقبلوه واعملوا به ﴿**وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ**﴾ بل أفتاكم محمد ﷺ بخلافه ﴿**فَٱحْذَرُواْ ۚ**﴾ أي: احذروا

قبول ما أفتاكم به (أقول: البشر كلهم من حيث الطبيعة البشرية مخالفون للشريعة والسنة النبوية، إلا من عصمه الله تعالى، فهذا مستثنى). «روي أن شريفاً من خيبر زنى بشريفة وكانا محصنَين، فكرهوا رجمهما، فأرسلوهما مع رهط منهم إلى بني قريظة ليسألوا رسول الله ﷺ عنه، وقالوا: إنْ أمَرَكم بالجلد والتحميم (تسويد الوجه) فاقبلوا، وإن أمَرَكم بالرجم فلا، فأمَرَهم بالرجم، فأبوا عنه، فجعل ابن صوريا حكماً بينه وبينهم، وقال له رسول الله عليه الصلاة والسلام: أنشدك الله الذي لاَ إله إلا هو الذي فلق البحر لموسى عليه السلام، ورفع فوقكم الطور، وأنجاكم وأغرق آل فرعون، والذي أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه، هل تجدون فيه الرجم على من أُحصِن؟ قال: نعم، فوثبوا عليه، فقال: خفت إن كذبته أن ينزل علينا العذاب، فأمر رسولُ الله ﷺ بالزانييْن فرُجما عند باب المسجد» [أخرجه ابن جرير الطبري وله أصل مختصر في الصحيحين].

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ ضلالته أو فضيحته ﴿فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ فلن تستطيع له من الله تعالى شيئاً في دفعها ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ من الكفر (أقول: الاعتبار بالقلب، فبعض المؤمنين يخرج من فمه ما كان موافقاً لنفسه لا لإيمانه) ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾ هَوانٌ بالجزية والخوف من المؤمنين ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾ وهو الخلود في النار.

سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

(٤٢) ﴿**سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ**﴾ كرَّره للتأكيد ﴿**أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ**﴾ أي: الحرام، كالرشا ﴿**فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ**﴾ تخيير لرسول الله ﷺ إذا تحاكموا إليه بين الحُكم والإعراض ﴿**وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ**﴾ بأن يعادوك لإعراضك عنهم، فإن الله سبحانه وتعالى يعصمك من الناس ﴿**وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ**﴾ أي: بالعدل الذي أَمَرَ الله تعالى بِهِ ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾**﴾ فيحفظهم ويعظم شأنهم.

(٤٣) ﴿**وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ**﴾ تعجيبٌ من تحكيمهم مَنْ لا يؤمنون به، والحالُ أن الحكم منصوص عليه في الكتاب الذي هو عندهم، وتنبيه على أنهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق وإقامة الشرع، وإنما طلبوا به ما يكون أهون عليهم، وإن لم يكن حكم الله تعالى في زعمهم ﴿**ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ**﴾ ثم يُعرِضون عن حكمك الموافق لكتابهم بعد التحكيم ﴿**وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾**﴾ بكتابهم، لإعراضهم عنه أولاً، وعما يوافقه ثانياً، أو بك وبه.

(٤٤) ﴿**إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى**﴾ يهدي إلى الحق ﴿**وَنُورٞۚ**﴾ يكشف عما اشتبه من الأحكام ﴿**يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ**﴾ يعني أنبياء بني إسرائيل، أو موسى عليه السلام ومَنْ بعدَه، إن قلنا: شرع من قبلنا شرع لنا ما لم ينسخ ﴿**ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ**﴾ صفةٌ أجريت على النبيين مدحاً لهم، وتنويهاً بشأن المسلمين، وتعريضاً باليهود، وأنهم بمعزلٍ عن دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واقتفاء هديهم ﴿**لِلَّذِينَ هَادُواْ**﴾ وهو يدل على أن النبيين أنبياؤهم ﴿**وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ**﴾ زهَّادُهم وعلماؤهم السالكون طريقة أنبيائهم ﴿**بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ**﴾ بسبب أمر الله تعالى إياهم بأن يحفظوا كتابه من التضييع والتحريف ﴿**وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ**﴾ رقباء لا يتركون أن يغيَّر، أو شهداء يبيِّنون ما يخفى منه، كما فعل ابن صوريا ﴿**فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ**﴾ نهيٌ للحكام أن يخشوا غير الله تعالى في حكوماتهم ويداهنوا فيها خشية ظالمٍ أو مراقبة كبيرٍ ﴿**وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي**﴾

ولا تستبدلوا بأحكامي التي أنزلتها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هو الرشوة والجاه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مستهيناً به منكراً له (أقول: أي: من لم يؤمن ولم يصدق؛ لأنَّ من آمن ولم يحكم فلا يكون من الكافرين) ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ لاستهانتهم به وتمرُّدهم بأن حكموا بغيره، ولذلك وصفهم بقوله: «الكافِرُونَ، والظَّالِمُونَ، والفاسِقُونَ»، فكفْرُهم لإنكاره، وظلْمُهم بالحكم على خلافه، وفسقُهم بالخروج عنه. ويجوز أن تكون كل واحدة من الصفات الثلاث باعتبار حالٍ انضمت إلى الامتناع عن الحكم به ملائمة لها، أو لطائفة؛ كما قيل هذه في المسلمين لاتصالها بخطابهم، و«الظالمون» في اليهود، و«الفاسقون» في النصارى.

(٤٥) ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وفرضْنا على اليهود ﴿فِيهَآ﴾ في التوراة ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ أي: أن النفس تُقتَل بالنفس ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ ومعناها كذلك العين مفقوءة بالعين، والأنف مجدوعة بالأنف، والأذن مصلومةً (أي: مقطوعة) بالأذن، والسن مقلوعة بالسنِّ ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي: ذات قصاص ﴿فَمَن تَصَدَّقَ﴾ من المستحقِّين ﴿بِهِۦ﴾ بالقصاص، أي: فمن عفا عنه ﴿فَهُوَ﴾ فالتصدُّق ﴿كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ للمتصدِّق، يكفِّر الله تعالى به ذنوبه، وقيل: للجاني، يُسقط عنه ما لزمه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مِن القصاص وغيره ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

(٤٦) ﴿**وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم**﴾ أي: وأتبعناهم على آثارهم ﴿**بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾ (أي: قبله مما أتى به موسى عليه السلام) ﴿**مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى**﴾ من الضلالة ﴿**وَنُورٌ**﴾ (أي: بيان للأحكام) ﴿**وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ**﴾ (أي: لما فيها من الأحكام) ﴿**وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾**﴾ (أي: كلُّ ما فيه يهتدون به ويتعظون فترق قلوبهم ويعتبرون به [السراج المنير للشربيني رحمه الله تعالى]).

(٤٧) ﴿**وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ**﴾ (وهم أتباع عيسى عليه الصلاة والسلام) ﴿**بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ**﴾ (أي: من الأحكام) ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾**﴾ عن حكمه، أو عن الإيمان إن كان مستهيناً به.

(٤٨) ﴿**وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ**﴾ أي: القرآن ﴿**مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ**﴾ من جنس الكتب المنزلة ﴿**وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ**﴾ ورقيباً على سائر الكتب، بِحفْظِه عن التغيير، ويشهد لها بالصحة والثبات ﴿**فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ**﴾ إليك ﴿**وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ**﴾ بالانحراف عنه إلى ما يشتهونه ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ**﴾ أيها الناس ﴿**شِرْعَةً**﴾ شريعة ﴿**وَمِنْهَاجًا ۚ**﴾ طريقاً واضحاً في الدين ﴿**وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً**﴾ جماعةً متفقةً على دينٍ واحدٍ في جميع الأعصار من غير نسخٍ وتحويلٍ. وقيل: المعنى لو شاء الله تعالى اجتماعكم على الإسلام لأجبركم عليه (أقول: هذا يكون إيماناً جبريّاً، والله تعالى لا يقبل هذا الإيمان، لأنه جلَّ وعلا أَنزل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام الكتاب، وأمره بالتبليغ، فلا جبر ولا حلول ولا تناسخ) ﴿**وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ**﴾ من الشرائع المختلفة المناسبة لكل عصر وقرن، هل تعملون بها مذعنين لها معتقدين أن اختلافها بمقتضى الحكمة الإلهية، أم تزيغون عن الحق وتفرِّطون في العمل؟ ﴿**فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ**﴾ فابتدروها انتهازاً للفرصة وحيازة لفضل السبق والتقدم ﴿**إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا**﴾ وعدٌ ووعيدٌ للمبادِرين والمقصِّرين ﴿**فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾**﴾ بالجزاء الفاصل بين المحق والمبطل والعامل والمقصر.

(٤٩) ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ عطفٌ على الكتاب. أي: أنزلنا إليك الكتاب والحكم ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ أي: أن يضلوك ويصرفوك عنه (اللهم احفظنا من الانحراف عن دين الإسلام وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام) ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عن الحكم المنزل وأرادوا غيره ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ﴾ يعني ذنبَ التولي عن حكم الله سبحانه وتعالى ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩﴾ لمتمرِّدون في الكفر معتدون فيه (أقول: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ الناسين للعهود الأصلية الناقضين للمواثيق الفطرية ﴿لَفَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن مقتضى الأحكام الإلهية وحِكَمه المكنونة فيها، بمتابعة الأهْوِيَة الباطلة، كما قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم).

(٥٠) ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ﴾ الذي هو الميل والمداهنة في الحكم. والمراد بالجاهلية المِلَّةُ الجاهلية التي هي متابعة الهوى (أقول: متابعة الهوى كما أنها منهيٌّ عنها للكافر، كذلك منهيٌّ عنها للمؤمن) ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾ أي: هذا الاستفهام لقوم يوقنون، فإنهم هم الذين يتدبرون الأمور ويتحققون الأشياء بأنظارهم، فيعلمون أنْ لا أحسن حكماً من الله سبحانه وتعالى.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾

(٥١) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ**﴾ فلا تعتمدوا عليهم ولا تعاشروهم معاشرة الأحباب ﴿**بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ**﴾ أي: فإنهم متفقون على خلافكم، يوالي بعضهم بعضاً لاتحادهم في الدين وإجماعهم على مضادَّتكم ﴿**وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ**﴾ أي: ومن والاهم منكم فإنه من جملتهم. وهذا التشديد في وجوب مجانبتهم كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا تتراءى ناراهما» (أي: يجب أن يتباعدا بحيث إذا أوقدت ناراهما لم تلمح إحداهما الأخرى [حاشية شيخ زاده]) [والحديث أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي رحمهم الله تعالى] أو لأن الموالين لهم كانوا منافقين ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾**﴾ أي: الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار، أو المؤمنين بموالاة أعدائهم.

(أقول: أقلع عن صحبة الأغيار الذين خالف قولهم فعلهم، ولا تتكل على نفسك، ولا تدَّعِ العلم بدون العمل فإن دعواك العلم بدون العمل باطل، فالعلم دليل العمل، واختر صحبة الأخيار فإنهم ينصحونك واقبل بصحبتهم فإنك ترشد بإرشادهم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم).

(٥٢) ﴿**فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ**﴾ يعني ابن أُبيٍّ وأضرابه ﴿**يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ**﴾ أي: في موالاتهم ومعاونتهم ﴿**يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ**﴾ يعتذرون بأنهم يخافون أن تصيبهم دائرة من دوائر الزمان بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار ﴿**فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ**﴾ لرسول الله ﷺ على أعدائه وإظهار المسلمين ﴿**أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ**﴾ يقطع شأفة اليهود، من القتل والإجلاء (والشأفة: قرحة تخرج في أسفل القدم فتكوَى فتذهب. يقال: استأصل الله تعالى شأفته، أي: أذهبه الله تعالى كما أذهب تلك القرحة بالكي)، أو الأمر بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم ﴿**فَيُصۡبِحُواْ**﴾ أي: هؤلاء المنافقون ﴿**عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾**﴾ على ما استبطنوه من الكفر والشك في أمر الرسول ﷺ، فضلاً عما أظهروه مما أَشْعَرَ على نفاقهم.

(٥٣) ﴿**وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ**﴾ يقوله المؤمنون بعضهم لبعض تعجُّباً من حال المنافقين وتبجُّحاً (أي: فرحاً) بما منَّ الله سبحانه وتعالى عليهم من الإخلاص ﴿**حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ**

﴿فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ۝٥٣﴾ شهادةٌ لهم بحبوط أعمالهم. وفيه معنى التعجب، كأنه قيل أحبط أعمالهم فما أخسرهم.

(٥٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ وهذا من الكائنات (أي: الحوادث) التي أخبر الله تعالى عنها قبل وقوعها، وقد ارتدَّ من العرب في أواخر عهد رسول الله ﷺ ثلاث فرق: بنو مدلج وكان رئيسهم ذا الحمار الأسود العنسي، تنبَّأ باليمن واستولى على بلاده ثم قتله فيروز الديلمي ليلة قُبِضَ رسول الله ﷺ من غدها، وأخبر الرسولُ ﷺ في تلك الليلة، فسُرَّ المسلمون، وأتى الخبر في أواخر ربيع الأول. وبنو حنيفة أصحاب مسيلمة، تنبَّأ وكتب إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله «ﷺ»، أما بعد: فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك، فأجاب: من محمد رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب، أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، فحاربه أبو بكر رضي الله تعالى عنه بجند من المسلمين، وقتله وحشي قاتل حمزة. وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد، تنبَّأ فبعث إليه رسول الله ﷺ خالداً، فهرب بعد القتال إلى الشام، ثم أسلم وحسُن إسلامه. وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه سبعٌ: فزارة قوم عيينة بن حصن، وغطفان قوم قرة بن سلمة القشيري، وبنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل، وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة، وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبِّئة زوجة مسيلمة، وكندة قوم الأشعث بن قيس، وبنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد، وكفى الله تعالى أمرهم على يده. وفي إمارة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: غسان قوم جبلة بن الأيهم، تنصَّر وسار إلى الشام ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ فسوف يأتي الله تعالى بقوم مكانهم؛ ومحبة الله تعالى للعباد إرادةُ الهدى والتوفيقُ لهم في الدنيا، وحسنُ الثواب في الآخرة. ومحبةُ العباد له إرادةُ طاعته والتحرزُ عن معاصيه ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عاطفين عليهم متذللين لهم ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ شِدادٍ متغلبين عليهم ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾ بمعنى أنهم الجامعون بين المجاهدة في سبيل الله تعالى والتصلُّب في دينه ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من الأوصاف ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ يمنحه ويوفِّق له ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ كثير الفضل ﴿عَلِيمٌ ۝٥٤﴾ بمن هو أهله.

(أقول: الارتداد نوعان:

الأول: الخروج من الدين والعياذ بالله تعالى.

والآخر: خروج من أخلاق الإسلام، وهذا شائع في زماننا. فكما أن الله تعالى ينهانا عن الارتداد ينهانا كذلك عن الخروج من الأخلاق الحميدة إلى الذميمة كالإسراف وعدم الغيرة، والكذب، والمخادعة، وعدم الخشوع في الصلاة، وعدم الاهتمام بالأمانات، وغير ذلك من المخالفات. كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] أي: فليحذر الذين يخالفون أمر الرسول ﷺ ويتركون سبيله ومنهجه وسنته أن تنزل بهم محنة عظيمة في الدنيا، أو ينالهم عذاب شديد في الآخرة. أيها المؤمن حاسب نفسك، وزن عملك بميزان القرآن، واحكم بعد ذلك، ثم قل الحق ولو على نفسك).

(٥٥) ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لمّا نهى عن موالاة الكفرة ذَكَرَ عقيبه من هو حقيق بها، وإنما قال: ﴿وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ وَلم يقل: أولياؤكم؛ للتنبيه على أن الولاية لله سبحانه وتعالى على الأصالة، ولرسوله ﷺ وللمؤمنين على التبع ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ متخشِّعون في صلاتهم وزكاتهم. وقيل هو حال مخصوصة بـ«يؤتون»، أي: يؤتون الزكاة في حال ركوعهم في الصلاة حرصاً على الإحسان ومسارعة إليه (أقول: والإحسان كما جاء في الحديث الشريف: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [متفق عليه]). وإنها نزلت في علي رضي الله عنه حين سأله سائل وهو راكع في صلاته، فطرح له خاتمه. وإن صح أنه نزل فيه فلعله جيء بلفظ الجمع لترغيب الناس في مثل فعله فيندرجوا فيه.وعلى هذا يكون دليلاً على أن الفعل القليل في الصلاة لا يبطلها.

(٥٦) ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ومن يتخذهم أولياء ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ كأنه قيل: ومن يتولَّ هؤلاء فهم حزب الله تعالى، وحزب الله هم الغالبون، وتنويهاً بذكرهم وتعظيماً لشأنهم وتشريفاً لهم بهذا الاسم، وتعريضاً لمن يوالي غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان. وأصل الحزب: القومُ يجتمعون لأمرٍ حَزَبَهُم.

(٥٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾ نزلت في رفاعة بن زيد وسويد بن الحارث، أظهرا الإسلام ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادُّونهما. وقد رتب النهيَ عن موالاتهم على اتخاذِهم دينَهم هزواً ولعباً، إيماءً إلى العلة، وتنبيهاً على أنَّ مَن هذا شأنه بعيد عن الموالاة جدير بالمعاداة والبغضاء. والنهي عن موالاة من ليس على الحق رأساً، سواء مَنْ كان ذا دين تبع فيه الهوى وحرفه عن الصواب كأهل الكتاب، ومَنْ لم يكن كالمشركين ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بترك المناهي ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ لأن الإيمان حقاً يقتضي ذلك. وقيل: إن كنتم مؤمنين بوعده ووعيده جلَّ وعلا.

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا
بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ
هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ
عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا
وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ
﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ
ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ
وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟
يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟
بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا
مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ
وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ
وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

(٥٨) **﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ﴾** أي: اتخذوا الصلاة أو المناداة. وفيه دليل على أن الأذان مشروع للصلاة. روي: أن نصرانياً بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: «أشهد أن محمداً رسول الله» قال: أَحْرَقَ الله الكاذب، فدخل خادمه ذات ليلة بنارٍ، وأهلُه نيام، فتطاير شررها في البيت، فأحرقه وأهله **﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾** فإن السفه يؤدي إلى الجهل بالحق والهزء به، والعقل يمنع منه.

(٥٩) **﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾** هل تنكرون منا وتعيبون **﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾** أي: الإيمانَ بالكتب المنزّلة كلها **﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾** أي: ما تنكرون منا إلا مخالفتكم، حيث دخلنا في الإيمان وأنتم خارجون منه.

(٦٠) **﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾** أي: من ذلك المنقوم (في قوله: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾) **﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾** جزاءً ثابتاً عند الله سبحانه وتعالى **﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾** وهم اليهود، أبعدهم الله تعالى من رحمته وسخط عليهم بكفرهم وانهماكهم في المعاصي بعد وضوح الآيات، ومسخَ بعضهم قردة وهم أصحاب السبت، وبعضهم خنازير وهم كفار أهل مائدة عيسى عليه الصلاة والسلام **﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾** المراد مِنْ الطاغوت العجلُ، وقيل الكهنة، وقيل كل من أطاعوه في معصية الله تعالى **﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾** أي: الملعونون **﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾** جعل مكانهم شراً ليكون أبلغ في الدلالة على شرارتهم **﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾** قَصْدِ الطريق المتوسِّط بين غلوِّ النصارى وقدح اليهود.

(٦١) **﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾** نزلت في يهود نافقوا رسول الله ﷺ، أو في عامة المنافقين **﴿وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ﴾** أي: يخرجون من عندك كما دخلوا لم يؤثر فيهم ما سمعوا منك **﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾** أي: من الكفر. وفيه وعيدٌ لهم.

(٦٢) **﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾** أي: من اليهود أو من المنافقين **﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ﴾** أي: الحرام، وقيل: الكذب

﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ الظلم، أو مجاوزة الحد في المعاصي. وقيل: الإِثْمُ ما يختص بهم، والعدوانُ ما يتعدى إلى غيرهم ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ﴾ أي: الحرام، خصه بالذكر للمبالغة ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ لبئس شيئاً عملوه.

(٦٣) ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ (أي: المدَّعون للتخلي من الدنيا إلى سبيل الربِّ جل وعلا) ﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ (أي: العلماء) ﴿عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ﴾ أي: الحرام، هذا تحضيضٌ لعلمائهم على النهي عن ذلك ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أبلغُ من قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، من حيث أن الصنع عمل الإنسان بعد تدرُّب فيه وتروٍّ وتحري إجادةٍ، ولذلك ذمَّ به خواصهم، ولأن ترك الحِسبة (أي: ترك النهي) أقبحُ من مواقعة المعصية، لأن النفس تلتذُّ بها وتميل إليها، ولا كذلك ترك الإنكار عليها، فكان جديراً بأبلغ الذم.

(٦٤) ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ﴾ أي: هو مُمسك يقتِّر بالرزق ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ﴾ دعاءٌ عليهم بالبخل والنكد، أو بالفقر والمسكنة، أو بغلِّ الأيدي حقيقة، يُغلون أسارى في الدنيا ومسحوبين إلى النار في الآخرة ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ (أقول: أي فضله وغناه جلَّ وعلا) ثَنَّى اليد مبالغةً في الردِّ ونفي البخل عنه تعالى، وإثباتاً لغاية الجود، فإن غاية ما يبذله السخيُّ من ماله أن يعطيه بيديه؛ وتنبيهاً على منح الدنيا والآخرة؛ وعلى ما يعطي للاستدراج، وما يعطي للإكرام ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ﴾ أي: هو مختار في إنفاقه، يوسع تارة ويضيق أخرى، على حسب مشيئته ومقتضى حكمته، لا على تعاقب سعة وضيق في ذات يد ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ﴾ أي: هم طاغون كافرون، ويزدادون طغياناً وكفراً بما يسمعون من القرآن، كما يزداد المريض مرضاً من تناول الغذاء الصالح للأصحاء ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ فلا تتوافق قلوبهم ولا تتطابق أقوالهم ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ كلما أرادوا حرب الرسول ﷺ وإثارة شرٍّ عليه ردَّهم الله سبحانه وتعالى، بأن أوقع بينهم منازعةً كفَّ بها عنه شرهم ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ﴾ أي: للفساد. وهو اجتهادهم في الكيد وإثارة الحروب والفتن وهتك المحارم ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ فلا يجازيهم إلا شراً.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا
التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن
فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ
مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ
مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ
وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ
إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ
﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ
مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي
إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا
لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

(٦٥) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا﴾ بمحمد ﷺ وبما جاء به ﴿وَاتَّقَوْا﴾ ما عددنا من معاصيهم ونحوه ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ التي فعلوها ولم نؤاخذهم بها ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾ فيه تنبيه على عظم معاصيهم وكثرة ذنوبهم، وأن الإسلام يجبُّ ما قبله وإن جلَّ، وأن الكتابي لا يدخل الجنة ما لم يُسلم.

(٦٦) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ بإذاعة ما فيهما من نعت محمد عليه الصلاة والسلام والقيام بأحكامهما ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يعني سائر الكتب المنزلة، فإنها من حيث إنهم مكلفون بالإيمان بها كالمنزل إليهم. أو القرآن ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ لوسَّع عليهم أرزاقهم، بأن يفيض عليهم بركات منَ السماء والأرض، أو يُكثر ثمرة الأشجار وغلة الزروع، أو يرزقهم الجنان اليانعة الثمار، فيجتنونها من رأس الشجر ويلتقطون ما تساقط على الأرض. بيَّن بذلك أن ما كفَّ عنهم بشؤم كفرهم ومعاصيهم لا لقصور الفيض (الإلهي)، ولو أنهم آمنوا وأقاموا ما أُمروا به لوسَّع عليهم وجعل لهم خير الدارين ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ عادلة غير غالية ولا مقصرة، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: بئس ما يعملونه. وفيه معنى التعجب. أي: ما أسوأ عملهم، وهو المعاندة وتحريف الحق والإعراض عنه والإفراط في العداوة.

(٦٧) ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ جميعَ ما أنزل إليك، غير مراقب أحداً ولا خائف مكروهاً ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ وإن لم تبلغ جميعه كما أمرتك ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ فما أديت شيئاً منها، لأن كتمان بعضها يضيِّع ما أُدِّي منها، كترك بعض أركان الصلاة، فإن غرض الدعوة ينتقض به ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ عِدَةٌ وضمانٌ من الله سبحانه وتعالى بعصمة روحه ﷺ من تعرض الأعادي، وإزاحةٌ لمعاذيره ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ لا يمكِّنهم مما يريدون بك. وعن أنس رضي الله تعالى عنه: كان رسول الله ﷺ يُحرَس حتى نزلت، فأخرج رأسه من قبة أَدَمٍ (جلد)، فقال: «انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمني الله تعالى من

الناس» [رواه الترمذي رحمه الله تعالى]. وظاهر الآية يوجب تبليغ كل ما أُنزل، ولعل المراد به تبليغ ما يتعلق به مصالح العباد، وقَصَدَ بإنزاله إطلاعهم عليه، فإنَّ من الأسرار الإلهية ما يحرم إفشاؤه.

(٦٨) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: دينٍ يُعتدُّ به ويصحُّ أن يسمى شيئاً، لأنه باطل ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ومن إقامتها الإيمانُ بمحمَّد ﷺ، والإذعان لحكمه؛ فإن الكتب الإلهية بأسرها آمرةٌ بالإيمان بمن صدَّقته المعجزة، ناطقةٌ بوجوب الطاعة له. والمراد إقامة أصولها وما لم يُنسخ من فروعها ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ فلا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم بما تبلغه إليهم، فإنَّ ضرر ذلك لاحقٌ بهم لا يتخطَّاهم، وفي المؤمنين مندوحةٌ لك عنهم.

(٦٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (بألسنتهم، يريد به المتديِّنين بدين محمد ﷺ، المخلصين منهم والمنافقين) ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ (أي: اليهود) ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ (قوم بين النصارى والمجوس) ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ (سمُّوا بذلك لأنهم نصروا المسيح عليه السلام، أو لأنهم كانوا معه في قرية يقال لها: ناصرة) ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ (من كان منهم في دينه قبل أن ينسخ مصدِّقاً بقلبه بالمبدأ والمعاد، عاملاً بمقتضى شرعه. وقيل: من آمن من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً، ودخل في الإسلام دخولاً صادقاً) ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (حين يخاف الكفار من العقاب، ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب).

ولما كان الصابئون مع ظهور ضلالهم وميلهم عن الأديان كلِّها يُتاب عليهم، إن صحَّ منهم الإيمان والعمل الصالح، كان غيرُهم أولى بذلك.

(٧٠) ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ ليذكِّروهم وليبيِّنوا لهم أمر دينهم ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ بما يخالف هواهم من الشرائع ومشاقِّ التكاليف ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ
عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا
يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ
ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ
ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾
لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ
إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ
إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾
مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ
ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ
ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ
يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

(٧١) ﴿**وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ**﴾ أي: وحسب بنو إسرائيل أن لا يصيبهم بلاء وعذاب بقتل الأنبياء وتكذيبهم ﴿**فَعَمُواْ**﴾ عن الدين أو الدلائل والهدى ﴿**وَصَمُّواْ**﴾ عن استماع الحق، كما فعلوا حين عبدوا العجل ﴿**ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ**﴾ أي: ثم تابوا فتاب الله تعالى عليهم ﴿**ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ**﴾ كرَّة أخرى ﴿**كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾**﴾ فيجازيهم على وفق أعمالهم.

(٧٢) ﴿ **لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ**﴾ أي: إني عبدٌ مربوبٌ مثلكم، فاعبدوا خالقي وخالقكم ﴿**إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ**﴾ أي: في عبادته، أو فيما يختص به من الصفات والأفعال ﴿**فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ**﴾ يُمنع من دخولها، فإنها دار الموحِّدين ﴿**وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ**﴾ فإنها المُعَدَّة للمشركين ﴿**وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾**﴾ أي: وما لهم أحد ينصرهم من النار.

(٧٣) ﴿**لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ**﴾ مستحِقٌّ للعبادة جل وعلا، موصوف بالوحدانية سبحانه وتعالى، متعالٍ عن قبول الشركة ﴿**وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ**﴾ ولم يوحِّدوا ﴿**لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾**﴾ أي: ليمسنَّ الذين بقوا منهم على الكفر، أو ليمسَّنَّ الذين كفروا من النصارى. وفيه تنبيه على أنَّ العذاب على مَن دام على الكفر ولم ينقلع عنه، فلذلك عقَّبه بقوله:

(٧٤) ﴿ **أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ**﴾ أي: أفلا يتوبون بالانتهاء عن تلك العقائد والأقوال الزائغة، ويستغفرونه بالتوحيد والتنزيه عن الاتحاد والحلول بعد هذا التقرير والتهديد (أقول: الاتحاد والحلول والتناسخ مُحالٌ في الدين) ﴿**وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾**﴾ يغفر لهم ويمنحهم من فضله إن تابوا.

(٧٥) ﴿**مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ**﴾ أي: ما هو إلا رسول كالرسل قبله، خصَّه الله سبحانه وتعالى بالآيات كما خصَّهم بها، فإن إحياء الموتى على يده ميسور (بإرادة الله تعالى)؛ فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى على يد موسى عليه السلام، وهو أعجب؛ وإنَّ خلقه من غير أب فقد خلق آدم عليه السلام من غير أب وأم وهو أغرب ﴿**وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ**﴾ كسائر النساء اللاتي يلازمن الصدق،

أو يصدِّقن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ ويفتقران إليه. بيَّن أولًا أقصى ما لهما من الكمال، ودلَّ على أنه لا يوجب لهما ألوهية، لأن كثيراً من الناس يشاركهما في مثله، ثم نبَّه على نقصهما، وذَكَرَ ما ينافي الربوبية ويقتضي أن يكونا من عداد المركَّبات الكائنة الفاسدة، ثم عَجب لمن يدَّعي الربوبية لهما مع أمثال هذه الأدلة الظاهرة فقال: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥﴾ كيف يُصرَفون عن استماع الحق وتأمُّله.

(٧٦) ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ﴾ يعني عيسى عليه الصلاة والسلام. وهو وإن مَلَك ذلك بتمليك الله سبحانه وتعالى إياه لا يملكه من ذاته، ولا يملك مثل ما يضر الله تعالى به من البلايا والمصائب وما ينفع به من الصحة والسعة ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦﴾ بالأقوال والعقائد، فيجازي عليهما إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرٌّ.

قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

(٧٧) ﴿**قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ**﴾ أي: غلوّاً باطلاً فترفعوا عيسى عليه الصلاة والسلام إلى أن تدَّعوا له الألوهية، أو تضعوه فتزعموا أنه لغير رشدة (أي: ولد زنى، نعوذ بالله تعالى) ﴿**وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ**﴾ يعني أسلافهم وأئمتهم الذين قد ضلوا قبل مبعث محمد ﷺ في شريعتهم ﴿**وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا**﴾ ممن شايعهم على بدعهم وضلالهم ﴿**وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾**﴾ عن قصد السبيل الذي هو الإسلام، بعد مبعثه ﷺ، لمَّا كذبوه وبغوا عليه.

(٧٨) ﴿**لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ**﴾ أي: لعنهم الله تعالى في الزبور والإنجيل على لسانهما، وقيل: إن أهل أيلة لما اعتدوا في السبت لعنهم الله تعالى على لسان داود فمسخهم الله تعالى قردة، وأصحاب المائدة لما كفروا دعا عليهم عيسى عليه السلام ولعنهم فأصبحوا خنازير، وكانوا خمسة آلاف رجل ﴿**ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾**﴾ أي: ذلك اللعن الشنيع المقتضي للمسخ بسبب عصيانهم واعتدائهم ما حُرِّم عليهم.

(٧٩) ﴿**كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ**﴾ أي: لا ينهى بعضهم بعضاً عن معاودة منكر فعلوه ﴿**لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾**﴾ تعجيبٌ من سوء فعلهم مؤكَّد بالقَسَم.

(٨٠) ﴿**تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ**﴾ من أهل الكتاب ﴿**يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ**﴾ يوالون المشركين بغضاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿**لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ**﴾ أي: لبئس شيئاً قدموه لِيَردوا عليه يوم القيامة ﴿**أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾**﴾.

(٨١) ﴿**وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ**﴾ يعني نبيهم. وإن كانت الآية في المنافقين فالمراد نبينا عليه الصلاة والسلام ﴿**وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ**﴾ إذ الإيمان يمنع ذلك ﴿**وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨١﴾**﴾ خارجون عن دينهم، أو متمردون في نفاقهم.

(٨٢) ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾ لشدة شكيمتهم (أي: بغضهم) وتضاعف كفرهم وانهماكهم في اتباع الهوى وركونهم إلى التقليد وبعدهم عن التحقيق وتمرُّنهم على تكذيب الأنبياء ومعاداتهم ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ لِلِين جانبهم ورقة قلوبهم وقلة حرصهم على الدنيا وكثرة اهتمامهم بالعلم والعمل، وإليه أشار بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٨٢﴾ عن قبول الحق إذا فهموه، أو يتواضعون ولا يتكبرون كاليهود. وفيه دليل على أن التواضع والإِقبال على العلم والعمل والإِعراض عن الشهوات محمودة وإن كانت من كافر.

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

(٨٣) ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ وهو بيان لرقة قلوبهم وشدة خشيتهم ومسارعتهم إلى قبول الحق وعدم تأبِّيهم عنه ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ المعنى: أنهم عرفوا بعض الحق فأبكاهم، فكيف إذا عرفوا كله؟ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بذلك أو بمحمد عليه الصلاة والسلام ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ من الذين شهدوا بأنه حق، أو بنبوته عليه الصلاة والسلام، أو من أمته الذين هم شهداء على الأمم يوم القيامة. (أقول: هذا مهمٌّ في درجة الإيمان والإحسان، اللهم ألحقنا بهم رضي الله عنهم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين).

(٨٤) ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ استفهامُ إنكارٍ واستبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام الداعي، وهو الطمع في الانخراط مع الصالحين والدخول في مداخلهم.

(٨٥) ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ أي: عن اعتقادٍ ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ الذين أحسنوا النظر والعمل، أو الذين اعتادوا الإحسان في الأمور (أقول: والإحسان كما قال رسول الله ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى]).

(٨٦) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ عطَفَ التكذيب بآيات الله تعالى على الكفر وهو ضرب منه (أي: قسم منه)، لأن القصد إلى بيان حال المكذبين، وذَكَرَهم في معرض المصدِّقين بها جمعاً بين الترغيب والترهيب.

(٨٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: ما طاب ولذَّ منه. كأنه لَمَّا تضمَّن ما قبله مدحُ النصارى على ترهُّبهم، والحثُّ على كسر النفس ورفض الشهوات، عقَّبه النهيَ عن الإفراط في ذلك والاعتداء عما حدَّ الله سبحانه وتعالى بجعل الحلال حراماً، فقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ ويجوز أن يراد به ولا تعتدوا حدود ما أَحلَّ الله تعالى لكم إلى ما حرَّم عليكم، فتكون الآية ناهية عن تحريم ما أُحلَّ وتحليل ما حُرِّم، داعية إلى القصد بينهما.

(٨٨) ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ﴾ أي: كلوا ما حلَّ لكم وطاب مما رزقكم الله تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾.

(أقول: إذا طلبت نفسك الشراب والطعام والراحة فأعطها بقدر ما تقوم به وتقوى على طاعة الله عز وجل، ولا تسترسل معها في كل مطلب، بل أعطها بمقدار ما سمح لك الشرع الشريف، وإلا تسقط من رتبة الإنسانية إلى رتبة البهيمية والعياذ بالله تعالى، لذا فالطعام مصيبة على المؤمن من جانب، وطاعة من جانب آخر، فإن كان يتقوى به على معصية الله تعالى فهو مصيبة في حقه، وإن كان يتقوى به على طاعة الله تعالى فهو طاعة، وإن كان يأكل بالأمر فإنه يأخذ منه بمقدار الكفاية بدون زيادة ولا نقصان بعد تحريه عن الحلال، وزهده بما في أيدي الناس، ولا بد للإنسان من أن يتفكر بأن ما كان له فسيصل إليه، وما كان لغيره فلن يصل إليه، فعليه ألا يذل نفسه لأحد من المخلوقات لأن الذي أوجده من العدم قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] أين العقول؟؟ لذا وجب علينا أن نتمسك بأذيال من يعرف الله تعالى، حتى يوصلنا إلى الله تعالى، ويوقفنا على هذا).

(٨٩) ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ هو ما يبدو من المرء بلا قصد، كقول الرجل: لا والله، وبلى والله ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾ بما وثَّقتم الأيمان عليه بالقصد والنية. والمعنى: ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم، أو بنكث ما عقدتم ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ فكفارة نكثه، أي: الفعلة التي تُذهب إثمه وتستره ﴿إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ﴾ من أَقْصَدِه في النوع أو القَدْرِ؛ وهو مُدٌّ لكل مسكين عندنا، ونصف صاع عند الحنفية ﴿أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ﴾ أو إعتاق إنسان ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ واحداً منها ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ﴾ فكفارته صيام ثلاثة أيام ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور ﴿كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ﴾ وحنثتم ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ بأن تضنُّوا بها (أي: تبخلوا) ولا تبذلوها لكل أمر، أو بأن تبرّوا فيها ما استطعتم، أو بأن تكفّروها إذا حنثتم؛ قال عليه الصلاة والسلام «من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً منها فليكفِّر عن يمينه وليأتِ الذي هو خير» [رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك البيان ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أعلام شرائعه ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٨٩﴾ نعمة التعليم، أو نِعمه الواجب شكرها، فإن مثل هذا التبيين يسهل لكم المخرج منه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ
مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ
ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ
وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ
ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ
رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ
﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ
أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ
ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ
وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ
يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ
مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا
سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

(٩٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ﴾ أي: الأصنام التي نصبت للعبادة ﴿وَٱلۡأَزۡلَٰمُ﴾ الأقداح ﴿رِجۡسٞ﴾ قذرٌ تعاف عنه العقول. كأنه قال: إنما تعاطي الخمر والميسر ﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ لأنه مسبَّب عن تسويله وتزيينه ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ لكي تفلحوا بالاجتناب عنه. واعلم أنه سبحانه وتعالى أكّد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية بأن صدَّر الجملة بـ﴿إِنَّمَا﴾، وقرنهما بالأنصاب والأزلام، وسماهما رجساً، وجعلهما من عمل الشيطان، تنبيهاً على أن الاشتغال بهما شرٌّ بحت أو غالب، وأمر بالاجتناب عن عينهما، وجعله سبباً يرجى منه الفلاح، ثم قرَّر ذلك بأنْ بيَّن ما فيهما من المفاسد الدينية والدنيوية المقتضية للتحريم، فقال تعالى:

(٩١) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ﴾ وإنما خصَّهما بإعادة الذكر وشرَحَ ما فيهما من الوبال تنبيهاً على أنهما المقصود بالبيان، وذكَرَ الأنصاب والأزلام للدلالة على أنها مثلهما في الحرمة والشرارة. وخَصَّ الصلاة من الذكر بالإِفراد للتعظيم، والإِشعار بأن الصادَّ عنها كالصادِّ عن الإيمان، من حيث أنها عماده والفارق بينه وبين الكفر، ثم أعاد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتباً على ما تقدَّم من أنواع الصوارف فقال تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ إيذاناً بأن الأمر في المنع والتحذير بلغ الغاية، وأن الأعذار قد انقطعت (أقول: بقي شيء آخر وهو خوف من الله تعالى، أو رحمة الله جلَّ وعلا بالتوبة).

(٩٢) ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فيما أمرا به ﴿وَٱحۡذَرُواْۚ﴾ ما نهيا عنه، أو مخالفتهما ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ أي: فاعلموا أنكم لم تضروا الرسول ﷺ بتوليكم، فإنما عليه البلاغ وقد أدى، وإنما ضررتم به أنفسكم.

(٩٣) ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ مما لم يحرَّم عليهم، لقوله: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: اتقوا المحرَّم وثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحة ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ ما حُرِّم عليهم بعدُ كالخمر ﴿وَّءَامَنُواْ﴾ بتحريمه ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ ثم استمروا وثبتوا على اتقاء المعاصي ﴿وَّأَحۡسَنُواْۗ﴾ وتحرَّوا

الأعمال الجميلة واشتغلوا بها. (أقول: أو اتَّقوا الكفر ثم الكبائر ثم الصغائر). روي «أنه لما نزل تحريم الخمر قالت الصحابة رضي الله تعالى عنهم: يا رسول الله! فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر؟» فنزلت. ويحتمل أن يكون هذا التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة، أو باعتبار الحالات الثلاث، استعمال الإنسان التقوى والإيمان بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس وبينه وبين الله تعالى، ولذلك بدَّل الإيمان بالإحسان في الكرَّة الثالثة إشارة إلى ما قاله عليه الصلاة والسلام في تفسيره، أو باعتبار المراتب الثلاث؛ المبدأ والوسط والمنتهى، أو باعتبار ما يُتقى، فإنه ينبغي أن يترك المحرمات توقياً من العقاب، والشبهات تحرزاً عن الوقوع في الحرام، وبعض المباحات تحفظاً للنفس عن الخسة وتهذيباً لها عن دنس الطبيعة ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ فلا يؤاخذهم بشيء. وفيه أن من فعل ذلك صار محسناً، ومن صار محسناً صار لله تعالى محبوباً.

(٩٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ نزلت في عام الحديبية، ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بالصيد، وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم وهم مُحْرِمون ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ ليتميز الخائف من عقابه ـ وهو غائب منتظَر ـ لقوة إيمانه، ممن لا يخافه لضعف قلبه وقلة إيمانه (أقول: وهو غائب عنا لا عن علمه جلَّ وعلا، لأن إيماننا كلَّه غيبي) ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الابتلاء بالصيد ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ فالوعيدُ لاحقٌ به، فإنَّ مَن لا يملك جأشه في مثل ذلك (أي: لا يضبط نفسه)، ولا يراعي حكم الله تعالى فيه، فكيف به فيما تكون النفس أميل إليه وأحرص عليه!

(٩٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي: مُحْرِمون. وأراد بالصيد ما يؤكل لحمه، لأنه الغالب فيه عرفاً ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «خمس يُقتلنَ في الحلِّ والحرَم: الحِدَأَة والغراب والعقرب والفأرة والكلب العقور» [الحديث أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى]. وفي رواية أخرى: «الحية» بدل «العقرب»، مع ما فيه من التنبيه على جواز قتل كل مؤذٍ ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ ذاكراً لإحرامه، عالماً بأنه حرامٌ عليه قتلُ ما يقتلُه ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ بمعنى: فعليه جزاءٌ يماثل ما قَتل من النَّعم ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ ومعنى بلوغه الكعبة ذبحُه بالحرم والتصدق به ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ والمعنى عند الشافعي رضي الله تعالى عنه: أو أن يكفِّر بإطعام مساكين ما يساوي قيمة الهدي من غالب قوت البلد، فيعطي كل مسكين مُداً ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ أو ما ساواه من الصوم، فيصوم عن طعام كل مسكين يوماً ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي: فعليه الجزاء أو الطعام أو الصوم، ليذوق ثقل فعله وسوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام، أو الثقل الشديد على مخالفة أمر الله تعالى ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ من قتل الصيد مُحرماً في الجاهلية أو قبل التحريم أو في هذه المرة ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى مثل هذا ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ ممن أصرَّ على عصيانه.

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ
عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ
قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ
شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا
تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ
وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟
عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ
ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ
سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾
مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

(٩٦) ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ ما صِيدَ منه مما لا يعيش إلا في الماء، وهو حلال كله، لقوله عليه الصلاة والسلام في البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى] ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ ما قذفه أو نضب عنه (انحسر عنه ماء البحر) ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ تمتيعاً لكم ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ ولسيارتكم (أي: للمسافرين) يتزودونه قديداً ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ﴾ أي: الصيدُ فيه، قال عليه الصلاة والسلام: «لحم الصيد حلال لكم، ما لم تصطادوه أو يُصَدْ لكم» [أخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى] ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي: مُحْرِمين ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

(٩٧) ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ انتعاشاً لهم، أي: سببَ انتعاشهم في أمر معاشهم ومعادهم، يلوذ به الخائف، ويأمن فيه الضعيف، ويربح فيه التجار، ويتوجَّه إليه الحجاج والعمار، أو ما يقوم به أمر دينهم ودنياهم ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ المراد بالشهرِ الشهرُ الذي يؤدى فيه الحج، وهو ذو الحجة ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ (ما أُهدي إلى الكعبة) ﴿وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ (أي: ذوات القلائد من الهدي، والقلائد جمع قلادة، وهي ما قُلِّد به الهدي، ليُعلَم به أنه هديٌ فلا يُتعرَّض له) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الجعل، أو إلى ما ذكر من الأمر بحفظ حرمة الإِحرام وغيره ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإنَّ شَرْعَ الأحكام لدفع المضار قبل وقوعها وجلب المنافع المترتبة عليها دليلٌ على حكمة الشارع وكمال علمه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ تعميم بعد تخصيص ومبالغة بعد إطلاق.

(٩٨) ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ وعيدٌ ووعدٌ لمن انتهك محارمه ولمن حافظ عليها، أو لمن أصرَّ عليه (أي: على انتهاك المحارم) ولمن أقلع عنه.

(٩٩) ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: الرسول ﷺ أتى بما أُمر به من التبليغ، ولم يبقَ لكم عذر في التفريط ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ من تصديقٍ وتكذيبٍ وفعلٍ وعزيمةٍ.

(١٠٠) ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ حكمٌ عام في نفي المساواة عند الله سبحانه وتعالى بين الرديء

من الأشخاص والأعمال والأموال وجيِّدها. رغَّب به في مصالح العمل وحلال المال ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِۚ﴾ فإن العبرة بالجودة والرداءة دون القلة والكثرة، فإن المحمود القليل خير من المذموم الكثير. والخطابُ لكل معتبر، ولذلك قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: فاتقوه في تحري الخبيث وإن كثر، وآثروا الطيب وإن قلَّ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠٠﴾ راجين أن تبلغوا الفلاح. روي أنها نزلت في حُجَّاج اليمامة، لما هَمَّ المسلمون أن يوقعوا بهم، فنُهوا عنه وإن كانوا مشركين.

(١٠١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ المعنى: لا تسألوا رسول الله ﷺ عن أشياء إن تظهر لكم تغمّكم، وإن تسألوا عنها في زمان الوحي تظهر لكم ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَاۗ﴾ أي: عن أشياء عفا الله تعالى عنها ولم يكلِّف بها. إذ روي أنه لما نزلت ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] قال سراقة بن مالك: أكلَّ عام؟ فأعرضَ عنه رسول الله ﷺ، حتى أعاد ثلاثاً فقال: «لا، ولو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم، فاتركوني ما تركتكم» فنزلت [الحديث رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝١٠١﴾ لا يعاجلكم بعقوبة ما يفرط منكم، ويعفو عن كثير.

(١٠٢) ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ۝١٠٢﴾ أي: بسببها، حيث لم يأتمروا بما سألوا جحوداً.

(١٠٣) ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍۙ﴾ ردٌّ وإنكارٌ لما ابتدعه أهل الجاهلية وهو أنهم إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أي: شقوها وخلوا سبيلها، فلا تركب ولا تحلب، وكان الرجل منهم يقول: إن شُفيتُ فناقتي سائبة ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم وإن ولدتهما قالوا: وصلت الأنثى أخاها فلا يذبح لها الذكر، وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن حرموا ظهره ولم يمنعوه من ماء ولا مرعى وقالوا: قد حمى ظهره ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۖ﴾ بتحريم ذلك ونسبته إلى الله سبحانه وتعالى ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٣﴾ أي: الحلالَ من الحرام، والمبيحَ من المحرِّم، أو الآمر من الناهي، ولكنهم يقلدون كبارهم. وفيه أن منهم من يعرف بطلان ذلك ولكن يمنعهم حب الرياسة وتقليد الآباء أن يعترفوا به.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ
حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ
لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ
بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا
عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ
فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۙ
وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ
أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ
ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ
مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ
أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ
أَيْمَٰنِهِمْۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

(١٠٤) ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ**﴾ بيانٌ لقصور عقولهم وانهماكهم في التقليد وأنْ لا سند لهم سواه ﴿**أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾**﴾ أي: أَحَسْبهم ما وجدوا عليه آباءهم ولو كانوا جهلة ضالين؟ والمعنى: أن الاقتداء إنما يصحُّ بمن عُلم أنه عالم مهتدٍ، وذلك لا يُعرف إلا بالحجة، فلا يكفي التقليد.

(١٠٥) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ**﴾ أي: احفظوها والزموا إصلاحها ﴿**لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ**﴾ لا يضركم الضُّلّال إذا كنتم مهتدين. ومن الاهتداء أن ينكر المنكرَ حسب طاقته، كما قال عليه الصلاة والسلام: «من رأى منكم منكراً واستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه» [رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ﴿**إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾**﴾ وعدٌ ووعيدٌ للفريقين، وتنبيه على أن أحداً لا يؤاخَذ بذنب غيره. (أقول: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يُترك إلا عند العجز، لأنه عبادة، والمحتسب يحس بفائدته كما يحس وينتفع بالعبادة الجسمانية. وهذه الفائدة تحصل بحسب الإخلاص والتوجه والشفقة على الأمة. فعلى المحتسب أن يراعي الأحكام الشرعية، وأن يُخرج نفسه من البين، حتى يتم أمر الإخلاص، وينال التبليغ وثوابه).

(١٠٦) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ**﴾ المراد بالشهادة الإشهاد في الوصية ﴿**إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ**﴾ إذا شارفه وظهرت أماراته ﴿**حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ**﴾ أي: من أقاربكم أو من المسلمين ﴿**أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ أي: سافرتم فيها ﴿**فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِۚ**﴾ أي: قاربتم الأجل (أقول: الموت ليس مصيبة لكل أحد، بل هو مصيبة لمن لم يكن على الاستقامة الشرعية والسنة النبوية، وإلا فالموت جسر وصول إلى الآخرة وإلى الله جل وعلا) ﴿**تَحْبِسُونَهُمَا**﴾ تقفونهما وتصبِّرونهما ﴿**مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ**﴾ صلاة العصر، لأنه وقت اجتماع الناس وتصادم ملائكة الليل وملائكة النهار. وقيل أيّ صلاة كانت ﴿**فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ**﴾ إن ارتاب الوارث منكم ﴿**لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا**﴾ المعنى: لا نستبدل بالقسَم أو بالله

عَرضاً من الدنيا، أي: لا نحلف بالله تعالى كاذبين لطمعٍ ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ ولو كان المقسَم له قريباً منا ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: الشهادة التي أمرنا الله تعالى بإقامتها ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦﴾ أي: إن كتمنا.

(١٠٧) ﴿فَإِنۡ عُثِرَ﴾ فإن اطُّلع ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ أي: فَعَلا ما أوجب إثماً، كتحريفٍ ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ فشاهدان آخران ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ﴾ من الذين جنى عليهم، وهم الورثة ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ الأحقان بالشهادة لقرابتهما ومعرفتهما ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ أصدق منها وأولى بأن تُقبل ﴿وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ﴾ وما تجاوزنا فيها الحق ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٧﴾ الواضعين الباطل موضع الحق، أو الظالمين أنفسهم إن اعتدينا. روي أن تميماً الداري وعدي بن بداء خرجا إلى الشام للتجارة، وكانا حينئذ نصرانيَّين، ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه، وكان مسلماً، فلما قدموا الشام مرض بديل فدوَّن ما معه في صحيفة وطرحها في متاعه ولم يخبرهما به، وأوصى إليهما بأن يدفعا متاعه إلى أهله، ومات، ففتشاه وأخذا منه إناء من فضة فيه ثلاث مئة مثقال منقوشاً بالذهب فغيَّباه، فأصاب أهلُه الصحيفة، فطالبوهما بالإناء فجحدا، فترافعوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى مختصراً].

فحلَّفهما رسول الله ﷺ بعد صلاة العصر عند المنبر وخلى سبيلهما، ثم وُجد الإناء في أيديهما، فأتاهما بنو سهم في ذلك، فقالا: قد اشتريناه منه، ولكن لم يكن لنا عليه بيِّنة فكرهنا أن نُقِرَّ به، فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ فنزلت ﴿فَإِنۡ عُثِرَ﴾، فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي رفاعة السهميان فحلفا واستحقاه.

(١٠٨) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الحكم الذي تقدَّم، أو تحليف الشاهد ﴿أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾ على نحو ما حملوها من غير تحريف وخيانة فيها ﴿أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ﴾ أن تَرَدَّ اليمين على المدعين بعد أيمانهم فيفتضحوا بظهور الخيانة واليمين الكاذبة ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ ما توصَوْن به سمعَ إجابةٍ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾ أي: فإن لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم قوماً فاسقين ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: لا يهديهم إلى حُجة أو إلى طريق الجنة.

(أقول: موضوع الشهادة ذيل طويل، ذكره العلماء رحمهم الله تعالى في كتب الفقه، والمهم لنا الصدق في القول والفعل في المعاملات أينما نكون، وهو من مقتضى الإيمان الذي وعدنا ربنا تبارك وتعالى عليه وعداً منجزاً فقال: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢] أي: ويبشر المصدِّقين بالقرآن الذين يعملون بالأحكام وبمقتضى الإيمان أن لهم جنة، أياً من كان، في أي زمان ومكان، كما قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩] في القول والفعل. عصمنا الله تعالى وإياكم من مخالفة أمره، ونسأله أن لا يجعلنا ممن أضاع أنفاس عمره، إنه هو الموفق والمرشد والوهاب).

۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ
لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ
ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ
ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ
مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا
بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ
ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ
جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ
مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى
وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ
ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن
يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا
وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾

(١٠٩) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ أي: لا علم لنا بما كنت تعلمه ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ فتعلم ما نعلمه مما أجابونا وأظهروا لنا، وما لا نعلم مما أضمروا في قلوبهم. وفيه التشكي منهم وردُّ الأمر إلى علمه بما كابدوا منهم. وقيل: المعنى لا علم لنا إلى جنب علمك، أو لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا، وإنما الحكم للخاتمة.

(١١٠) ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ المعنى: أنه سبحانه وتعالى يوبِّخ الكفرة يومئذ بسؤال الرسل عن إجابتهم وتعديد ما أظهر عليهم من الآيات، فكذبتهم طائفة وسموهم سحرة، وغلا آخرون فاتخذوهم آلهة ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾ قوَّيتك ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ بجبريل عليه السلام ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ تكلمهم في الطفولة والكهولة على سواء ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ (أي: تقدِّ وتصوِّر شيئاً مثل صورة الطير) ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ (فتصير حياً طياراً بأمر الله تعالى؛ نبَّه به على أن إحياءه من الله تعالى لا منه) ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾ (الأكمه الذي ولد أعمى أو الممسوح العين) ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ (كرَّر ﴿بِإِذْنِى﴾ دفعاً لتوهُّم الألوهيَّة، فإن الإحياء ليس من جنس الأفعال البشرية) ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾ يعني اليهود حين هموا بقتله ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ أي: ما هذا الذي جئت به إلا سحر مبين.

(١١١) ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ﴾ (أي: ألهمت) أو: أمرتهم على ألسنة رسلي ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ مخلصون.

(١١٢) ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ من أمثال هذا السؤال ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ بكمال قدرته وصحة نبوتي، أو صدقتم في ادعائكم الإيمان.

(١١٣) ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بانضمام علم المشاهدة إلى علم الاستدلال بكمال قدرته سبحانه وتعالى ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ في ادِّعاء النبوة، أو أن الله تعالى يجيب دعوتنا ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ إذا استشهدتنا، أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر.

قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدًا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾

(١١٤) ﴿**قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ**﴾ لما رأى أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك، أو أنهم لا يُقلعون عنه، فأراد إلزامهم الحجة بكمالها ﴿**ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا**﴾ أي: يكون يوم نزولها عيداً نعظمه ﴿**لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا**﴾ روي أنها نزلت يوم الأحد فلذلك اتخذه النصارى عيداً ﴿**وَءَايَةً مِّنكَۖ**﴾ دالةً على كمال قدرتك وصحة نبوتي ﴿**وَٱرۡزُقۡنَا**﴾ المائدة والشكر عليها ﴿**وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾**﴾ أي: خير من يرزق، لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض.

(١١٥) ﴿**قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ**﴾ إجابة إلى سؤالكم ﴿**فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾**﴾ أي: من عالمي زمانهم، أو العالمين مطلقاً. فإنهم مُسخوا قردة وخنازير، ولم يعذَّب بمثل ذلك غيرهم (أقول: كما قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم: فكفروا بعد ذلك فمسخوا عن لوازم الإنسانية بالمرَّة، ورُدوا إلى مرتبة الحيوانية وأخبثها، و العياذ بالله من غضبه جل جلاله). روي: أنها نزلت سفرة حمراء بين غمامتين وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة، ثم قام فتوضأ وصلى وبكى، ثم كشف المنديل وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بلا فلوس (أي: بلا قشر) ولا شوك، تسيل دسماً، وعند رأسها ملح، وعند ذنبها خلٌّ، وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسة أرغفة، على واحد منها زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد، فقال شمعون: يا روح الله! أمِن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ قال: ليس منهما، ولكن اخترعه الله سبحانه وتعالى بقدرته، كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم الله تعالى ويزدكم من فضله، فقالوا: يا روح الله! لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى؟ فقال: يا سمكة احيي بإذن الله تعالى، فاضطربت، ثم قال لها عودي كما كنت، فعادت مشوية، ثم طارت المائدة، ثم عصوا بعدها فمُسخوا. وقيل: كانت تأتيهم أربعين يوماً غباً (يوماً تأتي ويوماً لا تأتي)، يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار يأكلون، حتى إذا فاء الفيء طارت وهم ينظرون في ظلها، ولم يأكل منها فقير إلا غَنيَ مدة عمره، ولا مريض إلا برئ ولم يمرض أبداً، ثم أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام أن اجعل مائدتي في الفقراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء، فاضطرب الناس لذلك، فمسخ منهم ثلاثة وثمانون رجلاً (أقول: قيمة العبد عند الله تعالى بقدر موافقته لشرع الله تعالى ولسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، لا بقدر غناه).

وعن بعض الصوفية: المائدة هٰهنا عبارة عن حقائق المعارف، فإنها غذاء الروح كما أن الأطعمة غذاء البدن، وعلى هذا فلعل الحال أنهم رغبوا في حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها، فقال لهم عيسى عليه الصلاة والسلام: إن حصلتم الإيمان فاستعملوا التقوى حتى تتمكنوا من الاطلاع عليها، فلم يقلعوا عن السؤال وألحوا فيه، فسأل لأجل اقتراحهم، فبين الله سبحانه وتعالى أن إنزاله سهل ولكن فيه خطر وخوف عاقبة، فإن السالك إذا انكشف له ما هو أعلى من مقامه لعله لا يحتمله ولا يستقر له، فيضل به ضلالاً بعيداً.

(أقول: هذا يدلُّ على أن من حصل له إلهامات ربانية، إذا نزلت على قلبه عليه أن لا يغترَّ بها، لأنها ليست ملكه، حينذاك يتملَّك ملك خالقه، وبهذا يحصل له العجب والكبر، فيتضرَّر به المنصف).

(١١٦) ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ أنزِّهك تنزيهاً من أن يكون لك شريك ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ ما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾ تعلم ما أخفيه في نفسي كما تعلم ما أعلنه، ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك (أقول: ما في نفسك أي: ما في ذاتك) ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾.

(١١٧) ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ﴾ أي: رقيباً عليهم أمنعهم أن يقولوا ذلك ويعتقدوه، أو مشاهداً لأحوالهم مِن كفرٍ وإيمانٍ ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ بالرفع إلى السماء ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ﴾ المراقب لأحوالهم، فتمنع من أردت عصمته من القول به بالإرشاد إلى الدلائل والتنبيه عليها بإرسال الرسل وإنزال الآيات ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ مطلع عليه مراقب له.

(١١٨) ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ﴾ أي: إن تعذبهم فإنك تعذب عبادك، ولا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعل بملكه. وفيه تنبيه على أنهم استحقوا ذلك لأنهم عبادُك وقد عبدوا غيرك ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ فلا عجزَ ولا استقباح، فإنك القادر القوي على الثواب والعقاب، الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب، فإن المغفرة مستحسنة لكل مجرم، فإن عذبتَ فعدلٌ وإن غفرتَ ففضلٌ. وعدم غفرانِ الشرك مُقتضى الوعيد.

(١١٩) ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ﴾ (أراد بالصادقين النبيين، وقال الكلبي: ينفع المؤمنين إيمانهم [السراج المنير]) ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعته ﴿وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ بثوابه ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ (وأمَّا الكاذبون في الدنيا فلا ينفعهم صدقهم في ذلك اليوم كالكفار لمّا يؤمنون عند رؤية العذاب [السراج المنير]) (أقول: يقول الله تعالى يومَ القيامة مشيراً إلى صدق عيسى عليه السلام: هذا اليوم يوم العدالة الإلهية).

(١٢٠) ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ تنبيهٌ على كذب النصارى وفساد دعواهم في المسيح وأمه،، وإنما لم يقل ومن فيهن تغليباً للعقلاء وقال وَما فِيهِنَّ اتباعاً لهم غير أولي العقل إعلاماً بأنهم في غاية القصور عن معنى الربوبية والنزول عن رتبة العبودية، وإهانة لهم وتنبيهاً على المجانسة المنافية للألوهية.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة المائدة

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنعام

مكيَّة غير ست آيات، أو ثلاث آيات، من قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾، وهي مئة وخمس وستون آية

سُورَةُ الأَنعَام ٦ — ١٦٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ
وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى
خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ
تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ
وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ
ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ
لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ
يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ
نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ
تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا
ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ
لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ
عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أخبر بأنه سبحانه وتعالى حقيق بالحمد، ونبَّه على أنَّه المستحقُّ له على هذه النعم الجسام حُمد أو لم يُحمد، ليكون حجة على الذين هم بربِّهم يعدلون، وجمع السمٰوات دون الأرض ـ وهي مثلهنَّ ـ لأن طبقاتها مختلفة بالذات متفاوتة الآثار والحركات، وقدَّمها لشرفها وعلوِّ مكانها وتقدُّم وجودها (قال الله تعالى في سورة الطلاق [١٢]: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾) ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ أنشأهما. وجمع الظلمات لكثرة أسبابها والأجرام الحاملة لها، أو لأن المراد بالظلمة الضلالُ، وبالنورِ الهدى، والهدى واحد والضلال متعدد ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ المعنى: أن الله سبحانه وتعالى حقيق بالحمد على ما خلقه نعمةً على العباد، ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته. أو أنه سبحانه وتعالى خلق ما لا يقدر عليه أحد سواه، ثم هم يعدلون به ما لا يَقدر على شيء منه، والمعنى أن الكفار يعدلون بربهم الأوثان أي: يسوّونها به سبحانه وتعالى.

(٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ أي: ابتدأ خلقكم منه، فإنه المادة الأولى، وإن آدم الذي هو أصل البشر خلق منه ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أجل الموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ أجل القيامة (أقول: أي وقت القيامة. وقال الحسن: الأوّل: بين وقت الولادة إلى وقت الموت، والثاني: من وقت الموت إلى البعث) ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ استبعادٌ لامترائهم (أي: لشكِّهم) بعد ما ثبت أنه خالقهم وخالق أصولهم ومحييهم إلى آجالهم، فإن مَن قدر على خلق المواد وجمعها وإيداع الحياة فيها وإبقائها ما يشاء كان أقدرَ على جمع تلك المواد وإحيائها ثانياً، فالآية الأولى دليل التوحيد والثانية دليل البعث.

(٣) ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو المستحقُّ للعبادة فيهما لا غير ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ

﴿مَا تَكۡسِبُونَ ٣﴾ من خير أو شر، فيثيب عليه ويعاقب. ولعله أريد بالسر والجهر ما يخفى وما يظهر من أحوال الأنفس، وبالمكتسَب أعمالَ الجوارح (أقول: النفس الأمارة تُعدِم صدق صاحبها، لأن هذه النفس الخبيثة من شؤونها ادعاء الربوبية، لكن صاحبها لا يعلم ذلك إلا بنور الوحي الإلهي، فيعرف ضعفه، ويعرف قدرة خالقه جل وعلا).

(٤) ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: ما يظهر لهم دليل قط من الأدلة أو معجزة من المعجزات أو آية من آيات القرآن ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤﴾ تاركين للنظر فيه غير ملتفتين إليه. (أقول: منهم معرِضون كفراً، ومنهم مؤمنون لكنهم غافلون).

(٥) ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ﴾ يعني بالقرآن ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٥﴾ أي: سيظهر لهم ما كانوا به يستهزئون عند نزول العذاب بهم في الدنيا والآخرة، أو عند ظهور الإسلام وارتفاع أمره.

(٦) ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾ أي: من أهلِ زمانٍ، والقرن مدةُ أغلبِ أعمار الناس، وهي سبعون سنة ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جعلنا لهم فيها مكاناً وقرَّرناهم فيها، أو أعطيناهم من القوى والآلات ما تمكَّنوا بها من أنواع التصرف فيها ﴿مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾ ما لم نجعل لكم من السعة وطول المقام يا أهل مكة، أو ما لم نعطكم من القوة والسعة في المال والاستظهار في العدد والأسباب ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم﴾ أي: المطر أو السحاب ﴿مِّدۡرَارٗا﴾ أي: مغزاراً ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ﴾ فعاشوا في الخصب والريف بين الأنهار والثمار ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي: لم يغنِ ذلك عنهم شيئاً ﴿وَأَنشَأۡنَا﴾ وأحدثنا ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٦﴾ بدلاً منهم. والمعنى أنه سبحانه وتعالى كما قَدَرَ على أن يهلك مَنْ قبلكم كعاد وثمود وينشئ مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده يَقدِر أن يفعل ذلك بكم.

(٧) ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ﴾ مكتوباً في ورق ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ فمسُّوه ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ تعنتاً وعناداً.

(٨) ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ هلَّا أنزل معه ملَك يُعْلمنا أنه نبي ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ المعنى: أن الملك لو أنزل بحيث عاينوه كما اقترحوا لَحَقَّ إهلاكهم، فإن سنة الله تعالى قد جرت بذلك فيمن قبلهم ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾ بعد نزوله طرفة عين.

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

(٩) ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾**﴾ المعنى: ولو جعلنا قريناً لك ملكاً يعاينونه أو الرسول ملكاً لمثَّلناه رجلاً كما مُثِّل جبريل عليه السلام في صورة دحية الكلبي رضي الله تعالى عنه، فإن القوة البشرية لا تقوى على رؤية الملك في صورته، وإنما رآهم كذلك الأفرادُ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بقوتهم القدسية؛ ولو جعلناه رجلاً للبسنا أي: لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم، فيقولون: مَا هذا إِلَّا بَشَرٌ مثلكم.

(١٠) ﴿**وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ**﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ عما يرى من قومه ﴿**فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾**﴾ فأحاط بهم الذي كانوا يستهزئون به، حيث أُهلكوا لأجله، أو فنزل بهم وبال استهزائهم.

(١١) ﴿**قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾**﴾ كيف أهلكهم الله تعالى بعذاب الاستئصال كي تعتبروا. والفرق بينه وبين قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا﴾ [النمل: ٦٩] أن السير ثمَّةَ لأجل النظر، ولا كذلك هٰهنا. ولذلك قيل: معناه إباحة السير للتجارة وغيرها، وإيجاب النظر في آثار الهالكين.

(١٢) ﴿**قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ خلقاً وملكاً. وهو سؤال تبكيت ﴿**قُل لِّلَّهِ**﴾ تقريرٌ لهم وتنبيهٌ على أنه المتعيِّن للجواب بالاتفاق، بحيث لا يمكنهم أن يذكروا غيره ﴿**كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ**﴾ التزمها تفضُّلاً وإحساناً؛ والمراد بالرحمة ما يعمُّ الدارين، ومن ذلك الهدايةُ إلى معرفته، والعلمُ بتوحيده بنصب الأدلة، وإنزالُ الكتب، والإمهالُ على الكفر ﴿**لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ**﴾ قَسَمٌ للوعيد على إشراكهم وإغفالهم النظر. أي: ليجمعنَّكم في يوم القيامة، فيجازيكم على شرككم ﴿**لَا رَيْبَ فِيهِ**﴾ في اليوم أو الجمع ﴿**ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ**﴾ بتضييع رأس مالهم، وهو الفطرة الأصلية والعقل السليم ﴿**فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾**﴾ أي: أن عدم إيمانهم مسبَّبٌ عن خسرانهم، فإن إبطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك في التقليد وإغفال النظر أدى بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع عن الإيمان.

(١٣) ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ أي: ما اشتملا عليه، أو من السكون ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكل مسموع ﴿ٱلۡعَلِيمُ ١٣﴾ بكل معلوم، فلا يخفى عليه شيء. ويجوز أن يكون وعيداً للمشركين على أقوالهم وأفعالهم.

(١٤) ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾ إنكارٌ لاتخاذ غير الله تعالى ولياً، لا لاتخاذ الوليِّ، والمراد بالولي المعبودُ. (أقول: هذا لمن يعبد الصنم ويتخذه ولياً، وليس المقصود به أولياء المسلمين) ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مبدعُهما ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾ يَرزُق ولا يُرزَق. والمعنى: كيف أشركُ بمن هو فاطر السماوات والأرض ما هو نازل عن رتبة الحيوانية؟ (أقول: قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم: وهو يُطعِم المحتاجين ولا يُطعَم، لتنزُّهه جل وعلا عن الأكل والشرب. خُصَّ سبحانه بعدم الاتصاف بهذه الصفة لأنها من أقوى أسباب الإمكان وأجلِّ أمارات الحدوث وأظهرها، والباقي متفرِّعٌ عليها) ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ﴾ لأن النبي ﷺ سابقٌ أمتَه في الدين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤﴾.

(١٥) ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ مبالغةٌ أخرى في قطع أطماعهم، وتعريضٌ لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب (أقول: الخطاب لرسول الله ﷺ على سبيل الفَرَض، لكن رسول الله ﷺ معصوم، عصمته بالله جلَّ جلاله، والمراد هو تحذير الأمة من معصية الله جل وعلا، والله تعالى أعلم بمراده؛ وقد وردت هذه الآية في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم: هذه الآية، وفي سورة الزمر الآية ١٣، وفي سورة يونس الآية ١٥).

(١٦) ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: من يُصرف العذاب عنه ﴿فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ﴾ نجّاه وأنعم عليه ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾ أي: الصرف أو الرحمة.

(١٧) ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ ببليَّة، كمرض وفقر ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ فلا قادر على كشفه ﴿إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ﴾ بنعمة، كصحَّة وغنى ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾ فكان قادراً على حفظه وإدامته، فلا يقدر غيره على دفعه، كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

(١٨) ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ تصويرٌ لقهره وعلوه بالغلبة والقدرة ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أمره وتدبيره ﴿ٱلۡخَبِيرُ ١٨﴾ بالعباد وخفايا أحوالهم (أقول: فإذا اطَّلع الإنسان على أن الله جل وعلا مطلعٌ على خفاياه لا يجترئ أن يخالفه ظاهراً ولا باطناً، وبكثرة الذكر ينوَّر القلب ويزول عنه الحجاب وتظهر له هذه الحقيقة، وهذه حقيقة التصوف).

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ
ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا
تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ
أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ
﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ
ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ
رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ
عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ
لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ
إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن
يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ
فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

(١٩) ﴿**قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً**﴾ نزلت حين قالت قريش: يا محمد ﷺ! لقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة، فأرنا من يشهد لك أنك رسول الله ﴿**قُلِ ٱللَّهُ**﴾ أي: الله تعالى أكبر شهادة؛ ثم ابتدأ ﴿**شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ**﴾ أي: هو شهيد بيني وبينكم. ويجوز أن يكون ﴿ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ﴾ هو الجواب، لأنه سبحانه وتعالى إذا كان الشهيد كان أكبر شيء شهادة ﴿**وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ**﴾ أي: بالقرآن، واكتفى بذكر الإنذار عن ذكر البشارة (أقول: قال ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾، ولم يقل: لأبشركم، لأن البشارة تكون للمؤمنين، والخطابُ هنا للمشركين) ﴿**وَمَنۢ بَلَغَ**﴾ أي: لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه من الأسود والأحمر، أو من الثقلين (أي: الجن والإنس)، أو لأنذركم به أيها الموجودون ومن بلغه إلى يوم القيامة. وفيه دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومَنْ بعدهم، وأنه لا يؤاخَذ بها من لم تبلغه (أقول: من لم يبلغه القرآن بنهيه وأمره ليس مسؤولًا، لكن لا بد أن يتفكَّر بعقله ويرجع إلى الله تعالى) ﴿**أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ**﴾ تقريرٌ لهم مع إنكار واستبعاد ﴿**قُل لَّآ أَشْهَدُ**﴾ بما تشهدون ﴿**قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ**﴾ أي: بل أشهد أن لا إله إلا هو ﴿**وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾**﴾ يعني الأصنام.

(٢٠) ﴿**ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ**﴾ يعرفون رسول الله ﷺ بحليته المذكورة في التوراة والإنجيل ﴿**كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ**﴾ بحُلاهم (أي: بأوصافهم). ﴿**ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ**﴾ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين ﴿**فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾**﴾ لتضييعهم ما به يُكتسب الإيمان.

(٢١) ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا**﴾ كقولهم: الملائكة بنات الله، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴿**أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ**﴾ كأن كذبوا بالقرآن والمعجزات وسموها سحراً ﴿**إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾**﴾ فضلاً عمن لا أحد أظلم منه.

(٢٢) ﴿**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ**﴾ أي: آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله تعالى ﴿**ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾**﴾ أي: تزعمونهم شركاء.

(٢٣) ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: كفرهم، والمراد عاقبته. وقيل: معذرتهم التي يتوهمون أن يتخلصوا بها ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ يكذبون ويحلفون عليه، مع علمهم بأنه لا ينفعهم، من فرط الحيرة والدهشة.

(٢٤) ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ﴾ أي: بنفي الشرك عنها ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ من الشركاء.

(٢٥) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ﴾ حين تتلو القرآن. والمراد أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابُهم. اجتمعوا فسمعوا رسول الله ﷺ يقرأ القرآن فقالوا للنضر: ما يقول؟ فقال: والذي جعلها بيته ما أدري ما يقول، إلا أنه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين، مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان: إني لأراه حقاً، فقال أبو جهل: كلا. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ كراهةَ أن يفقهوه ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ﴾ (أي: صَمَماً) يمنع من استماعه ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۚ﴾ لفرط عنادهم واستحكام التقليد فيهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ أي: بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم جاءوك يجادلونك ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ فإنَّ جَعْلَ أصدقِ الحديث خرافات الأولين غايةُ التكذيب.

(٢٦) ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: ينهون الناس عن القرآن، أو عن الرسول ﷺ والإيمان به ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ﴾ بأنفسهم (أي: يبعدون عنه)، أو ينهون عن التعرُّض لرسول الله ﷺ وينأون عنه، فلا يؤمنون به ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ وما يهلكون بذلك ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أنَّ ضرره لا يتعدَّاهم إلى غيرهم.

(٢٧) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: ولو تراهم حين يُوقَفون على النار حتى يُعاينوها، أو يطلعون عليها، أو يدخلونها فيعرفون مقدار عذابها، لرأيت أمراً شنيعاً ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ تمنِّياً للرجوع إلى الدنيا ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ
وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ
بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا
بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ
﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ
بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ
عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا
لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ
وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ
رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ
وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ
﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ
نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ
ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾

(٢٨) ﴿**بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ**﴾ المعنى: أنه ظهر لهم ما كانوا يخفون من نفاقهم أو قبائح أعمالهم، فتمنَّوا ذلك ضجراً لا عزماً على أنهم لو رُدُّوا لآمنوا ﴿**وَلَوْ رُدُّوا۟**﴾ أي: إلى الدنيا بعد الوقوف والظهور ﴿**لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ**﴾ من الكفر والمعاصي ﴿**وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾**﴾ فيما وعدوا به من أنفسهم.

(٢٩) ﴿**وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ**﴾ (أي: ما الحياة) ﴿**إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾**﴾ (أي: ليس هناك بعث ولا حساب ولا جزاء، ولا عودة إلى الحياة بعد الموت [المقتطف من عيون التفاسير]).

(٣٠) ﴿**وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ**﴾ مجازٌ عن الحبس للسؤال والتوبيخ. وقيل معناه: وُقفوا على قضاء ربهم أو جزائه، أو عرفوه حق التعريف ﴿**قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ**﴾ إقرارٌ مؤكد باليمين لانجلاء الأمر غاية الجلاء ﴿**قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾**﴾ أي: بسبب كفركم.

(٣١) ﴿**قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ**﴾ إذ فاتهم النعيم واستوجبوا العذاب المقيم؛ ولقاءُ الله تعالى البعثُ وما يتبعه ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً**﴾ فجأة ﴿**قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا**﴾ أي: تعالي فهذا أوانك ﴿**عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا**﴾ قصَّرنا ﴿**فِيهَا**﴾ في الحياة الدنيا، أو في الساعة، يعني في شأنها والإيمان بها ﴿**وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ**﴾ تمثيلٌ لاستحقاقهم آصار الآثام ﴿**أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾**﴾ بئس شيئاً يزرونه وزرهم.

(٣٢) ﴿**وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ**﴾ أي: وما أعمالها إلا لعب ولهو يلهي الناس ويشغلهم عما يعقبه منفعةٌ دائمةٌ ولذة حقيقية ﴿**وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ**﴾ لدوامها وخلوص منافعها ولذاتها. وقوله: لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ تنبيهٌ على أن ما ليس من أعمال المتقين لعب ولهو. (أقول: لا بد للمؤمن أن يقيس أعماله، هل هي من أعمال المتقين أم لا؟ وإذا لم تكن منها عليه أن يتوب) ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾**﴾ أيَّ الأمرين خير.

(٣٣) ﴿**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ**﴾ في الحقيقة ﴿**وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾**﴾ ولكنهم يجحدون بآيات الله تعالى ويكذبونها. روي أن أبا جهل كان يقول: ما نكذبك، وإنك عندنا لصادق، وإنما نكذب ما جئتنا به. فنزلت.

(٣٤) ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ. وفيه دليل على أن قوله: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ ليس لنفي تكذيبه مطلقاً ﴿فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ أي: صبروا على تكذيبهم وإيذائهم، فتأسَّ بهم واصبر ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾ فيه إيماء بوعد النصر للصابرين ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ لمواعيده ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٤﴾ أي: بعض قصصهم وما كابدوا من قومهم.

(٣٥) ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ﴾ عظُمَ وشقَّ ﴿إِعۡرَاضُهُمۡ﴾ عنك وعن الإيمان بما جئت به ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ﴾ مَنفذاً تنفذ فيه إلى جوف الأرض فتُطلع لهم آية، أو مصعداً تصعد به إلى السماء فتُنزل منها آية. والمقصود بيان حرصه ﷺ البالغ على إسلام قومه، وأنه لو قدر أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾ أي: ولو شاء الله تعالى جَمْعهم عَلَى الهدى لوفَّقهم للإيمان حتى يؤمنوا، ولكن لم تتعلَّق به مشيئته (أقول: لم تتعلق مشيئة الله تعالى بتوفيقهم لأنهم لا يطلبون) ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٥﴾ بالحرص على ما لا يكون، والجزع في مواطن الصبر، فإن ذلك من دأب الجهلة (أقول: وهذا ولو كان ظاهراً للرسول عليه الصلاة والسلام، لكن المقصود به أمته، أو هو تأديب من الله تعالى لرسوله ﷺ؛ وأمثالُ هذا في القرآن كثير).

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ
قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا
مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ
مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾
وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ
يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ
أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ
تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا
تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ
إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ
﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ
وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا
نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ
حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

(٣٦) ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ إنما يجيب الذين يسمعون بفهمٍ وتأمُّل، وهؤلاء كالموتى الذين لا يسمعون ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ فيعلمهم حين لا ينفعهم الإيمان ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ للجزاء.

(٣٧) ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ أي: آية مما اقترحوه، أو آية أخرى سوى ما أنزل من الآيات المتكاثرة لعدم اعتدادهم بها عناداً ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ مما اقترحوه، أو آية تضطرهم إلى الإيمان كنتق الجبل (أي: زعزعته)، أو آية إن جحدوها هلكوا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أنَّ الله تعالى قادر على إنزالها، وأن إنزالها يستجلب عليهم البلاء، وأن لهم فيما أُنزل مندوحة عن غيره.

(٣٨) ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تدبُّ على وجهها ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ﴾ محفوظةٌ أحوالها مقدَّرةٌ أرزاقها وآجالها. والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره جل وعلا، ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزل آية ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ يعني اللوح المحفوظ (أقول: أو علم الله تعالى الحضوري، أو في كتاب مبين هو القرآن الكريم. كلُّ هذا يدلُّ على علم الله جلَّ وعلا كما قال أولياؤنا). فإنه مشتمل على ما يجري في العالم من جليلٍ ودقيقٍ، لم يهمل فيه أمر حيوان ولا جماد. أو القرآن، فإنه قد دُوِّن فيه ما يحتاج إليه من أمر الدين، مفصلاً أو مجملاً ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ يعني الأمم كلها، فينصف بعضها من بعض، كما روي: أنه يأخذ للجمَّاء من القرناء. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: حشرُها موتُها.

(٣٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ﴾ لا يسمعون مثل هذه الآيات الدالة على ربوبيته وكمال علمه وعظم قدرته سماعاً تتأثر به نفوسهم ﴿وَبُكْمٌ﴾ لا ينطقون بالحق ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ أي: خابطون (متحيرون) في ظلمات الكفر، أو في ظلمة الجهل وظلمة العناد وظلمة التقليد ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ من يشأ الله تعالى إضلاله يضلله ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ بأن يرشده إلى الهدى ويحمله عليه.

(٤٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ استفهام وتعجيب ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ كما أتى مَنْ قبلكم ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾

وهَوْلُها ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ وهو تبكيت لهم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أنَّ الأصنام آلهة!

(٤١) ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ بل تخصُّونه بالدعاء ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: ما تدعونه إلى كشفه ﴿إِن شَآءَ﴾ أي: يتفضَّل عليكم، ولا يشاء في الآخرة ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ وتتركون آلهتكم في ذلك الوقت، لما ركز في العقول من أنه القادر على كشف الضر دون غيره، أو وتنسونه من شدَّة الأمر وهوله.

(٤٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم﴾ أي: فكفروا وكذبوا المرسلين فأخذناهم ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ بالشدة والفقر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ الضر والآفات ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ يتذلَّلون لنا ويتوبون عن ذنوبهم.

(٤٣) ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ معناه نفيُ تضرعهم في ذلك الوقت، مع قيام ما يدعوهم، أي: لم يتضرعوا ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ استدراكٌ على المعنى، وبيانٌ للصارف لهم عن التضرُّع، وأنه لا مانع لهم إلا قساوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم.

(٤٤) ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ من البأساء والضراء ولم يتعظوا به ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من أنواع النعم، مراوَحة عليهم بين نوبتي الضراء والسراء، وامتحاناً لهم بالشدَّة والرخاء، إلزاماً للحجة وإزاحة للعلة، أو مكراً بهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟﴾ أُعجبوا ﴿بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ من النعم، ولم يزيدوا غير البطر والاشتغال بالنعم عن المنعم والقيام بحقِّه سبحانه وتعالى ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ متحسِّرون آيسون.

فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم
مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ
ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ
بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا
نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ
عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌۖ
إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُۚ
أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ
إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُۥۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ
عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾

(٤٥) ﴿**فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ**﴾ أي: آخرُهم، بحيث لم يبق منهم أحد ﴿**وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾**﴾ على إهلاكهم، فإن هلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم وأعمالهم نعمةٌ جليلة يحق أن يُحمد عليها.

(٤٦) ﴿**قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ**﴾ أصمكم وأعماكم ﴿**وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم**﴾ بأن يغطي عليها ما يزول به عقلكم وفهمكم ﴿**مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ**﴾ أي: بذلك، أو بما أخذ وختم عليه، أو بأحد هذه المذكورات ﴿**ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ**﴾ نكرِّرها تارة من جهة المقدمات العقلية، وتارة من جهة الترغيب والترهيب، وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين ﴿**ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾**﴾ يُعرِضون عنها.

(٤٧) ﴿**قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً**﴾ من غير مقدمة ﴿**أَوْ جَهْرَةً**﴾ بتقدمة أمارة تُؤذن بحلوله ﴿**هَلْ يُهْلَكُ**﴾ أي: ما يُهلَك به هلاكَ سخطٍ وتعذيب ﴿**إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾**﴾.

(٤٨) ﴿**وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ**﴾ المؤمنين بالجنة ﴿**وَمُنذِرِينَۖ**﴾ الكافرين بالنار، ولم نرسلهم ليُقترَح عليهم ويُتلهَّى بهم (أقول: هذا كف في فم الأحمق) ﴿**فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ**﴾ ما يجب إصلاحه على ما شُرِع لهم ﴿**فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**﴾ من العذاب ﴿**وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾**﴾ بفوات الثواب.

(٤٩) ﴿**وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ**﴾ جعَلَ العذاب ماسّاً لهم كأنه الطالب للوصول إليهم ﴿**بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾**﴾ بسبب خروجهم عن التصديق والطاعة.

(٥٠) ﴿**قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ**﴾ مقدوراته أو خزائن رزقه ﴿**وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ**﴾ ما لم يوحَ إليَّ ولم يُنصب عليه دليل ﴿**وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ**﴾ تبرّأ عن دعوى الألوهية والملَكية، وادعى النبوة التي هي من كمالات البشر، رداً لاستبعادهم دعواه وجزمهم على فساد مدعاه ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُۚ**﴾ مثلٌ للضال والمهتدي، أو الجاهل والعالم، أو مدعي المستحيل كالألوهية والملكية ومدعي

المستقيم كالنبوة ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ فتهتدوا أو فتميِّزوا بين ادعاء الحق والباطل، أو فتعلموا أن اتباع الوحي مما لا محيص عنه (أي: لا خلاص عنه).

(٥١) ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ هم المؤمنون المفرِّطون في العمل، أو المجوِّزون للحشر، مؤمناً كان أو كافراً، مقرّاً به أو متردداً فيه، فإن الإنذار ينجع فيهم دون الفارغين الجازمين باستحالته ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ لكي يتقوا.

(٥٢) ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ بعد ما أمره بإنذار غير المتقين ليتقوا، أَمَرَهُ بإكرام المتقين وتقريبهم وأن لا يطردهم ترضيةً لقريش. روي أنهم قالوا: لو طردت هؤلاء الأعبُد - يعنون فقراء المسلمين كعمار وصهيب وخباب وسلمان رضي الله تعالى عنهم - جلسنا إليك وحادثناك فقال: «ما أنا بطارد المؤمنين»، قالوا: فأَقِمهم عنا إذا جئناك، قال: «نعم» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]. والمرادُ بذكر الغداة والعشي الدوامُ، وقيل: صلاتا الصبح والعصر ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: يدعون ربهم مخلصين فيه. قيَّد الدعاء بالإِخلاص تنبيهاً على أنه مَلاك الأمر، ورتَّب النهي عليه إشعاراً بأنه يقتضي إكرامهم وينافي إبعادهم ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ليس عليك حساب إيمانهم، فلعل إيمانهم عند الله تعالى أعظم من إيمان من تطردهم بسؤالهم طمعاً في إيمانهم لو آمنوا. أو ليس عليك اعتبار بواطنهم وإخلاصهم لما اتسموا بسيرة المتقين، وإن كان لهم باطن غير مرضي كما ذكره المشركون وطعنوا في دينهم فحسابهم عليهم لا يتعداهم إليك، كما أن حسابك عليك لا يتعداك إليهم. وقيل: الضمير للمشركين، والمعنى: لا تؤاخَذ بحسابهم ولا هم بحسابك حتى يهمك إيمانهم بحيث تطرد المؤمنين طمعاً فيه ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ فتبعدهم ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

(٥٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ ومثل ذلك الفتن، وهو اختلاف أحوال الناس في أمور الدنيا ﴿فَتَنَّا﴾ أي: ابتلينا ﴿بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ في أمر الدين، فقدَّمنا هؤلاء الضعفاء على أشراف قريش بالسبق إلى الإيمان ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ﴾ أي: أهؤلاء مَنْ أنعم الله تعالى عليهم بالهداية والتوفيق لما يسعدهم دوننا، ونحن الأكابر والرؤساء وهم المساكين والضعفاء. وهو إنكار لأن يخص هؤلاء من بينهم بإصابة الحق والسبق إلى الخير ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه، وبمن لا يقع منه فيخذله.

(٥٤) ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ﴾ الذين يؤمنون هم الذين يَدْعون ربهم، وَصَفهم بالإيمان بالقرآن واتباع الحجج بعد ما وَصَفهم بالمواظبة على العبادة، وأمَرَه بأن يبدأ بالتسليم أو يبلغ سلام الله تعالى إليهم، ويبشرهم بسعة رحمة الله تعالى وفضله، بعد النهي عن طردهم، إيذاناً بأنهم الجامعون لفضيلتي العلم والعمل، ومن كان كذلك ينبغي أن يقرَّب ولا يُطرد، ويُعز ولا يُذل، ويبشَّر من الله تعالى بالسلامة في الدنيا والرحمة في الآخرة. وقيل: إنَّ قوماً جاؤوا إلى النبي ﷺ فقالوا: إنا أصبنا ذنوباً عظاماً فلم يردَّ عليهم شيئاً، فانصرفوا فنزلت ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي: من عمل ذنباً جاهلاً بحقيقة ما يتبعه من المضار والمفاسد ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾ بالتدارك والعزم على أن لا يعود إليه ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾.

(٥٥) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: آيات القرآن في صفة المطيعين والمجرمين المصرِّين منهم والأوَّابين (أي: الراجعين) ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ ولتستوضح يا محمد ﷺ سبيلهم، فتعامل كلًّا منهم بما يحق له.

(٥٦) ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ صُرِفت وزُجِرت بما نُصب لي من الأدلة وأُنزل عليَّ من الآيات في أمر التوحيد ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ عن عبادة ما تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله تعالى، أو ما تدْعونها آلهة ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ تأكيدٌ لقطع أطماعهم، وإشارةٌ إلى الموجب للنهي (عن إبعاد هؤلاء الفقراء، حتى يأتوا هم) وعلةٌ

للامتناع عن متابعتهم، واستجهالٌ لهم، وبيانٌ لمبدأ ضلالهم، وأن ما هم عليه هوى وليس بهدى، وتنبيهٌ لمن تحرى الحق على أن يتبع الحجة ولا يقلد ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي: إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: وما أنا في شيء من الهدى حتى أكون من عدادهم، وفيه تعريض بأنهم كذلك.

(٥٧) ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ البينة الدلالة الواضحة التي تفصل الحق من الباطل، وقيل: المراد بها القرآن والوحي، أو الحجج العقلية، أو ما يعمها ﴿مِّن رَّبِّى﴾ من معرفته، وأنه لا معبود سواه ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ (بالله جل وعلا) أي: كذبتم به حيث أشركتم به غيره ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ يعني العذاب الذي استعجلوه بقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ في تعجيل العذاب وتأخيره ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: القضاء الحق، أو يصنع الحقَّ ويدبِّره ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ القاضين.

(٥٨) ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾ أي: في قدرتي ومكنتي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ من العذاب ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ لأهلكتكم عاجلاً غضباً لربي، وانقطع ما بيني وبينكم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ في معنى الاستدراك، كأنه قال: ولكن الأمر إلى الله سبحانه وتعالى، وهو أعلم بمن ينبغي أن يؤخذ وبمن ينبغي أن يمهل منهم.

(٥٩) ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ خزائنه، أو ما يتوصل به إلى المغيبات. والمعنى أنه المتوصِّل إلى المغيبات المحيط علمه بها ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ فيعلم أوقاتها وما في تعجيلها وتأخيرها من الحِكَم، فيظهرها على ما اقتضته حكمته وتعلَّقت به مشيئته. وفيه دليل على أنه سبحانه وتعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ مبالغةٌ في إحاطة علمه بالجزئيات ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ (أقول: أي في اللوح المحفوظ، أو في علمه الحضوري تعالى وتقدَّس، قال أولياؤنا رحمهم الله تعالى: الكتاب المبين في القرآن علم الله تعالى).

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ
يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ
ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ
وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ
رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ
أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن
ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ
لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ
ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا
مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم
بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾
وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ
نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ
ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ
ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾

(٦٠) ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ**﴾ يُنيمكم فيه ويراقبكم. استعير التوفي من الموت للنوم لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز، فإن أصله قبض الشيء بتمامه ﴿**وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ**﴾ كسبتم فيه. خصَّ الليل بالنوم والنهار بالكسب جرياً على المعتاد ﴿**ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ**﴾ أي: يوقظكم ﴿**فِيهِ**﴾ في النهار ﴿**لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ**﴾ ليبلغ المتيقظ آخر أجله المسمى له في الدنيا ﴿**ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ**﴾ بالموت ﴿**ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾**﴾ بالمجازاة عليه. وقيل: الآية خطاب للكفرة، والمعنى أنكم ملقَوْن كالجيف بالليل، وكاسبون للآثام بالنهار، وأنه سبحانه وتعالى مطلع على أعمالكم، يبعثكم من القبور في شأن ذلك الذي قطعتم به أعماركم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار، ليقضي الأجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم، ثم إليه مرجعكم بالحساب ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ بالجزاء.

(٦١) ﴿**وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً**﴾ ملائكةً تحفظ أعمالكم، وهم الكرام الكاتبون. والحكمةُ فيه أن المكلَّف إذا علم أن أعماله تكتب عليه وتعرض على رؤوس الأشهاد كان أزجر عن المعاصي، وأن العبد إذا وثق بلطف سيده واعتمد على عفوه وستره لم يحتشم منه احتشامه من خدمه المطلعين عليه ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا**﴾ ملك الموت وأعوانه ﴿**وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾**﴾ بالتواني والتأخير. والمعنى: لا يجاوزون ما حُدَّ لهم بزيادة أو نقصان.

(٦٢) ﴿**ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ**﴾ إلى حكمِه وجزائه ﴿**مَوۡلَىٰهُمُ**﴾ الذي يتولى أمرهم ﴿**ٱلۡحَقِّۚ**﴾ العدل الذي لا يحكم إلا بالحق ﴿**أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ**﴾ يومئذ لا حكم لغيره فيه ﴿**وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾**﴾ يحاسب الخلائق في مقدار حلب شاة، لا يشغله حساب عن حساب (أقول: لا بدَّ للعبد أن لا يقيس علم ربِّه جلَّ وعلا على نفسه. سئل سيدنا علي رضي الله عنه: كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم؟ قال: كما يرزقهم على كثرتهم).

(٦٣) ﴿**قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ**﴾ من شدائدهما ﴿**تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ**﴾ معلِنين ومسِرِّين ﴿**لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ**﴾ (الظلمات) ﴿**لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾**﴾ (لله تعالى).

(٦٤) ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٍ﴾ غمٍّ سواها ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٦٤﴾ تعودون إلى الشرك ولا توفون بالعهد.

(٦٥) ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ كما فعل بقوم نوح ولوط وأصحاب الفيل ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ كما أغرق فرعون وخسف بقارون ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ﴾ يخلطكم ﴿شِيَعٗا﴾ فِرَقاً متحزبين على أهواء شتى ﴿وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ﴾ يقاتل بعضكم بعضاً ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ بالوعد والوعيد ﴿لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ٦٥﴾ (أقول: أي يعلمون أنَّ ما هم عليه باطل).

(٦٦) ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ﴾ أي: بالعذاب، أو بالقرآن ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ﴾ الواقع لا محالة، أو الصدق ﴿قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٦﴾ بحفيظ وُكل إليَّ أمركم فأمنعكم من التكذيب أو أجازيكم، إنما أنا منذر والله تعالى الحفيظ.

(٦٧) ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ﴾ خبرٍ، يريد به إما بالعذاب أو الإِيعاد به ﴿مُّسۡتَقَرّٞۚ﴾ وقتُ استقرارٍ ووقوع ﴿وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٦٧﴾ عند وقوعه في الدنيا أو الآخرة.

(٦٨) ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالتكذيب والاستهزاء بها والطعن فيها ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ فلا تجالسهم وقُمْ عنهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ بأن يشغلك بوسوسته حتى تنسى النهي ﴿فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ بعد أن تذكره ﴿مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨﴾ دلالةٌ على أنهم ظَلموا بوضع التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والاستعظام.

وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن
ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ
دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ
أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ
وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ
كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ
يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ
وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن
فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ
عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

(٦٩) ﴿**وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ**﴾ وما يلزم المتقين من قبائح أعمال وأقوال الذين يجالسونهم ﴿**مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ**﴾ شيء مما يحاسبون عليه ﴿**وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ**﴾ ولكن عليهم أن يذكِّروهم ذكرى ويمنعوهم عن الخوض وغيره من القبائح ويُظهروا كراهتها ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾**﴾ يجتنبون ذلك حياء أو كراهة لمساءتهم.

(٧٠) ﴿**وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا**﴾ أي: بَنَوا أمر دينهم على التشهي، وتدينوا بما لا يعود عليهم بنفع عاجلاً وآجلاً، كعبادة الأصنام وتحريم البحائر والسوائب، أو اتخذوا دينهم الذي كُلِّفوه لعباً ولهواً حيث سخروا به، أو جعلوا عيدهم الذي جُعل ميقات عبادتهم زمانَ لهو ولعب. والمعنى: أعرضْ عنهم ولا تبالِ بأفعالهم وأقوالهم ﴿**وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا**﴾ حتى أنكروا البعث ﴿**وَذَكِّرْ بِهِۦٓ**﴾ أي: بالقرآن ﴿**أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ**﴾ مخافة أن تُسْلَم إلى الهلاك وتُرهَن بسوء عملها. والبسلُ: المنع. ﴿**لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ**﴾ يدفع عنها العذاب ﴿**وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ**﴾ وإن تفدِ كل فداء ﴿**لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ**﴾ أي: أُسْلموا إلى العذاب بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة ﴿**لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾**﴾ المعنى: هم بين ماءٍ مغلي يتجرجر في بطونهم ونارٍ تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم.

(٧١) ﴿**قُلْ أَنَدْعُواْ**﴾ أنعبد ﴿**مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا**﴾ ما لا يقدر على نفعنا وضرنا ﴿**وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا**﴾ ونرجع إلى الشرك ﴿**بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ**﴾ فأنقذنا منه (قبل أن ندخل فيه) ورزقنا الإسلام ﴿**كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ**﴾ كالذي ذهبت به مردة الجن إلى المَهامِهِ (جمع مَهْمَه، وهو: المفازة البعيدة) ﴿**فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ**﴾ متحيراً ضالاً عن الطريق ﴿**لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى**﴾ أي: يهدونه إلى الطريق المستقيم ﴿**ٱئْتِنَا**﴾ يقولون له: ائتنا ﴿**قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ**﴾ الذي هو الإسلام ﴿**هُوَ ٱلْهُدَىٰ**﴾ وحده، وما عداه ضلال ﴿**وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾**﴾.

(٧٢) ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: وأُمرنا أن نسلم، وأن أقيموا الصلاة. روي: أن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله تعالى عنهما دعا أباه إلى عبادة الأوثان، فنزلت. وعلى هذا كان أمر الرسول ﷺ بهذا القول إجابة عن الصديق رضي الله تعالى عنه تعظيماً لشأنه وإظهاراً للاتحاد الذي كان بينهما ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ يوم القيامة.

(٧٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ قائماً بالحقِّ والحكمة ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ المعنى: أنه الخالق للسموات والأرضين، وقوله الحق نافذ في الكائنات ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ كقوله سبحانه وتعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: هو عالم الغيب ﴿وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ (أي: السر والعلانية) ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ (في الإفناء والإحياء) ﴿ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ (بالحساب والجزاء [تفسير النسفي]).

۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾

(٧٤) ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ**﴾ وفي كتب التواريخ أن اسمه تارح (قال الألوسي رحمه الله تعالى: والذي عوَّل عليه الجمع الغفير من أهل السنة أن آزر لم يكن والد إبراهيم عليه السلام، وأنه ليس في آباء النبي ﷺ كافر أصلًا، لقوله ﷺ: «لم أزل أُنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» [تفسير الألوسي: ٧/ ١٩٤]) ﴿**أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ**﴾ عن الحق ﴿**مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾**﴾ ظاهر الضلالة.

(٧٥) ﴿**وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ ربوبيتها وملكها. وقيل: عجائبها وبدائعها. والملكوت أعظم الملك، والتاء فيه للمبالغة ﴿**وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾**﴾ (ليكون من الموقنين عياناً كما أيقن بياناً [النسفي]).

(٧٦) ﴿**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي**﴾ فإن أباه وقومه كانوا يعبدون الأصنام والكواكب، فأراد أن ينبههم على ضلالتهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال. وجَنَّ عليه الليل: ستَرهُ بظلامه. والكوكب كان الزهرة أو المشتري. وقوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ على سبيل الوضع، فإن المستدل على فساد قول يحكيه على ما يقوله الخصم، ثم يكرُّ عليه بالإفساد، أو على وجه النظر والاستدلال. وإنما قاله أول أوان بلوغه ﴿**فَلَمَّآ أَفَلَ**﴾ أي: غاب ﴿**قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾**﴾ فضلاً عن عبادتهم، فإن الانتقال والاحتجاب بالأستار يقتضي الإمكان والحدوث وينافي الألوهية.

(٧٧) ﴿**فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا**﴾ مبتدئاً في الطلوع ﴿**قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾**﴾ استعجزَ نفسه واستعان بربه في درك الحق، فإنه لا يُهتدى إليه إلا بتوفيقه، إرشاداً لقومه وتنبيهاً لهم على أن القمر أيضاً لتغير حاله لا يصلح للألوهية، وأن من اتخذه إلهاً فهو ضال.

(٧٨) ﴿**فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ**﴾ كبَّره استدلالاً أو إظهاراً لشبهة الخصم ﴿**فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾**﴾ من الأجرام المحدثة المحتاجة إلى محدِث يحدثها ومخصِّص يخصصها بما تختص به. ثم لما تبرأ منها توجه إلى موجدها ومبدعها الذي دلت هذه الممكنات عليه فقال تعالى:

(٧٩) ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (أي: للذي دلَّت هذه المحدَثات على أنه منشئها) ﴿حَنِيفًا﴾ (أي: مائلًا عن الأديان كلِّها إلى الإسلام) ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾ (بالله تعالى شيئاً من خلقه [تفسير النسفي]).

(٨٠) ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ وخاصموه في التوحيد ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾ في وحدانيته سبحانه وتعالى ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ إلى توحيده ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ أي: لا أخاف معبوداتكم في وقت، لأنها لا تضر بنفسها ولا تنفع ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أن يصيبني بمكروه من جهتها. ولعله جواب لتخويفهم إياه من آلهتهم وتهديد لهم بعذاب الله تعالى ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: أحاط به علماً، فلا يبعد أن يكون في علمه أن يحيق بي مكروه من جهتها ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠)﴾ فتميزوا بين الصحيح والفاسد والقادر والعاجز.

(٨١) ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ ولا يتعلق به ضرٌّ ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾ وهو حقيق بأن يُخاف منه كل الخوف، لأنه إشراك للمصنوع بالصانع، وتسوية بين المقدور العاجز والقادر الضار النافع ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ ما لم ينزل بإشراكه كتاباً، أو لم ينصب عليه دليلاً ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ أي: الموحِّدون أو المشركون. وإنما لم يقل: أيُّنا أنا أم أنتم؟ احترازاً من تزكية نفسه ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)﴾ ما يحقُّ أن يُخاف منه.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

(٨٢) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ المراد بالظلم ها هنا الشرك، لما روي أن الآية لما نزلت شقَّ ذلك على الصحابة رضي الله تعالى عنهم وقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «ليس ما تظنون، إنما هو ما قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]» [أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى]. وقيل: الظلم هو المعصية.

(٨٣) ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أرشدناه إليها، أو علمناه إياها ﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ في العلم والحكمة ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في رفعه وخفضه ﴿عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾﴾ بحال من يرفعه واستعداده له.

(٨٤) ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ﴾ أي: كلاً منهما (وفي ضمنه سيدنا إسماعيل عليه السلام) ﴿وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ﴾ من قبل إبراهيم عليه السلام؛ عَدَّ هداه نعمة على إبراهيم عليه السلام من حيث إنه أبوه، وشرف الوالد يتعدّى إلى الولد ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ الضمير لإبراهيم عليه الصلاة والسلام إذ الكلام فيه ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: ونجزي المحسنين جزاء مثل ما جزينا إبراهيم عليه السلام، برفع درجاته وكثرة أولاده والنبوة فيهم.

(٨٥) ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ هو ابن مريم، وفي ذكره دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنت ﴿وَإِلۡيَاسَۖ﴾ قيل: هو إدريس جدُّ نوح عليهما السلام، وقيل: هو من أسباط (أي: أحفاد) هارون أخي موسى عليهما السلام ﴿كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ الكاملين في الصلاح، وهو الإتيان بما ينبغي والتحرُّز عما لا ينبغي.

(٨٦) ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ﴾ هو يونس بن متَّى عليه السلام ﴿وَلُوطٗاۚ﴾ هو ابن هاران أخي إبراهيم عليهما السلام ﴿وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ بالنبوة. وفيه دليل على فضلهم على من عداهم من الخلق.

(٨٧) ﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ﴾ أي: فضلنا كلًّا منهم، أو هدينا هؤلاء وبعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، فإن منهم من لم يكن نبياً ولا مهدياً ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ﴾ (أي: اخترناهم) ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾﴾ تكرير لبيان ما هُدوا إليه.

(٨٨) ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى ما دانوا به ﴿يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ دليل على أنه متفضل عليهم بالهداية ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ﴾ أي: ولو أشرك هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع فضلهم وعلوِّ شأنهم ﴿لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ لكانوا كغيرهم في حبوط أعمالهم بسقوط ثوابها.

(٨٩) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يريد به الجنس ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾ الحكمة، أو فَصْلَ الأمر على ما يقتضيه الحق ﴿وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾ والرسالة ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا﴾ أي: بهذه الثلاثة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني قريشاً ﴿فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا﴾ أي: بمراعاتها ﴿قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المذكورون ومتابعوهم.

(٩٠) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ يريد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المتقدم ذكرهم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ فاختص طريقهم بالاقتداء. والمراد بهداهم ما توافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين، دون الفروع المختلف فيها ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: على التبليغ أو القرآن ﴿أَجۡرًاۖ﴾ جُعلاً من جهتكم، كما لم يسأل من قبلي من النبيين، وهذا من جملة ما أُمِر بالاقتداء بهم فيه ﴿إِنۡ هُوَ﴾ أي: التبليغ أو القرآن ﴿إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ إلا تذكيراً وموعظة لهم.

وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

(٩١) ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ وما عرفوه حق معرفته في الرحمة والإنعام على العباد ﴿إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ﴾ حين أنكروا الوحي وبعثة الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك من عظائم رحمته وجلائل نعمته أو في السخط على الكفار وشدة البطش بهم حين جسروا على هذه المقالة. والقائلون هم اليهود، قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن بدليل نقض كلامهم وإلزامهم بقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ وتضمَّن ذلك توبيخهم على سوء جهلهم بالتوراة، وذمَّهم على تجزئتها بإبداء بعضٍ انتخبوه وكتبوه في ورقات متفرقة، وإخفاء بعض لا يشتهونه ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ على لسان محمد ﷺ ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ﴾ زيادةً على ما في التوراة وبياناً لما التبس عليكم وعلى آبائكم الذين كانوا أعلم منكم ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ أي: أنزله الله تعالى. أمَرَهُ بأن يجيب عنهم إشعاراً بأن الجواب متعيِّن لا يمكن غيره، وتنبيهاً على أنهم بهتوا بحيث إنهم لا يقدرون على الجواب ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ في أباطيلهم، فلا عليك بعد التبليغ وإلزام الحجة.

(٩٢) ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير الفائدة والنفع ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني التوراة، أو الكتب التي قبله ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: ولتنذر أهل أمِّ القرى، وإنما سمِّيت مكَّة بذلك لأنها قبلة أهل القرى ومحجُّهم وأعظم القرى شأناً ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ﴾ أهل المشرق والمغرب ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ فإنَّ من صَدَّق بالآخرة خاف العاقبة، ولا يزال الخوف يحمله على النظر والتدبُّر حتى يؤمن بالنبيِّ والكتاب ويحافظ على الطاعة؛ وتخصيص الصلاة لأنها عماد الدين، وعلم الإيمان.

(٩٣) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أنه بعثه نبياً، كمسيلمة والأسود العنسي، أو اختلق عليه أحكاماً، كعمرو بن لحي ومتابعيه ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ كعبد الله بن سعد بن أبي سرح، كان يكتب لرسول الله ﷺ فلما نزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] فلما بلغ قوله

تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ قال عبد الله: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] تعجباً من تفصيل خلق الإنسان، فقال عليه الصلاة والسلام: اكتبها فكذلك نزلت، فشكَّ عبد الله وقال: لئن كان محمد صادقاً لقد أوحي إليَّ كما أوحي إليه، ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال. ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ كالذين قالوا: لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: ولو ترى الظالمين ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ شَدَائِدِهِ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ بقبض أرواحهم، أو بالعذاب ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ أي: يقولون لهم: أخرجوها إلينا من أجسادكم تغليظاً وتعنيفاً عليهم، أو أخرجوها من العذاب وخلصوها من أيدينا ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يريد به وقت الإماتة، أو الوقت الممتد من الإماتة إلى ما لا نهاية له ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: الهوان. يريد العذاب المتضمن لشدة وإهانة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ كادعاء الولد والشريك له، ودعوى النبوة والوحي كاذباً ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون.

(٩٤) ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ للحساب والجزاء ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ منفردين عن الأموال والأولاد وسائر ما آثرتموه من الدنيا (أقول: من كان له عقل لا يتعلَّق بالمادة، يأخذ بالأسباب ولا يتعلق بها) ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: على الهيئة التي ولدتم عليها في الانفراد ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ ما تفضلنا به عليكم في الدنيا، فشُغلتم به عن الآخرة ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ ما قدَّمتم منه شيئاً ولم تحتملوا نقيراً (النقير يضرب مثلاً في الشيء القليل) ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ أي: شركاء لله تعالى في ربوبيتكم واستحقاق عبادتكم ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: تقطَّع وصلكم وتشتَّت جمعكم ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ ضاع وبطل ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ أنها شفعاؤكم، أو أنْ لا بعث ولا جزاء.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ
ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ
وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟
بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
(٩٧) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ
قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ
خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا
قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا
وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ
وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ
وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٠١)

(٩٥) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ﴾ بالنبات والشجر. وقيل: المراد به الشقاق الذي في الحنطة والنواة (والنوى ما في جوف التمر) ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ﴾ يريد به ما ينمو من الحيوان والنبات ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ مما لا ينمو كالنطف والحَب ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ﴾ ومخرج ذلك من الحيوان والنبات ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ﴾ أي: ذلكم المحيي المميت هو الذي يحقُّ له العبادة ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥)﴾ تُصرَفون عنه إلى غيره.

(٩٦) ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ شاقُّ عمود الصبح عن ظلمة الليل أو عن بياض النهار ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ يسكن إليه التعِب بالنهار لاستراحته فيه ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ﴾ أي: على أدوار مختلفة تُحسب بهما الأوقات ويكونان علَمَي الحسبان ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى جعلهما حسباناً. أي: ذلك التسيير بالحساب المعلوم ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي قهرَهما وسيَّرهما على الوجه المخصوص ﴿ٱلْعَلِيمِ (٩٦)﴾ بتدبيرهما والأنفع من التداوير الممكنة لهما.

(٩٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ خلقها لكم ﴿لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ﴾ في ظلمات الليل في البر والبحر ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ بينَّاها فصلاً فصلاً ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧)﴾ فإنهم المنتفعون به.

(٩٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هو آدم عليه الصلاة والسلام ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ﴾ أي: فلكم استقرار في الأصلاب أو فوق الأرض، واستيداع في الأرحام أو تحت الأرض (أقول: في الأرحام ونحوها، وقيل: في الأصلاب، أو مستودع في الأرض التي يموت فيها، كما قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه). ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨)﴾ ذكَرَ مع ذكر النجوم يعلمون، لأن أمرها ظاهر، ومع ذكر تخليق بني آدم يفقهون، لأن إنشاءهم من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة دقيق غامض يحتاج إلى استعمال فطنة وتدقيق نظر.

(٩٩) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ من السحاب أو من جانب السماء ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ بالماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ المعنى: إظهار القدرة في إنبات الأنواع المختلفة المسقية بماء واحد، كما في قوله سبحانه

وتعالى: ﴿يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤] ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ من النبات أو الماء ﴿خَضِرًا﴾ شيئاً أخضر ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ من الخضر ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ وهو السنبل ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ أي: وأخرجنا من النخل نخلاً من طلعها قنوان (القنوان: العنقود في النخلة) ﴿دَانِيَةٌ﴾ قريبة من المتناول، أو ملتفة قريب بعضها من بعض ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ أي: بعض ذلك متشابه وبعضه غير متشابه في الهيئة والقدر واللون والطعم ﴿انظُرُوٓا إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ أي: ثمر كل واحد من ذلك ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ إذا أخرج ثمره كيف يثمر ضئيلاً لا يكاد ينتفع به ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ وإلى حال نضجه كيف يعود ضخماً ذا نفع ولذة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: لآيات دالة على وجود القادر الحكيم وتوحيده، فإن حدوث الأجناس المختلفة والأنواع المفنَّنة (المتنوِّعة) من أصل واحد ونقلها من حال إلى حال لا يكون إلا بإحداث قادر يعلم تفاصيلها، ويرجِّح ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها، ولا يعوقه عن فعله نِدٌّ يعارضه أو ضِدٌّ يعانده، ولذلك عقَّبه بتوبيخ من أشرك به والرد عليه فقال:

(١٠٠) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ الْجِنَّ﴾ بأن عبدوهم ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ المعنى: وقد علموا أن الله تعالى خالقهم دون الجن، وليس من يَخْلُقُ كَمَن لا يَخْلُقُ ﴿وَخَرَقُوا لَهُ﴾ افتعلوا وافتروا له ﴿بَنِينَ وَبَنَٰتٍ﴾ فقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت العرب: الملائكة بنات الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه ويروا عليه دليلاً ﴿سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (أي: تنزَّه الله تعالى عما يصفون) وهو أن له شريكاً أو ولداً.

(١٠١) ﴿بَدِيعُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: من أين أو كيف يكون له ولد ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَٰحِبَةٌ﴾ يكون منها الولد ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ لا تخفى عليه خافية. وفي الآية استدلال على نفي الولد من وجوه:

الأول: أنَّ من مبدعاته السمٰوات والأرضون، وهي مع أنها من جنس ما يوصف بالولادة مبرَّأةٌ عنها، لاستمرارها وطول مدتها، فهو أولى بأن يتعالى عنها، أو أن ولد الشيء نظيره، ولا نظير له فلا ولد.

والثاني: أن المعقول من الولد ما يتولد من ذكر وأنثى متجانسين، والله سبحانه وتعالى منزَّه عن المجانسة.

والثالث: أن الولد كفؤ الوالد، ولا كفؤ له لوجهين: الأول: أنَّ كلَّ ما عداه مخلوقه فلا يكافئه. والثاني: أنه سبحانه وتعالى لذاته عالم بكلِّ المعلومات، ولا كذلك غيره بالإجماع.

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

(١٠٢) ﴿**ذَٰلِكُمُ**﴾ إشارة إلى الموصوف جلّ وعلا بما سبق من الصفات ﴿**ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ (أقول: قوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: شاءه، وذلك لإخراج الواجب، وهو ذاته جل وعلا وصفاته، فإنهما من جملة الشيء، إذ هو الموجود، لكنهما ليسا من متعلقات الإرادة) ﴿**فَٱعْبُدُوهُ**﴾ حكمٌ مسبَّب عن مضمونها، فإن من استجمع هذه الصفات استحق العبادة ﴿**وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾**﴾ أي: وهو مع تلك الصفات متولي أموركم، فكِلُوها إليه وتوسلوا بعبادته إلى إنجاح مآربكم، ورقيب على أعمالكم، فيجازيكم عليها.

(١٠٣) ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ**﴾ أي: لا تحيط به ﴿**ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ**﴾ يحيط علمه بها ﴿**وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾**﴾ فيدرك ما لا تدركه الأبصار.

(١٠٤) ﴿**قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ**﴾ البصائر: جمع بصيرة، وهي للنفس كالبصر للبدن، سميت بها الدَّلالةُ، لأنها تُجلِّي لها الحق وتبصِّرها به ﴿**فَمَنْ أَبْصَرَ**﴾ أي: أبصر الحق وآمن به ﴿**فَلِنَفْسِهِۦ**﴾ أبصر، لأن نفعه لها ﴿**وَمَنْ عَمِيَ**﴾ عن الحق وضل ﴿**فَعَلَيْهَا**﴾ وباله ﴿**وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾**﴾ وإنما أنا منذر، والله سبحانه وتعالى هو الحفيظ عليكم (وعليَّ) يحفظ أعمالكم (وأعمالنا) ويجازيكم عليها. وهذا كلام وردَ على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام.

(١٠٥) ﴿**وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ**﴾ من الصرف، وهو نقل الشيء من حال إلى حال ﴿**وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ**﴾ الدرس: القراءة والتعلم ﴿**وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾**﴾ فإنهم المنتفعون به.

(١٠٦) ﴿**ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**﴾ بالتديُّن به ﴿**لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾**﴾ ولا تحفل (أي: ولا تهتم) بأهوائهم، ولا تلتفت إلى آرائهم.

(١٠٧) ﴿**وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ**﴾ توحيدهم وعدم إشراكهم ﴿**مَآ أَشْرَكُوا۟**﴾ وهو دليل على أنه سبحانه وتعالى لا يريد إيمان الكافرين، وأن مراده واجب الوقوع ﴿**وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**﴾ رقيباً ﴿**وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾**﴾ تقوم بأمورهم.

(١٠٨) ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ولا تذكروا آلهتهم التي يعبدونها بما فيها من القبائح ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا﴾ تجاوزاً عن الحق إلى الباطل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على جهالة بالله سبحانه وتعالى وبما يجب أن يُذكر به. وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها، فإنَّ ما يؤدي إلى الشرِّ شرٌّ ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ من الخير والشر بإحداث ما يمكِّنهم منه ويحملهم عليه، توفيقاً (من فضله جلَّ وعلا للمؤمنين) وتخذيلاً (للكافرين) ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ بالمحاسبة والمجازاة عليه.

(١٠٩) ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ الداعي لهم إلى هذا القسَم والتأكيد فيه التحكُّمُ على الرسول ﷺ في طلب الآيات (المعجزات) واستحقار ما رأوا منها ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ من مقترحاتهم ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ هو قادر عليها، يُظهر منها ما يشاء، وليس شيء منها بقدرتي وإرادتي ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وما يدريكم. استفهام إنكار ﴿أَنَّهَآ﴾ أي: أن الآية المقترحة ﴿إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ أي: لا تدرون أنهم لا يؤمنون. أنكر السبب مبالغة في نفي المسبَّب. وفيه تنبيه على أنه سبحانه وتعالى إنما لم ينزلها لعلمه بأنها إذا جاءت لا يؤمنون بها. والخطاب للمؤمنين، فإنهم يتمنون مجيء الآية طمعاً في إيمانهم، فنزلت. وقيل: للمشركين.

(١١٠) ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي: وما يُشعركم أنا حينئذ نقلب أفئدتهم عن الحق فلا يفقهونه، وأبصارهم فلا يبصرونه، فلا يؤمنون بها ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي: بما أنزل من الآيات ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ وندَعهم متحيرين لا نهديهم هداية المؤمنين (اللهم ربَّنا اجعلنا بفضلك من المؤمنين).

۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

(١١١) ﴿**وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا**﴾ كما اقترحوا ﴿**مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟**﴾ لما سبق عليهم القضاء بالكفر ﴿**إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ**﴾ استثناء من أعم الأحوال، أي: لا يؤمنون في حال من الأحوال إلا حال مشيئة الله تعالى إيمانهم ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾**﴾ أنهم لو أُتُوا بكل آية لم يؤمنوا، فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون، ولذلك أسند الجهل إلى أكثرهم، مع أن مطلق الجهل يعمهم. أو ولكن أكثر المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون، فيتمنون نزول الآية طمعاً في إيمانهم.

(١١٢) ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا**﴾ أي: كما جعلنا لك عدواً جعلنا لكل نبي سبقك عدواً. وهو دليل على أن عداوة الكفرة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بفعل الله سبحانه وتعالى وخلقه ﴿**شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ**﴾ مرَدَة الفريقين ﴿**يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ**﴾ يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس، أو بعض الجن إلى بعضٍ، وبعض الإنس إلى بعض ﴿**زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ**﴾ الأباطيل المموهة ﴿**غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ**﴾ إيمانهم ﴿**مَا فَعَلُوهُ ۖ**﴾ أي: ما فعلوا ذلك، يعني معاداة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإيحاء الزخارف. (أقول: لا يلزم من هذا أن الله تعالى يبخل بإيمانهم ـ حاشاه ـ بل الله تعالى يعلم أزلاً أنهم لا يؤمنون) ﴿**فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾**﴾ وكفرَهم.

(١١٣) ﴿**وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ**﴾ الصغو: الميل ﴿**وَلِيَرْضَوْهُ**﴾ لأنفسهم ﴿**وَلِيَقْتَرِفُوا۟**﴾ وليكتسبوا ﴿**مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾**﴾ من الآثام.

(١١٤) ﴿**أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا**﴾ أي: قل لهم يا محمد ﷺ: أفغير الله تعالى أطلب من يحكم بيني وبينكم ويفصل المحقَّ منَّا من المبطل ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ**﴾ القرآن المعجز ﴿**مُفَصَّلًا ۚ**﴾ مبيَّناً فيه الحق والباطل، بحيث ينفي التخليط والالتباس. وفيه تنبيه على أن القرآن بإعجازه وتقريره مُغنٍ عن سائر الآيات ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ**﴾ تأييدٌ لدلالة الإعجاز على أن القرآن حقٌّ منزل من عند الله سبحانه وتعالى، يعلم أهل الكتاب به لتصديقه ما عندهم، مع أنه عليه الصلاة والسلام لم

يمارس كتبهم، ولم يخالط علماءهم. وإنما وصف جميعهم بالعلم لأن أكثرهم يعلمون، ومن لم يعلم فهو متمكن منه بأدنى تأمل ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ (أي: الشاكِّين) في أنهم يعلمون ذلك، أو في أنه منزل، لجحود أكثرهم وكفرهم به، فيكون من باب التهييج، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]. أو خطاب الرسول ﷺ لخطاب الأمة. وقيل: الخطاب لكل أحد، على معنى أن الأَدلة لما تعاضدت على صحته فلا ينبغي لأحد أن يمتري فيه (أي: يشك).

(١١٥) ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بلغت الغايةَ أخبارُه وأحكامه ومواعيده ﴿صِدْقًا﴾ في الأخبار والمواعيد ﴿وَعَدْلًا﴾ في الأقضية والأحكام ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لا أحد يبدِّل شيئاً منها بما هو أصدق وأعدل، أو لا أحد يقدر أن يحرفها، على أنَّ المراد بها القرآن فيكون ضماناً لها من الله تعالى بالحفظ، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] أو لا نبي ولا كتاب بعدها ينسخها ويبدل أحكامها ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقولون ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ بما يضمرون فلا يهملهم.

(١١٦) ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أكثر الناس، يريد الكفار أو الجهال (أقول: يدخل فيه جهال المسلمين) أو أتباع الهوى (أقول: هذا شامل للكفار والمسلمين. من اتبع الهوى يدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]. هذا يشمل الكلّ، لأنه لم يقل مسلماً أو كافراً، بل كل من اتخذ إلهه هواه) ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن الطريق الموصل إليه، فإن الضال في غالب الأمر لا يأمر إلا بما فيه ضلال ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق، أو جهالاتهم وآراءهم الفاسدة، فإن الظن يطلق على ما يقابل العلم ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ يكذبون على الله سبحانه وتعالى فيما ينسبون إليه؛ كاتخاذ الولد، وجعْلِ عبادة الأوثان وصلة إليه، وتحليل الميتة.

(١١٧) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾ (أي: هو تعالى أعلم بالفريقين، بمن ضلَّ عن سبيل الرشاد، وبمن اهتدى إلى طريق الإيمان والسعادة [المقتطف]).

(١١٨) ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ المعنى: كلوا مما ذكر اسم الله تعالى على ذبحه، لا مما ذكر عليه اسم غيره أو مات حتف أنفه ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ فإن الإيمان بها يقتضي استباحة ما أحلَّه الله سبحانه وتعالى واجتناب ما حرَّمه.

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

(١١٩) ﴿**وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ**﴾ وأيُّ غرض لكم في أن تتحرجوا عن أكله، وما يمنعكم عنه؟ ﴿**وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ**﴾ مما لم يحرَّم بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] ﴿**إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ**﴾ مما حرَّم عليكم، فإنه أيضاً حلال حال الضرورة ﴿**وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ**﴾ بتحليل الحرام وتحريم الحلال ﴿**بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ بتشهِّيهم من غير تعلق بدليل يفيد العلم ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾**﴾ بالمجاوزين الحق إلى الباطل والحلال إلى الحرام.

(١٢٠) ﴿**وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ**﴾ ما يعلَن وما يُسَرُّ، أو ما بالجوارح وما بالقلب (قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم: وذروا ظاهر الإثم: أي: الإقدام عليه والاتصاف به، وباطنَه أي: إخطاره وإجراءه على القلب) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾**﴾ يكتسبون.

(١٢١) ﴿**وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ**﴾ فإن الفسق ما أُهِلَّ لغَيْرِ الله تعالى بِهِ ﴿**وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ**﴾ ليوسوسون ﴿**إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ**﴾ من الكفار ﴿**لِيُجَٰدِلُوكُمْ**﴾ بقولهم: تأكلون ما قتلتم أنتم وجوارحكم، وتدَعون ما قتله الله سبحانه ﴿**وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ**﴾ في استحلال ما حرَّم ﴿**إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾**﴾ فإن من ترك طاعة الله تعالى إلى طاعة غيره واتبعه في دينه فقد أشرك (أقول: التعبير عن هذه الإطاعة بالشرك من باب التغليظ لا على الحقيقة).

(١٢٢) ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ**﴾ مثَّل به من هداه الله سبحانه وتعالى وأنقذه من الضلال وجعل له نور الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل ﴿**كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾ وهو مثلٌ لمن بقي على الضلالة لا يفارقها بحال ﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ كما زُيِّنَ للمؤمنين إيمانهم ﴿**زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾**﴾ والآية نزلت في حمزة رضي الله تعالى عنه، وأبي جهل، وقيل: في عمر أو عمار رضي الله تعالى عنهما، وأبي جهل.

(١٢٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ أي: كما جعلنا في مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها، جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها. وتخصيص الأكابر لأنهم أقوى على استتباع الناس والمكر بهم ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأن وباله يحيق بهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ ذلك.

(١٢٤) ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ يعني كفار قريش ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ يخصُّ الله سبحانه وتعالى بها من يشاء من عباده فيجتبي (أي: يختار) لرسالاته مَنْ علم أنه يصلح لها، وهو أعلم بالمكان الذي يضعها فيه ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ﴾ ذُلٌّ وحقارة بعد كِبْرهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ جزاءً على مكرهم.

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾

(١٢٥) ﴿**فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ**﴾ يعرِّفه طريق الحق ويوفِّقه للإيمان ﴿**يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ**﴾ فيتسع له ويفسح فيه مجاله. وهو كناية عن جعل النفس (أقول: أي ذات الإنسان، وليس نفسه الأمارة) قابلةً للحق، مهيَّأة لحلوله فيها، مصفَّاة عما يمنعه وينافيه ﴿**وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾ بحيث ينبو (أي: ينفر) عن قبول الحق، فلا يدخله الإيمان ﴿**كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ**﴾ شبَّهه مبالغةً في ضيق صدره بمن يزاول (أي: يحاول) ما لا يقدر عليه، فإن صعود السماء مَثَلٌ فيما يبعد عن الاستطاعة. ونبَّه به على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع الصعود ﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ أي: كما يضيق صدره ويبعد قلبه عن الحق ﴿**يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾**﴾ يجعل العذاب أو الخذلان عليهم.

(١٢٦) ﴿**وَهَٰذَا**﴾ إشارة إلى البيان الذي جاء به القرآن، أو إلى الإسلام، أو إلى ما سبق من التوفيق والخذلان ﴿**صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا**﴾ لا عوج فيه ﴿**قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾**﴾ فيعلمون أن القادر هو الله سبحانه وتعالى، وأن كل ما يحدث من خير أو شر فهو بقضائه وخلقه، وأنه عالم بأحوال العباد حكيم عادل فيما يفعل بهم.

(١٢٧) ﴿**لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ**﴾ دار الله تعالى، أضاف الجنة إلى نفسه تعظيماً لها، أو دارُ السلامة من المكاره، أو دارٌ تحيتهم فيها سلام ﴿**عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ في ضمانه، أو ذخيرة لهم عنده لا يعلم كنهها غيره ﴿**وَهُوَ وَلِيُّهُم**﴾ مُواليهم أو ناصرهم ﴿**بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾**﴾ بسبب أعمالهم، أو متوليهم بجزائها فيتولى إيصاله إليهم.

(١٢٨) ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ**﴾ يعني الشياطين ﴿**قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ**﴾ أي: من إغوائهم وإضلالهم، أو منهم بأن جعلتموهم أتباعكم فحشروا معكم ﴿**وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ**﴾ الذين أطاعوهم ﴿**رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ**﴾ أي: انتفع الإنس بالجن بأن دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها، والجنُّ بالإنس بأن أطاعوهم وحصلوا مرادهم ﴿**وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا**﴾ أي: البعث، وهو اعتراف بما فعلوه

من طاعة الشيطان واتباع الهوى وتكذيب البعث، وتحسُّرٌ على حالهم ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ منزلكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ إلا الأوقات التي يُنقلون فيها من النار إلى الزمهرير. وقيل: إِلَّا مَا شاءَ الله تعالى قبل الدخول، كأنه قيل: النار مَثْوَاكُمْ أبداً إلا ما أمهلكم ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في أفعاله ﴿عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ بأعمال الثقلين وأحوالهم.

(١٢٩) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضَۢا﴾ نكِل بعضَهم إلى بعض، أو نجعل بعضهم يتولى بعضاً فيغويهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ من الكفر والمعاصي.

(١٣٠) ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الرسل من الإِنس خاصة، لكن لما جُمعوا مع الجن في الخطاب صحَّ ذلك ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ﴾ يعني يوم القيامة ﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ بالجرم والعصيان، وهو اعتراف منهم بالكفر واستيجاب العذاب ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ ذمٌّ لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيوية واللذات المخدجة (أي: الناقصة)، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية، حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد تحذيراً للسامعين من مثل حالهم.

(١٣١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى إرسال الرسل عليهم السلام ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ لأن الشأن لم يكن ربك مهلك أهل القرى بسبب ظلم فعلوه وهم غافلون لم ينبَّهوا برسول (أقول: الله تعالى أرسل الرسل والكتب السماوية ليقطع معاذير البشر ولتحقيق العدل).

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

(١٣٢) ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من المكلَّفين ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ مراتب ﴿مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ من أعمالهم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ فيخفى عليه عمل أو قدرُ ما يستحقُّ به من ثواب أو عقاب.

(١٣٣) ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ عن العباد والعبادة ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ يترحَّم عليهم بالتكليف تكميلاً لهم، ويمهلهم على المعاصي. وفيه تنبيه على أن ما سبق ذكره من الإرسال ليس لنفعه، بل لترحُّمه على العباد، وتأسيسٌ لما بعده وهو قوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ أي: ما به إليكم حاجة، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أيها العصاة ﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ من الخلق ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ أي: قرناً بعد قرن، لكنه أبقاكم ترحُّماً عليكم.

(١٣٤) ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث وأحواله ﴿لَأٓتٖۖ﴾ لكائنٌ لا محالة ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾.

(١٣٥) ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ على غاية تمكنكم واستطاعتكم. والمعنى: اثبتوا على كفركم وعداوتكم ﴿إِنِّي عَامِلٞۖ﴾ على ما كنت عليه من المصابرة والثبات على الإسلام ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ بمعنى: أيُّنا تَكُونُ لَهُ عاقبة الدار الحسنى التي خلق الله تعالى لها هذه الدار ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ وضعَ الظالمين موضع الكافرين لأنه أعم وأكثر فائدة.

(١٣٦) ﴿وَجَعَلُواْ﴾ أي: مشركو العرب ﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ خلق ﴿مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ﴾ روي: أنهم كانوا يعيِّنون شيئاً من حرث ونتاج لله تعالى، ويصرفونه إلى الضيفان والمساكين، وشيئاً منهما لآلهتهم، وينفقونه على سدَنتها (خُدَّام الأصنام) ويذبحونه عندها، ثم إن رأوا ما عيَّنوا لله تعالى أزكى بدَّلوه بما لآلهتهم، وإن رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لها حباً لآلهتهم. وفي قوله ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ تنبيهٌ على فرط جهالتهم، فإنهم أشركوا للخالق في خلقه جماداً لا يقدر على شيء، ثم رجَّحوه عليه بأن جعلوا الزاكي له. وفي قوله: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ تنبيه على أن ذلك مما اخترعوه لم يأمرهم الله تعالى به ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ حكمهم هذا.

(١٣٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ﴾ بالوأد ونحرِهم لآلهتهم ﴿شُرَكَآؤُهُمۡ﴾ من الجن أو من السدَنة ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ﴾ ليهلكوهم بالإغواء ﴿وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ﴾ وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام، أو ما وجب عليهم أن يتديَّنوا به ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ ما فعل المشركون ما زُيِّن لهم ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ ما يفترونه من الإفك.

وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن
نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ
ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ
يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ
خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن
مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ
حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ
سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ
قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ
أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ
مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ
مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ
حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾
وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ
ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾

(١٣٨) ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ﴾ إشارة إلى ما جُعل لآلهتهم ﴿أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ﴾ يعني حرام ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ يعنون خدم الأوثان، والرجال دون النساء ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ من غير حجة ﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾ في الذبح، وإنما يذكرون أسماء الأصنام عليها ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾ لأن ما قالوه تقوُّل على الله سبحانه وتعالى ﴿سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ بسببه.

(١٣٩) ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ﴾ حلال للذكور خاصةً دون الإناث إن وُلد حيّاً لقوله: ﴿وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ﴾ فالذكور والإناث فيه سواء ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ أي: جزاءَ وصفِهم الكذب على الله سبحانه وتعالى في التحريم والتحليل ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾﴾.

(١٤٠) ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ﴾ يريد بهم العرب الذين كانوا يقتلون بناتهم مخافة السبي والفقر ﴿سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ لخفة عقلهم، وجهلهم بأن الله سبحانه وتعالى رازق أولادهم لا هم ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ من البحائر ونحوها ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ إلى الحق والصواب.

(١٤١) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ﴾ من الكروم ﴿مَّعۡرُوشَٰتٖ﴾ مرفوعات على ما يحملها ﴿وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾ ملقيات على وجه الأرض ﴿وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ ثمرُه الذي يؤكل في الهيئة والكيفية ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾ يتشابه بعض أفرادهما في اللون والطعم ولا يتشابه بعضها ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ من ثمر كل واحد من ذلك ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ وإن لم يدرك ولم يينَع (ينضج) بعدُ. وقيل: فائدته رخصة المالك في الأكل منه قبل أداء حقِّ الله تعالى ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ يريد به ما كان يتصدَّق به يوم الحصاد ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ في التصدُّق ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ لا يرتضي فعلهم.

(١٤٢) ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾ أي: وأنشأ من الأنعام ما يحمل الأثقال، وما يُفرش للذبح، أو ما يفرش المنسوج من شعره (للمَعْز) وصوفه (للغنم) ووبره (للإبل) ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ كلوا مما أحل لكم منه ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ في التحليل والتحريم من عند أنفسكم ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾﴾ ظاهر العداوة.

ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ
قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾
وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ
حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ
أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ
عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ
فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ
مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ
فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا
كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ
شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا
ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

(١٤٣) ﴿**ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ**﴾ زوجين اثنين: الكبش والنعجة ﴿**وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ**﴾ التيس والعنز ﴿**قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ**﴾ ذكرِ الضأنِ وذكرِ المعزِ ﴿**حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ**﴾ أم أنثييهما ﴿**أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ**﴾ أو ما حملت إناث الجنسين ذكراً كان أو أنثى ﴿**نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ**﴾ بأمرٍ معلوم يدل على أن الله تعالى حرم شيئاً من ذلك ﴿**إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾**﴾ في دعوى التحريم عليه.

(١٤٤) ﴿**وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ**﴾ والمعنى إنكار أن الله تعالى حرَّم شيئاً من الأجناس الأربعة، ذكراً كان أو أنثى أو ما تحمل إناثها ﴿**أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ**﴾ بل أكنتم شاهدين حاضرين ﴿**إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ**﴾ حين وصاكم بهذا التحريم، إذ أنتم لا تؤمنون بنبيٍّ، فلا طريق لكم إلى معرفة أمثال ذلك إلا المشاهدة والسماع ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا**﴾ فنسبَ إليه تحريم ما لم يحرِّم، والمراد كبراؤهم المقرِّرون لذلك ﴿**لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾**﴾ (أي: الذين في علمه يختمون على الكفر [النسفي]).

(١٤٥) ﴿**قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ**﴾ أي: في القرآن، أو فيما أوحي إليَّ مطلقاً. وفيه تنبيه على أن التحريم إنما يُعلم بالوحي لا بالهوى ﴿**مُحَرَّمًا**﴾ طعاماً محرَّماً ﴿**عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً**﴾ أن يكون الطعام ميتةً ﴿**أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا**﴾ أي: مصبوباً، كالدم في العروق، لا كالكبد والطحال ﴿**أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ**﴾ فإن الخنزير أو لحمه قذر لتعوُّده أكل النجاسة ﴿**أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ**﴾ وإنما سمى ما ذُبح على اسم الصنم فسقاً لتوغُّله في الفسق ﴿**فَمَنِ ٱضْطُرَّ**﴾ فمن دعته الضرورة إلى تناول شيء من ذلك ﴿**غَيْرَ بَاغٍ**﴾ على مضطرٍّ مثلِهِ ﴿**وَلَا عَادٍ**﴾ قدرَ الضرورة ﴿**فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾**﴾ لا يؤاخذه.

(١٤٦) ﴿**وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ**﴾ كل ما له إصبع؛ كالإبل والسباع والطيور، وقيل كل ذي مخلب وحافر ﴿**وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ**﴾ الثروب (أي: الشحوم على الأمعاء) وشحوم الكلى ﴿**إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ**﴾ إلا ما علقت بظهورهما ﴿**أَوِ ٱلْحَوَايَآ**﴾ (الشحم الذي على العظم) أو ما اشتمل على الأمعاء ﴿**أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ**﴾ هو شحم الإِلية لاتصالها بالعصعص ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ التحريم أو الجزاء ﴿**جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ**﴾ بسبب ظلمهم ﴿**وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾**﴾ في الإِخبار أو الوعد والوعيد.

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

(١٤٧) ﴿**فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ**﴾ يمهلكم على التكذيب فلا تغتروا بإمهاله، فإنه لا يهمل ﴿**وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾**﴾ حين ينزل، أو ذو رحمة واسعة على المطيعين، وذو بأس شديد على المجرمين.

(١٤٨) ﴿**سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا**﴾ إخبارٌ عن مستقبل ووقوع، مخبَره يدل على إعجازه ﴿**لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ**﴾ أي: لو شاء خلاف ذلك مشيئة ارتضاء، كقوله: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، لما فعلنا نحن ولا آباؤنا ﴿**كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ أي: مثل هذا التكذيب لك في أن الله تعالى منع من الشرك ولم يحرِّم ما حرَّموه كذَّب الذين من قبلهم الرسل ﴿**حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا**﴾ الذي أنزلنا عليهم بتكذيبهم ﴿**قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ**﴾ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به على ما زعمتم ﴿**فَتُخْرِجُوهُ لَنَا**﴾ فتظهروه لنا ﴿**إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ**﴾ ما تتبعون في ذلك إلا الظن ﴿**وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾**﴾ تكذبون على الله سبحانه وتعالى.

(١٤٩) ﴿**قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ**﴾ البينة الواضحة التي بلغت غاية المتانة والقوة على الإثبات ﴿**فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾**﴾ بالتوفيق لها والحمل عليها، ولكن شاء هداية قومٍ وضلالَ آخرين (قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم: ولكن لم تتعلَّق مشيئته بهدايتكم، لذلك أصررتم واستكبرتم).

(١٥٠) ﴿**قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ**﴾ أحضِروهم ﴿**الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا**﴾ يعني قدوتهم فيه ﴿**فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ**﴾ فلا تصدقهم فيه، وبيِّن لهم فساده، فإن تسليمهم موافقةٌ لهم في الشهادة الباطلة ﴿**وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ**﴾ كعبدة الأوثان ﴿**وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾**﴾ يجعلون له عديلاً.

(١٥١) ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ**﴾ أقرأ ﴿**مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ**﴾ أيَّ شيء حرم ربكم ﴿**عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾ أي: وأحسنوا بهما إحساناً ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ**﴾ من أجل فقر ومن خشيته ﴿**نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ**﴾ كبائر الذنوب، أو الزنى ﴿**مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ**﴾ كالقوَد (أي: القصاص) وقتل المرتد، ورجم المحصن ﴿**ذَٰلِكُمْ**﴾ إشارة إلى ما ذكر مفصلاً ﴿**وَصَّاكُم بِهِۦ**﴾ بحفظه ﴿**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾**﴾ ترشدون، فإن كمال العقل هو الرشد.

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

(١٥٢) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالفعلة التي هي أحسن ما يفعل بماله، كحفظه وتثميره ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ حتى يصير بالغاً ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل والتسوية ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما يسعها ولا يعسر عليها ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ في حكومةٍ ونحوها ﴿فَٱعْدِلُوا۟﴾ فيه ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان المقول له أو عليه من ذوي قرابتكم ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ يعني ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ تتعظون به.

(١٥٣) ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ الإشارة فيه إلى ما ذكر في السورة، فإنها بأسْرها في إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة ﴿فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ الأديان المختلفة، أو الطرق التابعة للهوى، فإن مقتضى الحجة واحدٌ ومقتضى الهوى متعدد، لاختلاف الطبائع والعادات ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ فتفرقكم وتزيلكم ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي هو اتباع الوحي واقتفاء البرهان ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الاتباع ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ الضلال والتفرق عن الحق.

(١٥٤) ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا﴾ للكرامة والنعمة ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ على كل من أحسن القيام به، وهو موسى عليه أفضل الصلاة والسلام ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه في الدين ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم﴾ لعل بني إسرائيل ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ أي: بلقائه للجزاء.

(١٥٥) ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ يعني القرآن ﴿أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير النفع ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ بواسطة اتباعه، وهو العمل بما فيه.

(١٥٦) ﴿أَن تَقُولُوٓا۟﴾ كراهة أن تقولوا ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ اليهود والنصارى ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ قراءتهم ﴿لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ لا ندري ما هي، أو لا نعرف مثلها.

(١٥٧) ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ حجةٌ واضحة تعرفونها ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ لمن تأمل فيه وعمل به ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بعد أن عرف صحتها، أو تمكَّن من معرفتها ﴿وَصَدَفَ﴾ أعرض أو صدَّ ﴿عَنْهَا﴾ فضلَّ وأضلَّ ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ شدته ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ بإعراضهم أو صدِّهم.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ
بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا
لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟
إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ
مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ
﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ
فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ
إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ
﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ
نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ
خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ
فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

(١٥٨) ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ**﴾ أي: ما ينتظرون، يعني أهل مكة ﴿**إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ**﴾ ملائكة الموت أو العذاب ﴿**أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ**﴾ أي: أمرُه بالعذاب (أقول: الإتيان من صفات الحوادث، واللهُ جلَّ وعلا منزَّه عنها، ولكن يتجلى للقضاء يوم الحساب جل وعلا، أو يأتي عذابه أي: يطلبون إتيان ربك عناداً كما طلب اليهود من موسى عليه السلام حين قالوا: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]) أو كل آياته، يعني آيات القيامة والعذاب والهلاك الكلي، لقوله: ﴿**أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ**﴾ يعني أشراط الساعة ﴿**يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا**﴾ كالمحتضر، إذ صار الأمر عياناً، والإيمانُ برهانيٌّ ﴿**لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا**﴾ المعنى: أنه لا ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدِّمة إيمانها، أو مقدمة إيمانها غير كاسبة في إيمانها خيراً ﴿**قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾**﴾ وعيدٌ لهم، أي: انتظروا إتيان أحد الثلاثة (وهي: أن تأتيهم الملائكة، أو يأتي ربك، أو يأتي بعض آيات ربك) فإنا منتظرون له، وحينئذ لنا الفوز وعليكم الويل.

(١٥٩) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ**﴾ بدَّدوه، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، أو افترقوا فيه ﴿**وَكَانُوا۟ شِيَعًا**﴾ فرقاً تشيِّع كل فرقة إماماً (أخرج أبو داود والترمذي وصحَّحه وابن ماجه وابن حبان وصحَّحه الحاكم، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، كلُّهم في الهاوية إلا واحدة، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، كلُّهم في الهاوية إلا واحدة»، واستثناء الواحدة من فرق كلٍّ من أهل الكتابين إنما هو بالنظر إلى العصر الماضي قبل النسخ، وأما بعده فالكلُّ في الهاوية، وإن اختلفت أسباب دخولهم. ومن غريب ما وقع أن بعض متعصبي الشيعة الإمامية من أهل زماننا واسمه حمد، روى بدل «إلا واحدة» في هذا الخبر: إلا فرقة، وقال: إن فيه إشارة إلى نجاة الشيعة، فإن عدد لفظ فرقةٍ بالجمل وعدد لفظ شيعةٍ سواء، فكأنه قال عليه الصلاة والسلام: إلا شيعة، والمشهور بهذا العنوان هم الشيعة الإمامية، فقلت له بعد عدة تزييفات لكلامه: يُلزم هذا النوع من الإشارة أن تكون كلباً، لأن عدد كلب وعدد حمد سواء، فأُلقم الكلب حجراً [تفسير الألوسي]) ﴿**لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ**﴾ أي: من السؤال

عنهم وعن تفرقهم، أو من عقابهم، أو أنت بريء منهم ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يتولَّى جزاءهم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ بالعقاب.

(١٦٠) ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ أي: عشر حسنات أمثالها فضلًا من الله تعالى، وهذا أقلُّ ما وعد من الأضعاف، وقد جاء الوعد بسبعين وبسبع مئة وبغير حساب، ولذلك قيل: المراد بالعشر الكثرة دون العدد ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب.

(١٦١)﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ بالوحي والإرشاد إلى ما نَصب من الحجج ﴿دِينٗا قِيَمٗا﴾ (مستقيماً معتدلاً) ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾.

(١٦٢) ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ عبادتي كلها، أو قرباني، أو حجي ﴿وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي﴾ وما أنا عليه في حياتي وأموت عليه من الإيمان والطاعة ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾.

(١٦٣) ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ﴾ خالصة له لا أشرك فيها غيراً ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ القول أو الإخلاص ﴿أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته.

(١٦٤) ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا﴾ فأشركُه في عبادتي! وهو جواب عن دعائهم له عليه الصلاة والسلام إلى عبادة آلهتهم ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ﴾ أي: وكلُّ ما سواه مربوب مثلي لا يصلح للربوبية ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ﴾ فلا ينفعني في ابتغاء رب غيره ما أنتم عليه من ذلك ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ بتبيين الرشد من الغي، وتمييز المحق من المبطل.

(١٦٥) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ يخلف بعضكم بعضاً، أو خلفاء الله تعالى في أرضه تتصرَّفون فيها، على أنَّ الخطاب عامٌّ. أو خلفاء الأمم السالفة، على أنَّ الخطاب للمؤمنين ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ في الشرف والغنى ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ من الجاه والمال ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لأن ما هو آت قريب، أو لأنه يسرع إذا أراده ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿١٦٥﴾﴾ وصَفَ العقاب ولم يضفه إلى نفسه، ووصفَ ذاته بالمغفرة، وضم إليه الوصف بالرحمة، تنبيهاً على أنه تعالى غفور بالذات، معاقب بالعرَض، كثير الرحمة مبالغ فيها، كثير العقوبة مسامح فيها.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الأنعام
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

(٧) سُورَةُ الأَعْرَافِ (٢٠٦)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ
لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم
مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾
وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ
﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾
وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ
أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿١٠﴾
وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ
لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأعراف

مكيَّة غير ثمان آيات، من قوله: ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾. محكمة كلها. وقيل: إلا قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

وآيها مئتان وخمس أو ست آيات

(١-٢) ﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ﴾ المراد به السورة أو القرآن ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ أي: شكٌّ، فإن الشاك حرِجُ الصدر ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ أي: لتنذر به وتذكِّر.

(٣) ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ يعمُّ القرآن والسنة، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[النجم: ٣-٤] (أي: محمد عليه الصلاة والسلام) ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ يُضلونكم من الجن والإنس ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ أي: تذكُّراً قليلًا.

(٤) ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ﴾ وكثيراً من القرى ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ أردنا إهلاك أهلها، أو أهلكناها بالخذلان ﴿فَجَآءَهَا﴾ فجاء أَهلَها ﴿بَأۡسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾ بائتين (بالليل) كقوم لوط ﴿أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾ أي: قائلين (نائمين) نصف النهار كقوم شعيب. وفي التعبيرين مبالغة في غفلتهم وأمنهم من العذاب، ولذلك خصَّ الوقتين، ولأنهما وقت دعة واستراحة فيكون مجيء العذاب فيهما أفظع.

(٥) ﴿فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ أي: دعاؤهم واستغاثتهم، أو ما كانوا يدَّعونه من دينهم ﴿إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ إلا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وبطلانه تحسراً عليه.

(٦) ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ عن قبول الرسالة وإجابتهم الرسل ﴿وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ عما أجيبوا به. والمراد من هذا السؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم.

(٧) ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم﴾ على الرسل والمرسَل إليهم ما كانوا عليه ﴿بِعِلۡمٖۖ﴾ عالِمين بظواهرهم وبواطنهم، أو بمعلومنا منهم ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ عنهم، فيخفى علينا شيء من أحوالهم (أقول: ولكنَّ الإنسان غافل عن هذه الحقيقة، اللهم نبِّهنا لأمره ونهيه).

(٨) ﴿وَٱلۡوَزۡنُ﴾ أي: القضاء، أو وزن الأعمال، وهو مقابلتها بالجزاء. والجمهور على أن صحائف الأعمال

توزن بميزان له لسان وكفتان، ينظر إليه الخلائق إظهاراً للمعدلة (أي: العدالة) وقطعاً للمعذرة؛ كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وتشهد بها جوارحهم. ويؤيده ما روي: أن الرجل يؤتى به إلى الميزان فينشر عليه تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل مد البصر، فيخرج له بطاقة فيها كلمتا الشهادة، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى] ﴿يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ معناه العدل السويُّ ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ حسناته ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾ الفائزون بالنجاة والثواب.

(٩) ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ بتضييع الفطرة السليمة التي فُطرت عليها الناس (أقول: تضييع هذه الفطرة السليمة بيد الإنسان، فهو يفسدها إما بنفسه وإما بالدنيا وإما بالمادة أو بالشيطان) واقتراف ما عرَّضها للعذاب ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ فيكذبون بدل التصديق.

(١٠) ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مكَّناكم من سكْناها وزرعها والتصرُّف فيها ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ أسباباً تعيشون بها ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ فيما صنعتُ إليكم.

(١١) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ أي: خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصوَّر ثم صوَّرناه ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ ممن سجد لآدم (أقول: لأنه في علم الله تعالى كان من الكافرين).

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ
وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ
فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ
صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ
ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ
لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ
مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا
مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾
فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا
عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

(١٢) ﴿**قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ**﴾ أي: أن تسجد ﴿**إِذْ أَمَرْتُكَ**﴾ دليلٌ على أن مطلق الأمر للوجوب والفور ﴿**قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ**﴾ (أقول: الذي يتمسَّك بالأنا، هذا فعل الشيطان، ولذا يقول أولياؤنا: الأنا تدَّعي الربوبية). قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ جوابٌ من حيث المعنى استأنف به استبعاداً لأن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله، كأنه قال: المانع أني خير منه، ولا يحسُن للفاضل (وهو الشيطان) أن يسجد للمفضول (وهو آدم)، فكيف يحسُن أن يؤمر به. فهو الذي سَنَّ (أي: أحدث) التكبُّر (أقول: فمن تكبَّر يكون شريكاً للشيطان) ﴿**خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾**﴾ تعليل لفضله عليه، وقد غلط في ذلك بأن رأى الفضل كله باعتبار العنصر، وغفل عما يكون باعتبار الفاعل كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] أي: بغير واسطة (أقول: يعني بإرادتي وقدرتي، لأن الله تعالى منزَّه عن الجوارح)، وباعتبار الصورة كما نبَّه عليه بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ (أقول: هذا للتشريف، وفي الحقيقة لا نافخ ولا منفوخ) ﴿فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، وباعتبار الغاية وهو مَلاكه، ولذلك أمر الملائكة بالسجود له لمَّا بيَّن لهم أنه أعلم منهم، وأن له خواص ليست لغيره.

(١٣) ﴿ **قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا**﴾ من السماء أو الجنة (أقول: من ملكوت السماء، فلا يصحُّ ولا يستقيم لك أن تتكبَّر عن أمري وطاعتي وتسكن دار قدسي، أو من الجنة) ﴿**فَمَا يَكُونُ لَكَ**﴾ فما يصحُّ ﴿**أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا**﴾ وتعصي، فإنها مكان الخاشع والمطيع. وفيه تنبيه على أن التكبُّر لا يليق بأهل الجنة (أقول: وكذلك لا يليق للمؤمن أن يتكبَّر بإيمانه، لأن النتيجة عند الله تعالى لا عندك، فإذا كنت الآن موافقاً يمكن أن تنقلب بعد ذلك. قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» [رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]). وأنه سبحانه وتعالى إنما طرده وأهبطه لتكبُّره، لا لمجرد عِصيانه (أقول: أي ليس لمجرد عصيان الأمر الوجوبي، بل لعصيانه وتكبُّره) ﴿**فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾**﴾ ممن أهانه الله تعالى لتكبُّره. قال عليه الصلاة والسلام: «من تواضع رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله» [أخرج نحوه الإمام أحمد رحمه الله تعالى].

(١٤) ﴿ **قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾**﴾ أمهلني إلى يوم القيامة فلا تمتني، أو لا تعجل عقوبتي.

(١٥) ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ يقتضي الإجابة إلى ما سأله ظاهراً، لكنه محمول على ما جاء مقيداً بقوله تعالى: ﴿إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر:٣٨]، وهو النفخة الأولى، أو وقت يعلم الله تعالى انتهاء أجله فيه. وفي إسعافه إليه ابتلاء العباد، وتعريضهم للثواب بمخالفته.

(١٦) ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ أي: بعد أن أمهلتني لأجتهدنَّ في إغوائهم بأي طريق يمكنني، بسبب إغوائك إياي بواسطتهم ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ ترصُّداً بهم (مراقباً لهم) كما يقعد القطاع للسابلة (أي: للمارة) ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ طريق الإسلام (أقول: من لم يطَّلع على إغوائه وهو يسترسل سواء كان كبيراً أو صغيراً أو عالماً، وإذا تتكلَّم مع عالم ينتفخ في داخله ويظهر الاحمرار؛ خلق الله تعالى هذا لتجريب العباد، أيّهم يتبعونه وأيّهم لا يتبعونه، فهذا امتحان للبشر، هذا جسائسه لقلب المؤمن مثل الكهرباء، إذا وضع يده على الكهرباء يموت، ولكن هذا بوسوسته يكون مسيطراً على المسلم، ولكن حق المسلم أن يتمسَّك بالشريعة والسنة النبوية، والنفس مقصود الشيطان وآلته، تكلَّم مع الناس ترى تحرُّكهم بهذه الوسوسة والخطرات، يتعلَّقون بشيء تافه لضعفهم وتعلُّقهم بالوسوسة).

(١٧) ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أي: من جميع الجهات الأربع. مثَّل قصده إياهم بالتسويل (أي: الفساد) والإضلال من أي وجه يمكنه بإتيان العدو من الجهات الأربع، ولذلك لم يقل: مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أرجلهم. وقيل: لم يقل من فوقهم لأن الرحمة تنزل منه، ولم يقل من تحتهم لأن الإتيان منه يوحش الناس. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: من بين أيديهم: من قِبل الآخرة، ومن خلفهم: من قبل الدنيا، وعن أيمانهم وعن شمائلهم: من جهة حسناتهم وسيئاتهم. ويحتمل أن يقال من بين أيديهم: من حيث يعلمون ويقدرون على التحرز عنه، ومن خلفهم: من حيث لاَ يعلَمون ولا يقدرون، وعن أيمانهم وعن شمائلهم: من حيث يتيسر لهم أن يعلموا ويتحرَّزوا، ولكن لم يفعلوا لعدم تيقُّظهم واحتياطهم ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ مطيعين. وإنما قاله ظناً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبأ: ٢٠] لمَّا رأى فيهم مبدأ الشر متعدداً ومبدأ الخير واحداً، وهو الملَك الملهِم، وقيل: سمعه من الملائكة.

(١٨) ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا﴾ مذموماً ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطروداً ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ اللام فيه لتوطئة القسم، وجوابه ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

(١٩) ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ﴾ أي: وقلنا يا آدم ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم.

(٢٠) ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا﴾ ليُظهر لهما. على أنه أراد أيضاً بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف عورتيهما، ولذلك عبَّر عنهما بالسوأة. وفيه دليل على أن كشف العورة في الخلوة وعند الزوج من غير حاجة قبيحٌ مستهجن في الطباع ﴿مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ ما غُطيِّ عنهما من عوراتهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا﴾ إلَّا كراهة أن تكونا ﴿مَلَكَيْنِ

﴿أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ۝٢٠﴾ الذين لا يموتون، أو يخلدون في الجنة. واستُدلَّ به على فضل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ وجوابه: أنه كان من المعلوم أن الحقائق لا تنقلب، وإنما كانت رغبتهما في أن يحصل لهما أيضاً ما للملائكة من الكمالات الفطرية، والاستغناء عن الأطعمة والأشربة، وذلك لا يدلُّ على فضلهم مطلقاً (أقول: وحينذاك سيدنا آدم عليه السلام لم يكن نبياً، وبعد ذلك صار نبياً).

(٢١) ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١﴾ أي: أقسَم لهما على ذلك.

(٢٢) ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة. نبَّه به على أنه أهبطهما بذلك من درجة عالية إلى رتبة سافلة ﴿بِغُرُورٖۚ﴾ بما غرَّهما به من القسَم، فإنهما ظنَّا أن أحداً لا يحلف بالله تعالى كاذباً ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ أي: فلما وجدا طعمها آخذين في الأكل منها أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية، فتهافت (تطاير) عنهما لباسهما وظهرت لهما عوراتهما ﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ﴾ أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة ﴿عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ قيل: كان ورق التين ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٢٢﴾ عتابٌ على مخالفة النهي، وتوبيخٌ على الاغترار بقول العدو. وفيه دليل على أن مطلق النهي للتحريم.

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

(٢٣) ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ أضررناها بالمعصية والتعريض للإخراج من الجنة ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ دليلٌ على أن الصغائر معاقَب عليها إن لم تُغفر (أقول: «إن لم تُغفر» هذا من الله تعالى، ومن العبد: إن لم يتب، عُذِّب به أو لم يُعذَّب يكون له نقصاً في الحقيقة).

(٢٤) ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟﴾ الخطاب لآدم وحواء ولإبليس ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ إلى أن تقضى آجالكم.

(٢٥) ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ للجزاء.

(٢٦) ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ أي: خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة (يعني نزول أمره)، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ﴾ [الزمر: ٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥] ﴿يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ التي قصد الشيطان إبداءها، ويغنيكم عن خصف الورق. روي: أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة، ويقولون: لا نطوف في ثياب عصينا الله تعالى فيها، فنزلت. ولعله ذكر قصة آدم مقدمة لذلك، حتى يُعلم أن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من الشيطان، وأنه أغواهم في ذلك كما أغوى أبويهم ﴿وَرِيشًا﴾ ولباساً تتجمَّلون به ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ خشية الله تعالى، وقيل: الإيمان (أقول: أما إذا لم يستعمل المؤمن مقتضى الإيمان، فما فائدته وهو يخالف أمر الله تعالى؟) ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ كأنه قيل لباس التقوى المشار إليه خيرٌ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إنزال اللباس ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على فضله ورحمته ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ فيعرفون نعمته، أو يتعظون فيتورَّعون عن القبائح.

(٢٧) ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ لا يمحننَّكم (أي: يضلَّنكم) بأن يمنعكم دخول الجنة بإغوائكم ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ كما محَنَ أبويكم بأن أخرجهما منها. والنهي في اللفظ للشيطان، والمعنى نهيهم عن اتباعه والافتتان به ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ إسناد النزع إليه للتسبب ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ تعليلٌ للنهي وتأكيد للتحذير من فتنته. وقبيلُهُ: جنوده. ورؤيتُهم إيانا من حيث لا نراهم في الجملة لا تقتضي امتناع رؤيتهم وتمثُّلهم لنا (أقول: من جاهده باطناً ودفع وساوسه يظهر له

عياناً؛ هذا كله من: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ بما أوجدنا بينهم من التناسب، أو بإرسالهم عليهم وتمكينهم من خذلانهم وحملهم على ما سوَّلوا لهم (أقول: ليس جميع المؤمنين بريئين منه).

(٢٨) ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ فعلة متناهية في القبح كعبادة الصنم وكشف العورة في الطواف ﴿قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ اعتذروا واحتجوا بأمرين: تقليد الآباء، والافتراء على الله سبحانه وتعالى، فأعرَضَ عن الأول لظهور فساده، وردَّ الثاني بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ﴾ لأن عادته سبحانه وتعالى جرت على الأمر بمحاسن الأفعال، والحثِّ على مكارم الخصال.والمراد بالفاحشة ما ينفر عنه الطبع السليم ويستنقصه العقل المستقيم. وقيل: هما جوابا سؤالين مترتبين، كأنه قيل لهم لما فعلوها: لم فعلتم؟ فقالوا: وجدنا عليها آباءنا. فقيل ومن أين أخذ آباؤكم؟ فقالوا: الله أمرنا بها. وعلى الوجهين يمتنع التقليد إذا قام الدليل على خلافه لا مطلقاً.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ إنكارٌ يتضمن النهي عن الافتراء على الله تعالى.

(٢٩) ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ﴾ بالعدل، وهو الوسط من كل أمر، المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ وتوجهوا إلى عبادته مستقيمين غير عادلين إلى غيرها، أو أقيموها نحو القبلة ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ في كل وقتِ سجودٍ، أو مكانه وهو الصلاة، أو في أيِّ مسجد حضرتكم الصلاة، ولا تؤخِّروها حتى تعودوا إلى مساجدكم ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ واعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾ أي: الطاعةَ، فإن إليه مصيرَكم ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ كما أنشأكم ابتداء ﴿تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ بإعادته، فيجازيكم على أعمالكم، فأخلصوا له العبادة.

(٣٠) ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ بأن وفَّقهم للإيمان ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۗ﴾ بمقتضى القضاء السابق (في الأزل) ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعليلٌ لخذلانهم أو تحقيق لضلالهم ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ يدلُّ على أن الكافر المخطئ والمعاند سواء في استحقاق الذم.

۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ
وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ
ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ
فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ
لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا
بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ
سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ
فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾
يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ
ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ
بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ
قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

(٣١) ﴿**يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ**﴾ ثيابكم لمواراة (أي: لستر) عوراتكم ﴿**عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ**﴾ لطواف أو صلاة، ومن السنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئة للصلاة؛ وفيه دليل على وجوب ستر العورة في الصلاة ﴿**وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ**﴾ ما طاب لكم ﴿**وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ**﴾ بتحريم الحلال، أو بالتعدي إلى الحرام، أو بإفراط الطعام والشره عليه. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كلْ ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة (تكبر). وقال علي بن الحسين بن واقد رحمه الله تعالى: قد جمع الله تعالى الطب في نصف آية، فقال: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ ﴿**إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾**﴾ أي: لا يرتضي فعلهم.

(٣٢) ﴿**قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ**﴾ من الثياب وسائر ما يُتجمل به ﴿**ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ**﴾ من النبات كالقطن والكتان (نوع من القطن)، والحيوان كالحرير (وهو حرام على الذكور) والصوف، والمعادن كالدروع ﴿**وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ**﴾ المستلذات من المآكل والمشارب. وفيه دليل على أن الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجمُّلات الإباحةُ ﴿**قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا**﴾ بالأصالة، والكفرةُ وإن شاركوهم فيها فتبعٌ ﴿**خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ**﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم ﴿**كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾**﴾ أي: كتفصيلنا هذا الحكم نفصل سائر الأحكام لهم (أقول: حُكي أن يحيى بن زيد النوفلي كتب إلى مالك ابن أنس رضي الله عنهما: "بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على رسوله محمَّد في الأولين والآخرين. من يحيى بن يزيد بن عبد الملك، إلى مالك بن أنس، أما بعد: فقد بلغني أنك تلبس الدِّقاق، وتأكل الرِّقاق، وتجلس على الوطيء، وتجعل على بابك حاجباً، وقد جلست مجلس العلم، وقد ضربت إليك المطي، وارتحل إليك الناس، واتخذوك إماماً ورضوا بقولك؛ فاتق الله تعالى يا مالك، وعليك بالتواضع؛ كتبت إليك بالنصيحة مني كتاباً ما اطَّلع عليه غيرُ الله سبحانه وتعالى، والسلام". فكتب إليه مالك رحمه الله تعالى: "بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. من مالك بن أنس، إلى يحيى بن يزيد، سلام الله عليك، أما بعد: فقد وصل إليَّ كتابك فوقع مني موقع النصيحة والشفقة والأدب، أمتعك الله بالتقوى، وجزاك بالنصيحة خيراً، وأسأل الله تعالى التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم، فأما ما ذكرت لي أني آكل الرِّقاق، وألبس الدِّقاق، وأحتجب، وأجلس على الواطئ، فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله

تعالى، فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾، وإني لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه، ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا، والسلام". فانظر إلى إنصاف مالك رحمه الله تعالى إذ اعترف أنَّ ترك ذلك خير من الدخول فيه، وأفتى أنه مباح، وقد صدق فيهما جميعاً [إحياء علوم الدين])

(٣٣) ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ ما تزايد قبحه، وقيل: ما يتعلق بالفروج ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ جهرَها وسرَّها ﴿وَالْإِثْمَ﴾ وما يوجب الإثم، تعميمٌ بعد تخصيص. وقيل: شرب الخمر ﴿وَالْبَغْيَ﴾ الظلم أو الكبر؛ أفرده بالذكر للمبالغة ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ متعلق بالبغي مؤكِّدٌ له معنًى ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ تهكمٌ بالمشركين، وتنبيه على تحريم اتباع ما لم يدل عليه برهان (أقول: البرهان هو الشريعة والسنة النبوية) ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ بالإلحاد في صفاته سبحانه وتعالى، والافتراء عليه كقولهم: اللهُ أَمَرَنا بها.

(٣٤) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مدة أو وقت لنزول العذاب بهم. وهو وعيدٌ لأهل مكة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ انقرضت مدتهم، أو حان وقتهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: لا يتأخرون ولا يتقدمون أقصر وقت، أو لا يطلبون التأخر والتقدُّم لشدة الهول.

(٣٥) ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ شرطٌ ذكرَهُ بحرف الشك («إما» أصله: إنْ ما) للتنبيه على أن إتيان الرسل أمر جائز غير واجب (أقول: غير واجب على الله تعالى، لكن الله تعالى لا يخاطب العوام، وإنما يخاطب الرسل بالوحي ويأمرهم بالتبليغ، لأن الرسل من جنس الناس يختلطون بهم، فالله تعالى أرسل الرسل وأعطى الكتب، فلم يبقَ لأحد من الناس عذر، وبهذا تثبت وتظهر العدالة الإلهية. وإذا سأل أحد: كيف يصل أمر الله تعالى إلى مخلوقاته؟ فالجواب: الرسل نوَّابه، مع عدم وجوب إرسالهم على الله تعالى) (وفي تفسير روح البيان عند قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ﴾ كائنون ﴿مِنْكُمْ﴾ أي: من جنسكم ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ أي: يبيِّنون لكم أحكامي وشرائعي. ومقتضى الظاهر كلمة «إذا» بدل «إن»، لكون الإتيان محقَّق الوقوع في علم الله تعالى، لكنه سيق المعلوم مساق المشكوك للتنبيه على أن إرسال الرسل أمر جائز لا واجب عقلاً، حتى لا يقدر على عدم إرساله، ولا واجب شرعاً، لأنه لا يجب على الله تعالى شيء لا عقلاً ولا شرعاً، لكن مقتضى الحكمة إرسال الرسل لما فيه من الحكم والمصالح للعباد) ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

(٣٦) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ والمعنى: فمن اتَّقى التكذيب، وأصلح عمله منكم؛ والذين كذَّبوا بآياتنا منكم. وإدخال الفاء في الخبر الأول، دون الثاني، للمبالغة في الوعد، والمسامحة في الوعيد.

(٣٧) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ ممن تقوَّل على الله تعالى ما لم يقله، أو كذَّب ما قاله ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ مما كُتب لهم من الأرزاق والآجال. وقيل: الكتاب اللوح المحفوظ، أي: مما أثبت لهم فيه ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي: يتوفون أرواحهم ﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ غابوا عنا ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ اعترفوا بأنهم كانوا ضالين فيما كانوا عليه.

قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

(٣٨) ﴿**قَالَ ٱدْخُلُوا۟**﴾ أي: قال الله تعالى لهم يوم القيامة، أو أحد من الملائكة ﴿**فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم**﴾ أي: كائنين في جملة أمم مصاحبين لهم يوم القيامة ﴿**مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ**﴾ يعني كفار الأمم الماضية من النوعين ﴿**فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ**﴾ أي: في النار ﴿**لَّعَنَتْ أُخْتَهَا**﴾ التي ضلت بالاقتداء بها ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا**﴾ أي: تداركوا وتلاحقوا واجتمعوا في النار ﴿**قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ**﴾ دخولاً أو منزلة، وهم الأتباع ﴿**لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا**﴾ سنُّوا لنا الضلال فاقتدينا بهم ﴿**فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ**﴾ مضاعفاً لأنهم ضلوا وأضلوا ﴿**قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ**﴾ أما القادة فبكفرهم وتضليلهم، وأما الأتباع فبكفرهم وتقليدهم ﴿**وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾**﴾ ما لكم، أو ما لكل فريق (من العذاب).

(٣٩) ﴿**وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ**﴾ أي: فقد ثبت أن لا فضل لَكُمْ علينا، وإنا وإياكم متساوون في الضلال واستحقاق العذاب ﴿**فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾**﴾ من قول القادة، أو من قول الله تعالى للفريقين.

(٤٠) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا**﴾ أي: عن الإيمان بها ﴿**لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ**﴾ لأدعيتهم وأعمالهم، أو لأرواحهم، كما تفتح لأعمال المؤمنين وأرواحهم لتتصل بالملائكة ﴿**وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ**﴾ أي: حتى يدخل ما هو مَثَلٌ في عظم الجِرم وهو البعير فيما هو مَثَلٌ في ضيق المسلك وهو ثقبة الإبرة، وذلك مما لا يكون، فكذا ما يتوقف عليه ﴿**وَكَذَٰلِكَ**﴾ ومثلَ ذلك الجزاء الفظيع ﴿**نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾**﴾.

(٤١) ﴿**لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ**﴾ فراش ﴿**وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ**﴾ أغطية ﴿**وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾**﴾ عبَّر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين أخرى، إشعاراً بأنهم بتكذيبهم الآيات اتصفوا بهذه الأوصاف الذميمة، وذكَرَ الجُرم مع الحرمان من الجنة، والظلم مع التعذيب بالنار، تنبيهاً على أنه أعظم الإجرام.

(٤٢) ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾**﴾ على عادته سبحانه وتعالى في أن يشفع الوعيد بالوعد.

(٤٣) ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ أي: نخرج من قلوبهم أسباب الغل، أو نطهِّرها منه حتى لا يكون بينهم إلا التوادُّ (أقول: حقٌّ أهل التصوف كلهم أن يكونوا هكذا في الدنيا، ولكن قلب المؤمن ليس خالياً، سُلِّط عليه الكبر والأنانية، لا نقول: كونوا مثل الملائكة، ولكن تمسَّكوا بالشريعة والسنة النبوية ﷺ).

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ زيادةً في لذتهم وسرورهم ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ لولا هداية الله تعالى وتوفيقه ﴿لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ فاهتدينا بإرشادهم. يقولون ذلك اغتباطاً وتبجُّحاً (فرَحاً) بأن ما علموه يقيناً في الدنيا صار لهم عين اليقين في الآخرة ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ﴾ إذا رأوها من بعيد، أو بعد دخولها ﴿أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: أعطيتموها بسبب أعمالكم.

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾

(٤٤) ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ﴾ (أقول: تصديقاً للخبر) إنما قالوه تبجُّحاً بحالهم وشماتةً بأصحاب النار وتحسيراً لهم ﴿قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ﴾ قيل: هو صاحب الصور ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ بين الفريقين ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

(٤٥) ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفة للظالمين مقررة، أو ذمٌّ ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ زيغاً وميلاً عما هو عليه ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

(٤٦) ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ﴾ أي: بين الفريقين، أو بين الجنة والنار، ليمنع وصول أثر إحداهما إلى الأخرى ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ وعلى أعراف الحجاب أي: على أعاليه، وهو السور المضروب بينهما ﴿رِجَالٞ﴾ طائفة من الموحِّدين قصروا في العمل، فيُحبسون بين الجنة والنار حتى يقضي الله سبحانه وتعالى فيهم ما يشاء ﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا﴾ من أهل الجنة والنار ﴿بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾ بعلامتهم التي أعلمهم الله تعالى بها، كبياض الوجه وسواده، وإنما يعرفون ذلك بالإلهام أو تعليم الملائكة ﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ أي: إذا نظروا إليهم سلموا عليهم ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

(٤٧) ﴿وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ﴾ تعوُّذاً بالله ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: في النار.

(٤٨) ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ من رؤساء الكفرة ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ كثرتكم، أو جمعُكم المال ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ عن الحق، أو على الخلق.

(٤٩) ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ من تتمة قولهم للرجال. والإشارة إلى ضعفاء أهل الجنة الذين كانت الكفرة يحتقرونهم في الدنيا ويحلفون أن الله تعالى لا يدخلهم الجنة ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: قيل لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة بفضل الله سبحانه وتعالى، بعد أن حُبسوا حتى أبصروا الفريقين وعرفوهم وقالوا لهم ما قالوا (أقول: هذا الفضل أوسع من أعمالنا، اللهم لا تحرمنا منه).

(٥٠) ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ أي: صبوه ﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ من سائر الأشربة، أو من الطعام ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ منعهما عنهم منع المحرَّم عن المكلف.

(٥١) ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ (أقول: هذه صفة الكافر، فعلى المؤمن أن يتجنَّب هذا التغرير، لئلا يوصف بوصف الكافر) ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ نفعل بهم فعل الناسين فنتركهم في النار ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ فلم يُخطروه ببالهم ولم يستعدُّوا له ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ وكما كانوا منكرين أنها من عند الله تعالى.

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ
ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا
مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ
قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾
إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا
وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ
وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا
وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ
ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ
ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا
ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

(٥٢) ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم﴾ (يعني أهل مكة) ﴿بِكِتَٰبٍ﴾ (أي: القرآن العظيم) ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ بيّنا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ مفصَّلة ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عالمين بوجه تفصيله حتى جاء حكيماً ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

(٥٣) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ هل ينتظرون ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ إلا ما يؤول إليه أمره من تبيُّن صدقه بظهور ما نطق به من الوعد والوعيد ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ تركوه ترك الناسي (أي: نبذوه وراء ظهورهم) ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: قد تبين أنهم جاءوا بالحق ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ اليوم ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ أو هل نرد إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ (في الدنيا) ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بصرف أعمارهم في الكفر ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ بطل عنهم فلم ينفعهم.

(٥٤) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في ستة أوقات، أو في مقدار ستة أيام، فإن المتعارف باليوم زمان طلوع الشمس إلى غروبها، ولم يكن حينئذ. وفي خلق الأشياء مدرّجاً مع القدرة على إيجادها دفعةً دليلٌ للاختيار، واعتبارٌ للنُّظَّار، وحثٌّ على التأنّي في الأمور ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استوى أمره أو استولى (قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم: ثم استوى على العرش أي: على عروش المظاهر والمكونات الكائنات والأقطار منزَّهاً عن الجهات والاستواء والاستقرار والتمكُّن مطلقاً). وعن أصحابنا أنَّ الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف. والمعنى: أن له تعالى استواء على العرش على الوجه الذي عناه، منزَّهاً عن الاستقرار والتمكُّن. والعرش: الجسم المحيط بسائر الأجسام ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يغطيه به ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ يعقبه سريعاً كالطالب له لا يفصل بينهما شيء ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ بقضائه وتصريفه ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فإنه الموجد والمتصرف ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ تعالى بالوحدانية في الألوهية، وتعظَّم بالتفرُّد في الربوبية.

وتحقيق الآية والله سبحانه وتعالى أعلم: أن الكفرة كانوا متخذين أرباباً فبيَّن لهم أنَّ المستحقَّ للربوبية

واحد وهو الله سبحانه وتعالى، لأنه الذي له الخلق والأمر، فإنه سبحانه وتعالى خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم، فأبدع الأفلاك ثم زينها بالكواكب، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]. وعمد إلى إيجاد الأجرام السفلية، فخلق جسماً قابلاً للصور المتبدلة والهيئات المختلفة، ثم قسمها بصور نوعية متضادة الآثار والأفعال، وأشار إليه بقوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ﴾ أي: ما في جهة السفل ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾، ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة بتركيب موادها أولًا وتصويرها ثانياً، كما قال تعالى بعد قوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْواتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: ١٠] أي: مع اليومين الأوَّلين، لقوله تعالى في سورة السجدة [آية: ٤]: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، ثم لما تمَّ له عالم الملك عمد إلى تدبيره، فدبر الأمر مِنَ السماء إِلَى الأرض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب وتكوير الليالي والأيام.

ثم أمرهم بأن يدعوه متذلِّلين مخلصين فقال:

(٥٥) ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: ذوي تضرع وخفية، فإن الإخفاء دليل الإخلاص. (أقول: ولذا لا بد للمسلم أن يكون رقيباً على حاله لئلا ينشرد عن الإخلاص) ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ٥٥﴾ المجاوزين ما أُمِروا به في الدعاء وغيره. نبَّه به على أن الداعي ينبغي أن لا يطلب ما لا يليق به، كرتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والصعود إلى السماء. وقيل: هو الصياح في الدعاء والإسهاب فيه.

(٥٦) ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر والمعاصي (أقول: الكفر للكفار، والمعاصي للمسلمين) ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ ببعث الأنبياء وشرع الأحكام ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ذوي خوف من الردِّ لقصور أعمالكم وعدم استحقاقكم، وطمعٍ في إجابته تفضلاً وإحساناً لفرط رحمته ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٥٦﴾ ترجيحٌ للطمع، وتنبيه على ما يتوسل به إلى الإجابة.

(٥٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا﴾ بشرى ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾ قُدَّام رحمته، يعني المطر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ أي: حملت ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالماء ﴿سُقْنَٰهُ﴾ أي: السحاب ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ بالبلد أو بالسحاب ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من كل أنواعها ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ من الأجداث ونحييها برد النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها (أقول: أي يردُّ أرواحهم إلى أبدانهم، إذا مات الإنسان فإن الروح لا يموت، بعد خروج الموتى من الأجداث يلتحق الروح بالأبدان) ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾ فتعلمون أن من قَدِرَ على ذلك قَدِرَ على هذا.

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ
إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾
لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾
قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ
يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ
رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ
هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ
﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى
سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾

(٥٨) ﴿**وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ**﴾ الأرض الكريمة التربة ﴿**يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ**﴾ بمشيئته وتيسيره ﴿**وَٱلَّذِى خَبُثَ**﴾ أي: كالحَرَّة (أي: الأرض ذات الحجارة السود) والسبخة (الأرض المالحة) ﴿**لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا**﴾ قليلاً عديم النفع ﴿**كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ**﴾ نرددها ونكررها ﴿**لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾**﴾ نعمة الله تعالى فيتفكرون فيها ويعتبرون بها.

(٥٩) ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ**﴾ أي: اعبدوه وحده ﴿**مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾**﴾ إن لم تؤمنوا. وهو وعيد وبيان للداعي إلى عبادته. واليوم: يوم القيامة، أو يوم نزول الطوفان.

(٦٠) ﴿**قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ**﴾ أي: الأشراف، فإنهم يملؤون العيون رواء (الرواء: المنظر الحسن) ﴿**إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ**﴾ زوال عن الحق ﴿**مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾**﴾ بيِّن.

(٦١) ﴿**قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ**﴾ أي شيء من الضلال. بالَغَ في النفي كما بالغوا في الإثبات، وعرَّض لهم به ﴿**وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾**﴾ كأنه قال: ولكني على هدى في الغاية، لأني رسول من الله سبحانه وتعالى.

(٦٢) ﴿**أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾**﴾ أي: أعلم من قدرته وشدة بطشه، أو من جهته بالوحي أشياء لا علم لكم بها.

(٦٣) ﴿**أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ رسالة أو موعظة ﴿**عَلَىٰ رَجُلٍ**﴾ على لسان رجل ﴿**مِّنكُمْ**﴾ من جملتكم أو من جنسكم. فإنهم كانوا يتعجَّبون من إرسال البشر، ويقولون: ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهذا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤] ﴿**لِيُنذِرَكُمْ**﴾ عاقبة الكفر والمعاصي ﴿**وَلِتَتَّقُوا۟**﴾ منهما بسبب الإنذار ﴿**وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾**﴾ بالتقوى. وفائدةُ حرف الترجي التنبيهُ على أن التقوى غير موجب، والترحمَ من الله سبحانه وتعالى تَفضلٌ، وأن المتقي ينبغي أن لا يعتمد على تقواه، ولا يأمن من عذاب الله تعالى.

(٦٤) ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ**﴾ وهم مَنْ آمن به، وكانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة ﴿**وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ**﴾ بالطوفان ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾**﴾ عميَ القلوب غير مستبصرين.

(٦٥) ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ عذاب الله تعالى.

(٦٦) ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ إذ كان من أشرافهم مَنْ آمن به كمرثد بن سعد ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ متمكِّناً في خفة عقل، راسخاً فيها، حيث فارقتَ دين قومك ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

(٦٧) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (أي: ليس بي والحمد لله أدنى شيء من شوائب السفاهة والخفَّة، ولكنَّني مرسل إليكم بالهداية من ربِّ العالمين سبحانه وتعالى [المقتطف من عيون التفاسير: ٢/ ٢٣٥]).

أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ
أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ
وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ
فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ
يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ
أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم
مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ
ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ
﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

(٦٨) ﴿**أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾**﴾ (أي: ليس بي ما تزعمون، وإنما أنا رسول ناصح مرسل إليكم بالهداية من ربِّ العالمين جلَّ وعلا [المقتطف من عيون التفاسير: ٢/ ٢٣٥]).

(٦٩) ﴿**أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ**﴾ سبق تفسيره [في الآية: ٦٣]. وفي إجابة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الكفرةَ عن كلماتهم الحمقاء بما أجابوا، والإعراض عن مقابلتهم كمالُ النصح والشفقة وهضم النفس وحسن المجادلة، وهكذا ينبغي لكل ناصح (أقول: والسكوت جواب الأحمق).

﴿**وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ**﴾ أي: في مساكنهم، أو في الأرض، بأن جعلكم ملوكاً، فإن شداد بن عاد ممن ملك معمورة الأرض من رمل عالج إلى بحر عمان. خوَّفهم من عقاب الله تعالى، ثم ذكَّرهم بإنعامه ﴿**وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً**﴾ قامة وقوة ﴿**فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ**﴾ تعميمٌ بعد تخصيص ﴿**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾**﴾ لكي يفضي بكم ذكر النعم إلى شكرها المؤدي إلى الفلاح.

(٧٠) ﴿**قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا**﴾ استبعدوا اختصاص الله تعالى بالعبادة والإعراض عما أشرك به آباؤهم، انهماكاً في التقليد وحباً لما أَلِفوه (أي: اعتادوه) ﴿**فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ**﴾ من العذاب ﴿**إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾**﴾ فيه.

(٧١) ﴿**قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم**﴾ قد وجب أو حقَّ عليكم ﴿**مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ**﴾ عذاب ﴿**وَغَضَبٌ**﴾ إرادةُ انتقام ﴿**أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ**﴾ أي: في أشياء سميتموها آلهة وليس فيها معنى الإلهية، لأنَّ المستحقَّ للعبادة بالذات هو الموجد للكل، وأنها لو استحقت كان استحقاقها بجعله تعالى، إما بإنزال آية أو بنصب حجة. بيَّن أن منتهى حجتهم وسندهم أن الأصنام تسمى آلهة من غير دليل يدل على تحقق المسمى، وإسناد الإطلاق إلى من لا يؤبه (أي: لا يُعتد) بقوله إظهاراً لغاية جهالتهم وفرط غباوتهم. واستُدل به على أن الاسم هو المسمى ﴿**فَٱنتَظِرُوٓاْ**﴾ نزول العذاب بكم ﴿**إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾**﴾.

(٧٢) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ في الدين ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ عليهم ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: استأصلناهم ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ تعريضٌ بمن آمن منهم، وتنبيه على أن الفارق بين من نجا وبين من هلك هو الإِيمان.

(٧٣) ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ قبيلة أخرى من العرب، سُموا باسم أبيهم الأكبر ثمود ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ معجزة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتي ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ إضافةُ الناقةِ إلى الله تعالى لتعظيمها، ولأنها جاءت من عنده بلا وسائط وأسباب معهودة، ولذلك كانت آية ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ العشب ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ نهى عن المسِّ الذي هو مقدِّمة الإصابة بالسوء الجامع لأنواع الأذى مبالغةً في الأمر وإزاحةً للعذر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ
فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ
ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن
قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ
أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ
مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ
ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ
أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ
جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ
رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ
﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم
بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ
شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿٨١﴾

(٧٤) ﴿**وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ**﴾ أرض الحِجر ﴿**تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا**﴾ أي: تبنون في سهولها، أو من سهولة الأرض بما تعملون منها كاللبن والآجر ﴿**وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ**﴾ أي: بيوتاً من الجبال ﴿**فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ**﴾ (التي أنعم الله تعالى بها عليكم) ﴿**وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾**﴾ (فإنَّ حقَّ الآلاء أن تُشكر فلا يغفل عنها، فكيف بالكفر؟! [المقتطف من عيون التفاسير]).

(٧٥) ﴿**قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ**﴾ عن الإيمان ﴿**لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ**﴾ أي: للذين استضعفوهم واستذلوهم ﴿**لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ**﴾ قالوه على الاستهزاء ﴿**قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾**﴾ عدلوا به عن الجواب السوي الذي هو نَعَم تنبيهاً على أن إرساله أظهر من أن يشك فيه عاقل ويخفى على ذي رأي، وإنما الكلام فيمن آمن به ومن كفر.

(٧٦) ﴿**قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾**﴾ على وجه المقابلة، ووضعوا ﴿**ءَامَنتُم بِهِۦ**﴾ موضع ﴿**أُرۡسِلَ بِهِۦ**﴾ ردّاً لما جعلوه معلوماً مسلَّماً.

(٧٧) ﴿**فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ**﴾ فنحروها ﴿**وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ**﴾ واستكبروا عن امتثاله، وهو ما بلغهم صالح عليه الصلاة والسلام بقوله: فَذَرُوها ﴿**وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾**﴾.

(٧٨) ﴿**فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ**﴾ الزلزلة ﴿**فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾**﴾ خامدين ميتين.

(٧٩) ﴿**فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾**﴾ ظاهِرُهُ أن توليه عنهم كان بعد أن أبصرهم جاثمين، ولعله خاطبهم به بعد هلاكهم كما خاطب رسولُ الله ﷺ أهل قليب بدر، وقال: «إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً» [متفق عليه]. أو ذكَرَ ذلك على سبيل التحسُّر عليهم.

(٨٠) ﴿**وَلُوطًا**﴾ أي: وأرسلنا لوطاً ﴿**إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ**﴾ توبيخٌ وتقريعٌ على تلك الفعلة المتمادية في القبح ﴿**مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾**﴾ ما فعلها قبلكم أحد قط.

(٨١) ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ بيان لقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ وهو أبلغ في الإنكار والتوبيخ، وفي التقييد بها ﴿شَهْوَةً﴾ وصفهم بالبهيميَّة الصِّرفة، وتنبيه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلبَ الولد وبقاء النوع، لا قضاء الوطر ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عن حالهم التي أدَّت بهم إلى ارتكاب أمثالها، وهي اعتياد الإسراف في كلِّ شيء؛ أو عن الإنكار عليها إلى الذمِّ على جميع معايبهم.

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

(٨٢) ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾ أي: ما جاؤوا بما يكون جواباً عن كلامه، ولكنهم قابلوا نصحه بالأمر بإخراجه فيمن معه من المؤمنين من قريتهم والاستهزاء بهم، فقالوا: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: من الفواحش.

(٨٣) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ أي: مَنْ آمن به ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثناء من أهله، فإنها كانت تُسِرُّ الكفر ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ من الذين بقوا في ديارهم فهلكوا.

(٨٤) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ﴾ أي: نوعاً من المطر عجيباً، وهو مبيَّن بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤] ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (الكافرين).

(٨٥) ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ﴾ يريد المعجزة التي كانت له، وليس في القرآن أنها ما هي ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ ولا تنقصوهم حقوقهم. وإنما قال أشياءهم للتعميم، تنبيهاً على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر والحيف (أي: الظلم) ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ﴾ بعد ما أصلح أمرها أو أهلها الأنبياءُ وأتباعُهم بالشرائع ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ إشارةٌ إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه.

(٨٦) ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ بكل طريق من طرق الدين كالشيطان. وقيل: كانوا يقطعون الطريق ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾ وتطلبون لسبيل الله تعالى عوجاً بإلقاء الشبه، أو وصفِها للناس بأنها معوجَّة ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ عَدَدكم أو عُدَدكم ﴿فَكَثَّرَكُمْۖ﴾ بالبركة في النسل أو المال ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ من الأمم قبلكم فاعتبروا بهم.

(٨٧) ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ﴾ فتربصوا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ﴾ أي: بين الفريقين، بنصر المحقين على المبطلين. فهو وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ إذ لا معقب لحكمه ولا حيف فيه (أي: لا ظلم فيه).

۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾

(٨٨) ﴿**قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ**﴾ أي: ليكوننَّ أحد الأمرين: إما إخراجكم من القرية، أو عودكم في الكفر. وشعيب عليه الصلاة والسلام لم يكن في ملتهم قط، لأن الأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم الكفر مطلقاً، لكن غلَّبوا الجماعة على الواحد فخوطب هو وقومه بخطابهم، وعلى ذلك أجرى الجواب في قوله ﴿**قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾**﴾ أي: كيف نعود فيها ونحن كارهون لها، أو أتعيدوننا في حال كراهتنا؟

(٨٩) ﴿**قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا**﴾ قد اختلقنا عليه ﴿**إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ**﴾ أي: قد افترينا الآن إن هممنا بالعود بعد الخلاص منها، حيث نزعم أن لله تعالى نداً (فرض محال)، وأنه قد تبين لنا أنَّ ما كنَّا عليه باطل وما أنتم عليه حق ﴿**وَمَا يَكُونُ لَنَآ**﴾ وما يصحُّ لنا ﴿**أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ**﴾ خذلاننا وارتدادنا. وفيه دليل على أن الكفر بمشيئة الله تعالى. وقيل: أراد به حسم طمعهم في العود بالتعليق على ما لا يكون ﴿**وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ**﴾ أي: أحاط علمه بكل شيء مما كان ومما يكون منا ومنكم ﴿**عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ**﴾ في أن يثبِّتنا على الإيمان (نعوذ بالله أن نخالف الإيمان بالله تعالى) ويخلِّصنا من الأشرار ﴿**رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ**﴾ احكم بيننا وبينهم ﴿**وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾**﴾.

(٩٠) ﴿**وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا**﴾ وتركتم دينكم ﴿**إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾**﴾ لاستبدالكم ضلالته بهداكم، أو لفوات ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف.

(٩١) ﴿**فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ**﴾ الزلزلة. وفي سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [الحجر: ٧٣] ولعلها كانت من مباديها ﴿**فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾**﴾ أي: في مدينتهم.

(٩٢) ﴿**ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ**﴾ أي: استؤصلوا كأن لم يقيموا بها (و﴿لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَا﴾: لم يقيموا في دارهم منعمين) ﴿**ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾**﴾ ديناً ودنيا، لا الذين صدَّقوه واتبعوه كما زعموا، فإنهم الرابحون في الدارين.

(٩٣) ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ قاله (بعد هلاكهم) تأسفاً بهم لشدة حزنه عليهم، ثم أنكر على نفسه فقال: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ ليسوا أهل حزن لاستحقاقهم ما نزل عليهم بكفرهم، أو قاله اعتذاراً عن عدم شدة حزنه عليهم. والمعنى: لقد بالغت في الإبلاغ والإنذار، وبذلت وسعي في النصح والإشفاق، فلم تصدِّقوا قولي، فكيف آسى عليكم.

(٩٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ بالبؤس والضرِّ ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ حتى يتضرَّعوا ويتذلَّلوا.

(٩٥) ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي: أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والشدة السلامةَ والسعةَ، ابتلاءً لهم بالأمرين ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ حتى كثروا عَدَداً وعُدَداً ﴿وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ كفراناً لنعمة الله تعالى ونسياناً لذكره، واعتقاداً بأنه من عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضراء والسراء، وقد مسَّ آباءنا منه مثل ما مسَّنا ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ بنزول العذاب.

وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ
يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا
وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا
ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ
مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ
يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾
تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم
بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ
كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدۡنَا
لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ
﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ
فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٠٣﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

(٩٦) ﴿**وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ**﴾ يعني القرى المدلول عليها بقوله: ﴿وَمَا أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ [الأعراف: ٩٤]، وقيل: مكة وما حولها ﴿**ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ**﴾ مكان كفرهم وعصيانهم ﴿**لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ**﴾ لوسَّعنا عليهم الخير ويسَّرناه لهم من كل جانب. وقيل: المراد المطر والنبات ﴿**وَلَٰكِن كَذَّبُواْ**﴾ الرسل ﴿**فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾**﴾ من الكفر والمعاصي.

(٩٧) ﴿**أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ**﴾ المعنى: أبَعْدَ ذلك أمن أهل القرى ﴿**أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا**﴾ (أي: عذابنا) ﴿**بَيَٰتٗا**﴾ (أي: ليلًا) ﴿**وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾**﴾.

(٩٨) ﴿**أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾**﴾ يلهون من فرط الغفلة، أو يشتغلون بما لا ينفعهم.

(٩٩) ﴿**أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ**﴾ مَكْرُ الله تعالى استعارةٌ لاستدراج العبد، وأخذه من حيث لا يحتسب ﴿**فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ**﴾ (أي: عذاب الله تعالى) ﴿**إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾**﴾ الذين خسروا بالكفر وترك النظر والاعتبار.

(١٠٠) ﴿**أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ**﴾ أي: يخلفون من خلا قبلهم ويرثون ديارهم ﴿**أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ**﴾ أي: بجزاء ذنوبهم كما أصبنا من قبلهم ﴿**وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾**﴾ سماع تفهُّم واعتبار.

(١٠١) ﴿**تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ**﴾ يعني قرى الأمم المارِّ ذكرهم ﴿**نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ**﴾ بالمعجزات ﴿**فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ**﴾ عند مجيئهم بها (أي: بالمعجزات) ﴿**بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ**﴾ بما كذبوه من قَبل الرسل عليهم السلام، بل كانوا مستمرين على التكذيب. أي: فما كانوا ليؤمنوا مدة عمرهم بما كذبوا به أولاً حين جاءتهم الرسل عليهم السلام، ولم تؤثر فيهم قط دعوتهم المتطاولة والآيات المتتابعة ﴿**كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾**﴾ فلا تلين شكيمتهم (عنادهم) بالآيات والنذر.

(١٠٢) ﴿**وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم**﴾ لأكثر الناس ﴿**مِّنۡ عَهۡدٖۖ**﴾ من وفاءِ عهدٍ، فإن أكثرهم نقضوا ما عهد

الله تعالى إليهم في الإيمان والتقوى بإنزال الآيات ونصب الحجج، أو ما عهدوا إليه حين كانوا في ضرٍّ ومخافةٍ مثل: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢] ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: علمناهم ﴿لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ (أقول: أي: وما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين).

(١٠٣) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ الضمير للرسل في قوله: ﴿وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٠١]، أو للأمم ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يعني المعجزات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ بأن كفروا بها مكان الإيمان الذي هو من حقها لوضوحها ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ (حيث صاروا مُغرَقين [النسفي]).

(١٠٤) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ إليك.

حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم
بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ
جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ
لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾
قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ
لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ
لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن
نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟
أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾
۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا
يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟
هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾

(١٠٥) ﴿**حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ**﴾ المعنى: أنه حق واجب على القول الحق أن أكون أنا قائله ﴿**قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ** ﴿١٠٥﴾﴾ فخلِّهم حتى يرجعوا معي إلى الأرض المقدَّسة التي هي وطن آبائهم، وكان قد استعبدهم واستخدمهم في الأعمال.

(١٠٦) ﴿**قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ**﴾ من عند من أرسلك ﴿**فَأْتِ بِهَآ**﴾ فأحضرها عندي ليثبت بها صدقك ﴿**إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ** ﴿١٠٦﴾﴾ في الدعوى.

(١٠٧) ﴿**فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ** ﴿١٠٧﴾﴾ ظاهرٌ أمرُه لا يُشك في أنه ثعبان. وهو الحية العظيمة. روي: أنه لما ألقاها صارت ثعباناً أشعر فاغراً فاه، بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون فهرب منه وأحدث، وانهزم الناس مزدحمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، وصاح فرعون: يا موسى أنشدك بالذي أرسلك خذه وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذه فعاد عصا.

(١٠٨) ﴿**وَنَزَعَ يَدَهُۥ**﴾ من جيبه أو من تحت إبطه ﴿**فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ** ﴿١٠٨﴾﴾ أي: بيضاء بياضاً خارجاً عن العادة، تجتمع عليها النظارة. أو بيضاء للنظار، لا أنها كانت بيضاء في جبلَّتها (خلقيتها). روي: أنه عليه السلام كان آدم (أي: أسمر) شديد الأدمة، فأدخل يده في جيبه أو تحت إبطه ثم نزعها، فإذا هي بيضاء نورانية غلب شعاعها شعاع الشمس.

(١٠٩) ﴿**قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ** ﴿١٠٩﴾﴾ قيل: قاله هو وأشراف قومه على سبيل التشاور في أمره، فحكى عنه في سورة الشعراء [آية: ٣٤] وعنهم هُهنا.

(١١٠) ﴿**يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ** ﴿١١٠﴾﴾ ماذا تشيرون في أن نفعل.

(١١١) ﴿**قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ** ﴿١١١﴾﴾ والإرجاء: التأخير، أي: أخِّرْ أمره.

(١١٢) ﴿**يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ** ﴿١١٢﴾﴾ كأنه اتفقت عليه آراؤهم، فأشاروا به على فرعون.

(١١٣) ﴿**وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ**﴾ بعد ما أرسل الشرطة في طلبهم ﴿**قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ** ﴿١١٣﴾﴾ كأنهم قالوا لا بد لنا من أجر.

(١١٤) ﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ إنَّ لكم لأجراً ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ زيادة على الجواب لتحريضهم.

(١١٥) ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ خيَّروا موسى مراعاة للأدب أو إظهاراً للجلادة، ولكن كانت رغبتهم في أن يلقوا قبله.

(١١٦) ﴿ قَالَ أَلْقُواْ ﴾ كرماً وتسامحاً، أو ازدراء (أي: احتقاراً) بهم ووثوقاً على شأنه ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ بأن خيَّلوا إليها ما الحقيقة بخلافه ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ وأرهبوهم إرهاباً شديداً ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ في فنِّه. روي: أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً كأنها حيَّات ملأت الوادي، وركب بعضها بعضاً.

(١١٧) ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها فصارت حية ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ أي: ما يزوِّرونه من الإفك، وهو الصرف وقلب الشيء عن وجهه. روي: أنها لما تلقفت حبالهم وعصيهم وابتلعتها بأسرها أقبلت على الحاضرين، فهربوا وازدحموا حتى هلك جمعٌ عظيم، ثم أخذها موسى فصارت عصاً كما كانت، فقال السحرة: لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا.

(١١٨) ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ﴾ فثبت لظهور أمره ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ من السحر والمعارضة.

(١١٩) ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أي: صاروا أذلاء مبهوتين، أو رجعوا إلى المدينة أذلاء مقهورين.

(١٢٠) ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ لله تعالى. جعلهم مُلْقَيْنَ على وجوههم تنبيهاً على أن الحق بَهَرهم واضطرهم إلى السجود بحيث لم يبقَ لهم تمالك، أو أن الله تعالى ألهمهم ذلك وحملهم عليه حتى ينكسر فرعون بالذين أراد بهم كَسْرَ موسى عليه السلام، وينقلب الأمر عليه، أو مبالغة في سرعة خرورهم وشدته.

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

(١٢١) ﴿**قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾**﴾ (أي: آمنا بالله الواحد الأحد مالك الملك ربِّ العالمين سبحانه وتعالى [المقتطف من عيون التفاسير]).

(١٢٢) ﴿ **رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾** ﴾.

(١٢٣) ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ** ﴾ بالله تعالى، أو بموسى عليه السلام. والاستفهام فيه للإنكار ﴿**قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ**﴾ أي: إن هذا الصنيع لحيلة احتلتموها أنتم وموسى ﴿**فِى ٱلْمَدِينَةِ**﴾ في مصر قبل أن تخرجوا للميعاد ﴿**لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ**﴾ يعنى القبط، وتخلص لكم ولبني إسرائيل ﴿**فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾**﴾ عاقبة ما فعلتم. وهو تهديد مجمل، تفصيله:

(١٢٤) ﴿ **لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ** ﴾ من كل شق طرفاً ﴿**ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾**﴾ تفضيحاً لكم وتنكيلاً لأمثالكم.

(١٢٥) ﴿**قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾**﴾ بالموت لا محالة، فلا نبالي بوعيدك، أو إنا منقلبون إلى ربنا وثوابه إن فعلت بنا ذلك، كأنهم استطابوه شغفاً (محبة) على لقاء الله تعالى. أو مصيرُنا ومصيرك إلى ربنا فيحكم بيننا.

(١٢٦) ﴿ **وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ** ﴾ وما تُنكر منا ﴿**إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ**﴾ وهو خير الأعمال وأصل المناقب، ليس مما يتأتى لنا العدول عنه طلباً لمرضاتك، ثم فزعوا إلى الله سبحانه وتعالى فقالوا: ﴿**رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا**﴾ أفض علينا صبراً يغمرنا كما يفرغ الماء، أو صب علينا ما يطهِّرنا من الآثام، وهو الصبر على وعيد فرعون ﴿**وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾**﴾ ثابتين على الإسلام. قيل: إنه فعل بهم ما أوعدهم به (أقول: فلم يرجع فرعون، وهم لم يرجعوا عن الإسلام).

(١٢٧) ﴿ **وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ** ﴾ بتغيير الناس عليك ودعوتهم إلى مخالفتك ﴿**وَيَذَرَكَ**﴾ على معنى: أيكون منك ترك موسى ويكون منه تركه إياك ﴿**وَءَالِهَتَكَ ۚ**﴾ معبوداتك. قيل: كان يعبد الكواكب. وقيل: صنع لقومه أصناماً وأمرهم أن يعبدوها تقرباً إليه، ولذلك قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

﴿**قَالَ**﴾ فرعون ﴿**سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ**﴾ كما كنا نفعل من قبل، ليُعلم أنا على ما كنا عليه من

القهر والغلبة، ولا يُتوهم أنه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ غالبون، وهم مقهورون تحت أيدينا.

(١٢٨) ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ لما سمعوا قول فرعون وتضجروا منه تسكيناً لهم ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ تسليةً لهم وتقريراً للأمر بالاستعانة بالله تعالى والتثبت في الأمر ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ وعدٌ لهم بالنصرة، وتذكيرٌ لما وعدهم من إهلاك القبط وتوريثهم ديارهم وتحقيق له.

(١٢٩) ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: بنو إسرائيل ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة بقتل الأبناء ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ بإعادته ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تصريحاً بما كنَّى عنه أولاً، لمّا رأى أنهم لم يتسلوا بذلك. ولعله أتى بفعل الطمع لعدم جزمه بأنهم المستخلفون بأعيانهم أو أولادهم. وقد روي أن مصر إنما فتح لهم في زمن داود عليه السلام ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ فيرى ما تعملون من شكر وكفران وطاعة وعصيان، فيجازيكم على حسب ما يوجد منكم.

(١٣٠) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ بالجدوب، لقلة الأمطار والمياه ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بكثرة العاهات ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ لكي يتنبهوا على أن ذلك بشؤم كفرهم ومعاصيهم فيتعظوا، أو ترق قلوبهم بالشدائد فيفزعوا إلى الله تعالى ويرغبوا فيما عنده.

فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ
يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ
لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ
ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ
فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ
ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن
كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ
فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾
وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ
ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ
ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ
يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

(١٣١) ﴿**فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ**﴾ من الخصب والسعة ﴿**قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ**﴾ لأجلنا ونحن مستحقوها ﴿**وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ**﴾ جدب وبلاء ﴿**يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ**﴾ يتشاءموا بهم، ويقولوا: ما أصابتنا إلا بشؤمهم. وهذا إغراق في وصفهم بالغباوة والقساوة، فإن الشدائد ترقق القلوب وتذلل العرائك (أي: الطبائع) وتزيل التماسك، سيما بعد مشاهدة الآيات، وهم لم تؤثر فيهم، بل زادوا عندها عتواً وانهماكاً في الغي ﴿**أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ**﴾ أي: سبب خيرهم وشرهم عنده، وهو حكمته ومشيئته. أو سبب شؤمهم عند الله تعالى، وهو أعمالهم المكتوبة عنده، فإنها التي ساقت إليهم ما يسوؤهم ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾**﴾ أن ما يصيبهم من الله تعالى، أو من شؤم أعمالهم.

(١٣٢) ﴿**وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾**﴾ أي: لتسحر بها أعيننا وتشبِّه علينا.

(١٣٣) ﴿**فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ**﴾ ماء طاف بهم وغشي أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل ﴿**وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ**﴾ روي: أنهم مُطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا يقدر أحد أن يخرج من بيته، ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه إلى تراقيهم، وكانت بيوت بني إسرائيل مشتبكة ببيوتهم فلم يدخل فيها قطرة، وركد على أراضيهم، فمنعهم من الحرث والتصرف فيها، ودام ذلك عليهم أسبوعاً، فقالوا لموسى: ادعُ لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا فكشف عنهم، ونبت لهم من الكلأ والزرع ما لم يعهد مثله، ولم يؤمنوا، فبعث الله تعالى عليهم الجراد، فأكلت زروعهم وثمارهم، ثم أخذت تأكل الأبواب والسقوف والثياب، ففزعوا إليه ثانياً، فدعا وخرج إلى الصحراء، وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب، فرجعت إلى النواحي التي جاءت منها، فلم يؤمنوا، فسلط الله تعالى عليهم القمل، فأكل ما أبقاه الجراد، وكان يقع في أطعمتهم ويدخل بين أثوابهم وجلودهم فيمصها، ففزعوا إليه، فرُفع عنهم، فقالوا: قد تحققنا الآن أنك ساحر، ثم أرسل الله تعالى عليهم الضفادع بحيث لا يكشف ثوب ولا طعام إلا وجدت فيه، وكانت تمتلئ

منها مضاجعهم وتثب إلى قدورهم وهي تغلي، وأفواههم عند التكلم، ففزعوا إليه وتضرعوا، فأخذ عليهم العهود، ودعا فكشف الله تعالى عنهم، ثم نقضوا العهود، ثم أرسل الله تعالى عليهم الدم، فصارت مياههم دماً، حتى كان يجتمع القبطي مع الإسرائيلي على إناء فيكون ما يلي القبطي دماً وما يلي الإسرائيلي ماء، ويمص الماء من فم الإِسرائيلي فيصير دماً في فيه ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ مبينات، لا تُشكل على عاقل أنها آيات الله تعالى ونقمته عليهم ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عن الإيمان ﴿وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣﴾.

(١٣٤) ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ﴾ يعني العذاب ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ﴾ بعهده عندك وهو النبوة، أو بالذي عهده إليك أن تدعوه به فيجيبك كما أجابك في آياتك ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٣٤﴾ أي: أقسمنا بعهد الله تعالى عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن ولنرسلنَّ.

(١٣٥) ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ إلى حدٍّ من الزمان هم بالغوه فمعذَّبون فيه أو مهلَكون، وهو وقت الغرق أو الموت. وقيل: إلى أجلٍ عيَّنوه لإيمانهم ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ١٣٥﴾ من غير تأمل وتوقُّفٍ فيه.

(١٣٦) ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ فأردنا الانتقام منهم ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ أي: البحر الذي لا يدرك قعره ﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦﴾ أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وعدم فكرهم فيها، حتى صاروا كالغافلين عنها.

(١٣٧) ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾ بالاستعباد وذبح الأبناء من مستضعِفيهم ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ يعني أرض الشام ومصر. ملَكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا في نواحيها ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾ بالخصب وسعة العيش ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ومضت عليهم واتصلت بالإنجاز عِدَتُه إياهم بالنصرة والتمكين ﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ بسبب صبرهم على الشدائد ﴿وَدَمَّرۡنَا﴾ وخرَّبنا ﴿مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ﴾ من القصور والعمارات ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ١٣٧﴾ من الجنات، أو ما كانوا يرفعون من البنيان كصرح هامان.

وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾ ۞وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

(١٣٨) ﴿**وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ**﴾ وما بعده. ذكَرَ ما أحدثه بنو إسرائيل من الأمور الشنيعة بعد أن مَنَّ الله تعالى عليهم بالنعم الجسام، وأراهم من الآيات العظام، تسليةً لرسول الله ﷺ مما رأى منهم، وإيقاظاً للمؤمنين حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم (أقول: هذه طبيعة البشر، إذا أكلوا وشبعوا لا يحمدون الله تعالى، وإذا أُهلكوا أو أُخذوا بما كسبوا يرجعون إلى الله تعالى، فإذا زال ما بهم ينسون النعم وكذلك النقم) روي: أن موسى عليه السلام عبَر بهم يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصاموه شكراً ﴿**فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ**﴾ فمرُّوا عليهم ﴿**يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ**﴾ يقيمون على عبادتها ﴿**قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا**﴾ مثالاً نعبده ﴿**كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ**﴾ يعبدونها ﴿**قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾**﴾ وصَفهم بالجهل المطلق، وأكده لبُعد ما صدر عنهم عن العقل بعد ما رأوا من الآيات الكبرى.

(١٣٩) ﴿**إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ**﴾ إشارة إلى القوم ﴿**مُتَبَّرٞ**﴾ مكسَّر مدمَّر ﴿**مَّا هُمۡ فِيهِ**﴾ يعني أن الله تعالى يهدم دينهم الذي هم عليه، ويحطِّم أصنامهم ويجعلها رِضاضاً (فتاتاً) ﴿**وَبَٰطِلٞ**﴾ مضمحِلٌّ ﴿**مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾**﴾ من عبادتها، وإن قصدوا بها التقرب إلى الله تعالى. وإنما بالَغَ في هذا الكلام للتنبيه على أن الدمار لاحق لما هم فيه لا محالة.

(١٤٠) ﴿**قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا**﴾ أطلب لكم معبوداً ﴿**وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾**﴾ والحال أنه خصَّكم بنعم لم يعطها غيركم.

(١٤١) ﴿**وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ**﴾ واذكروا صنيعه جل وعلا معكم في هذا الوقت ﴿**يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾**﴾ وفي الإنجاء أو العذاب نعمةٌ أو محنةٌ عظيمة.

(١٤٢) ﴿**وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ**﴾ ذا القعدة ﴿**وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ**﴾ من ذي الحجة ﴿**فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ**﴾ روي: أنه عليه السلام وعد بني إسرائيل بمصر أن يأتيهم بعد مهلك فرعون بكتاب من الله

تعالى فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل ربه فأمره الله تعالى بصوم ثلاثين، فلما أتمَّ أنكر خُلُوف فيه (أي: فمه) فتسوَّك، فقالت الملائكة: كنا نشمُّ منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشراً. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ كن خليفتي فيهم ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يجب أن يصلح من أمورهم، أو كن مصلحاً ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ ولا تتبع من سلك الإفساد، ولا تطعْ من دعاك إليه.

(١٤٣) ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ لوقتنا الذي وقَّتناه ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ من غير وسيط كما يكلم الملائكة. وفيما روي: أن موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة تنبيهٌ على أن سماع كلامه القديم ليس من جنس كلام المحدَثين ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ أرني نفسك بأن تمكنني من رؤيتك، أو تتجلى لي فأنظر إليك وأراك. وهو دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة، لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال، وخصوصاً ما يقتضي الجهل بالله تعالى (أقول: يعني إذا أعطى الله تعالى القابلية للرائي يرى) ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ استدراكٌ يريد أن يبيِّن به أنه لا يطيقه. وفي تعليق الرؤية بالاستقرار أيضاً دليل على الجواز، ضرورة أن المعلَّق على الممكن ممكن ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ ظهر له عظمته، وتصدى له اقتداره وأمره، وقيل: أعطى له حياة ورؤية حتى رآه ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ مدكوكاً مفتتاً ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ مغشياً عليه من هول ما رأى ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ﴾ تعظيماً لما رأى ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من الجراءة والإقدام على السؤال من غير إذن ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

(١٤٤) ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾ اخترتك ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: الموجودين في زمانك؛ وهارونُ وإن كان نبياً كان مأموراً باتباعه، ولم يكن كليماً ولا صاحب شرع ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ يعني: أسفار التوراة ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾ وبتكليمي إياك ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾ أعطيتك من الرسالة ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ على النعمة فيه. روي أن سؤال الرؤية كان يوم عرفة، وإعطاء التوراة كان يوم النحر.

(١٤٥) ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مما يحتاجون إليه من أمر الدين ﴿مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: وكتبنا له كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ بجدٍّ وعزيمة (أقول: على المؤمن أن يأخذ بالقرآن والسنة النبوية، فهذا سيدنا موسى عليه السلام وهو من أولي العزم يقول له ربه: خذ ما آتيتك بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها. هل نحن خارجون عن هذا؟ لا، ولكن بطبيعتنا البشرية الفرعونية نبعد عنه ونغتر. فلا تغتر بركعات أنت تصليها ولا تدري هل تُقبَل أو لا تُقبَل) ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ أي: بأحسن ما فيها، كالصبر والعفو، بالإضافة إلى الانتصار والاقتصاص، على طريقة الندب والحث على الأفضل ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ دار فرعون وقومه بمصر خاوية على عروشها، أو منازل عاد وثمود وأضرابهم لتعتبروا فلا تفسقوا، أو دارهم في الآخرة وهي جهنم.

(١٤٦) ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾ المنصوبة في الآفاق والأنفس ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: يتكبرون بما ليس بحق، وهو دينهم الباطل ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ﴾ منزلَة، أو معجزة ﴿لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ لعنادهم واختلال عقولهم، بسبب انهماكهم في الهوى والتقليد ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا﴾ لاستيلاء الشيطنة عليهم ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ أي: ذلك الصرف بسبب تكذيبهم وعدم تدبرهم للآيات.

(١٤٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ أي: ولقائهم الدار الآخرة، أو ما وعد الله تعالى في الدار الآخرة ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ﴾ لا ينتفعون بها ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧﴾ إلا جزاء أعمالهم.

(١٤٨) ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ من بعد ذهابه إلى الميقات ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾ التي استعاروا من القبط حين همُّوا بالخروج من مصر ﴿عِجۡلٗا جَسَدٗا﴾ بدناً ذا لحم ودم، أو جسداً من الذهب خالياً من الروح ﴿لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ صوت البقر ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ﴾ تقريعٌ على فرط ضلالتهم وإخلالهم بالنظر. والمعنى: ألم يروا حين اتخذوه إلهاً أنه لا يقدر على كلامٍ ولا على إرشادِ سبيلٍ كآحاد البشر، حتى حسبوا أنه خالق الأجسام والقوى والقدر ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ إلهاً ﴿وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾ واضعين الأشياء في غير مواضعها، فلم يكن اتخاذ العجل بدعاً منهم (أي: ليس غريباً عليهم).

(١٤٩) ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ كنايةٌ عن اشتداد ندمهم، فإن النادم المتحسِّر يعضُّ يده غماً (يعضُّ على أصابعه) ﴿وَرَأَوۡاْ﴾ وعلموا ﴿أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾ باتخاذ العجل ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا﴾ بإنزال التوراة ﴿وَيَغۡفِرۡ لَنَا﴾ بالتجاوز عن الخطيئة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ (أقول: هذا قدر الله تعالى، ولكن الطبيعة البشريَّة معرَّضة للمخالفة).

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى
مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ
أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟
يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى
رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟
ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ
تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى
نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ
مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ
قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى
مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

(١٥٠) ﴿**وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا**﴾ شديد الغضب ﴿**قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ**﴾ فعلتم بعدي حيث عبدتم العجل، والخطاب للعبَدَة. أو قمتم مقامي فلم تكفوا العبدة. والخطاب لهارون عليه السلام والمؤمنين معه ﴿**أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ**﴾ أي: أعجلتم وعد ربكم الذي وعدنيه من الأربعين، وقدَّرتم موتي وغيَّرتم بعدي كما غيرَت الأمم بعد أنبيائهم؟ ﴿**وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ**﴾ طرحها من شدَّة الغضب حميَّة للدِّين ﴿**وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ**﴾ بشعر رأسه ﴿**يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ**﴾ توهماً بأنه قصَّر في كفهم. وهارونُ عليه السلام كان أكبر منه بثلاث سنين، وكان حمولاً (أي: حليماً) ليناً، ولذلك كان أحبَّ إلى بني إسرائيل ﴿**قَالَ ٱبْنَ أُمَّ**﴾ ذكَرَ الأمَّ ليرقِّقه عليه، وكانا من أب وأم ﴿**إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى**﴾ إزاحةً لتوهم التقصير في حقه. والمعنى: بذلت وسعي في كفهم حتى قهروني واستضعفوني وقاربوا قتلي ﴿**فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ**﴾ فلا تفعل بي ما يشمتون بي لأجله ﴿**وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾**﴾ معدوداً في عدادهم بالمؤاخذة أو نسبة التقصير.

(١٥١) ﴿**قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى**﴾ بما صنعت بأخي ﴿**وَلِأَخِى**﴾ إن فرَّط في كفهم؛ ضمَّه إلى نفسه في الاستغفار ترضية له ودفعاً للشماتة عنه ﴿**وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾**﴾ فأنت أرحم بنا منا على أنفسنا.

(١٥٢) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ**﴾ وهو ما أمَرَهم به من قتل أنفسهم ﴿**وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا**﴾ وهي خروجهم من ديارهم ﴿**وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾**﴾ على الله تعالى، ولا فرية أعظم من فريتهم، وهي قولهم: هذا إلهكم (أي: العجل) وإله موسى عليه السلام؛ ولعله لم يفترِ مثلها أحدٌ قبلهم ولا بعدهم (أقول: ما سمعنا مثله).

(١٥٣) ﴿**وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ**﴾ من الكفر والمعاصي ﴿**ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا**﴾ من بعد السيئات

﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾ واشتغلوا بالإيمان وما هو مقتضاه من الأعمال الصالحة ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ من بعد التوبة ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣﴾ وإنْ عَظُم الذنب كجريمة عبَدَة العجل، وكثُرَ كجرائم بني إسرائيل.

(١٥٤) ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ سكن ﴿عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ﴾ باعتذار هارون عليه السلام، أو بتوبتهم ﴿أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ﴾ التي ألقاها ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا﴾ وفيما نُسِخَ فيها أي: كُتِب ﴿هُدٗى﴾ بيان للحقِّ ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ إرشاد إلى الصلاح والخير ﴿لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤﴾ (أي: يرهبون معصية الله تعالى، أو عقابَه، لأجل ربِّهم لا رياءً ولا سمعة [حاشية شيخ زاده]).

(١٥٥) ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ أي: من قومه ﴿سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ﴾ فلما دنوا من الجبل غشيه غمام، فدخل موسى عليه السلام بهم الغمام وخروا سجداً، فسمعوه تعالى يكلِّم موسى عليه السلام، يأمره وينهاه، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ أي: الصاعقة، أو رجفة الجبل فصعقوا منها (وماتوا) ﴿قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ من العناد والتجاسر على طلب الرؤية ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ ابتلاؤك، حين أسمعتهم كلامك حتى طمعوا في الرؤية ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ ضلالَهُ بالتجاوز عن حدِّه ﴿وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ﴾ هُداهُ، فيقوى بها إيمانه ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ القائم بأمرنا ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ بمغفرة ما قارفنا (أي: اكتسبنا) ﴿وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾ تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة.

۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا
هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي
وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ
فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ
عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ
ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ
عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ
ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلۡ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي
لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ
فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ
وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾
وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

(١٥٦) ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ حُسْنَ معيشةٍ وتوفيقَ طاعةٍ ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الجنة ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ تبنا إليك ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾ تعذيبه ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ في الدنيا المؤمنَ والكافرَ، بل المكلف وغيره ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾ فسأثبتها في الآخرة ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ خصها بالذكر لإنافتها (لشرفها) ولأنها كانت أشق عليهم ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ فلا يكفرون بشيء منها.

(١٥٧) ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ﴾ المراد مَنْ آمن منهم بمحمد ﷺ، وإنما سماه رسولاً بالإضافة إلى الله تعالى، ونبياً بالإضافة إلى العباد ﴿ٱلۡأُمِّيَّ﴾ الذي لا يكتب ولا يقرأ. وصَفه به تنبيهاً على أن كمال علمه مع حاله إحدى معجزاته ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ اسماً وصفة ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ مما حرِّم عليهم كالشحوم ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ كالدم ولحم الخنزير، أو كالربا والرشوة ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ ويخفف عنهم ما كلفوا به من التكاليف الشاقة؛ كتعيين القصاص في العمد والخطأ، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض موضع النجاسة ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ وعظموه بالتقوية ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: مع نبوته يعني القرآن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ الفائزون بالرحمة الأبدية.

(١٥٨) ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ الخطاب عام، وكان رسول الله ﷺ مبعوثاً إلى كافة الثقلين (أقول: يدخل فيه الملائكة للتشريف)، وسائر الرسل إلى أقوامهم ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل من كتبه ووحيه ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

(١٥٩) ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾ يهدون الناس مُحِقِّين، أو بكلمة الحق ﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ بينهم في الحكم. والمراد بها الثابتون على الإيمان القائمون بالحق من أهل زمانه.

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ
إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ
فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ
وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا
ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ
قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ
شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ
لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾
فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟
يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ
حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ
لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

(١٦٠) ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ وصيَّرناهم قطعاً متميزاً بعضهم عن بعض ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ أي: اثنتي عشرة قبيلة ﴿أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ في التيه ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ﴾ (أي: فانفجرت) ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كل سبط ﴿مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ ليقيهم حرَّ الشمس ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟﴾ أي: وقلنا لهم كلوا ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ بالكفران.

(١٦١) ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ بيت المقدس ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾ وعدٌ بالغفران والزيادة عليه بالإثابة.

(١٦٢) ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ بدَّلوا بما أمروا به من التوبة والاستغفار بطلب ما يشتهون من أعراض الدنيا ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ عذاباً مقدَّراً من السماء بسبب ظلمهم، والمراد به الطاعون.

(١٦٣) ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ عن خبرها وما وقع بأهلها ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ قريبة منه، وهي أيلة ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ يتجاوزون حدود الله تعالى بالصيد يوم السبت ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ يوم تعظيمهم أمر السبت ﴿شُرَّعًا﴾ أي: ظاهرةً على وجه الماء ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ﴾ لا يدخلون في السبت ﴿لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾
فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ
وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ
﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ
﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن
يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ
لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ
ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ
وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ
وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا
وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ
أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ
خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ
بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

(١٦٤) ﴿**وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ**﴾ جماعة من أهل القرية، يعني صلحاءهم الذين اجتهدوا في موعظتهم حتى أيسوا من اتِّعاظهم ﴿**لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا**﴾ في الآخرة لتماديهم في العصيان ﴿**قَالُوا۟**﴾ (أي: الصلحاء) ﴿**مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ**﴾ أي: موعظتنا إنهاء عذر إلى الله تعالى حتى لا ننسب إلى تفريط في النهي عن المنكر ﴿**وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾**﴾ إذ اليأس لا يحصل إلا بالهلاك.

(١٦٥) ﴿**فَلَمَّا نَسُوا۟**﴾ تركوا تركَ الناسي ﴿**مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ**﴾ ما ذكَّرهم به صلحاؤهم ﴿**أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟**﴾ بالاعتداء ومخالفة أمر الله تعالى ﴿**بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ**﴾ شديد (أقول: القرآن الكريم لم يبيِّن القسم الثالث الساكتين عن النهي هل نجَوا أم لا) ﴿**بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾**﴾ بسبب فسقهم.

(١٦٦) ﴿**فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ**﴾ تكبروا عن ترك ما نهوا عنه ﴿**قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾**﴾ الظاهرُ يقتضي أن الله تعالى عذَّبهم أولاً بعذاب شديد فعتوا بعد ذلك فمسخهم (قلنا لهم على لسان نبيهم داود عليه السلام).

(١٦٧) ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ**﴾ المعنى: وإذ أوجب ربك على نفسه ليسلطنَّ على اليهود ﴿**مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ**﴾ كالإذلال وضرب الجزية. بعث الله تعالى عليهم بعد سليمان عليه السلام بختنصر فخرب ديارهم وقتل مقاتليهم وسبى نساءهم وذراريهم وضرب الجزية على من بقي منهم، وكانوا يؤدُّونها إلى المجوس حتى بعث الله تعالى محمداً ﷺ، ففعل ما فعل بهم، ثم ضرب عليهم الجزية ﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ**﴾ عاقبهم في الدنيا ﴿**وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾**﴾ لمن تاب وآمن.

(١٦٨) ﴿**وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا**﴾ وفرَّقناهم فيها بحيث لا يكاد يخلو قُطر منهم، تتمة لإدبارهم حتى لا يكون لهم شوكة قط ﴿**مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ**﴾ وهم الذين آمنوا بالمدينة ونظراؤهم ﴿**وَمِنْهُمْ دُونَ**

ذَٰلِكَ﴾ أي: منحطُّون عن الصلاح، وهم كفرَتُهم وفسَقتُهم ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالنعم والنقم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ عما كانوا عليه.

(١٦٩) ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ المرادُ به الذين كانوا في عصر رسول الله ﷺ ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة من أسلافهم، يقرؤونها ويقفون على ما فيها ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ يعني الدنيا ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لا يؤاخذنا الله تعالى بذلك ويتجاوز عنه ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ أي: يرجون المغفرة مصرِّين على الذنب، عائدين إلى مثله، غير تائبين عنه ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: في الكتاب ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ المراد توبيخهم على البتِّ (القطع) بالمغفرة مع عدم التوبة. والدلالةُ على أنه افتراء على الله تعالى وخروج عن ميثاق الكتاب ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ مما يأخذ هؤلاء ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ فيعلموا ذلك ولا يستبدلوا الأدنى الدنيء المؤدي إلى العقاب بالنعيم المخلَّد.

(١٧٠) ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ (أقول: أي والذين يستمسكون بكتاب الله تعالى ويلتزمون بأحكامه ويحافظون على أداء الصلاة بأركانها وآدابها فلن نضيع لهم أجرهم لتقواهم وصلاحهم).

۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

(١٧١) ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي: قلعناه ورفعناه فوقهم ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ سقيفة، وهي كلُّ ما أظلَّك ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ وتيقنوا ﴿أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ ساقطٌ عليهم، لأن الجبل لا يثبت في الجو، ولأنهم كانوا يوعدون به ﴿خُذُواْ﴾ أي: وقلنا خذوا ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجِدٍّ وعزم على تحمل مشاقِّه ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ بالعمل به، ولا تتركوه كالمنسيِّ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق.

(١٧٢) ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: أخرجَ من أصلابهم نسلَهم على ما يتوالدون قرناً بعد قرن ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أي: ونصب لهم دلائل ربوبيته، وركَّب في عقولهم ما يدعوهم إلى الإقرار بها حتى صاروا بمنزلة من قيل لهم: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى، فنزل تمكينهم من العلم بها وتمكُّنهم منه بمنزلة الإشهاد والاعتراف. ويدلُّ عليه قوله: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: كراهة أن تقولوا ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ لم ننبَّه عليه بدليل. (أقول: هذا الوعد ثابت، لكنهم إذا جاؤوا إلى الدنيا فالذين أراد الله تعالى أن لا ينسوه لم ينسوا، وبقوا على هذا الوعد، والذين نسوا وعْدَهم لله تعالى بقوا في الدنيا كافرين).

(١٧٣) ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فاقتدينا بهم، لأن التقليد عند قيام الدليل والتمكُّن من العلم به لا يصلح عذراً ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ يعني آباءهم المبطلين بتأسيس الشرك. وقيل: لما خلق الله تعالى آدم أخرج من ظهره ذرية كالذر، وأحياهم وجعل لهم العقل والنطق وألهمهم ذلك. والمقصود من إيراد هذا الكلام هٰهنا إلزام اليهود بمقتضى الميثاق العام بعدما ألزمهم بالميثاق المخصوص بهم، والاحتجاج عليهم بالحجج السمعية والعقلية، ومنعهم عن التقليد، وحملهم على النظر والاستدلال، كما قال:

(١٧٤) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ أي: عن التقليد واتباع الباطل.

(١٧٥) ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على اليهود ﴿نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ هو أحد علماء بني إسرائيل، وهو بلعم بن باعوراء، من الكنعانيين، أوتي علمَ بعض كتب الله تعالى ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ من الآيات، بأن كفر بها

وأعرض عنها ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ حتى لحقه وأدركه قريناً له ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ فصار من الضالين.

(١٧٦) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء ﴿بِهَا﴾ أي: بسبب تلك الآيات وملازمتها ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ مالَ إلى الدنيا أو إلى السفالة ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ في إيثار الدنيا واسترضاء قومه، وأعرض عن مقتضى الآيات، فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ فصفته التي هي مثلٌ في الخسة ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ كصفته في أخسِّ أحواله، وهو ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ أي: يلهث دائماً، سواء حُمل عليه بالزجر والطرد أو تُرك ولم يتعرض له، بخلاف سائر الحيوانات لضعف فؤاده ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ تفكراً يؤدي بهم إلى الاتعاظ.

(١٧٧) ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بعد قيام الحجة عليهم وعلمهم بها ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ (اللهم لا تجعلنا من الذين يأمنون من عذابك إن عذابك غير مأمون).

(١٧٨) ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ تصريحٌ بأن الهدى والضلال من الله تعالى، وأن هداية الله تعالى تختص ببعضٍ دون بعض، وأنها مستلزمة للاهتداء (أقول: والاهتداء متعلِّق بمشيئته جل وعلا)، والاقتصارُ في الإِخبار عمن هداه الله تعالى بالمهتدي تعظيم لشأن الاهتداء، وتنبيهٌ على أنه في نفسه كمالٌ جسيمٌ ونفعٌ عظيمٌ، لو لم يحصل له غيره لكفاه، وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوانُ لها.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

(١٧٩) ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا**﴾ خلقنا ﴿**لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ**﴾ يعني المصرِّين على الكفر في علمه تعالى ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا**﴾ أي: لا يلقونها إلى معرفة الحق والنظر في دلائله ﴿**وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا**﴾ أي: لا ينظرون إلى مَا خَلَقَ الله تعالى نظر اعتبار ﴿**وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾ الآيات والمواعظ سماعَ تأمُّلٍ وتذكُّر ﴿**أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ**﴾ في عدم الفقه والإبصار للاعتبار والاستماع للتدبر، أو في أن مشاعرهم وقواهم متوجهة إلى أسباب التعيش مقصورة عليها ﴿**بَلْ هُمْ أَضَلُّ**﴾ فإنها تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار، وتجتهد في جلبها ودفعها غاية جهدها، وهم ليسوا كذلك، بل أكثرهم يعلم أنه معانِد فيقدم على النار ﴿**أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾**﴾ الكاملون في الغفلة.

(١٨٠) ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ**﴾ لأنها دالة على معان هي أحسن المعاني، والمراد بها الألفاظ، وقيل: الصفات (أقول: وأسماء الله تعالى توقيفيَّة) ﴿**فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ فسمُّوه بتلك الأسماء ﴿**وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ**﴾ واتركوا تسمية الزائغين فيها، الذين يسمونه بما لا توقيف فيه ﴿**سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾**﴾.

(١٨١) ﴿**وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾**﴾ ذكَر ذلك بعد ما بيَّن أنه خلق للنار طائفة ضالين ملحدين عن الحق، للدلالة على أنه خلق أيضاً للجنة أمة هادين بالحق عادلين في الأمر. واستُدِلَّ به على صحة الإجماع، لأن المراد منه أن في كل قرن طائفة بهذه الصفة،لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تزال من أمتي طائفة على الحق إلى أن يأتي أمر الله» [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى] إذ لو اختص بعهد الرسول ﷺ أو غيره لم يكن لذكره فائدة فإنه معلوم.

(١٨٢) ﴿**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم**﴾ سنستدنيهم إلى الهلاك قليلاً قليلاً ﴿**مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾**﴾ ما نريد بهم، وذلك أن تتواتر عليهم النعم فيظنوا أنها لطف من الله تعالى بهم، فيزدادوا بطراً وانهماكاً في الغيِّ حتى يحق عليهم كلمة العذاب.

(١٨٣) ﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ ﴾ وأُمهِلهم ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ إن أخذي شديد. وإنما سماه كيداً لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان.

(١٨٤) ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍۚ ﴾ من جنون ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ١٨٤﴾ موضِّحُ إنذارَه بحيث لا يخفى على ناظر.

(١٨٥) ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ ﴾ نظر استدلال ﴿فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ ﴾ مما يقع عليه اسم الشيء من الأجناس التي لا يمكن حصرها، ليدلهم على كمال قدرة صانعها ووحدة مبدعها وعظم شأن مالكها ومتولي أمرها، ليظهر لهم صحة ما يدعوهم إليه ﴿وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ ﴾ المعنى: أو لم ينظروا في اقتراب آجالهم وتوقع حلولها فيسارعوا إلى طلب الحق والتوجه إلى ما ينجيهم قبل مغافصة (أي: مفاجأة) الموت ونزول العذاب ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ﴾ أي: بعد القرآن ﴿يُؤۡمِنُونَ ١٨٥﴾ إذا لم يؤمنوا به، وهو النهاية في البيان. كأنه إخبار عنهم بالطبع والتصميم على الكفر بعد إلزام الحجة والإرشاد إلى النظر.

(١٨٦) ﴿ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ ﴾ (أي: من يضللِ اللهُ تعالى لا يهده أحد) ﴿وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ (كفرهم) ﴿يَعۡمَهُونَ ١٨٦﴾ (يتحيَّرون).

(١٨٧) ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ أي: عن القيامة ﴿أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ ﴾ متى إرسَاؤهَا، أي: إثباتها واستقرارها ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ ﴾ استأثر به، لم يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ ﴾ لا يُظهر أمرها في وقتها ﴿إِلَّا هُوَۚ﴾ والمعنى أن الخفاء بها مستمر على غيره جل وعلا إلى وقت وقوعها ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ عظُمت على أهلها من الملائكة والثقلين لهولها ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ ﴾ إلا فجأة على غفلة ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾ عالمٌ بها ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ أن عِلْمَها عِندَ الله تعالى لم يؤته أحداً من خلقه.

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

(١٨٨) ﴿**قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا**﴾ جلبَ نفعٍ ولا دفعَ ضرٍّ؛ وهو إظهار العبودية والتبري من ادعاء العلم بالغيوب ﴿**إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ**﴾ من ذلك، فيلهمني إياه ويوفقني له ﴿**وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ**﴾ ولو كنت أعلمه لخالفتْ حالي ما هي عليه من استكثار المنافع واجتناب المضار حتى لا يمسني سوء ﴿**إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ**﴾ ما أنا إلا عبد مرسل للإنذار والبشارة ﴿**لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾**﴾ فإنهم المنتفعون بهما.

(١٨٩) ﴿**هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ**﴾ هو آدم ﴿**وَجَعَلَ مِنۡهَا**﴾ من جسدها من ضلع من أضلاعها، أو من جنسها ﴿**زَوۡجَهَا**﴾ حواء ﴿**لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ**﴾ ليستأنس بها ويطمئن إليها اطمئنان الشيء إلى جزئه أو جنسه ﴿**فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا**﴾ أي: جامعها ﴿**حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا**﴾ خفَّ عليها، ولم تلق منه ما تلقى منه الحوامل غالباً من الأذى ﴿**فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ**﴾ فاستمرت به، أي: قامت وقعدت ﴿**فَلَمَّآ أَثۡقَلَت**﴾ صارت ذات ثقل بكبر الولد في بطنها ﴿**دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا**﴾ ولداً سوياً قد صلح بدنه ﴿**لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾**﴾ لك على هذه النعمة المجدّدة.

(١٩٠) ﴿**فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ**﴾ (أقول: المقصود هنا ذريتهما وليس هما) أي: جعل أولادهما له شركاء ﴿**فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾**﴾.

(١٩١) ﴿**أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿١٩١﴾**﴾ يعني الأصنام.

(١٩٢) ﴿**وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا**﴾ أي: لعبدَتهم ﴿**وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾**﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها.

(١٩٣) ﴿**وَإِن تَدۡعُوهُمۡ**﴾ أي: المشركين ﴿**إِلَى ٱلۡهُدَىٰ**﴾ إلى الإسلام ﴿**لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾**﴾.

(١٩٤) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ**﴾ أي: تعبدونهم وتسمونهم آلهة ﴿**عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ**﴾ من حيث إنها مملوكة مسخرة ﴿**فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾**﴾ أنهم آلهة.

(١٩٥) ﴿**أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ**﴾ واستعينوا بهم في عداوتي ﴿**ثُمَّ كِيدُونِ**﴾ فبالغوا فيما تقدرون عليه من مكروهي أنتم وشركاؤكم ﴿**فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾**﴾ فلا تمهلون، فإني لا أبالي بكم لوثوقي على ولاية الله تعالى وحفظه.

إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾
وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ
أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ
وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ
بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ
ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ
فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ
لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ
قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ
وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ
فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ
فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ
وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ
لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَۤ ۩ ﴿٢٠٦﴾

(١٩٦) ﴿**إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ**﴾ القرآن ﴿**وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦**﴾ أي: ومن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده، فضلاً عن أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

(١٩٧) ﴿**وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧**﴾ من تمام التعليل لعدم مبالاته بهم.

(١٩٨) ﴿**وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨**﴾ يشْبِهون الناظرين إليك، لأنهم صُوِّروا بصورةِ من ينظر إلى من يواجهه.

(١٩٩) ﴿**خُذِ ٱلۡعَفۡوَ**﴾ أي: خذ مَا عفا لك من أفعال الناس وتسهَّلْ ولا تطلب ما يشق عليهم، أو خذ العفو عن المذنبين ﴿**وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ**﴾ المعروف، المستحسن من الأفعال ﴿**وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩**﴾ فلا تمارِهم (أي: فلا تجادلهم) ولا تكافئهم بمثل أفعالهم. وهذه الآية جامعةٌ لمكارم الأخلاق، آمرةٌ للرسول ﷺ باستجماعها.

(٢٠٠) ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ**﴾ يسمع استعاذتك ﴿**عَلِيمٌ ٢٠٠**﴾ يعلم ما فيه صلاح أمرك فيحملك عليه، أو سَمِيعٌ بأقوال من آذاك، عَلِيمٌ بأفعاله، فيجازيه عليها مغنياً إياك عن الانتقام ومشايعة الشيطان.

(٢٠١) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ**﴾ لَمَّة (أي: خاطر) منه. كأنها طافت بهم ودارت حولهم فلم تقدر أن تؤثر فيهم. أو مِن طاف به الخيال (أقول: كلُّ ما يوسوس به الشيطان خيال) ﴿**تَذَكَّرُواْ**﴾ مَا أَمَرَ الله تعالى بِهِ ونهى عنه ﴿**فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١**﴾ (لحيل الشيطان وحيل النفس الأمارة) فيتحرزون عنها ولا يتبعونها.

(٢٠٢) ﴿**وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ**﴾ أي: وإخوان الشياطين الذين لم يتقوا يمدهم الشياطين ﴿**فِي ٱلۡغَيِّ**﴾ بالتزيين والحمل عليه ﴿**ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢**﴾ ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى يُرْدوهم.

(٢٠٣) ﴿**وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ**﴾ من القرآن أو مما اقترحوه ﴿**قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ**﴾ هلَّا جمعتها تقوُّلًا من

نفسك كسائر ما تقرؤه، أو هلَّا طلبتها من الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ لست بمختلِقٍ للآيات، أو لست بمقترح لها ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ هذا القرآن بصائر للقلوب، بها يبصَر الحقُّ ويدرَك الصواب ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

(٢٠٤) ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ نزلت في الصلاة، كانوا يتكلمون فيها فأمروا باستماع قراءة الإمام والإنصات له. وظاهر اللفظ يقتضي وجوبهما حيث يقرأ القرآن مطلقاً، وعامة العلماء على استحبابهما خارج الصلاة. واحتجَّ به من لا يرى وجوب القراءة على المأموم وهو ضعيف (أقول: ليس ضعيفاً، لأنه هذا قول المجتهد، وهو الإمام أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه، وإن كانوا في صلاة السر يقرؤون الفاتحة وراء الإمام في مذهب الأحناف، كما قال الإمام محمد رحمه الله تعالى).

(٢٠٥) ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ عامٌّ في الأذكار، من القراءة والدعاء وغيرهما، أو أمرٌ للمأموم بالقراءة سراً بعد فراغ الإمام عن قراءته، كما هو مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه (أقول: وهو كذلك ليس ممنوعاً عند الأحناف كما قال الإمام محمد رحمه الله تعالى) ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ متضرعاً وخائفاً ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ومتكلماً كلاماً فوق السرِّ ودون الجهر، فإنه أدخل في الخشوع والإخلاص ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ بأوقات الغدو والعشيات ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ عن ذكر الله تعالى.

(٢٠٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني ملائكة الملأ الأعلى ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ وينزهونه ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ ويخصَّونه بالعبادة والتذلل، لا يشركون به غيره. وهو تعريض بمن عداهم من المكلفين، ولذلك شُرِع السجود لقراءته.

وعن النبي ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي، فيقول: يا ويلهُ أُمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمِرتُ بالسجود فعصيت فلي النار» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى].

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الأعراف
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

٨ سُورَةُ الأَنفَالِ ٧٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم
مُّؤۡمِنِينَ ١ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ
قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ
يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ
يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ
رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ
مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥
يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ
وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا
لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ
وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ
٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأنفال

مدنيَّة، وآياتها خمس وسبعون

(١) ﴿**يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ**﴾ أي: الغنائم، يعني حكمَها؛ وإنما سميت الغنيمة نَفَلًا لأنها عطية من الله تعالى وفضل منه جل وعلا ﴿**قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ**﴾ أي: أمرُها مختصٌّ بهما، يقسمها الرسول ﷺ على ما يأمره الله تعالى به. وسبب نزوله اختلاف المسلمين في غنائم بدر أنها كيف تقسم ومن يقسم، المهاجرون منهم أو الأنصار. وقيل: شَرَطَ رسول الله ﷺ لمن كان له غَناء أن ينفله، فتسارَعَ شبانهم حتى قَتلوا سبعين وأَسَروا سبعين، ثم طلبوا نفلهم (أي: طلبوا ما غنموا). وكان المال قليلاً، فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كنا رِدْءاً لكم وفئة تنحازون إلينا، فنزلت، فقسَّمها رسول الله ﷺ بينهم على السواء. ولهذا قيل: لا يلزم الإمام أن يفي بما وعد، وهو قول الشافعي رضي الله عنه. وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: لما كان يوم بدر قُتل أخي عمير، فقتلتُ به سعيد بن العاص وأخذت سيفه، فأتيتُ به رسول الله ﷺ واستوهبته منه فقال: ليس هذا لي ولا لك، اطرحه في القبض (مكان مال الغنائم)، فطرحته وبي ما لا يعلمه إلا الله تعالى من قَتْلِ أخي وأَخْذِ سَلبي، فما جاوزتُ إلا قليلاً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: سألتني السيف وليس لي، وإنه قد صار لي، فاذهب فخذه [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى مختصراً].

﴿**فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ**﴾ في الاختلاف والمشاجرة ﴿**وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ**﴾ الحالَ التي بينكم بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله تعالى وتسليم أمره إلى الله تعالى والرسول ﷺ ﴿**وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ**﴾ فيه ﴿**إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١**﴾ فإن الإيمان يقتضي ذلك (أقول: لأن من أطاع الرسول ﷺ فقد أطاع الله تعالى). أو إن كنتم كاملي الإيمان فإن كمال الإيمان بهذه الثلاثة: طاعة الأوامر، والاتقاء عن المعاصي، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان. (اللهم اجعلنا من المؤمنين الموافقين للكتاب والسنة)

(٢) ﴿**إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ**﴾ أي: الكاملون في الإيمان ﴿**ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ**﴾ فَزِعت لذكره

استعظاماً له وتهيباً من جلاله ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ لزيادة المؤمَن به، أو لاطمئنان النفس ورسوخ اليقين بتظاهر الأدلة ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ يفوِّضون إليه أمورهم ولا يخشون ولا يرجون إلا إياه.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ (جمع بين أعمال القلوب من الوَجَل والإخلاص والتوكُّل، وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة [المدارك للنسفي]).

(٤) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم حقَّقوا إيمانهم بأن ضمُّوا إليه مكارم أعمال القلوب، من الخشية والإخلاص والتوكل، ومحاسنَ أفعال الجوارح التي هي العيار عليها (أي: المعيار)، من الصلاة والصدقة ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ كرامةٌ وعلوُّ منزلةٍ ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لِما فرط منهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ أُعِدَّ لهم في الجنة، لا ينقطع عدده ولا ينتهي أمده.

(٥) ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾﴾ أي: أخرجك في حال كراهتهم. وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكباً منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل وعمرو بن هشام، فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ، فأخبر المسلمين، فأعجبهم تلقيها لكثرة المال وقلة الرجال، فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة، فنادى أبو جهل فوق الكعبة: يا أهل مكة النجاءَ النجاء (أي: الزموا الإسراع) على كل صعب وذلول، عيركم وأموالكم إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً. وقد رأت قبل ذلك بثلاثٍ عاتكة بنت عبد المطلب أن ملَكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها، فلم يبق بيت في مكة إلا أصابه شيء منها، فحدثت بها العباس، وبلغ ذلك أبا جهل فقال: ما يرضى رجالهم أن يتنبؤوا حتى تتنبأ نساؤهم، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة، ومضى بهم إلى بدر، وهو ماء كانت العرب تجتمع عليه لسُوقهم يوماً في السنة، وكان رسول الله ﷺ بوادي ذفران، فنزل عليه جبريل عليه السلام بالوعد بإحدى الطائفتين، إما العير وإما قريش، فاستشار فيه أصحابه، فقال بعضهم: هلَّا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له، إنما خرجنا للعير، فردَّ عليهم وقال: إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: يا رسول الله! عليك بالعير ودع العدو، فغضب رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما وقالا فأحسنا، ثم قام سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنه فقال: انظر أمرك فامض فيه، فوالله لو سرتَ إلى عدن أبيَن ما تخلَّف عنك رجل من الأنصار، ثم قال مقداد بن عمرو رضي الله تعالى عنه: امضِ لِما أمرك الله، فإنا معك حيثما أحببت، لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلَا إِنَّا هٰهُنا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «أشيروا عليَّ أيها الناس» وهو يريد الأنصار لأنهم كانوا عددهم، وقد شرطوا حين بايعوه بالعقبة أنهم برآء من ذمامه حتى يصل إلى ديارهم، فتخوَّف أن لا يروا نصرته إلا على عدوٍّ دَهَمه (أي: هاجمه) بالمدينة، فقام سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه فقال: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ فقال: أجل، قال: قد آمنَّا بك وصدَّقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على

السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لِمَا أردتَ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلَّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا، وإنا لصُبُرٌ عند الحرب صُدُقٌ عند اللقاء، ولعل الله تعالى يريك منا ما تقرُّ به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله تعالى، فنشَّطه قوله، ثم قال: «سيروا على بركة الله تعالى وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، واللهِ لكأني أنظر إلى مصارع القوم» [رواه البيهقي في الدلائل وابن هشام في السيرة].

(٦) ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾ في إيثارك الجهاد بإظهار الحق، لإيثارهم تلقي العير عليه ﴿بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ لهم أنهم يُنصرون أينما توجهوا بإعلام الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦﴾ أي: يكرهون القتال كراهة من يُساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه. وكان ذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم، إذ روي أنهم كانوا رَجَّالة (أي: مشاة) وما كان فيهم إلا فارسان. وفيه إيماء إلى أن مجادلتهم إنما كانت لفرط فزعهم ورعبهم.

(٧) ﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ يعني العير، فإنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً، ولذلك يتمنونها ويكرهون ملاقاة النفير لكثرة عَدَدِهِمْ وعُدَدِهم (وذاتُ الشوكة: هي الحرب، كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما) ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ أي: يثبته ويعليه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الموحى بها في هذه الحال، أو بأوامره للملائكة بالإمداد ﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧﴾ ويستأصلهم. والمعنى أنكم تريدون أن تصيبوا مالاً ولا تلقوا مكروهاً، واللهُ يريد إعلاء الدين وإظهار الحق وما يحصِّل لكم فوز الدارين.

(٨) ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ أي: فعل ما فعل، وليس بتكرير، لأن الأول لبيان المراد وما بينه وبين مرادهم من التفاوت، والثاني لبيان الداعي إلى حمل الرسول ﷺ على اختيار ذات الشوكة ونصره عليها ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨﴾ ذلك.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ
مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ
وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ
عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ
الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾
إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ
سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ
الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ
كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ
بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

(٩) ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ**﴾ واستغاثتُهم أنهم لما علموا أنْ لا محيص عن القتال أخذوا يقولون: أي ربِّ انصرنا على عدوك، أغثنا يا غياث المستغيثين. وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة السلام نظر إلى المشركين وهم ألفٌ وإلى أصحابه وهم ثلاث مئة، فاستقبل القبلة ومدَّ يديه يدعو: «اللهم أنجزْ لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض» فما زال كذلك حتى سقط رداؤه، فقال أبو بكر: يا نبي الله! كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك ﴿**فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ** ﴿٩﴾﴾ مُتْبِعين المؤمنين، أو بعضَهم بعضاً.

(١٠) ﴿**وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ**﴾ أي: الإمداد ﴿**إِلَّا بُشْرَىٰ**﴾ إلا بشارة لكم بالنصر ﴿**وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ**﴾ فيزول ما بها من الوجل لقلَّتكم وذلّتكم ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴿١٠﴾﴾ وإمدادُ الملائكة وكثرةُ العدد والأهب (أي: الاستعداد) ونحوهما وسائطُ لا تأثير لها، فلا تحسبوا النصر منها، ولا تيأسوا منه بفقدها.

(١١) ﴿**إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ**﴾ أمناً من الله تعالى. لأنه كان من حقه أن لا يغشاهم لشدة الخوف، فلما غشيهم فكأنه حصلت لهم أمنة من الله تعالى لولاها لم يغشَهم ﴿**وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ**﴾ من الحدث والجنابة ﴿**وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ**﴾ يعني الجنابة لأنها من تخييله، أو وسوسته وتخويفَه إياهم من العطش. روي أنهم نزلوا في كثيب أَعْفَرَ تسوخ (أي: رمل أحمر تغوص) فيه الأقدام، على غير ماء، وناموا فاحتلم أكثرهم، وقد غلب المشركون على الماء، فوسوس إليهم الشيطان وقال: كيف تُنصرون وقد غُلبتم على الماء وأنتم تصلُّون مُحْدِثين مُجْنِبين وتزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله ﷺ، فأشفقوا، فأنزل الله تعالى المطر، فمُطروا ليلاً حتى جرى الوادي واتخذوا الحياض على عُدْوَته (أي: جانبه)، وسقوا الركاب واغتسلوا وتوضؤوا، وتلبَّد الرمل الذي بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام، وزالت الوسوسة ﴿**وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ**﴾ بالوثوق على لطف الله تعالى بهم ﴿**وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ** ﴿١١﴾﴾ أي: بالمطر حتى لا تسوخ (أي: تغوص) في الرمل، أو بالربط على القلوب حتى تثبت في المعركة.

(١٢) ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ في إعانتهم وتثبيتهم ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالبشارة، أو بتكثير سوادهم، أو بمحاربة أعدائهم ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ فيه دليل على أنهم قاتلوا. ومَن مَنَع ذلك جعَلَ الخطاب فيه مع المؤمنين، كأنه قال: قولوا لهم قوْلي هذا ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أعاليها التي هي المذابح أو الرؤوس ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ أصابع، أي: حُزُّوا رقابهم واقطعوا أطرافهم.

(١٣) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الضرب أو الأمر به ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ وعيدٌ بما أُعِدَّ لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا.

(١٤) ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الخطاب فيه مع الكفرة على طريقة الالتفات، أي: ذلكم واقع ﴿فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾ المعنى ذوقوا ما عُجِّل لكم مع ما أُجِّل لكم في الآخرة.

(١٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾ كثيراً، بحيث يرى لكثرتهم كأنهم يزحفون ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ بالانهزام، فضلاً عن أن يكونوا مثلكم أو أقل منكم.

(١٦) ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ يريد الكرَّ بعد الفرِّ وتغرير العدو، فإنه من مكايد الحرب ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أو منحازاً إلى فئة أخرى من المسلمين على القرب ليستعين بهم ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ هذا إذا لم يزد العدو على الضِّعْف.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

(١٧) ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ**﴾ بقوتكم ﴿**وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ**﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم. روي: أنه لما طلعت قريش من العقنقل (اسم مكان، وهو كثيب يُرى من ماء بدر) قال عليه الصلاة والسلام: هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك، اللهم إني أسألك ما وعدْتني، فأتاه جبريل عليه السلام وقال له: خذ قبضة من تراب فارْمِهم بها، فلما التقى الجمعان تناول كفاً من الحصباء فرمى بها في وجوههم وقال: «شاهت الوجوه»، فلم يبقَ مشرك إلا شُغل بعينيه، فانهزموا وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، ثم لما انصرفوا أقبلوا على التفاخر، فيقول الرجل: قَتلتُ وأَسرتُ، فنزلت [والحديث أصله في صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ﴿**وَمَا رَمَيْتَ**﴾ يا محمد ﷺ رمياً توصله إلى أعينهم، ولم تقدِرْ عليه ﴿**إِذْ رَمَيْتَ**﴾ أي: إذ أتيت بصورة الرمي ﴿**وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ**﴾ أتى بما هو غاية الرمي، فأوصلها إلى أعينهم جميعاً حتى انهزموا وتمكنتم من قطع دابرهم ﴿**وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا**﴾ ولينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ومشاهدة الآيات ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ**﴾ لاستغاثتهم ودعائهم ﴿**عَلِيمٌ ﴿١٧﴾**﴾ بنيَّاتهم وأحوالهم.

(١٨) ﴿**ذَٰلِكُمْ**﴾ إشارة إلى البلاء الحسن، أو القتل، أو الرمي ﴿**وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾**﴾ أي: المقصود توهينُ كيد الكافرين وإبطالُ حيلهم.

(١٩) ﴿**إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ**﴾ خطابٌ لأهل مكة على سبيل التهكم، وذلك أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين ﴿**وَإِن تَنتَهُوا۟**﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول ﷺ ﴿**فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلين ﴿**وَإِن تَعُودُوا۟**﴾ لمحاربته ﴿**نَعُدْ**﴾ لنصرته عليكم ﴿**وَلَن تُغْنِيَ**﴾ ولن تدفع ﴿**عَنكُمْ فِئَتُكُمْ**﴾ جماعتكم ﴿**شَيْـًٔا**﴾ من الإغناء أو المضار ﴿**وَلَوْ كَثُرَتْ**﴾ فئتكم ﴿**وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾**﴾ بالنصر والمعونة.

(٢٠) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ**﴾ أي: ولا تتولوا عن الرسول ﷺ، فإن المراد من الآية الأمرُ بطاعته والنهيُ عن الإعراض عنه. وذكرَ طاعة الله تعالى للتوطئة والتنبيه على أن طاعة الله

تعالى في طاعة الرسول ﷺ، لقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ القرآن والمواعظ سماعَ فهمٍ وتصديقٍ.

(٢١) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ كالكفرة والمنافقين الذين ادَّعوا السماع ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ سماعاً ينتفعون به، فكأنهم لا يسمعون رأساً (أقول: وفي هذا تنبيه للمؤمنين، فإنهم مع وجود إيمانهم يسمعون كلام الله جل وعلا ويخالفونه. علينا معشر المؤمنين جميعاً أن نتمسك بأوامر الله تعالى ونواهيه. والنتيجةُ أن المؤمنين على الحق، سواء ربحوا وفازوا أو لم يفوزوا).

(٢٢) ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ﴾ شرَّ ما يدب على الأرض، أو شرَّ البهائم ﴿الصُّمُّ﴾ عن الحق ﴿الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ إياه. عدَّهم من البهائم ثم جعلهم شرَّها، لإبطالهم ما مُيِّزوا به وفُضِّلوا لأجله.

(٢٣) ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ سعادةً كُتِبت لهم أو انتفاعاً بالآيات ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ سماعَ تفهمٍ ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ وقد علم أن لا خير فيهم ﴿لَتَوَلَّوا﴾ ولم ينتفعوا به، أو ارتدوا بعد التصديق والقبول ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ لعنادهم.

(٢٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بالطاعة ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام مرَّ على أبي بن كعب رضي الله تعالى وهو يصلي، فدعاه فعجَّل في صلاته ثم جاء، فقال: ما منعك عن إجابتي؟ قال: كنت أصلي، قال: «ألم تخبَر فيما أوحي إليَّ: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾» [رواه الإمام أحمد والترمذي رحمهما الله تعالى]. واختُلِف فيه، فقيل: هذا لأن إجابته لا تقطع الصلاة، فإن الصلاة أيضاً إجابة. وقيل: لأن دعاءه كان لأمر لا يَحتمل التأخير. وللمصلي أن يقطع الصلاة لمثله، وظاهر الحديث يناسب الأول (أقول: وأما بعد وفاته ﷺ فأمْرُه قائم مكانه في الحياة، فلا بدَّ للمؤمن أن يهتمَّ بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام وسنَّته، لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]) ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من العلوم الدينية، فإنها حياة القلب، والجهل موته. أو مما يورثكم الحياة الأبدية في النعيم الدائم من العقائد والأعمال. أو من الجهاد، فإنه سبب بقائكم، إذ لو تركوه لغلبهم العدو وقتلهم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ تمثيلٌ لغاية قربه من العبد، كقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وتنبيهٌ على أنه مطلع على مكنونات القلوب مما عسى يغفل عنه صاحبها. أو حثٌّ على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها قبل أن يحول الله تعالى بينه وبين قلبه بالموت أو غيره. أو تصوير وتخييل لتملكه على العبد قلبه فيفسخ عزائمه ويغير مقاصده ويحول بينه وبين الكفر إن أراد سعادته، وبينه وبين الإيمان إن قضى شقاوته (أقول: الله تعالى قادر أن يتجلى على قلب المؤمن ويغيِّر عزيمته) ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فيجازيكم بأعمالكم (أقول: يعني إذا تجلى الله تعالى على قلب المرء يحول بسطوات أنوار جماله وجلاله بين مرآة قلبه وظلمة أوصاف قالبه ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: اعلموا يا معشر المؤمنين أن الله تعالى يصرف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه

البشر، فيفسخ عزيمة الإنسان ويغيِّر مقاصده، ويلهمه الرشاد أو يزيغ قلبه، فهو المتصرِّف في شؤون الكون، ولهذا كان ﷺ يدعوا بهذا الدعاء: «اللهم يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك» [رواه الإمام أحمد والترمذي رحمهما الله تعالى]. ومرجعُكم إلى الله تعالى فيجازكم على أعمالكم، فسارعوا إلى طاعته؛ وفي الآية حثٌّ على إخلاص القلوب وتصفيتها، وأن لا يغترَّ العبد بعمله ولا يعتمد عليه، عليه أن يطيع الله تعالى والرسول صلوات الله عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين).

(٢٥) ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ اتقوا ذنباً يعمُّكم أثرُهُ، كإقرار المنكر بين أظهركم، والمداهنة في الأمر بالمعروف، وافتراق الكلمة، وظهور البدع، والتكاسل في الجهاد ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾.

وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ
أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم
مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ
﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ
عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ
ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ
لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ
ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا
قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ
أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا
هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ
وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿٣٣﴾

(٢٦) ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرض مكة، يستضعفكم قريش. والخطاب للمهاجرين، وقيل: للعرب كافة، فإنهم كانوا أذلاء في أيدي فارس والروم ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ إلى المدينة، أو جعل لكم مأوى تتحصنون به عن أعاديكم ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾ على الكفار، أو بمظاهرة الأنصار، أو بإمداد الملائكة يوم بدر ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من الغنائم ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ هذه النعم.

(٢٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ بتعطيل الفرائض والسنن، أو بأن تضمروا خلاف ما تظهرون، أو بالغلول (وهو الخيانة في المغانم) روي: «أنه عليه الصلاة والسلام حاصر بني قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوه الصلح كما صالح إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعات وأريحاء بأرض الشام، فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسلْ إلينا أبا لبابة، وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله في أيديهم، فبعثه إليهم، فقالوا: ما ترى هل ننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح، قال أبو لبابة: فما زالت قدماي حتى علمتُ أني قد خنت الله ورسوله ﷺ ، فنزلت. فشدَّ نفسه على سارية في المسجد وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله تعالى علي، فمكث سبعة أيام حتى خرَّ مغشياً عليه، ثم تابَ الله تعالى عليه، فقيل له: قد تيب عليك فحُلَّ نفسك، فقال: لا والله لا أحلُّها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلُّني، فجاءه فحلَّه بيده، فقال: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبتُ فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي، فقال عليه الصلاة والسلام: يجزيك الثلث أن تتصدق به» [رواه البيهقي بطوله، والإمام أحمد وأبو داود رحمهم الله تعالى مختصراً] ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ فيما بينكم ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أنكم تخونون.

(٢٨) ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ لأنهم سبب الوقوع في الإثم أو العقاب. أو محنةٌ من الله تعالى ليبلوكم فيهم، فلا يحملنَّكم حبهم على الخيانة كأبي لبابة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾ لمن آثر رضا الله تعالى عليهم وراعى حدوده فيهم، فأنيطوا هممكم بما يؤديكم إليه.

(٢٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ هدايةً في قلوبكم تفرِّقون بها بين الحق والباطل (أقول: الحق من الله تعالى، والباطل والخطرات والوساوس من الشيطان)، أو نصراً يفرِّق بين المحقِّ والمبطل بإعزاز

المؤمنين وإذلال الكافرين ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ تنبيهٌ على أن ما وعده لهم على التقوى تفضُّلٌ منه وإحسانٌ (أقول: وليس واجباً عليه جلَّ وعلا، ولا هو محتاج إلى التقوى منكم).

(٣٠) ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تذكارٌ بمكر قريش به حين كان بمكة، ليشكر نعمة الله تعالى في خلاصه من مكرهم واستيلائه عليهم. والمعنى: واذكر إذ يمكرون بك ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ بالوثاق، أو الحبس، أو الإثخان بالجرح ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بسيوفهم ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ﴾ من مكة. وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصار ومبايعتهم فزعوا واجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال: أنا شيخ من نجد، سمعت اجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً، فقال أبو البحتري: رأيي أن تحبسوه في بيت وتسدوا منافذه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها حتى يموت، فقال الشيخ: بئس الرأي، يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم، فقال هشام بن عمرو: رأيي أن تحملوه على جمل فتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صنع، فقال بئس الرأي، يفسد قوماً غيركم ويقاتلكم بهم، فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً صارماً فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طلبوا العقل (أي: الدية) عقلناه (أي: أدَّينا ديته)، فقال: صدق هذا الفتى (عليهما اللعنة)، فتفرَّقوا على رأيه، فأتى جبريلُ عليه السلام النبيَّ ﷺ وأخبره الخبر وأمره بالهجرة، فبيَّت علياً رضي الله تعالى عنه في مضجعه، وخرج مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه إلى الغار ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ﴾ بردِّ مكرهم عليهم، أو بمجازاتهم عليه، أو بمعاملة الماكرين معهم بأن أخرجهم إلى بدر وقلل المسلمين في أعينهم حتى حملوا عليهم فقُتِلوا ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ إذ لا يؤبه بمكرهم دون مكره؛ وإسناد أمثال هذا مما يحسن للمزاوجة ولا يجوز إطلاقها ابتداء، لِما فيه من إيهام الذم (أقول: لأن ظاهر اللفظ لا يليق بذاته جل وعلا، وإنما هو لمقابلة اللفظ باللفظ، كما سمى جزاء السيئة سيئة؛ ومثلُ هذا يسمى مشاكلة).

(٣١) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ﴾ هو قول النضر بن الحارث، وإسنادُه إلى الجميع إسنادُ ما فعله رئيس القوم إليهم، فإنه كان قاضيهم. أو قول الذين ائتمروا في أمره عليه الصلاة والسلام. وهذا غاية مكابرتهم وفرط عنادهم، إذ لو استطاعوا ذلك فما منعهم أن يشاؤوا، وقد تحداهم وقرَّعهم بالعجز عشر سنين، ثم قارعهم بالسيف، فلم يعارضوا سورة مع أَنَفَتهم وفرط استنكافهم أن يُغلبوا (والاستنكاف الامتناع عن الشيء تكبُّراً)، خصوصاً في باب البيان ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ ما سطَّره الأولون من القصص (وهو قول الكفار).

(٣٢) ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ هذا أيضاً من كلام ذلك القائل، أبلغ في الجحود. والمعنى: إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً فأمطر الحجارة علينا عقوبة على إنكاره، أو ائتنا بعذاب أليم سواه. والمراد منه التهكم وإظهار اليقين والجزم التام منهم على كونه باطلاً.

(٣٣) ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ بيانٌ لِما كان الموجب لإمهالهم والتوقف في إجابة دعائهم. واللام لتأكيد النفي والدلالة على أن تعذيبهم عذابَ استئصالٍ والنبيُّ ﷺ بين أظهرهم خارجٌ عن عادته جل وعلا، غيرُ مستقيم في قضائه. والمراد باستغفارهم إما استغفار من بقي فيهم من المؤمنين، أو قولهم اللهم غفرانك، أو فرْضُه على معنى: لو استغفروا لم يعذبوا.

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ
عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ
بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ
أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ
ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ
فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟
فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ
لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ
ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟
فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

(٣٤) ﴿**وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ**﴾ وكيف لا يعذبون ﴿**وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ**﴾ ومن صدِّهم عنه إلجاءُ رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الهجرة، وإحصارُهم عام الحديبية ﴿**وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ**﴾ مستحقين ولاية أمره مع شركهم. وهو ردٌّ لما كانوا يقولون: نحن ولاة البيت والحرم، فنصدُّ من نشاء ونُدخل من نشاء ﴿**إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ**﴾ من الشرك، الذين لا يعبدون فيه غيره ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾**﴾ أنْ لا ولاية لهم عليه.

(٣٥) ﴿**وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ**﴾ أي: دعاؤهم، أو ما يسمونه صلاة ﴿**إِلَّا مُكَآءً**﴾ صفيراً ﴿**وَتَصْدِيَةً**﴾ تصفيقاً ﴿**فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ**﴾ يعني القتل والأسر يوم بدر. وقيل: عذابَ الآخرة ﴿**بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾**﴾ اعتقاداً وعملاً.

(٣٦) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ نزلت في المطعِمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش، يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جُزُرٍ (جمع جَزور، وهو الجمل)، أو في أبي سفيان استأجر ليوم أحد ألفين من العرب سوى من استجاش من العرب (من طلبهم للجيش)، وأنفق عليهم أربعين أوقية. والمراد بسَبيلِ الله تعالى دينُهُ واتباعُ رسوله عليه الصلاة والسلام ﴿**فَسَيُنفِقُونَهَا**﴾ بتمامها ﴿**ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً**﴾ ندماً وغماً، لفواتها من غير مقصود ﴿**ثُمَّ يُغْلَبُونَ**﴾ آخر الأمر، وإن كان الحرب بينهم سجالاً قبل ذلك ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟**﴾ أي: الذين ثبتوا على الكفر منهم ﴿**إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾**﴾ يساقون.

(٣٧) ﴿**لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ**﴾ الكافرَ من المؤمن، أو الفساد من الصلاح ﴿**وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا**﴾ فيجمعه ويضم بعضه إلى بعض حتى يتراكبوا لفرط ازدحامهم ﴿**فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ**﴾ كله ﴿**أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾**﴾ الكاملون في الخسران، لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم.

(٣٨) ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟**﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه ﴿**إِن يَنتَهُوا۟**﴾ عن معاداة الرسول ﷺ بالدخول في الإسلام ﴿**يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ**﴾ من ذنوبهم ﴿**وَإِن يَعُودُوا۟**﴾ إلى قتاله ﴿**فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ**﴾

﴿ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾ الذين تحزَّبوا على الأنبياء بالتدمير، كما جرى على أهل بدر، فليتوقعوا مثل ذلك.

(٣٩) ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ لا يوجد فيهم شرك ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ وتضمحِلَّ عنهم الأديان الباطلة ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن الكفر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣٩﴾ فيجازيهم على انتهائهم عنه وإسلامهم.

(٤٠) ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ (يعني: وإن أعرضوا عن الإيمان، وأصرُّوا على الكفر، وعادوا إلى قتال المؤمنين وإيذائهم [الخازن]) ولم ينتهوا ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم فثقوا به، ولا تبالوا بمعاداتهم ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لا يضيع من تولاه ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾ لا يُغلَب مَنْ نصرَهُ.

۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾

(٤١) ﴿**وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم**﴾ أي: الذي أخذتموه من الكفار قهراً ﴿**مِّن شَيۡءٖ**﴾ مما يقع عليه اسم الشيء حتى الخيط ﴿**فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ**﴾ أي: فثابت أن لله تعالى خمسه، وأن المراد قسم الخمس على الخمسة المعطوفين ﴿**وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ**﴾ فكأنه قال: فأن لله خمسه يصرف إلى هؤلاء الأخصين به. وحكمه بعده باق غير أن سهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه يصرف إلى ما كان يصرفه إليه من مصالح المسلمين كما فعله الشيخان (أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما) ﴿**إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ**﴾ أي: إن كنتم آمنتم بالله تعالى فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء فسلموه إليهم واقتنعوا بالأخماس الأربعة الباقية ﴿**وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا**﴾ محمد ﷺ من الآيات والملائكة والنصر ﴿**يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ**﴾ يوم بدر فإنه فرق فيه بين الحق والباطل ﴿**يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ**﴾ المسلمون والكافرون ﴿**وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾**﴾ فيقدر على نصر القليل على الكثير والإمداد بالملائكة.

(٤٢) ﴿**إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا**﴾ العدوة شط الوادي (الدنيا: القريبة إلى جهة المدينة) ﴿**وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ**﴾ البعدى من المدينة ﴿**وَٱلرَّكۡبُ**﴾ أي: العير أو قوادها ﴿**أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ**﴾ في مكان أسفل من مكانكم. وفائدتها الدلالة على قوة العدو واستظهارهم بالركب وحرصهم على المقاتلة عنها وتوطين نفوسهم على أن لا يخلوا مراكزهم ويبذلوا منتهى جهدهم، وضعف شأن المسلمين والتياث (أي: اختلاط وضعف) أمرهم واستبعاد غلبتهم عادة، ولذا ذكر مراكز الفريقين فإن العدوة الدنيا كانت رخوة تسوخ (أي: تغوص) فيها الأرجل ولا يمشى فيها إلا بتعب ولم يكن بها ماء، بخلاف العدوة القصوى ﴿**وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ**﴾ أي: لو تواعدتم أنتم وهم القتال ثم علمتم حالكم وحالهم لاختلفتم أنتم في الميعاد هيبة منهم، ويأساً من الظفر عليهم ليتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ليس إلا صنعاً من الله تعالى خارقاً للعادة فيزدادوا إيماناً وشكراً ﴿**وَلَٰكِن**﴾ جمع بينكم على هذه الحال من غير ميعاد ﴿**لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا**﴾ حقيقاً بأن يفعل وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه ﴿**لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ**﴾ المعنى:

ليموت من يموت عن بينة عاينها ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها لئلا يكون له حجة ومعذرة، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة. أو ليصدر كفر من كفر وإيمان من آمن عن وضوح بينة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ بكفر من كفر وعقابه، وإيمان من آمن وثوابه.

(٤٣) ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ إذ يقللهم في عينك في رؤياك ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ لجبنتم ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ في أمر القتال وتفرقت آراؤكم بين الثبات والفرار ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ يعلم ما سيكون فيها وما يغير من أحوالها.

(٤٤) ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ وإنما قللهم في أعين المسلمين حتى قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه لمن إلى جنبه: أتراهم سبعين؟ فقال: أراهم مئة، تثبيتاً لهم وتصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال أبو جهل: إن محمداً وأصحابه أَكَلة جزور، وقللهم في أعينهم قبل التحام القتال ليجترؤوا عليهم ولا يستعدوا لهم، ثم كثرهم حتى يرونهم مثليهم لتفجأهم الكثرة فتبهتهم وتكسر قلوبهم، وهذا من عظائم آيات تلك الوقعة فإن البصر وإن كان قد يرى الكثير قليلاً والقليل كثيراً لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الحد، وإنما يتصور ذلك بصد الله تعالى الأبصار عن إبصار بعض دون بعض مع التساوي في الشروط ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ كرره لأن المراد بالأمر ثمة الاكتفاء على الوجه المحكي، وههنا إعزاز الإسلام وأهله وإذلال الإشراك وحزبه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

(٤٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ حاربتم جماعة ولم يصفها لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار، واللقاء مما غلب في القتال ﴿فَٱثْبُتُوا۟﴾ للقائهم ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مواطن الحرب داعين له مستظهرين بذكره مترقِّبين لنصره ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة، وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله تعالى، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد ويقبل عليه بشراشره (أي: بكلِّيَّته) فارغ البال واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في شيء من الأحوال.

وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٥٢﴾

(٤٦) ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ باختلاف الآراء كما فعلتم ببدر أو أحد ﴿فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ والريح مستعارة للدولة (أي: للغلبة) من حيث إنها في تمشّي أمرها ونفاذه مشبهة بها في هبوبها ونفوذها. وقيل: المراد بها الحقيقة فإن النصرة لا تكون إلا بريح يبعثها الله تعالى، وفي الحديث: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور» [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى]. والصبا: ريح من جهة الشرق، والدبور: ريح من جهة الغرب. ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ بالكلاءة (بالحفظ والرعاية) والنصرة.

(٤٧) ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ يعني أهل مكة حين خرجوا منها لحماية العير ﴿بَطَرٗا﴾ فخراً وأشراً ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة وافاهم رسول أبي سفيان أن ارجعوا فقد سلمت عيركم، فقال أبو جهل: لا والله حتى نقدم بدراً ونشرب فيها الخمور وتعزف علينا القيان ونطعم بها مَن حَضرنا من العرب، فوافوها ولكن سُقوا كأس المنايا وناحت عليهم النوائح، فنهى المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بطرين مرائين، وأمرهم بأن يكونوا أهل تقوى وإخلاص من حيث إن النهي عن الشيء أمر بضدِّه (أقول: الإخلاص جوهر عالٍ يقرِّب العبد من الله تعالى) ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾﴾ فيجازيهم عليه.

(٤٨) ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ في معاداة الرسول ﷺ وغيرها بأن وسوس إليهم ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ المعنى: أنه ألقى في رُوعهم (أي: في قلوبهم) وخيل إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون لكثرة عَددهم وعُددهم، وأوهمهم أن اتباعهم إياه مجير لهم ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ﴾ أي: تلاقى الفريقان ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ رجع القهقرى أي: بطل كيده وعاد ما خيل إليهم أنه مجيرهم سبب هلاكهم ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ أي: تبرَّأ منهم وخاف عليهم وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله تعالى المسلمين بالملائكة ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾.

(٤٩) ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ والذين لم يطمئنوا إلى الإيمان بعد وبقي في قلوبهم شبهة ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ يعنون المؤمنين ﴿دِينُهُمْ﴾ حتى تعرضوا لما لا يد لهم به فخرجوا وهم ثلاث مئة وبضعة عشر إلى زهاء ألف ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ جواب لهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يُذلُّ من استجار به وإن قلَّ ﴿حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ويعجز عن إدراكه.

(٥٠) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ ببدر ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أي: يضربون ما أقبل منهم وما أدبر ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ أي: ويقولون ذوقوا، بشارةً لهم بعذاب الآخرة (هذا تهكُّم).

(٥١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الضرب والعذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ بسبب ما كسبت من الكفر والمعاصي ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ (أقول: وصيغة ظلَّام للتسبُّب وليست للمبالغة، أي: ليس منسوباً إلى الظلم أصلًا، فهي لنفي الظلم بأنواعه).

(٥٢) ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون وهو عملهم وطريقهم الذي دأبوا فيه أي: داموا عليه ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل آل فرعون ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أخذ هؤلاء ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ لا يغلبه في دفعه شيء.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ
مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ
فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾
إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾
ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ
وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم
مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن
قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ
﴿٥٨﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴿٥٩﴾
وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ
تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ
لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ
لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾

(٥٣) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما حل بهم ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ﴾ مبدلاً إياها بالنقمة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ يبدلوا ما بهم من الحال إلى حال أسوأ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون ﴿عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾﴾ بما يفعلون.

(٥٤) ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ﴾ تكرير للتأكيد ولما نيط به من الدلالة على كفران النعم بقوله: بِآياتِ رَبِّهِمْ وبيان ما أخذ به آل فرعون ﴿وَكُلّٞ﴾ من الفِرق المكذبة، أو من غرقى القبط وقتلى قريش ﴿كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي.

(٥٥) ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أصروا على الكفر ورسخوا فيه ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ فلا يتوقع منهم إيمان.

(٥٦) ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾ وهم يهود قريظة عاهدهم رسول الله ﷺ أن لا يمالئوا (أي: لا يعاونوا العدوَّ) عليه، فأعانوا المشركين بالسلاح وقالوا: نسينا ثم عاهدهم فنكثوا ومالؤوهم عليه يوم الخندق، وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم ﴿وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ سُبَّة الغدر ومغَبَّته (أي: عار الغدر عاقبته، والغدر نقض العهد)، أو لا يتقون الله تعالى فيه أو نصره للمؤمنين وتسليطه إياهم عليهم.

(٥٧) ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ﴾ فإما تصادفنهم وتظفرن بهم ﴿فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم﴾ ففرق عن مناصبتك ونكل عنها بقتلهم والنكاية فيهم ﴿مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾ مَن وراءهم من الكفرة ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ لعل المشردين يتعظون.

(٥٨) ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ﴾ معاهدين ﴿خِيَانَةٗ﴾ نقض عهد بأمارات تلوح لك ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ فاطرح إِلَيهِمْ عهدهم (أي: فافسخ العهد بينك وبينهم) ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ على عدل وطريق قصد في العداوة ولا تناجزهم الحرب فإنه يكون خيانة منك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ (الناقضين للعهود [النسفي]).

(٥٩) ﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ ﴾ فأفلتوا ﴿إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ۝٥٩﴾ أي: لا يفوتون الله تعالى، أو لا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم.

(٦٠) ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ أيها المؤمنون ﴿لَهُم﴾ لناقضي العهد أو الكفار ﴿مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ من كل ما يتقوى به في الحرب. وعن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: سمعته عليه الصلاة والسلام يقول على المنبر: «ألا إنَّ القوة الرمي، قالها ثلاثاً» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ اسم للخيل التي تربط في سبيل الله تعالى ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ﴾ تخوفون به ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ يعني كفار مكة ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ﴾ من غيرهم من الكفرة ﴿لَا تَعۡلَمُونَهُمُ﴾ لا تعرفونهم بأعيانهم ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ جزاؤه ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ۝٦٠﴾ بتضييع العمل أو نقص الثواب.

(٦١) ﴿وَإِن جَنَحُواْ﴾ مالوا ﴿لِلسَّلۡمِ﴾ للصلح أو الاستسلام ﴿فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ وعاهد معهم ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ولا تخف من إبطانهم خداعاً فيه، فإن الله تعالى يعصمك من مكرهم ويحيقه بهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلۡعَلِيمُ ۝٦١﴾ بنياتهم.

وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ
بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ
مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ
ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ
يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ
ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ
صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ
بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ
لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا
وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ
ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا
غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾

(٦٢) ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ كافيك ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ جميعاً.

(٦٣) ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ مع ما فيهم من العصبية والضغينة في أدنى شيء ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: تناهي عداوتهم إلى حد لو أنفق منفق في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من الأموال لم يقدر على الألفة والإصلاح ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ بقدرته البالغة، فإنه المالك للقلوب يقلبها كيف يشاء ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ تام القدرة والغلبة ﴿حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾﴾ يعلم أنه كيف ينبغي أن يفعل ما يريده، وقيل: الآية في الأوس والخزرج كان بينهم إحن (أي: أحقاد) لا أمد لها ووقائع هلكت فيها ساداتهم، فأنساهم الله تعالى ذلك وألف بينهم بالإسلام حتى تصافوا وصاروا أنصاراً.

(٦٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ كافيك ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ والآية نزلت بالبيداء في غزوة بدر، وقيل: أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلًا، وست نسوة، ثم أسلم عمر رضي الله تعالى عنه، فنزلت، ولذلك قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: نزلت في إسلامه.

(٦٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ بالغ في حثهم عليه ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ شرط في معنى الأمر بمصابرة الواحد للعشرة، والوعد بأنهم إن صبروا غَلبوا بعون الله تعالى وتأييده ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ بسبب أنهم جهلة بالله واليوم الآخر، لا يثبتون ثبات المؤمنين رجاء الثواب وعوالي الدرجات قَتَلُوا أو قُتِلُوا، ولا يستحقون من الله تعالى إلا الهوان والخذلان (وهم الكفار).

(٦٦) ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ لما أوجب على الواحد مقاومة العشرة والثبات لهم وثقل ذلك عليهم

خفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين، وقيل: كان فيهم قلة فأمروا بذلك ثم لما كثروا خفف عنهم ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ بالنصر والمعونة فكيف لا يَغلبون.

(٦٧) ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه ويعز الإِسلام ويستولي أهله ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ حطامها بأخذكم الفداء ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ يريد لكم ثواب الآخرة أو سبب نيل ثواب الآخرة من إعزاز دينه وقمع أعدائه ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يُغلّب أولياءه على أعدائه ﴿حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ يعلم ما يليق بكل حال ويخصه بها، كما أمر بالإثخان ومنع عن الافتداء حين كانت الشوكة للمشركين وخيّر بينه وبين المنِّ لما تحولت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين.

روي أنه عليه الصلاة والسلام أتى يوم بدر بسبعين أسيراً فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب فاستشار فيهم، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: قومك وأهلك استبقهم لعل الله تعالى يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك، وقال عمر رضي الله تعالى عنه: اضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر، وإن الله تعالى أغناك عن الفداء، مَكِّنّي من فلان ـ لنسيب له ـ ومكِّن علياً وحمزة رضي الله تعالى عنهما من أخويهما فلنضرب أعناقهم، فلم يَهْوَ ذلك (أي: فلم يَمِل إليه) رسول الله ﷺ وقال: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللين، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشدَّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ومثلك يا عمر مثل نوح قال: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح: ٢٦]» فخيَّر أصحابه فأخذوا الفداء، فنزلت، فدخل عمر رضي الله تعالى عنه على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله أخبرني فإن أجد بكاء بكيت، وإلا تباكيت، فقال: «ابك على أصحابك في أخذهم الفداء ولقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة، لشجرة قريبة» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى].

(٦٨) ﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ لولا حكم من الله تعالى سبق إثباته في اللوح المحفوظ (أو في علم الله تعالى)، وهو أن لا يعاقب المخطئ في اجتهاده (أقول: ولذا فالمجتهدون إذا أصابوا لهم أجران، وإن أخطؤوا فلهم أجر واحد). أو أن لا يعذب أهل بدر أو قوماً بما لم يصرح لهم بالنهي عنه، أو أن الفدية التي أخذوها ستحل لهم ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ لنالكم ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

(٦٩) ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ من الفدية فإنها من جملة الغنائم، وقيل: أمسَكوا عن الغنائم فنزلت ﴿حَلَـٰلًا﴾ أي: أكلاً حلالاً، وفائدته إزاحة ما وقع في نفوسهم منه بسبب تلك المعاتبة، أو حرمتها على الأولين ولذلك وصفه بقوله: ﴿طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مخالفته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ غفر لكم ذنبكم ﴿رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ أباح لكم ما أخذتم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾

(٧٠) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ إيماناً وإخلاصاً ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ من الفداء. روي أنها نزلت في العباس رضي الله عنه كلفه رسول الله ﷺ أن يفدي نفسه وابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث فقال: يا محمد تركتني أتكفف قريشاً ما بقيت فقال عليه الصلاة والسلام: أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل وقثم؟ فقال العباس: وما يدريك؟ قال: أخبرني به ربي تعالى. قال: فأشهد أنك صادق وَأن لا إله إِلَّا الله وأنك رسوله، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل [رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى بلفظ قريب]، قال العباس: فأبدلني الله تعالى خيراً من ذلك لي الآن عشرون عبداً إن أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربكم، يعني الموعود بقوله: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾﴾.

(٧١) ﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾ يعني الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ نقض ما عاهدوك ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ﴾ بالكفر ونقض ميثاقه المأخوذ بالعقل ﴿مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ أي: فأمكنك منهم كما فعل يوم بدر فإن أعادوا الخيانة فسيمكنك منهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

(٧٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ هم المهاجرون هاجروا أوطانهم حباً لله تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ فصرفوها في الكراع (اسم يطلق على البقر والغنم والخيل والحمير والبغال) والسلاح وأنفقوها على المحاويج ﴿وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بمباشرة القتال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ هم الأنصار آووا المهاجرين إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ في الميراث، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب حتى نسخ بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ أي: من توليهم في

الميراث ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ عهد فإنه لا ينقض عهدهم لنصرهم عليهم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾.

(٧٣) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في الميراث أو المؤازرة (أي: النصرة) ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ إلا تفعلوا ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولي بعضكم لبعض حتى في التوارث وقطع العلائق بينكم وبين الكفار ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تحصل فتنة فيها عظيمة، وهي ضعف الإيمان وظهور الكفر ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ في الدين .

(٧٤) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لما قسم المؤمنين ثلاثة أقسام بيّن أن الكاملين في الإيمان منهم هم الذين حققوا إيمانهم بتحصيل مقتضاه من الهجرة والجهاد وبذل المال ونصرة الحق، ووعد لهم الموعد الكريم فقال: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ لا تبعة له ولا منة فيه، ثم ألحق بهم في الأمرين من سيلحق بهم ويتّسم بسِمَتِهم (أي: بعلامتهم).

(٧٥) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ أي: من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوارث من الأجانب ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في حكمه، أو في اللوح أو في القرآن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾ من المواريث والحكمة في إناطتها بنسبة الإسلام والمظاهرة أولًا، واعتبار القرابة ثانياً.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الأنفال

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

سُورَةُ التَّوْبَةِ ٩ ١٢٩

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾
فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى
ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ
إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ
وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ
شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ
مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ
فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ
وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾
وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ
كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

سورة التوبة

مدنيَّة، وقيل: إلا آيتين من قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ وآيها مئة وتسع وعشرون

(١) ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي: هذه براءة واصلة من الله تعالى ورسوله ﷺ ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ المعنى: أنَّ اللهَ تعالى ورسولَهُ ﷺ بَرِئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين.

(٢) ﴿فَسِيحُوا۟﴾ (أي: فسيروا) ﴿فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ شوال وذي القعدة وذي الحجة والمحرم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ﴾ لا تفوتونه وإن أمهلكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾﴾ بالقتل والأسر في الدنيا والعذاب في الآخرة.

(٣) ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: إعلام ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ يوم العيد، لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله، ولأن الإعلام كان فيه، ولما روي أنه ﷺ وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال: «هذا يوم الحج الأكبر» [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى]. وقيل: يوم عرفة، لقوله ﷺ: «الحج عرفة» [رواه الإمام أحمد والترمذي رحمهما الله تعالى]. ووُصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: بأن الله تعالى ﴿بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ﴾ أي: من عهودهم ﴿وَرَسُولُهُۥ ۚ﴾ (أي: ورَسُولُه بريءٌ) ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ من الكفر والغدر ﴿فَهُوَ﴾ فالتوب ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن التوبة، أو ثبَتُّم على التولي عن الإسلام والوفاء ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ﴾ لا تفوتونه طلباً ولا تعجزونه هرباً في الدنيا ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ في الآخرة (هذا تهكم).

(٤) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ من شروط العهد ولم ينكثوه، أو لم يقتلوا منكم ولم يضروكم قط ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من أعدائكم ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ﴾ إلى تمام مدتهم، ولا تُجْروهم مجرى الناكثين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ تعليلٌ وتنبيه على أن إتمام عهدهم من باب التقوى.

(٥) ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾ انقضى ﴿ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ التي أبيح للناكثين أن يسيحوا فيها (أي: يسافروا) ﴿فَٱقْتُلُوا۟

﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الناكثين ﴿حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ من حِلٍّ أو حَرَمٍ ﴿وَخُذُوهُمۡ﴾ وأسروهم ﴿وَٱحۡصُرُوهُمۡ﴾ واحبسوهم، أو حِيلوا بينهم وبين المسجد الحرام ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾ كلَّ ممرٍّ، لئلا يتبسَّطوا في البلاد ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ عن الشرك بالإِيمان ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ فدعوهم ولا تتعرضوا لهم بشيء من ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾ أي: فخلوهم لأن الله تعالى غفور رحيم، غفر لهم ما قد سلف (بعد أن تابوا).

(٦) ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ المأمور بالتعرض لهم ﴿ٱسۡتَجَارَكَ﴾ استأمنك وطلب منك جوارك ﴿فَأَجِرۡهُ﴾ فأمِّنه ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر ﴿ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾ موضع أمنه إن لم يسلم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمن أو الأمر ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ٦﴾ ما الإيمان وما حقيقة ما تدعوهم إليه، فلا بد من أمانهم ريثما يسمعون ويتدبرون.

كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ
رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا
ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ
﴿٧﴾ كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا
وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ
فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ
عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرۡقُبُونَ
فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴿١٠﴾
فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ
فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ
أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ
أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ
﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ
بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ
أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾

(٧) ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ استفهام بمعنى الإنكار والاستبعاد لأن يكون لهم عهد ولا ينكثوه مع وَغْرَةِ صدورهم (أي: حقدهم)، أو لأن يفي الله تعالى ورسوله ﷺ بالعهد وهم نكثوه ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ هم المستثنون قبلُ ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾ أي: فتربصوا أمرهم، فإن استقاموا على العهد فاستقيموا على الوفاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ (الذين يوفون بالعهود ويخافون الموعود [المقتطف]).

(٨) ﴿كَيۡفَ﴾ تكرار لاستبعاد ثباتهم على العهد ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: وحالهم أنهم إن يظفروا بكم ﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ﴾ لا يراعوا فيكم ﴿إِلّٗا﴾ حِلفاً، وقيل: قرابة ﴿وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ أي: عهداً، أو حقاً يعاب على إغفاله ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ استئنافٌ لبيان حالهم المنافية لثباتهم على العهد، المؤدية إلى عدم مراقبتهم عند الظفر ﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾ ما تتفوه به أفواههم ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ متمردون لا عقيدة تزعهم (أي: تمنعهم) ولا مروءة تردعهم. وتخصيصُ الأكثر لما في بعض الكفرة من التفادي (أي: التجنب) عن الغدر، والتعفف عما يجرُّ إلى أحدوثة السوء.

(٩) ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ استبدلوا بالقرآن ﴿ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ عوضاً يسيراً، وهو اتباع الأهواء والشهوات (أقول: وحب الدنيا) ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ﴾ دينه الموصل إليه، أو سبيل بيته بحصر الحجاج والعمار ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩﴾﴾.

(١٠) ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ هو تفسير لا تكرير. وقيل: الأول عام في المنافقين وهذا خاص بالذين اشتروا، وهم اليهود أو الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ في الشرارة.

(١١) ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ عن الكفر ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ فهم إخوانكم في الدين، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ وهو حثٌّ على تأمل ما فصَّل من أحكام المعاهدين أو خصال التائبين.

(١٢) ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ ﴾ وإن نكثوا ما بايعوا عليه من الأيمان أو الوفاء بالعهود ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾ بصريح التكذيب وتقبيح الأحكام ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ أي: رؤساء المشركين ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ ﴾ أي: لا أيمان لهم على الحقيقة، وإلا لما طعنوا ولم ينكثوا. وفيه دليل على أن الذمي إذا طعن في الإِسلام فقد نكث عهده ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾ أي: ليكن غرضكم في المقاتلة أن ينتهوا عما هم عليه (من الكفر أو الخيانة)، لا إيصال الأذية بهم.

(١٣) ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا ﴾ تحريضٌ على القتال ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ ﴾ التي حلفوها مع الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين على أن لا يعاونوا عليهم فعاونوا بني بكر على خزاعة ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴾ حين تشاوروا في أمره بدار الندوة. وقيل: هم اليهود، نكثوا عهد الرسول ﷺ وهَمُّوا بإخراجه من المدينة ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ بالمعاداة والمقاتلة ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ ﴾ أتتركون قتالهم خشية أن ينالكم مكروه منهم ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ فقاتلوا أعداءه ولا تتركوا أمره ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾ فإِن قضية الإِيمان أن لا يُخشى إلا منه جل وعلا.

قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ
عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ
غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟
مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ
أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾
إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ
ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

(١٤) ﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ أمرٌ بالقتال بعد بيان موجبه والتوبيخ على تركه والتوعد عليه ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وعدٌ لهم إن قاتلوهم بالنصر عليهم والتمكن من قتلهم وإذلالهم ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ يعني بني خزاعة.

(١٥) ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لما لقوا منهم. وقد أوفى الله تعالى بما وعدهم. والآية من المعجزات ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ إخبارٌ بأن بعضهم يتوب عن كفره، وقد كان ذلك أيضاً ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما كان وما سيكون ﴿حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ لا يفعل ولا يحكم إلا على وفق الحكمة.

(١٦) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ خطابٌ للمؤمنين حين كره بعضهم القتال. وقيل: للمنافقين ﴿أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ ولم يتبين الخلّص منكم، وهم الذين جاهدوا من غيرهم ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ بطانةً يوالونهم ويُفشون إليهم أسرارهم ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ يعلم غرضكم منه. وهو كالمزيح لما يُتوهَّم من ظاهر قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾.

(١٧) ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ما صح لهم ﴿أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ شيئاً من المساجد فضلًا عن المسجد الحرام ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ بإظهار الشرك وتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام. والمعنى ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين؛ عمارة بيت الله تعالى وعبادة غيره. روي أنه لما أسر العباس عيَّره المسلمون بالشرك وقطيعة الرحم، وأغلظ له عليٌّ رضي الله تعالى عنه في القول، فقال: ما بالكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا؟ إنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحجيج ونفك العاني (أي: الأسير) فنزلت ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ التي يفتخرون بها بما قارنها من الشرك ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ لأجله.

(١٨) ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: إنما تستقيم عمارتها لهؤلاء الجامعين للكمالات العلمية والعملية. ومن عمارتها تزيينها بالفرش وتنويرها بالسرج

وإدامة العبادة والذكر ودروس العلم فيها، وصيانتها عما لم تُبْنَ له كحديث الدنيا. وإنما لم يذكر الإيمان بالرسول ﷺ لما عُلم أن الإيمان بالله تعالى قرينه وتمامه الإيمان به عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ أي: في أبواب الدين، فإن الخشية عن المحاذير جِبلِّية، لا يكاد العاقل يتمالك عنها ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨﴾ ذكره بصيغة التوقع قطعاً لأطماع المشركين في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم، وتوبيخاً لهم بالقطع بأنهم مهتدون. فإن هؤلاء مع كمالهم إذا كان اهتداؤهم دائراً بين عسى ولعل فما ظنُّك بأضدادهم؟! ومنعاً للمؤمنين أن يغترُّوا بأحوالهم ويتَّكلوا عليها.

(١٩) ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: أجعلتم أهل سقاية الحاج كمن آمن، أو أجعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن. والمعنى إنكار أن يشبَّه المشركون وأعمالُهم المحبَطة بالمؤمنين وأعمالِهم المثبَتة. ثم قرَّر ذلك بقوله: ﴿لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ وبيَّن عدم تساويهم بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ أي: الكفرة؛ ظلمة بالشرك ومعاداة الرسول ﷺ منهمكون في الضلالة، فكيف يساوون الذين هداهم الله تعالى ووفَّقهم للحقِّ والصواب!

(٢٠) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم تستجمع فيه هذه الصفات، أو من أهل السقاية والعمارة عندكم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ بالثواب ونيل الحسنى عند الله تعالى دونكم.

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا
نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ
وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ
وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن
كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ
تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ
فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ
كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ
تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ
بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا
وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾

(٢١) ﴿**يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾**﴾ دائم.

(٢٢) ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا**﴾ أكَّد الخلود بالتأبيد، لأنه قد يستعمل للمكث الطويل ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾**﴾ يُستحقر دونه ما استوجبوه لأجله أو نعيم الدنيا.

(٢٣) ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ**﴾ نزلت في المهاجرين، فإنهم لما أمروا بالهجرة قالوا: إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا وذهبت تجاراتنا وبقينا ضائعين. والمعنى: لا تتخذوهم أولياء يمنعونكم عن الإيمان ويصدونكم عن الطاعة، لقوله: ﴿**إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ**﴾ إن اختاروه وحرَّضوا عليه ﴿**وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾**﴾ بوضعهم الموالاة في غير موضعها.

(٢٤) ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ**﴾ أقرباؤكم ﴿**وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا**﴾ اكتسبتموها ﴿**وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا**﴾ فوات وقت نفاقها (أي: رواجها والرغبة فيها) ﴿**وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ**﴾ الحب الاختياري دون الطبيعي (أي: حب الطبيعة البشرية) فإنه لا يدخل تحت التكليف في التحفُّظ عنه ﴿**فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**﴾ جوابٌ ووعيدٌ. والأمر عقوبة عاجلة أو آجلة. وقيل: فتح مكة ﴿**وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾**﴾ لا يرشدهم. وفي الآية تشديد عظيم، وقلَّ من يتخلص منه (أقول: وهذا الترجيح ثابت في القلوب النورانية، والروح العلوية، والعقلية القدسيَّة الربانيَّة المتيقظة بترك حبِّ الدنيا، وملازمة خدمة المولى، والله نسأل التوفيق والاستقامة، اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همِّنا. وفي الآية وعيد شديد لا يتخلَّص منه إلا أقل قليل، فإنك لو تتبعت إخوان زماننا من الزهاد الورعين لوجدتهم يتحيَّرون ويتحزَّنون بفوات أحقر شيء من الأمور الدنيوية، ولا يبالون بفوات أجلِّ حظٍّ من الحظوظ الدينية؛ فإنَّ محصول الآية أنَّ من آثر هذه المشتهيات الدنيوية على طاعة الرحمن، فليستعدَّ لنزول عقوبة آجلة أو عاجلة، ولينظر أن ما آثره من الحظوظ العاجلة هل يخلص من الأهوال والدواهي النازلة؟ اللهم عفوك وغفرانك يا أرحم الراحمين).

(٢٥) ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾ يعني مواطن الحرب، وهي مواقعها ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ﴾ وموطن يوم حنين ﴿إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ﴾ وحنين وادٍ بين مكة والطائف حارب فيه رسول الله ﷺ والمسلمون ـ وكانوا اثني عشر ألفاً ـ هوازنَ وثقيفاً ـ وكانوا أربعة آلاف ـ فلما التقوا قال بعض المسلمين: لن نُغلب اليوم من قلة، إعجاباً بكثرتهم، واقتتلوا قتالاً شديداً، فأدرك المسلمين إعجابهم واعتمادهم على كثرتهم فانهزموا حتى بلغ فلُّهم (المنهزمون) مكة، وبقي رسول الله ﷺ في مركزه ليس معه إلا عمه العباس وابن عمه أبو سفيان بن الحارث رضي الله تعالى عنهما. وناهيك بهذا شهادة على تناهي شجاعته عليه الصلاة والسلام، فقال للعباس رضي الله تعالى عنه ـ وكان صَيِّتاً ـ: «صِحْ بالناس»، فنادى: يا عباد الله يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة، فكَرُّوا عُنقاً واحداً (أي: دفعة واحدة) يقولون: لبيك لبيك، ونزلت الملائكة فالتقوا مع المشركين، فقال ﷺ: «هذا حين حمي الوطيس (أي: اشتدت الحرب)»، ثم أخذ كفاً من تراب فرماهم ثم قال: «انهزموا ورب الكعبة» فانهزموا [رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى بلفظ قريب] ﴿فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ﴾ أي: الكثرة ﴿شَيۡـٔٗا﴾ من الإغناء أو من أمر العدو ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ برَحبها أي: بسعتها، لا تجدون فيها مفرّاً تطمئن إليه نفوسكم من شدة الرعب، أو لا تثبتون فيها كمن لا يسعه مكانه ﴿ثُمَّ وَلَّيۡتُم﴾ الكفار ظهوركم ﴿مُّدۡبِرِينَ ٢٥﴾ منهزمين.

(٢٦) ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ رحمته التي سكنوا بها وأمنوا ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الذين انهزموا. وقيل: هم الذين ثبتوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يفروا ﴿وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ بأعينكم يعني الملائكة وكانوا خمسة آلاف أو ثمانية أو ستة عشر على اختلاف الأقوال ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالقتل والأسر والسبي ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦﴾ أي: ما فعل بهم جزاء كفرهم في الدنيا.

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ
نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا
وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ
شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَاتِلُوا الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ
﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى
الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ
يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ
اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ
وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ
مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

(٢٧) ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ منهم بالتوفيق للإسلام (أقول: لم يبين هنا من هم التائبون، بقوا في علمه جل وعلا) ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ يتجاوز عنهم ويتفضل عليهم (أقول: هذا الانهزام وترك الرسول عليه الصلاة والسلام من الكبائر، والله غفور رحيم، عفى عنهم وغفر لهم) روي «أن أناساً منهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وأسلموا وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس وأبرهم، وقد سبي أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا. وقد سبي يومئذ ستة آلاف نفس، وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى. فقال ﷺ: اختاروا إما سباياكم وإما أموالكم؟ فقالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً، فقام رسول الله ﷺ وقال: إن هؤلاء جاؤوا مسلمين، وإنا خيَّرناهم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب (أي: بالأهل) شيئاً ، فمن كان بيده سبي وطابت نفسه أن يرده فشأنه، ومَن لا فليعطنا وليكن قرضاً علينا حتى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه، فقالوا: رضينا وسلَّمنا، فقال: إني لا أدري لعل فيكم من لا يرضى، فمروا عرفاءكم فليرفعوا إلينا، فرفعوا أنهم قد رضوا» [هذه القصة رواها الإمام البخاري رحمه الله تعالى].

(٢٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ لخبث باطنهم، أو لأنه يجب أن يجتنب عنهم كما يجتنب عن الأنجاس، أو لأنهم لا يتطهرون ولا يتجنبون عن النجاسات فهم ملابسون لها غالباً ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ لنجاستهم. وإنما نهى عن الاقتراب للمبالغة أو للمنع عن دخول الحرم. وقيل: المراد به النهي عن الحج والعمرة لا عن الدخول مطلقاً ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ يعني سنَةَ بَرَاءة، وهي التاسعة، وقيل: سنة حجة الوداع ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ فقراً، بسبب منعهم من الحرم وانقطاع ما كان لكم من قدومهم من المكاسب والأرزاق ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من عطائه أو تفضله بوجه آخر. وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدراراً، ووفَّق أهل تبالة (وهي أرض مشهورة من أرض تهامة في طريق اليمن) وجرش (موضع باليمن) فأسلموا وامتاروا لهم (أي: جلبوا المِيرة الكثيرة، وهي الطعام)، ثم فتح عليهم البلاد والغنائم وتوجه إليهم الناس من أقطار الأرض ﴿إِنْ شَاءَ﴾ قيَّده بالمشيئة لتنقطع الآمال إلى الله تعالى، ولينبِّه

على أنه تعالى متفضل في ذلك، وأن الغنى الموعود يكون لبعضٍ دون بعض وفي عام دون عام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ فيما يعطي ويمنع.

(٢٩) ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي: لا يؤمنون بهما على ما ينبغي، فإن إيمانهم كَلَا إيمان ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ما ثبت تحريمه بالكتاب والسنة ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ الثابت الذي هو ناسخ سائر الأديان ومبطلها ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بيانٌ للذين لا يؤمنون ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ ما تقرر عليهم أن يعطوه ﴿عَن يَدٖ﴾ أي: عن يدٍ مؤاتية بمعنى منقادين. أو عن يدهم بمعنى مسلِّمين بأيديهم غير باعثين بأيدي غيرهم، ولذلك منع من التوكيل فيه. أو عن غنى، ولذلك قيل: لا تؤخذ من الفقير. أو عن يد قاهرة عليهم، بمعنى عاجزين أذلاء. أو عن إنعام عليهم، فإن إبقاءهم بالجزية نعمة عظيمة ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أذلاء. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: تؤخذ الجزية من الذمِّي وتوجأ عنقه (أي: يضرب قفاه باليد).

(٣٠) ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ إنما قاله بعضهم من متقدميهم أو ممن كانوا بالمدينة، وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبقَ فيهم بعد وقعة بختنصر من يحفظ التوراة، وهو لما أحياه الله تعالى بعد مئة عام أملى عليهم التوراة حفظاً، فتعجَّبوا من ذلك وقالوا: ما هذا إلا لأنه ابن الله ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ هو أيضاً قول بعضهم، وإنما قالوه استحالة لأن يكون ولد بلا أب، أو لأن يفعل ما فعله من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى من لم يكن إلهاً ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ﴾ إما تأكيد لنسبة هذا القول إليهم، أو إشعار بأنه قول مجرد عن برهان وتحقيق مماثل للمهمل الذي يوجد في الأفواه ولا يوجد مفهومه في الأعيان ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: يضاهي قولهم قول الذين كفروا ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾ أي: من قبلهم. والمراد قدماؤهم على معنى أن الكفر قديم فيهم، أو المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله، أو اليهود على أن الضمير للنصارى. والمضاهاة: المشابهة ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ دعاءٌ عليهم بالإهلاك، فإن من قاتله الله تعالى هلك. أو تعجبٌ من شناعة قولهم ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل.

(٣١) ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرَّم الله تعالى، أو بالسجود لهم ﴿وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ بأن جعلوه ابناً لله ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ أي: وما أُمر المتخِذون أو المتخَذون أرباباً، فيكون كالدليل على بطلان الاتخاذ ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ﴾ ليطيعوا ﴿إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ وهو الله تعالى. وأما طاعة الرسول ﷺ وسائر من أَمر الله تعالى بطاعته فهو في الحقيقة طاعة الله تعالى ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ تنزيه له عن أن يكون له شريك سبحانه.

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ
أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ
أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ
كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ
أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ
وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ
عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ
وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ
تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ
شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ
أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا
يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

(٣٢) ﴿**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ**﴾ يخمدوا ﴿**نُورَ ٱللَّهِ**﴾ حجته الدالة على وحدانيته وتقدسه عن الولد، أو هو القرآن، أو نبوة محمد ﷺ ﴿**بِأَفْوَٰهِهِمْ**﴾ بشركهم أو بتكذيبهم ﴿**وَيَأْبَى ٱللَّهُ**﴾ أي: لا يرضى ﴿**إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ**﴾ بإعلاء التوحيد وإعزاز الإسلام ﴿**وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾**﴾.

(٣٣) ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ**﴾ كالبيان لقوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، ولذلك كرر ﴿**وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾**﴾ غير أنه وضع ﴿المُشْرِكُونَ﴾ موضع الكافرين للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول إلى الشرك بالله تعالى.

(٣٤) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ**﴾ يأخذونها بالرشا في الأحكام. سمي أخذ المال أكلاً لأنه الغرض الأعظم منه (يقول الفخر الرازي رحمه الله تعالى عند هذه الآية: ولعمري من تأمل أحوال أهل الفساد والتزوير في زماننا وجد هذه الآيات كأنها ما أنزلت إلا في شأنهم وفي شرح أحوالهم، فترى الواحد منهم يدَّعي أنه لا يلتفت إلى الدنيا ولا يتعلق خاطره بجميع المخلوقات، وأنه في الطهارة والعظمة مثل الملائكة المقربين، حتى إذا آل الأمر إلى الرغيف الواحد تراه يتهالك عليه ويتحمل نهاية الذل والدناءة في تحصيله. وهذه الخصال بأسرها في زماننا، وهو الطريق لأكثر الجهال والمزوِّرين إلى أخذ أموال العوام والحمقى من الخلق) ﴿**وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ دينه ﴿**وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ يجوز أن يراد به الكثير من الأحبار والرهبان، فيكون مبالغة في وصفهم بالحرص على المال والضن (أي: البخل) به، وأن يراد المسلمون الذين يجمعون المال ويقتنونه ولا يؤدون حقه، ويكون اقترانه بالمرتشين من أهل الكتاب للتغليظ (أقول: التغليظ لا يدل على أنه يكون كافراً، لكن هذا الفعل ليس لائقاً بالمسلم)؛ ويدل عليه أنه لما نزل كبُر على المسلمين، فذكر عمر رضي الله تعالى عنه لرسول الله ﷺ، فقال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم» [رواه أبو داود رحمه الله تعالى]. وقوله عليه الصلاة والسلام: «ما أُدي زكاته فليس بكنز» [رواه أبو داود رحمه الله تعالى] أي: ليس بكنزٍ أُوعِدَ عليه، فإن الوعيد على الكنز مع عدم

الإِنفاق فيما أمر الله تعالى أن ينفق فيه. وأما قوله ﷺ: «من ترك صفراء أو بيضاء (هما الذهب والفضة) كوي بها» [رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى] ونحوه فالمراد منها ما لم يؤد حقها، لقوله عليه الصلاة والسلام فيما أورده الشيخان مروياً عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره» ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ هو الكي بهما.

(٣٥) ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: يوم توقد النار ذات حمي شديد عليها ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ لأن جمعهم وإمساكهم إياه كان لطلب الوجاهة بالغنى والتنعم بالمطاعم الشهية والملابس البهية (والسيارات الفارهة) (أقول: ليتفكر من يهتم ببطنه ويقول: هذا أشتهيه وهذا لا أشتهيه، وأحياناً يخاصم زوجته لأجل ذلك؛ كلُّ هذا في حقِّ المسلم)، أو لأنهم ازورُّوا (أي: انحرفوا) عن السائل وأعرضوا عنه وولوه ظهورهم ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لمنفعتها، وكان عينَ مضرتها وسببَ تعذيبها ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: وبال كنزكم (أقول: يستثنى من هذا زينة الذهب والفضة للنساء في مذهب الإمام الشافعي رحمه الله تعالى).

(٣٦) ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في اللوح المحفوظ (أقول: أو في العلم الإلهي، أو في الكتاب المبين) ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ المعنى: أن هذا أمر ثابت في نفس الأمر منذ خلق الله تعالى الأجرام والأزمنة ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ واحد فرد وهو رجب، وثلاثة سرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: تحريم الأشهر الأربعة هو الدين القويم، دين إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، والعرب ورثوه منهما ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ بهتك حرمتها وارتكاب حرامها. والجمهور على أن حرمة المقاتلة فيها منسوخة، وأوَّلوا الظلم بارتكاب المعاصي فيهنَّ، فإنه أعظم وزراً كارتكابها في الحرم وحال الإِحرام ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ جميعاً ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ بشارةٌ وضمانٌ لهم بالنصرة بسبب تقواهم.

إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ
فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ
لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ
إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ
فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾
إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ
يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ
ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا
وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ
وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

(٣٧) ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ﴾ أي: تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر. كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلُّوه وحرَّموا مكانه شهراً آخر ﴿زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ لأنه تحريم ما أحله الله تعالى وتحليل ما حرَّمه الله تعالى، فهو كفر آخر ضموه إلى كفرهم ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ضلالاً زائداً ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا﴾ يحلون النَّسيء من الأشهر الحرم سنة ويحرمون مكانه شهراً آخر ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ فيتركونه على حرمته ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: ليوافقوا عدة الأربعة المحرمة ﴿فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ بمواطأة العدة وَحْدَها من غير مراعاة الوقت ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ والمعنى خذلهم وأضلهم حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسناً ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ هدايةً موصلة إلى الاهتداء.

(٣٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ تباطأتم، والاستفهام للتوبيخ ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ وكان ذلك في غزوة تبوك، أمروا بها بعد رجوعهم من الطائف في وقت عسرة وقيظ (حرٍّ شديد) مع بعد الشُّقَّة (أي: المسافة التي تُقطع بمشقَّة) وكثرة العدو فشقَّ عليهم ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وغرورها ﴿مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بدل الآخرة ونعيمها ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فما التمتع بها ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ في جنب الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ مستحقر.

(٣٩) ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟﴾ إن لا تنفروا إلى ما استنفرتم إليه ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالإهلاك بسبب فظيع كقحط وظهور عدو ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ويستبدل بكم آخرين مطيعين ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ إذ لا يقدح تثاقلكم في نصرة دينه شيئاً، فإنه الغني عن كل شيء وفي كل أمر. وقيل: الضمير للرسول ﷺ، أي: ولا تضروه فإن الله سبحانه وتعالى وعدَ له بالعصمة والنصر، ووعْدُه حق ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ فيقدر على التبديل وتغيير الأسباب والنصرة بلا مدد كما قال تعالى:

(٤٠) ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: إن لم تنصروه فسينصره الله تعالى كما نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ ولم يكن معه إلا رجل واحد. أو إن لم تنصروه فقد أوجب الله تعالى له النصر حتى نصره في مثل ذلك الوقت، فلن يخذله في غيره ﴿إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ والغار نقب في أعلى ثور، وهو جبل في يمنى مكة على مسيرة ساعة، مكثا فيه ثلاث ليالٍ ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ وهو أبو بكر رضي الله تعالى عنه ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ بالعصمة والمعونة. روي أن المشركين طلعوا فوق الغار فأشفق أبو بكر رضي الله تعالى عنه على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما» [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى]. فأعماهم الله تعالى عن الغار، فجعلوا يترددون حوله فلم يروه. وقيل: لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين فباضتا في أسفله، والعنكبوت فنسجت عليه ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أمنته التي تسكن عندها القلوب ﴿عَلَيۡهِ﴾ على النبي ﷺ، أو على صاحبه وهو الأظهر لأنه كان منزعجاً (أي: قلقاً) ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ يعني الملائكة، أنزلهم ليحرسوه في الغار، أو ليعينوه على العدو يوم بدر والأحزاب وحنين ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾ يعني الشرك أو دعوة الكفر ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ يعني التوحيد أو دعوة الإِسلام. والمعنى: وجعل ذلك بتخليص الرسول ﷺ من أيدي الكفار إلى المدينة فإنه المبدأ له، أو بتأييده إياه بالملائكة في هذه المواطن، أو بحفظه ونصره له حيث حضر ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠﴾ في أمره وتدبيره جل وعلا.

ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾
لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ
عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا
مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾
عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ
صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ
يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ
وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ
فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ
لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ
وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم
مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ
ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

(٤١) ﴿**ٱنفِرُواْ خِفَافًا**﴾ لنشاطكم له ﴿**وَثِقَالًا**﴾ عنه لمشقته عليكم، أو لقلة عيالكم ولكثرتها، أو ركباناً ومشاة، أو خفافاً وثقالاً من السلاح، أو صحاحاً ومراضاً ﴿**وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ**﴾ بما أمكن لكم منهما، كليهما أو أحدهما ﴿**ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ**﴾ من تركه ﴿**إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾**﴾ أنه خير، إذ إخبار الله تعالى به صدق فبادروا إليه.

(٤٢) ﴿**لَوۡ كَانَ عَرَضٗا**﴾ أي: لو كان ما دُعوا إليه نفعاً دنيوياً ﴿**قَرِيبٗا**﴾ سهل المأخذ ﴿**وَسَفَرٗا قَاصِدٗا**﴾ متوسطاً ﴿**لَّٱتَّبَعُوكَ**﴾ لوافقوك ﴿**وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ**﴾ أي: المسافة التي تقطع بمشقة ﴿**وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ**﴾ أي: المتخلفون إذا رجعت من تبوك معتذرين ﴿**لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ**﴾ وهذا من المعجزات، لأنه إخبار عما وقع قبل وقوعه ﴿**يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ**﴾ بإيقاعها في العذاب، لأن الحلف الكاذب إيقاع للنفس في الهلاك ﴿**وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾**﴾ في ذلك، لأنهم كانوا مستطيعين الخروج.

(٤٣) ﴿**عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ**﴾ بيانٌ لما كني عنه بالعفو ومعاتبة عليه. والمعنى: لأي شيء أذنت لهم في القعود حين استأذنوك واعتلُّوا بأكاذيب، وهلا توقفت ﴿**حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ**﴾ في الاعتذار ﴿**وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾**﴾ فيه.

(٤٤) ﴿**لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ**﴾ أي: ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا، فإن الخلص منهم يبادرون إليه ولا يتوقفون على الإذن فيه فضلاً أن يستأذنوك في التخلف عنه، أو أن يستأذنوك في التخلف كراهة أن يجاهدوا ﴿**وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾**﴾ شهادة لهم بالتقوى وعِدةٌ لهم بثوابه.

(٤٥) ﴿**إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ**﴾ في التخلُّف ﴿**ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ**﴾ تخصيص الإيمان بالله عزَّ وجل واليوم الآخر في الموضعين للإشعار بأن الباعث على الجهاد والوازع عنه الإيمان وعدم الإيمان بهما ﴿**وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ**﴾ (أي: شكِّهم) ﴿**يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾**﴾ يتحيرون.

(٤٦) ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ﴾ للخروج ﴿عُدَّةً﴾ أهبةً ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ استدراكٌ عن مفهوم قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾ كأنه قال: ما خرجوا ولكن تثبطوا، لأنه تعالى كره انبعاثهم أي: نهوضهم للخروج ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ فحبسهم بالجبن والكسل ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ تمثيلٌ لإلقاء الله تعالى كراهة الخروج في قلوبهم، أو وسوسة الشيطان بالأمر بالقعود (أقول: الشيطان ضد المؤمن، فإذا أراد شيئاً يدخل في قلبه ويحركه، فعلى ذلك المؤمن أن يتمسَّك بأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ، وإذا كان أمر الله تعالى وأمر الرسول ﷺ مقدَّماً عنده فإنه لا ينظر إلى وسوسة الشيطان. فإذا عرض على الإنسان المؤمن شيء في استقباله، هل يذهب أو يفعل أو يترك، لا بد له أن يأخذ بالشريعة، فإذا أخذ بالشريعة وسنة الرسول ﷺ تزول الوسوسة فيما بينه وبين ما يطلب). أو حكاية قول بعضهم لبعض. أو إذن الرسول عليه الصلاة والسلام لهم. والقاعدين: يحتمل المعذورين وغيرهم، وعلى الوجهين لا يخلو عن ذم.

(٤٧) ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ﴾ بخروجهم شيئاً ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ فساداً وشراً (أقول: كما حصل في غزوة أحد) ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ ولأسرعوا ركائبهم بينكم بالنميمة، أو الهزيمة والتخذيل ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ يريدون أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف فيما بينكم أو الرعب في قلوبكم ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ ضَعَفةٌ يسمعون قولهم ويطيعونهم، أو نمامون يسمعون حديثكم للنقل إليهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فيعلم ضمائرهم وما يتأتى منهم (أقول: من اعتمد على علم الله تعالى بضميره فإنه لا يفعل إلا ما يوافق الشريعة والسنة النبوية عليه الصلاة والسلام، وإذا كان في علم الله تعالى أنه يقع في المخالفة لا يمكن له أن يفرَّ، فإذا وقع عليه القدر لا بدَّ أن يستقبله بالتوبة والاستغفار والرجوع إلى الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]).

لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ
جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾
وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ
سَقَطُواْ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ
﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ
وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ
ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ
﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ
نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ
أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ
أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ
قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ
إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

(٤٨) ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ﴾ تشتيت أمرك وتفريق أصحابك ﴿مِن قَبْلُ﴾ يعني يوم أُحُد فإن ابن أُبي وأصحابه كما تخلفوا عن تبوك بعد ما خرجوا مع الرسول ﷺ إلى ذي جدة أسفل من ثنية الوداع (اسم مكان) انصرفوا يوم أحد ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ ودبَّروا لك المكايد والحيل ودوَّروا الآراء في إبطال أمرك ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ النصر والتأييد الإلهي ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وعلا دينه ﴿وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: على رغم منهم. والآيتان لتسلية الرسول ﷺ والمؤمنين على تخلُّفهم، وبيان ما ثبَّطهم الله تعالى لأجله وكره انبعاثهم له وهتك أستارهم وكشف أسرارهم وإزاحة اعتذارهم.

(٤٩) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى﴾ في القعود ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ ولا توقعني في الفتنة، أي: في العصيان والمخالفة بأن لا تأذن لي. وفيه إشعار بأنه لا محالة متخلّف أذن له أم لم يأذن. أو في الفتنة بسبب ضياع المال والعيال، إذ لا كافل لهم بعدي ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ وهي فتنة التخلف أو ظهور النفاق لا ما احترزوا عنه ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ جامعة لهم يوم القيامة، أو الآن لأن إحاطة أسبابها بهم كوجودها.

(٥٠) ﴿إِن تُصِبْكَ﴾ في بعض غزواتك ﴿حَسَنَةٌ﴾ ظفر وغنيمة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ لفرط حسدهم ﴿وَإِن تُصِبْكَ﴾ في بعضها ﴿مُصِيبَةٌ﴾ كسر أو شدة كما أصاب يوم أحد ﴿يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ تبجَّحوا (أي: تباهوا) بانصرافهم واستحمدوا رأيهم في التخلف ﴿وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ مسرورون.

(٥١) ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ إلا ما اختصَّنا بإثباته وإيجابه من النصرة أو الشهادة، أو ما كتب لأجلنا في اللوح المحفوظ (أي: في علمه جل وعلا) لا يتغير بموافقتكم ولا بمخالفتكم ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ ناصرنا ومتولي أمورنا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ لأنَّ حقَّهم أن لا يتوكَّلوا على غيره.

(٥٢) ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ تنتظرون بنا ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ إلا إحدى العاقبتين اللتين كل منهما حسنى العواقب: النُصرة أو الشهادة ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ أيضاً إحدى السوأيين ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ

﴿بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ بقارعة من السماء ﴿أَوْ بِأَيْدِينَاۖ﴾ أو بعذاب بأيدينا، وهو القتل على الكفر ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ ما هو عاقبتنا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ ما هو عاقبتكم.

(٥٣) ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْۖ﴾ أمرٌ في معنى الخبر، أي: لن يتقبل منكم نفقاتكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (متمرِّدين عاتين [النسفي]).

(٥٤) ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ أي: وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلين ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ لأنهم لا يرجون بهما ثواباً ولا يخافون على تركهما عقاباً.

فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم
بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾
وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ
قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ
أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ
فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا
هُمۡ يَسۡخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ
وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ
لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ
وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ
فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾ وَمِنۡهُمُ
ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ
لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦١﴾

(٥٥) ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ﴾ فإن ذلك استدراج ووبال لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب وما يرون فيها من الشدائد والمصائب ﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر في العاقبة، فيكون ذلك استدراجاً لهم.

(٥٦) ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ﴾ إنهم لمن جملة المسلمين ﴿وَمَا هُم مِّنكُمۡ﴾ لكفر قلوبهم ﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين، فيُظهرون الإسلام تقية.

(٥٧) ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا﴾ حصناً يلجؤون إليه ﴿أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا﴾ نفقاً ينجحرون فيه (أي: يدخلون فيه) ﴿لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ﴾ لأقبلوا نحوه ﴿وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء كالفرس الجموح.

(٥٨) ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ﴾ يُعيبك ﴿فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ في قَسْمها ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ قيل: إنها نزلت في أبي الجواظ المنافق، قال: ألا ترون إلى صاحبكم إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم ويزعم أنه يعدل. وقيل: في ابن ذي الخويصرة رأس الخوارج، كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين فاستعطف قلوب أهل مكة بتوفير الغنائم عليهم فقال: اعدل يا رسول الله! فقال: «ويلك إن لم أعدلْ فمن يعدل» [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى].

(٥٩) ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ما أعطاهم الرسول ﷺ من الغنيمة أو الصدقة. وذكر الله تعالى للتعظيم وللتنبيه على أن ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام كان بأمره جل وعلا ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ كفانا فضله ﴿سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ صدقة أو غنيمة أخرى ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ فيؤتينا أكثر مما آتانا ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ في أن يغنينا من فضله.

ثم بيَّن مصارف الصدقات تصويباً وتحقيقاً لما فعله الرسول ﷺ فقال جلَّ وعلا:

(٦٠) ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ أي: الزكوات لهؤلاء المعدودين دون غيرهم. والفقير: من لا مال له ولا كسب يقع موقعاً من حاجته. والمسكين: من له مال أو كسب لا يكفيه ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾ الساعين في تحصيلها وجمعها ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة فيه فيستألف قلوبهم. أو أشراف قد يترقب بإعطائهم ومراعاتهم إسلام نظرائهم، وقد أعطى رسول الله ﷺ عيينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس لذلك. وقيل أشراف يستألفون على أن يسلموا فإنه ﷺ كان يعطيهم. والأصحُّ أنه كان يعطيهم من خمس الخمس الذي كان خاصَّ ماله ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ وللصرف في فك الرقاب، أو بأن يُفدى الأسارى ﴿وَٱلۡغَٰرِمِينَ﴾ والمديونين لأنفسهم في غير معصية ومن غير إسراف إذا لم يكن لهم وفاء، أو لإصلاح ذات البين وإن كانوا أغنياء، لقوله ﷺ: «لا تحلُّ الصدقة لغني إلا لخمسة: لغازٍ في سبيل الله، أو لغارم، أو لرجل اشتراها بماله، أو لرجل له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهدى المسكين للغني، أو لعامل عليها» [رواه الإمام أحمد وأبو داود رحمهما الله تعالى] ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وللصرف في الجهاد بالإنفاق على المتطوعة وابتياع الكراع (أي: الخيل والبقر والغنم) والسلاح، وقيل: وفي بناء القناطر والمصانع ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ المسافر المنقطع عن ماله ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: فرض لهم الله تعالى الصدقات فريضة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ يضع الأشياء في مواضعها.

(٦١) ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ﴾ يسمع كل ما يقال له ويصدقه. روي أنهم قالوا: محمد أذن سامعة، نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾ تصديقٌ لهم بأنه أذن، ولكن لا على الوجه الذي ذموا به بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ يصدق به لما قام عنده من الأدلة ﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ويصدقهم لما علم من خلوصهم ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ أي: وهو رحمة ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾ لمن أظهر الإيمان، حيث يقبله ولا يكشف سره. وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم جهلاً بحالكم، بل رفقاً بكم وترحُّماً عليكم ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦١﴾ بإيذائه.

يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ
أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ
مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ
ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ
أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ
إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ
لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ
وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم
بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ
بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ
بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ
عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ
إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ
ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ
فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٦٨﴾

(٦٢) ﴿**يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ**﴾ على معاذيرهم فيما قالوا ﴿**لِيُرۡضُوكُمۡ**﴾ لترضوا عنهم. والخطاب للمؤمنين ﴿**وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ**﴾ أحق بالإرضاء بالطاعة والوفاق. وتوحيد الضمير لتلازم الرضاءين ﴿**إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾**﴾ صدقاً.

(٦٣) ﴿**أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ**﴾ أي: يشاقق ﴿**فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٣﴾**﴾ يعني الهلاك الدائم.

(٦٤) ﴿**يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ**﴾ على المؤمنين ﴿**سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ**﴾ (أي: بما في قلوب المنافقين) وتهتك عليهم أستارهم ﴿**قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ**﴾ مبرزٌ أو مظهرٌ ﴿**مَّا تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾**﴾ أي: ما تحذرونه من إنزال السورة فيكم، أو ما تحذرون إظهاره من مساويكم.

(٦٥) ﴿**وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ**﴾ روي: أن ركب المنافقين مروا على رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه هيهات هيهات، فأخبر الله تعالى به نبيه فدعاهم فقال: «قلتم كذا وكذا»، فقالوا: لا والله ما كنا في شيء من أمرك وأمر أصحابك، ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصّر بعضنا على بعض السفر ﴿**قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾**﴾ توبيخاً على استهزائهم بمن لا يصح الاستهزاء به، وإلزاماً للحجة عليهم.

(٦٦) ﴿**لَا تَعۡتَذِرُواْ**﴾ لا تشتغلوا باعتذاركم فإنها معلومة الكذب ﴿**قَدۡ كَفَرۡتُم**﴾ قد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول ﷺ والطعن فيه ﴿**بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ**﴾ بعد إظهاركم الإيمان ﴿**إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ**﴾ لتوبتهم وإخلاصهم، أو لتجنُّبهم عن الإيذاء والاستهزاء ﴿**نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٦٦﴾**﴾ مصرين على النفاق، أو مقدمين على الإيذاء والاستهزاء.

(٦٧) ﴿**ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ**﴾ أي: متشابهة في النفاق والبعد عن الإيمان كأبعاض الشيء الواحد. وقيل: إنه تكذيب لهم في حلفهم بالله تعالى ﴿إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ﴾، وتقريرٌ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم

مِّنكُمۡ ﴾ [التوبة: ٥٦]، وما بعده كالدليل عليه، فإنه يدلُّ على مضادة حالهم لحال المؤمنين، وهو قوله تعالى: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ عن الإيمان والطاعة ﴿وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ﴾ عن المبارِّ. وقبضُ اليد كناية عن الشح (أي البخل) ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ أغفلوا ذكر الله تعالى وتركوا طاعته ﴿فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ فتركهم من لطفه وفضله ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٦٧﴾ الكاملون في التمرُّد والفسوق عن دائرة الخير (الخارجون عن طاعة الله تعالى).

(٦٨) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ﴾ عقابًا وجزاء؛ وفيه دليل على عظم عذابها ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أبعدهم من رحمته وأهانهم ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٦٨﴾ لا ينقطع؛ والمراد به ما وُعدوه، أو ما يقاسونه من تعب النفاق.

كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ
أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ
كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ
كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا
وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ
نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ
إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ
رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن
كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ
أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ
وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٧١﴾
وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ
وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

(٦٩) ﴿**كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ**﴾ أي: أنتم مثل الذين من قبلكم ﴿**كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا**﴾ بيانٌ لتشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم ﴿**فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ**﴾ نصيبهم من ملاذ الدنيا ﴿**فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ**﴾ ذم الأولين باستمتاعهم بحظوظهم المخدجة (أي: الناقصة) من الشهوات الفانية والتهائهم (أي: اشتغالهم) بها عن النظر في العاقبة والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيقية تمهيداً لذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء أثرهم ﴿**وَخُضۡتُمۡ**﴾ ودخلتم في الباطل ﴿**كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ**﴾ كالخوض الذي خاضوه ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ**﴾ لم يستحقوا عليها ثواباً في الدارين ﴿**وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾**﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة.

(٧٠) ﴿**أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ**﴾ أغرقوا بالطوفان ﴿**وَعَادٖ**﴾ أهلكوا بالريح ﴿**وَثَمُودَ**﴾ أهلكوا بالرجفة ﴿**وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ**﴾ أهلك نمروذ ببعوض، وأهلك أصحابه ﴿**وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ**﴾ وأهل مدين، وهم قوم شعيب عليه السلام، أهلكوا بالنار يوم الظلة (وهو عذابهم بسحابة أمطرتهم ناراً فاحترقوا) ﴿**وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ**﴾ قريات قوم لوط، ائتفكت بهم أي: انقلبت بهم فصار عاليها سافلها، وأمطروا حجارة من سجيل ﴿**أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم**﴾ يعني الكل ﴿**بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ**﴾ أي: لم يك من عادته ما يشابه ظلم الناس، كالعقوبة بلا جرم ﴿**وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٧٠﴾**﴾ حيث عرَّضوها للعقاب بالكفر والتكذيب.

(٧١) ﴿**وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ**﴾ في سائر الأمور ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ**﴾ لا محالة، فإن السين مؤكِّدة للوقوع ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ**﴾ غالب على كل شيء لا يمتنع عليه ما يريده ﴿**حَكِيمٞ ﴿٧١﴾**﴾ يضع الأشياء مواضعها.

(٧٢) ﴿**وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ**﴾

تستطيبها النفس أو يطيب فيها العيش ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ إقامةٍ وخلود. وعنه عليه الصلاة والسلام: «عدنٌ دار الله التي لم ترها عين قط ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة؛ النبيون والصديقون والشهداء، يقول الله تعالى: طوبى لمن دخلك» [رواه البزار وابن جرير رحمهما الله تعالى].

ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ لأنه المبدأ لكل سعادة وكرامة والمؤدي إلى نيل الوصول والفوز باللقاء. وعنه ﷺ: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً» [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى] ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الرضوان، أو جميع ما تقدم ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ الذي تُستحقر دونه الدنيا وما فيها.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ
وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ
مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ
وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ
مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ
ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ
مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ
ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ
﴿٧٦﴾ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ
ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ
أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ
ٱلۡغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا
جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

(٧٣) ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ**﴾ بالسيف ﴿**وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ**﴾ بإلزام الحجة وإقامة الحدود ﴿**وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ**﴾ في ذلك ولا تُحابِهم (أي: ولا تتساهل معهم) ﴿**وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾**﴾ مصيرهم.

(٧٤) ﴿**يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ**﴾ روي أنه ﷺ أقام في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المتخلفين، فقال الجلاس بن سويد: لئن كان ما يقول محمد لإخواننا حقاً لنحن شر من الحمير، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستحضره فحلف بالله ما قاله، فنزلت فتاب الجلاس وحسنت توبته [أخرجه البيهقي رحمه الله تعالى في الدلائل] ﴿**وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ**﴾ وأظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام ﴿**وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ**﴾ من قتل الرسول. وهو أن خمسة عشر منهم توافقوا عند مرجعه من تبوك أن يدفعوه عن ظهر راحلته إلى الوادي إذا تسنَّم العقبة (أي: علاها) بالليل، فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها، وحذيفة خلفها يسوقها، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وقعقعة السلاح، فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله، فهربوا [رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى بمعناه]. أو إخراجه وإخراج المؤمنين من المدينة. أو بأن يتوِّجوا عبد الله بن أبي وإن لم يرضَ رسول الله ﷺ ﴿**وَمَا نَقَمُوٓاْ**﴾ و ما وجدوا ما يورث نقمتهم ﴿**إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ**﴾ فإن أكثر أهل المدينة كانوا محاويج في ضنك (أي: ضيق) من العيش، فلما قدمهم رسول الله ﷺ أَثْرَوا بالغنائم (أي: كثر مالهم). وقُتِل للجلاس مولى فأمر رسول الله ﷺ بديته اثني عشر ألف درهم فاستغنى ﴿**فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ**﴾ وهو الذي حمل الجلاس على التوبة ﴿**وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ**﴾ بالإصرار على النفاق ﴿**يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ**﴾ بالقتل والنار ﴿**وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾**﴾ فينجيهم من العذاب.

(٧٥) ﴿**وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ**﴾ (ومعنى الآية: ومن المنافقين من أعطى الله تعالى عهداً إنْ رزقنا من فضله بأن وسَّع علينا في الرزق) ﴿**لَنَصَّدَّقَنَّ**﴾ (يعني: لنتصدقنَّ ولنخرجنَّ من ذلك

المال صدقته) ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥﴾ (يعني: ولنعملنَّ في ذلك المال ما يعمله أهلُ الصلاح بأموالهم؛ من صلة الأرحام، والإنفاق في سبيل الله تعالى، وجميع وجوه البرِّ والخير، وإخراج الزكاة وإيصالها إلى أهلها [الخازن]).

(٧٦) ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ منعوا حقَّ الله تعالى منه ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ عن طاعة الله تعالى ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ ٧٦﴾ وهم قوم عادتهم الإعراض عنها.

(٧٧) ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: فجعل الله تعالى عاقبة فعلهم ذلك نفاقاً وسوء اعتقاد في قلوبهم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ يلقون الله تعالى بالموت، أو يلقون عملهم أي: جزاءه، وهو يوم القيامة ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ بسبب إخلافهم ما وعدوه من التصدُّق والصلاح ﴿وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ٧٧﴾ وبكونهم كاذبين فيه، فإن خُلف الوعد متضمِّن للكذب مستقبَح من الوجهين.

(٧٨) ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ أي: المنافقون، أو من عاهد الله تعالى ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ ما أسرُّوه في أنفسهم من النفاق أو العزم على الإخلاف ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ٧٨﴾ فلا يخفى عليه ذلك.

(٧٩) ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ (أي: يعيبون) ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ المتطوِّعين ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ روي: أنه ﷺ حثَّ على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه بأربعة آلاف درهم وقال: كان لي ثمانية آلاف فأقرضت ربي أربعة وأمسكت لعيالي أربعة، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت»، فبارك الله تعالى له حتى صولحت إحدى امرأتيه عن نصف الثُمن على ثمانين ألف درهم. وتصدَّق عاصم بن عدي رضي الله تعالى عنه بمئة وسق من تمر (الوسق: ستون صاعاً). وجاء أبو عقيل الأنصاري رضي الله تعالى عنه بصاع تمر فقال: بتُّ ليلتي أجر بالجرير على صاعين (أي: أستقي للناس على أجرة صاعين) فتركت صاعاً لعيالي وجئت بصاع، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره على الصدقات، فلمزهم المنافقون (أي: عابوهم) وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، ولقد كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل، ولكنَّه أحبَّ أن يُذكِّره بنفسه ليعطى من الصدقات [وأصل القصة في الصحيحين] ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ إلا طاقتهم ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ يستهزئون بهم ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ جازاهم على سخريتهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩﴾ على كفرهم.

ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً
فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ
بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ
أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا
جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ
مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن
تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟
مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ
عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ
﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم
بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ
أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ
أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾

(٨٠) ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يريد به التساوي بين الأمرين في عدم الإفادة لهم، كما نص عليه بقوله: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ روي أن عبد الله بن عبد الله بن أبي، وكان من المخلصين، سأل رسول الله ﷺ في مرض أبيه أن يستغفر له، ففعل عليه الصلاة والسلام فنزلت، فقال عليه الصلاة والسلام: لأزيدنَّ على السبعين فنزلت: ﴿سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦] [وأصل الحديث في الصحيحين] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إشارة إلى أن اليأس من المغفرة وعدم قبول استغفارك ليس لبخلٍ منا ولا قصورٍ فيك، بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ المتمرِّدين في كفرهم، وهو كالدليل على الحكم السابق، فإن مغفرة الكافر بالإقلاع عن الكفر والإرشاد إلى الحق، والمنهمكُ في كفره المطبوع عليه لا ينقلع ولا يهتدي. والتنبيه على عذر الرسول ﷺ في استغفاره، وهو عدم يأسه من إيمانهم ما لم يعلم أنهم مطبوعون على الضلالة، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم، لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

(٨١) ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ بقعودهم عن الغزو خلفه ﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إيثاراً للدعة (أي: للراحة) والخفض (أي: رفاه العيش) على طاعة الله تعالى. وفيه تعريض بالمؤمنين الذين آثروا عليها تحصيل رضاه ببذل الأموال والمهج (أي: الأرواح) ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ أي: قال بعضهم لبعض، أو قالوه للمؤمنين تثبيطاً (أي: تأخيراً) ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ وقد آثرتموها بهذه المخالفة ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ أن مآبهم إليها أو أنها كيف هي ما اختاروها بإيثار الدعة على الطاعة.

(٨٢) ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ إخبارٌ عما يؤول إليه حالهم في الدنيا والآخرة، أخرجه على صيغة الأمر للدلالة على أنه حتم واجب. ويجوز أن يكون الضحك والبكاء كنايتين عن السرور والغم. والمرادُ من القلة العدم.

(٨٣) ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ فإن ردَّك الله تعالى إلى المدينة وفيها طائفة من المتخلفين، يعني منافقيهم، فإن كلهم لم يكونوا منافقين، أو مَن بقي منهم، وكان المتخلفون اثني عشر رجلاً ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ ﴾ إلى غزوة أخرى بعد تبوك ﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ ﴾ إخبارٌ في معنى النهي للمبالغة ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ تعليلٌ لهم. وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم. وأَوَّل مَرَّةٍ: هي الخروج إلى غزوة تبوك ﴿فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ٨٣﴾ أي: المتخلفين، لعدم لياقتهم للجهاد كالنساء والصبيان.

(٨٤) ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا﴾ روي: «أن عبد الله بن أُبي دعا رسول الله ﷺ في مرضه، فلما دخل عليه سأله أن يستغفر له ويكفنه في شعاره (أي: لباسه) الذي يلي جسده ويصلي عليه، فلما مات أرسل قميصه ليكفن فيه، وذهب ليصلي عليه» فنزلت [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى]. وإنما لم يُنهَ عن التكفين في قميصه ونُهيَ عن الصلاة عليه لأن الضنَّ (أي: البخل) بالقميص كان مخلًّا بالكرم، ولأنه كان مكافأة لإلباسه العباس قميصه حين أسر ببدر، والمراد من الصلاة الدعاء للميت والاستغفار له، وهو ممنوع في حق الكافر ﴿وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ ﴾ ولا تقف عند قبره للدفن أو الزيارة ﴿إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨٤﴾ تعليلٌ للنهي أو لتأبيد الموت.

(٨٥) ﴿ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٨٥﴾ تكريرٌ للتأكيد. والأمرُ حقيق به، فإن الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد، والنفوسَ مغتبطة عليها. ويجوز أن تكون هذه في فريق غير الأول.

(٨٦) ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ ﴾ من القرآن، ويجوز أن يراد بها بعضها ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ ﴾ ذوو الفضل والسَّعة ﴿وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٨٦﴾ الذين قعدوا لعذرٍ.

رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ
جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ
ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ
لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ
مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾
وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ
مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ
حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى
ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ
مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

(٨٧) ﴿**رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ**﴾ مع النساء ﴿**وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾**﴾ ما في الجهاد وموافقة الرسول ﷺ من السعادة، وما في التخلُّف عنه من الشقاوة.

(٨٨) ﴿**لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ**﴾ أي: إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا فقد جاهد من هو خير منهم ﴿**وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ**﴾ منافع الدارين: النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة ﴿**وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾**﴾ الفائزون بالمطالب.

(٨٩) ﴿**أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾**﴾ بيانٌ لما لهم من الخيرات الأخروية.

(٩٠) ﴿**وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ**﴾ يعني أسداً وغطفان، استأذنوا في التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال. وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل، قالوا إن غزونا معك أغارت طيئ على أهالينا ومواشينا. والمعذِّر من قصَّر في الأمر موهماً أن له عذراً ولا عذر له ﴿**وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ**﴾ وهم منافقو الأعراب، كذبوا الله ورسوله ﷺ في ادعاء الإيمان ﴿**سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ**﴾ من الأعراب، أو من المعذِّرين، فإن منهم من اعتذر لكسله لا لكفره ﴿**عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾**﴾ بالقتل والنار.

(٩١) ﴿**لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ**﴾ لفقرهم، كجهينة ومزينة وبني عذرة ﴿**حَرَجٌ**﴾ إثمٌ في التأخر ﴿**إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ**﴾ بالإيمان والطاعة في السر والعلانية، كما يفعل المُوالي الناصح، أو بما قدروا عليه فعلًا أو قولًا يعود على الإسلام والمسلمين بالصلاح ﴿**مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ**﴾ أي: ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل ﴿**وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾**﴾ لهم، أو للمسيء فكيف للمحسن؟

(٩٢) ﴿**وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ**﴾ وهم البكَّاؤون، سبعة من الأنصار: معقل بن يسار، وصخر بن خنساء، وعبد الله بن كعب، وسالم بن عمير، وثعلبة بن غنمة، وعبد الله بن مغفل، وعُليَّة بن زيد رضي الله تعالى عنهم، أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: قد نذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال

المخصوفة نَغْزُ معك ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾ تسيل ﴿مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ في مغزاتهم (أقول: هذا مقتضى الإيمان، فمقتضى إيمانكم أن لا تخالفوا اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام).

(٩٣) ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بالمعاتبة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ وَاجِدُون الأهبة (أي: العدة) ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ استئنافٌ لبيان ما هو السبب لاستئذانهم من غير عذر، وهو رضاهم بالدناءة والانتظام في جملة الخوالف إيثاراً للدعة (أي: الراحة) ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ حتى غفلوا عن وخامة العاقبة ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ مغبَّته (أي: عاقبته).

يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن
نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى
ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحۡلِفُونَ
بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ
عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ
يَكۡسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن
تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ
﴿٩٦﴾ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ
حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ
ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ
عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ
ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ
مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ
لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾

(٩٤) ﴿**يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ**﴾ في التخلف ﴿**إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ**﴾ من هذه السفرة ﴿**قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ**﴾ بالمعاذير الكاذبة لأنه ﴿**لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ**﴾ لن نصدقكم لأنه ﴿**قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ**﴾ أعلَمنا بالوحي إلى نبيه بعض أخباركم، وهو ما في ضمائركم من الشر والفساد ﴿**وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ**﴾ أتتوبون عن الكفر أم تثبتون عليه؟ فكأنه استتابة وإمهال للتوبة ﴿**ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ**﴾ أي: إليه، فهو جلَّ وعلا مطَّلع على سرِّهم وعلنهم، لا يفوت عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم ﴿**فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾**﴾ بالتوبيخ والعقاب عليه.

(٩٥) ﴿**سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ**﴾ فلا تعاتبوهم ﴿**فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ**﴾ ولا توبِّخوهم ﴿**إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ**﴾ لا ينفع فيهم التأنيب، فإن المقصود منه التطهير بالحمل على الإنابة، وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير، فهو علة الإعراض وترك المعاتبة ﴿**وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ**﴾ من تمام التعليل، وكأنه قال: إنهم أرجاس من أهل النار لا ينفع فيهم التوبيخ في الدنيا والآخرة ﴿**جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٥﴾**﴾ (أي: يُجزون جزاء كسبهم [النسفي]).

(٩٦) ﴿**يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ**﴾ بحلفهم فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم ﴿**فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾**﴾ أي: فإن رضاكم لا يستلزم رضا الله تعالى، ورضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كانوا في سخط الله تعالى وبصدد عقابه، وإن أمكنهم أن يُلبِّسوا عليكم لا يمكنهم أن يُلبِّسوا على الله تعالى فلا يهتك سترهم ولا ينزل الهوان بهم. والمقصود من الآية النهي عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم بعد الأمر بالإعراض وعدم الالتفات نحوهم.

(٩٧) ﴿**ٱلۡأَعۡرَابُ**﴾ أهل البدو ﴿**أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا**﴾ من أهل الحضر، لتوحشهم وقساوتهم وعدم مخالطتهم لأهل العلم وقلة استماعهم للكتاب والسنة ﴿**وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ**﴾ وأحق (وأحرى) بأن لا يعلموا ﴿**حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ**﴾ مِنْ الشرائع فرائضِها وسننِها ﴿**وَٱللَّهُ عَلِيمٌ**﴾ يعلم حال كل أحد من أهل الوبر (سكان الخيام) والمدر (سكان البيوت المبنية) ﴿**حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾**﴾ فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم عقاباً وثواباً.

(٩٨) ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾ يَعُدُّ ﴿مَا يُنفِقُ﴾ يصرفه في سبيل الله تعالى ويتصدَّق به ﴿مَغۡرَمٗا﴾ غرامة وخسراناً، إذ لا يحتسبه قربة عند الله تعالى ولا يرجو عليه ثواباً، وإنما ينفق رياء أو تقية ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ دوائر الزمان ونُوَبَه (أي: مصائبه) لينقلب الأمر عليكم فيتخلص من الإنفاق ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ دعاءٌ عليهم بنحو ما يتربصونه، أو إخبارٌ عن وقوع ما يتربصون عليهم. والدائرة: عقبة الزمان ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون عند الإنفاق ﴿عَلِيمٞ ٩٨﴾ بما يُضمرون.

(٩٩) ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾ شهادةٌ من الله تعالى بصحة معتقدهم، وتصديق لرجائهم ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾ وعدٌ لهم بإحاطة الرحمة عليهم. والسين لتحقيقه، وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩﴾ لتقريره.

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ
لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا
ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ
مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ
نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ
عَظِيمٍ (١٠١) وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا
وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢)
خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ
إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ
ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ
ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)

(١٠٠) ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ هم الذين صلَّوا إلى القبلتين، أو الذين شهدوا بدراً، أو الذين أسلموا قبل الهجرة ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾ أهل بيعة العقبة الأولى وكانوا سبعة، وأهل بيعة العقبة الثانية وكانوا سبعين، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير رضي الله عنه ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ اللاحقون بالسابقين من القبيلين، أو مَن اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما نالوا من نعمه الدينية والدنيوية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٠٠)﴾.

(١٠١) ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ أي: وممن حول بلدتكم، يعني المدينة ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ هم جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار، كانوا نازلين حولها ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ لا تعرفهم بأعيانهم ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ ونطَّلع على أسرارهم؛ إن قدَروا أن يلبِّسوا عليك لم يقدِروا أن يلبِّسوا علينا ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ بالفضيحة والقتل، أو بأحدهما وعذاب القبر، أو بأخذ الزكاة ونهك الأبدان (أي: جعلها ضعيفة) ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)﴾ إلى عذاب النار (أقول: تعذيبهم مرتين: في الدنيا قتل وأسر، وفي الآخرة عذاب عظيم).

(١٠٢) ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ ولم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة، وهم طائفة من المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سَوَاري المسجد لما بلغهم ما نزل في المتخلفين، فقدِم رسول الله ﷺ فدخل المسجد على عادته، فصلى ركعتين فرآهم، فسأل عنهم فذُكر له أنهم أقسموا أن لا يحلُّوا أنفسهم حتى تحُلَّهم، فقال: وأنا أقسم أن لا أحلَّهم حتى أُؤمر فيهم، فنزلت فأطلقهم ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ خلطوا العمل الصالح ـ الذي هو إظهارُ الندم والاعترافُ بالذنب ـ بآخرَ سيئ، هو التخلُّف وموافقة أهل النفاق ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أن يقبل توبتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢)﴾ يتجاوز عن التائب ويتفضَّل عليه.

(١٠٣) ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ روي: أنهم لما أُطلِقوا قالوا: يا رسول الله! هذه أموالنا التي خلَّفَتْنا

فتصدَّق بها وطهِّرنا، فقال: «ما أُمِرت أن آخذ من أموالكم شيئاً» فنزلت [أخرجه ابن جرير رحمه الله تعالى] ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ من الذنوب أو حب المال المؤدي بهم إلى مثله ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ وتنمي بها حسناتهم، وترفعهم إلى منازل المخلصين ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ واعطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ تسكن إليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ باعترافهم ﴿عَلِيمٌ ١٠٣﴾ بندامتهم.

(١٠٤) ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ الضمير إما للمتوب عليهم، والمراد أن يمكّن في قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقاتهم، أو لغيرهم، والمراد به التحضيض عليها ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ إذا صحَّت ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾ وأن من شأنه قبول توبة التائبين والتفضل عليهم.

(١٠٥) ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ﴾ ما شئتم ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ فإنه لا يخفى عليه خيراً كان أو شراً ﴿وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ فإنه تعالى لا يُخفي عنهم كما رأيتم وتَبيَّنَ لكم ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ بالموت ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ بالمجازاة عليه.

(١٠٦) ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ من المتخلفين ﴿مُرۡجَوۡنَ﴾ مؤخَّرون، أي: موقوف أمرهم ﴿لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ في شأنهم ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ﴾ إن أصروا على النفاق ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ إن تابوا ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٞ ١٠٦﴾ فيما يفعل بهم. والمراد بهؤلاء كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع رضي الله تعالى عنهم، أمر الرسول ﷺ أصحابه أن لا يسلِّموا عليهم ولا يكلِّموهم، فلما رأوا ذلك أخلصوا نيَّاتهم وفوَّضوا أمرهم إلى الله فرحمهم الله تعالى.

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ
وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ
(١٠٧) لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ
يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ
وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ
عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ
عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي
ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ
فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)
۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم
بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ
وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ
وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ
بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (١١١)

(١٠٧) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ مضارة للمؤمنين. روي أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه، فحسدتهم إخوانهم بنو غُنم بن عوف، فبنوا مسجداً على قصد أن يؤمهم فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام، فلما أتموه أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا قد بنينا مسجداً لذي الحاجة والعلة والليلة المطيرة والشاتية، فصلِّ فيه حتى نتخذه مصلى، فأخذ ثوبه ليقوم معهم فنزلت، فدعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن والوحشي، فقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه، ففعل واتخذ مكانه كُناسة ﴿وَكُفۡرٗا﴾ وتقوية للكفر الذي يضمرونه ﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يريد الذي كانوا يجتمعون للصلاة في مسجد قباء ﴿وَإِرۡصَادٗا﴾ ترقباً ﴿لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ يعني الراهب، فإنه قال لرسول الله ﷺ يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين حتى انهزم مع هوازن وهرب إلى الشام ليأتي من قيصر بجنود يحارب بهم رسول الله ﷺ، ومات بقنسرين (اسم بلدة بالشام) وحيداً، وقيل: كان يجمع الجيوش يوم الأحزاب فلما انهزموا خرج إلى الشام ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ ما أردنا ببنائه إلا الخصلة الحسنى أو الإرادة الحسنى؛ وهي الصلاة والذكر والتوسعة على المصلين ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ (١٠٧)﴾ في حلفهم.

(١٠٨) ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾ للصلاة ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ يعني مسجد قباء، أسسه رسول الله ﷺ وصلى فيه أيام مقامه بقباء من الاثنين إلى الجمعة، لأنه أوفق للقصة، أو مسجد رسول الله ﷺ لقول أبي سعيد رضي الله عنه: «سألت رسول الله ﷺ عنه فقال هو مسجدكم هذا مسجد المدينة» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ من أيام وجوده ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ أولى بأن تصلي فيه ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ من المعاصي والخصال المذمومة، طلباً لمرضاة الله سبحانه وتعالى ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ (١٠٨)﴾ يرضى عنهم ويدنيهم من جنابه تعالى إدناء المحب حبيبه. قال ﷺ: «يا معشر الأنصار! إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط»؟ فقالوا: يا رسول الله! نُتبِع الغائطَ الأحجارَ الثلاثة، ثم

نتبع الأحجار الماء، فتلا قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ [رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه بألفاظ متقاربة].

(١٠٩) ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ بنيان دينه ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ﴾ على قاعدة محكمة هي التقوى من الله تعالى وطلب مرضاته بالطاعة ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فأدى به لخوره (أي: لضعفه) وقلة استمساكه إلى السقوط في النار ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩﴾ إلى ما فيه صلاحهم ونجاتهم.

(١١٠) ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: شكاً ونفاقاً. والمعنى أن بناءهم هذا لا يزال سبب شكهم وتزايد نفاقهم، فإنه حملهم على ذلك، ثم لما هدمه الرسول ﷺ رسخ ذلك في قلوبهم وازداد بحيث لا يزول وسمه (أي: علامته) عن قلوبهم ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قِطَعاً بحيث لا يبقى لها قابلية الإدراك. وقيل: المراد بالتقطع ما هو كائن بالقتل أو في القبر أو في النار. وقيل: التقطع بالتوبة ندماً وأسفاً ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بنياتهم ﴿حَكِيمٌ ١١٠﴾ فيما أمر بهدم بنيانهم.

(١١١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ تمثيل لإثابة الله تعالى إياهم الجنة على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ استئنافٌ ببيان ما لأجله الشراء ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ مبالغةٌ في الإنجاز، وتقريرٌ لكونه حقاً ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ ففرحوا به غاية الفرح، فإنه أوجبَ لكم عظائمَ المطالب كما قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١١١﴾.

ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ
ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ
وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ
وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن
يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ
ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ
فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ
﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ
يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى
ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي
سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ
مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾

(١١٢) ﴿**ٱلتَّٰٓئِبُونَ**﴾ المراد بهم المؤمنون المذكورون ﴿**ٱلۡعَٰبِدُونَ**﴾ الذين عبدوا الله تعالى مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴿**ٱلۡحَٰمِدُونَ**﴾ لنعمائه أو لما نالهم من السراء والضراء ﴿**ٱلسَّٰٓئِحُونَ**﴾ الصائمون، شبَّه بها لأنه يعوق عن الشهوات، أو لأنه رياضة نفسانية يتوصل بها إلى الاطلاع على خفايا المُلك والملكوت. أو السائحون للجهاد أو لطلب العلم ﴿**ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ**﴾ في الصلاة ﴿**ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ**﴾ بالإيمان والطاعة ﴿**وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ**﴾ عن الشرك والمعاصي ﴿**وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ**﴾ أي: فيما بيَّنه وعيَّنه من الحقائق والشرائع ﴿**وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾**﴾ يعني به هؤلاء الموصوفين بتلك الفضائل. ووضعَ المُؤْمِنِينَ موضع ضميرهم للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك، وحذف المبشَّر به للتعظيم، كأنه قيل: وبشرهم بما يجل عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام.

(١١٣) ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ**﴾ روي: أنه ﷺ قال لأبي طالب لما حضرته الوفاة: «قل كلمة أحاجُّ لك بها عند الله» فأبى، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا أزال استغفر لك ما لم أُنْهَ عنه» فنزلت [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى] ﴿**وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾**﴾ بأنْ ماتوا على الكفر؛ وفيه دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم، فإنه طلبُ توفيقِهم للإيمان.

(١١٤) ﴿**وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ**﴾ وعدها إبراهيم أباه بقوله: ﴿لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] أي: لأطلبنَّ مغفرتك بالتوفيق للإيمان فإنه يَجُبُّ (أي: يقطع) ما قبله (قال الآلوسي رحمه الله تعالى: والذي عوَّل عليه الجمُّ الغفير من أهل السنة أن آزر لم يكن والد إبراهيم عليه السلام، وأنه ليس في آباء النبي ﷺ كافر أصلاً، لقوله ﷺ: لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات [تفسير الألوسي: ٧/ ١٩٤]) ﴿**فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ**﴾ بأن مات على الكفر، أو أوحي إليه بأنه لن يؤمن ﴿**تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ**﴾ قطع استغفاره ﴿**إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ**﴾ لكثير التأوه، وهو كناية عن فرط ترحمه ورقة قلبه ﴿**حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾**﴾ صبور على الأذى.

(١١٥) ﴿**وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا**﴾ أي: ليسمِّيهم ضُلاَّلاً ويؤاخذهم مؤاخذتهم ﴿**بَعۡدَ إِذۡ**

هَدَىٰهُمْ﴾ للإسلام ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ حتى يبيِّن لهم خطر ما يجب اتقاؤه، وكأنه بيان عذرٍ للرسول عليه الصلاة والسلام في قوله لعمه أو لمن استغفر لأسلافه المشركين قبل المنع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ فيعلم أمرهم في الحالين.

(١١٦) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ لمّا منعهم عن الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربى وتضمن ذلك وجوب التبرؤ عنهم رأساً، بيَّن لهم أن الله تعالى مالك كل موجود ومتولي أمره والغالب عليه، ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصرة إلا منه، ليتوجهوا بشراشرهم (يعني بجميع موجوداتهم) إليه ويتبرؤوا مما عداه، حتى لا يبقى لهم مقصود فيما يأتون ويذرون سواه.

(١١٧) ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ من إذن المنافقين في التخلف، أو برأهم عن علقة الذنوب كقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. وقيل: هو بعثٌ على التوبة. والمعنى: ما من أحد إلا وهو محتاج إلى التوبة، حتى النبي ﷺ والمهاجرون والأنصار، لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً﴾ [النور: ٣١]. إذ ما من أحد إلا وله مقام يستنقص دونه ما هو فيه، والترقي إليه توبةٌ من تلك النقيصة، وإظهار لفضلها بأنها مقام الأنبياء والصالحين من عباده ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ في وقتها. هي حالهم في غزوة تبوك، كانوا في عُسْرَة الظَّهر (أي: قلة المركوب)، تعتقب العشرة على بعير واحد، و(عُسرة) الزاد حتى قيل: إن الرجلين كانا يقتسمان تمرة، و(عُسرة) الماء حتى شربوا الفظَّ (أي: ماء الكرش) ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ عن الثبات على الإيمان أو اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ تكريرٌ للتأكيد، وتنبيهٌ على أنه تاب عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ
بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ
مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم
مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ
عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ
وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ
ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم
بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾
وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ
وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةًۚ
فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ
وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

(١١٨) ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ وتاب على الثلاثة: كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ تخلفوا عن الغزو، أو خُلِّف أمرهم فإنهم المرجؤون (أي: المؤخَّرون) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: برحبها، لإعراض الناس عنهم بالكلية، وهو مثل لشدة الحيرة ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ قلوبهم، من فرط الوحشة والغم، بحيث لا يسعها أُنس ولا سرور ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ وعلموا ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من سخطه ﴿إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ إلا إلى استغفاره ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ بالتوفيق للتوبة (أقول: مقتضى إيمانكم أن لا تخالفوا من اتبع الرسول عليه الصلاة والسلام) ﴿لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ أو أنزل قبول توبتهم ليُعدوا من جملة التائبين، أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ لمن تاب ولو عاد في اليوم مئة مرة (أقول: لو قُدِّر على الإنسان أن يقع في المعصية مئة مرة في اليوم عليه أن يتوب) ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ المتفضل عليه بالنعم.

(١١٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما لا يرضاه ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ في إيمانهم وعهودهم، أو في دين الله تعالى نيةً وقولاً وعملاً (أقول: أمر بالتقوى ولم يكتفِ بها بل أمر بالكينونة مع الصادقين لأن الإنسان بنفسه لا يطلع على نقصه ونقصانه، وإذا كان مع الصادقين فإنهم لا يهملونه بل يوقظونه، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، الحكمة علوم القرآن وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام).

(أقول: مراتب الصدق كثيرة، أقلها أن يكون السر والعلانية متفقين، وتكون صادقاً في موافقة ربك أمراً ونهياً وفي اتباع رسولك ﷺ، حتى تتحقق بالعبودية لله تعالى، فهي أمنية السالكين. وبمجرد الإيمان لا يكون المؤمن صادقاً، فلا بد له أن يعمل بمقتضى الإيمان، ومن مقتضيات الإيمان الصدق. والصادق له أوصاف:

١ – أن يكون صادقاً في نيته، لا يبتغي إلا مرضاة الله تعالى.

٢ – أن يكون صادقاً بلسانه، ويكون باستواء السريرة مع العلانية.

٣ – أن يكون صادقاً في الوفاء بالعزم، ويكون توكله على الله تعالى.

٤ – أن يكون صادقاً في عزمه على خير نواه، فلا يسوِّل ولا يسوِّف.

٥ – أن يكون صادقاً في مقاماته، من خوف ورجاء وحب وشوق.

٦- أن يكون صادقاً في مناجاته لربه تبارك وتعالى).

(١٢٠) ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن حُكمه. نهيٌ عبَّر عنه بصيغة النفي للمبالغة ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ولا يصونوا أنفسهم عما لم يَصُنْ نفسه عنه، ويكابدوا معه ما يكابده من الأهوال (أقول: لا يترفعوا بها ولا يصرفوا ما لا يكون على أنفسهم أشق من نفس النبي ﷺ). روي: «أن أبا خيثمة بلغ بستانه، وكانت له زوجة حسناء، فرشت له في الظل وبسطت له الحصير وقرَّبت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظلٌّ ظليل، ورطبٌ يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله ﷺ في الضح (أي: الشمس) والريح! ما هذا بخير، فقام فرحَّل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومرَّ كالريح، فمدَّ رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب (أي: يرفعه)، فقال: كن أبا خيثمة، فكان هو، ففرح به رسول الله ﷺ واستغفر له» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما دلَّ عليه قولُه: «ما كان» من النهي عن التخلف ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ شيء من العطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ تعبٌ ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ﴾ ولا يدوسون ﴿مَوْطِئًا﴾ مكاناً ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ يغضبهم وَطؤه ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ كالقتل والأسر والنهب ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ إلا استوجبوا به الثواب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ على إحسانهم.

(١٢١) ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ مثلَ ما أنفق عثمان رضي الله تعالى عنه في جيش العسرة ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ في مسيرهم ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ أثبت لهم ذلك ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذلك ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ جزاء أحسن أعمالهم، أو أحسن جزاء أعمالهم.

(١٢٢) ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ وما استقام لهم أن ينفروا جميعاً لنحو غزوٍ أو طلب علمٍ، كما لا يستقيم لهم أن يتثبطوا (أي: يتأخروا) جميعاً، فإنه يخلُّ بأمر المعاش ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ فهلا نفر من كل جماعة كثيرة كقبيلة أو أهل بلدة جماعةٌ قليلة ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ ليتكلَّفوا الفقاهة (أي: الفقه) فيه ويتجشموا (أي: يتحملوا) مشاقَّ تحصيلها ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقاهة إرشاد القوم وإنذارهم. وتخصيصه بالذكر لأنه أهم. وفيه دليل على أن التفقُّه والتذكير من فروض الكفاية، وأنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم فيه أن يستقيم ويقيم، لا الترفع على الناس والتبسط في البلاد ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ إرادة أن يحذروا عما يُنذَرون منه. وقد قيل: للآية معنى آخر، وهو أنه لما نزل في المتخلفين ما نزل سبق المؤمنون إلى النفير وانقطعوا عن التفقُّه، فأُمِروا أن ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون حتى لا ينقطع التفقه الذي هو الجهاد الأكبر، لأن الجدال بالحجة هو الأصل والمقصود من البعثة، فيكون الضمير في ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾ ﴿وَلِيُنذِرُوا۟﴾ لبواقي الفرق بعد الطوائف النافرة للغزو، وفي ﴿رَجَعُوٓا۟﴾ للطوائف. أي: ولينذر البواقي قومَهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصَّلوا أيام غيبتهم من العلوم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾
وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾
أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾
وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾
لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾
فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

١٠ سُورَةُ يُونُس ١٠٩

(١٢٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أمروا بقتال الأقرب منهم فالأقرب، كما أمر رسول الله ﷺ أولاً بإنذار عشيرته الأقربين، فإن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح. وقيل: هم يهود حوالي المدينة؛ كقريظة والنضير وخيبر. وقيل: الروم، فإنهم كانوا يسكنون الشام وهو قريب من المدينة (أقول: قاتلوا الذين يَلُونكُم لأنهم أقربُ إلى دياركم لتأمنوا شرَّهم وكيدَهم) ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ﴾ شدَّة وصبراً على القتال ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ بالحراسة والإعانة.

(١٢٤) ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم﴾ فمن المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ إنكاراً واستهزاءً ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ﴾ السورة ﴿إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ بزيادة العلم الحاصل من تدبر السورة وانضمام الإيمان بها وبما فيها إلى إيمانهم ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ بنزولها، لأنه سبب لزيادة كمالهم وارتفاع درجاتهم.

(١٢٥) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كفرٌ ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ كفراً بها مضموماً إلى الكفر بغيرها ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ واستحكم ذلك فيهم حتى ماتوا عليه.

(١٢٦) ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ يعني المنافقين ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يبتلون بأصناف البليات، أو بالجهاد مع رسول الله ﷺ فيعاينون ما يظهر عليه من الآيات ﴿فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ لا ينتهون ولا يتوبون من نفاقهم ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ ولا يعتبرون (أقول: هذه الأوصاف توجد في المسلمين مع وجود إيمانهم، لكن منهم من يتوب ويرجع ومنهم من لا يتوب ولا يرجع).

(١٢٧) ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ تغامزوا بالعيون إنكاراً لها وسخرية، أو غيظاً لما فيها من عيوبهم ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي: يقولون هل يراكم أحد إن قمتم من حضرة الرسول ﷺ، فإن لم يرهم أحد قاموا، وإن رآهم أحد أقاموا ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ﴾ عن حضرته مخافة الفضيحة ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الإيمان. وهو يحتمل الإخبار والدعاء ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ لسوء فهمهم أو لعدم تدبُّرهم.

(١٢٨) ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم عربي مثلكم ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ شديدٌ شاقٌّ ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ عَنَتكم (أي: مشقتكم) ولقاؤكم المكروه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على إيمانكم وصلاح شأنكم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ والرأفة شدَّة الرحمة.

(١٢٩) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الإيمان بك ﴿فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ فإنه يكفيك معرَّتهم (أي: إيذاءهم) ويعينك عليهم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ المُلك العظيم، أو الجسم العظيم المحيط، الذي تنزل منه الأحكام والمقادير. والله تعالى أعلم.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة التوبة

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين